تدبُّر

العيئـــة العالـــمية
لتدبـــر القـرآن الكريم

210 مجلسًا في التدبُّر

إعداد اللجنة العلمية

210
مجلسًا في التدبر

210
MECLİS Fİ EL-TEDEBÜR
GLOBAL COMMİTTEE FOR
QURANİC REFLECTİON
1. Baskı: İstanbul
2026 - 1447

تدبُّر

الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم

210 مجلسًا في التدبر

إعداد اللجنة العلمية

مكتبة الأسرة العربية®
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

210

مجلسًا في التدبر

إعداد اللجنة العلمية

القياس: 17 X 24 سم
عدد الصفحات: 664 ص
ISBN: 978-625-5521-69-9
الطبعة الأولى
١٤٤٧هـ - ٢٠٢٦م

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم
22762 Doha,Qatar
+974 44181826
tadabborq@gmail.com

مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة
طباعة - نشر - توزيع
www.ArabFamilyBS.com
info@ArabFamilyBS.com
سوريا ـ دمشق +963 933 564 566
تركيا ـ اسطنبول +90 552 888 59 99

UFUK neşriyat.®
BASIN-YAYIN-DAĞITIM
Sertifika No: 65276

UFUK NEŞRİYATIN.® TÜRKİYE BASIM YAYIN MESLEK BİRLİĞİ ÜYESİDİR.

Baskı Cilt: Enes Basın Matbaacılık Ltd. Şti. Litros Yolu Fatih San. Sit. No: 12/210 - Topkapı / İstanbul

مقدمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أكرمنا بنزول القرآن، ومَنَّ علينا ببعثة سيد ولد عدنان، وصلَّى الله على مَن كان خُلُقه القرآن، فزكَّاهُ وربَّاه بـ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القَلَم: ٤] وربَّى أصحابَه بمُدارسة آياته في مجالس الذِّكر والقرآن، ففتح اللهُ به قلوباً غُلْفاً، وأعيناً عُمياً، وأُذناً صمَّاً، وسلَّم تسليماً كثيراً ما تردَّدت على الألسن آيات الرَّحمن، وتُليت في المحاريب هدايات الفرقان، أما بعد:

ففي صحيح مسلم من طريق الأغر أبي مسلم، أنه قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهما شهدا على النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرَّحمة، ونزلت عليهم السَّكينة، وذكرهم الله فيمن عنده**»(١).

فهذه بشارة نبويَّة، تستحق من أتباعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتنادوا لنيل هذه الثمرات الأربع العظيمة، التي تعادل الواحدة منها الدنيا وما فيها، فكيف بها مجتمعة لمن حقق هذا المعنى: تلاوة كتاب الله وتدارس معانيه، وقد كان جبريل عليه السَّلام يلقى النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رمضان (فيدارسه القرآن).

ورغبة في التَّعاون على إحياء هذه المجالس في المساجد والبيوت، جاءت فكرة (مجالس تدبُّر القرآن)؛ لتكون امتدادًا لبقيَّة الإصدارات العلميَّة والتَّربويَّة التي سبق نشرها، وتهدف إلى تحقيق رؤيتنا -أن يتدبرَ القرآن كلُّ من يقرؤه- في هذا المشروع العظيم.

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٠٠).

فهذه سلسلة جديدة تحمل اسمًا نتمنى انتشاره حسًا ومعنىً في أصقاع الدنيا، إنَّها (سلسلة مجالس تدبُّر القرآن) حيث نرجو الله تبارك وتعالى أن تُحقق أهدافًا منها:

- أن تكون معينة للإمام في مسجده وللخطيب في منبره، في تناول بعض القضايا المهمة -التي يحتاجها النّاس- من منظور تدبُّري، وَفق أصول علميَّة للتدبُّر.

- أن تكون مادة مناسبة للمجالس التي يعقدها عددٌ كبيرٌ من الآباء مع أزواجهم وأولادهم في بيوتهم، سواء في رمضان أو غيره، تأسيًا بهدي القرآن الذي تربى عليه أمهات المؤمنين: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ [الأَحۡزَاب: ٣٤].

- أن تكون عونًا لمن أحبَّ أن يقرأ مادةً مختصرةً في المنتديات أو المجالس أو الاجتماعات العائليَّة.

كما نلفت عناية القارئ الكريم إلى عدة أمور:

أولًا: أن طبيعة هذه المجالس لا ترتبط بموسمٍ معينٍ، ولا موضوعٍ محددٍ، بل ستكون منوعةً بتنوع موضوعات القرآن الكريم، وسيكون التَّركيز على ما يمسّ بشكل مباشر عموم المسلمين من جهة مناسباتهم الشرعيَّة، أو مشاكلهم الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة، ومحاولة علاجها في ضوء القرآن الكريم، وفق منهجٍ علميٍّ سليم.

ثانيًا: سيلحظ القارئ الكريم أنّ هذه المجالس مختصرةٌ في مادتها - على تفاوتٍ نسبيٍّ في طولها وقصرها- متنوعةٌ في مضامينها. وهذا التَّنوع يعود إلى منهج القرآن في تنوع موضوعاته، واختلاف أساليبه في بناء القيم، وتصحيح الأخطاء.

ثالثًا: اجتهدنا في ترتيب هذه المجالس على النحو الذي يراه القارئ الكريم، مع يقيننا بأنَّ غيرنا قد يرى ترتيباً آخر أجود منه، والخطب في هذا يسير إن شاء الله.

ختامًا: إننا لندعو إخواننا وأخواتنا الكرام -الذين شرفونا باقتناء هذا الكتاب أو غيره من كتب (تدبُّر)- ألا يبخلوا علينا بآرائهم واقتراحاتهم، ولهم منَّا وافر الدعاء، ومن الله جزيل الأجر والثواب.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مَجَالس عِلْمِيَّة وَإِيمَانِيَّة

إعدادُ اللَّجْنَةِ العِلْمِيَّة بالهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم

المجلسُ الأوَّلُ
أفلا نتدبَّرُ القرآن![1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فكثيراً ما تعرض لنا مشكلاتٌ ومعضلاتٌ، وطريقُ كشفها وعلاجُها في القرآن.

اتَّصل أحدُ الإخوة ممن يُعالج بالرُّقيَّة، وقال: إنِّي سمعت أحدَ طلابِ العلمِ يقول: إنَّ مَن واجهته المشكلاتُ، فعليه بتدبُّر أولِ سورة الطّلاق: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطَّلَاق: ٢-٣].

يقول: فبدأتُ أصفُها للنَّاس بعد أن أرقيهم، وأقول لهم: تدبَّروها وطبِّقوها.

يقول: فاتّصل بي خلال أيام قلائل ثلاثةُ أشخاص، وقالوا: والله لقد تغيَّرت حياتنا، وقد ذهب ما نشكو، ولله الحمد!

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [مُحَمَّد: ٢٤].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النِّسَاء: ٨٢].

﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المُؤْمِنُون: ٦٨].

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩].

نقف مع هذه الآيات؛ لنتدبَّر كلامَ الله جلّ وعلا، ونقف مع دلالاته ومعانيه!

---

(١) للأستاذ الدكتور ناصر بن سليمان العمر.

وإنّ ممّا يَسُرّ ويُفرِحُ القلب الإقبالَ الكبير على تلاوة القرآن، وفي شهر رمضان بالذات، ولكن؛ أهذا الإقبال على القرآن بألسنتِهم أم بقلوبهم؟!

لنتأمل في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [البَقَرَة: ٩٧]. فلم يقل (فإنَّه نزَّلَه على سمعِك)، ولا على بصرِك، ولكن على قلبك!

فلنواجه أنفسنا بهذا السّؤال: هل تتجاوز الآيات -التي نتلوها ونسمعها- أسماعَنا وأبصارَنا وألسنَتنا، إلى قلوبنا؟

هذا هو الأمل المرتجى، وبه نجتني ثمراتِ القرآن، ذلك الكتاب العزيز الذي جعله الله نوراً للقلوب، وهدايةً للبشريَّة:

نـــورٌ عـــلى مـــرِّ الزَّمـــانِ تألَّقـــا ... وأضـــاءَ للدُّنيـــا طريقـــاً مشرقـــاً
وهـــدىً مـــن الرَّحمـــن يهدينـــا بـــه ... للصَّالحـــاتِ وللمـــكارمِ والتُّقـــى
هـــذا كتـــابُ الله زادُ قلوبِنـــا ... وشـــفاؤنا مـــن كلِّ داءٍ أرهقـــا
هـــذا هـــو القـــرآنُ مصـــدرُ عزِّنـــا ... فيـــه تبوَّأنـــا المـــكانَ الأســـمقا
يـــا حافـــظَ القـــرآنِ لســـتَ بحافـــظٍ ... حتـــى تكـــونَ لمـــا حَفِظـــتَ مطبِّقـــاً

فينبغي أن تكون غايتنا من تلاوة القرآن وسماعه، هي التَّدبُّر، وفرع عنه العمل!

إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ نعى على المنافقين فقال ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [مُحَمَّد: ٢٤]، ونعى على الكفار فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النِّسَاء: ٨٢]، وقال ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المُؤْمِنُون ٦٨]؟!

فهذا استفهام إنكاري، ومعناه: لو كانوا يتدبَّرون القرآن، لما وقعوا فيما هم واقعون فيه من الضلال، فإذا كان القرآن ينعى على الكفار والمنافقين عدم تدبُّرهم للقرآن، فعوام المسلمين ليسوا أقل من الكفار والمنافقين فهماً وقدرة على التَّدبُّر؟!

إذاً، التَّدبر يكون للكبير والصَّغير، للذَّكر وللأنثى، للعالِم وللعامي، فكل من يفهم لغة الخطاب ثم يقرأ آياتِ وعدٍ أو وعيدٍ يفهم إلى ما ترمي إجمالاً، وإن لم يُدرك معاني بعض الألفاظ، أو تفاصيل ما تضمنته من الأحكام، فإنْ هو انزجر للزواجر عند سماع آياتِ الوعيد، وانبعث لفعل الخيرات والفضائل عند سماع آيات الوعد، فله من التَّدبُّر حظٌّ وقدرٌ يُحمَد عليه بحسبه.

وحقيقة التَّدبر: هو النَّظَرُ والتَّفكر المؤدي للعيش مع دلالات القرآن، فإنَّ القرآن مقاصدُه جليَّةٌ، وغاياتُه واضحةٌ، بدءاً من تقرير التَّوحيد ونبذ الشرك، إلى آخر خصلةٍ من خصال الخير، والعكس صحيح!

فهل نحن نتدبُّر القرآن عند تلاوتنا له وسماعنا إيَّاه، أم أنَّ حالَنا قد صارت كحال بعض أهل الكتاب الذين قال الله فيهم: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [البَقَرَة: ٧٨] أي: أحاديث يقولونها ويكذبون فيها، كما ذكر المفسرون[1].

اتّصل عليّ أحد الإخوة في يوم ما، وقال لي: أمامي مشكلةٌ كبرى في حياتي، أنا على مُفترق طرق، أنقِذْني، ساعدني!

فقلت له: اقرأ هذه الآية وتدبَّرها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفَال: ٢٩]. فما هي إلا لحظات ويُرسل لي رسالة عجيبة، قال فيها: سبحان الله النور بين يدي ولم أنتبه له!

أنا أحفظ أكثر القرآن، ومنه هذه السّورة سورة الأنفال، فكأني لأول مرة أقرؤها!

فقلت له: هل تحتاج إلى أحد بعد هذه الآية؟

(١) انظر تفسير ابن جرير: ١٥٧/ ٢، وفي معنى الآية أقوال.

فرد علي: لا والله، لا أحتاج إلى أحد بعدها، والله إنّي أعيش أسعد أيام حياتي!

أيها المؤمنون: إن تدبُّرَ القرآن ضرورةٌ؛ لأنَّه مصدرُ عزِّنا، ولأنَّه منهجُ النَّبيِّ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكما قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنه: (لن يَصلُحَ آخرُ هذه الأمة، إلا بما صلحَ به أوَّلُها)[1]..، وهل صلح أوَّلها إلا بالكتاب والسُّنة، فالتَّدبر في معانيهما هو السَّبيل للإصلاح بهما، وهو السَّبيل لربط واقع الأمة بالكتاب والسُّنة؟! وكما يقول الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تركْتُ فِيكُمْ أمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ الله وسنَّةَ نبيه»[2].

ولا تمسُّك بلا فهم وتدبُّر وهما سبيل الفقه في الدين، وقد دعا النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن يُعلمه التَّأويل، وأن يُفقهه في الدِّين[3]، فكان حبرَ الأمَّةِ وترجمانَ القرآن!

وقد ثبت في الصحيح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «مَن يُرِدِ الله به خيراً يُفَقِّهْهُ في الدِّين»[4].
وتدبُّرُ القرآن من أعظمِ سبلِ الفقهِ في الدين.

ولنتأمل -أيها المؤمنون- هذه الآيات جيداً، يقول الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرَّعْد: ٢٨]، ويقول: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هُود: ١٢٠]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإِسْرَاء: ٨٢]!

---

(١) ذكر القاضي عياض في كتاب (الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٨٨/ ٢) نصاً للإمام مالك نقله من كتاب (المبسوط) للقاضي إسماعيل بن إسحاق الجهضمي المالكي (ت ٢٨٢هـ)، يتضمن هذه العبارة بهذه الصيغة (ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها).
(٢) الموطأ (٣٣٣٨).
(٣) صح ذلك في مسند أحمد (٣٠٣٣) وغيره.
(٤) متفق عليه: البخاري (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧).

ووالله لن تتحقق هذه الطّمأنينة وهذا التَّثبيت وهذه الرَّحمة وهذا الشِّفاء، إلا بالاستماع والإنصات والتَّدبُّر: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأَعْرَاف: ٢٠٤].

وتدبُّر القرآن من أعظم الوسائل في بيان الفرقان بين الحق والباطل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأَنفَال: ٢٩].

ثم أين نحن من نداء الرّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لربه، وشكواه: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفُرْقَان: ٣٠]، وهذا وإن كان في المشركين المكذِّبين، غير أنه يعرِّض بمن أعرض عن تدبُّر القرآن في هذه الأمة!

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ من هَجْر القرآن: هجر تدبُّره، وهجر الاستشفاء به[(١)].

فيا أيُّها المؤمنُ المحبُّ لكتابِ ربِّه، إن أردتَّ التَّنعُّم بالتَّدبر، فاحذر من العجلةِ في التَّلاوة، وقد قال بعض السَّلف: كيف يرقُّ قلبُك، وأنت همَّتُك في آخرِ السُّورةِ!

فعليك أن تتدبَّر القرآنَ عند قراءتك له، وأن تترسَّلَ، وأن تخشعَ، وتخضع! وهكذا كان النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا سيما حينما يلقاه جبريل في رمضان فيدارسه القرآنَ[(٢)].

وفي الصحيح: «**وما اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بيوتِ الله، يتلونَ كتابَ اللهِ ويتدارسونَه بينهم، إلا نزلتْ عليهمُ السَّكينةُ، وغشيتْهمُ الرَّحمةُ وحفَّتهمُ الملائكةُ، وذكرَهمُ اللهُ فيمَن عنده**»[(٣)].

---

(١) الفوائد: ص ٨٢.

(٢) صحيح البخاري (٦).

(٣) صحيح مسلم (٢٦٩٩).

فتدبَّروا القرآن وتدارسوه بينكم، فتلك سنَّةُ نبيِّكم!!

اللهم اجعلنا لكتابك من التَّالين، وبه من العاملين، ولآياته من المتدبِّرين، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلسُ الثَّاني
القرآن من دلائل صدقِ النُّبوة

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فإنَّ أعداءَ الإسلام لما رأوا قوةَ هذا الدِّين، وصدق رسوله، وعظيم آياته التي جاء بها من عند الله -وهي القرآن الكريم-، سلكوا في سبيل الصَّدِّ عنه أساليبَ شتى، وألواناً من الغزو الفكري، بغيَة التَّشكيك في الرَّسول والرِّسالة.

وهذا التَّشكيكُ والتَّشويشُ ليس جديداً، بل هو قديمٌ قدمَ الرِّسالةِ، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [فُصِّلَت: ٢٦].

ولقد كان تدبُّر العلماء لهذا القرآن العظيم، من أعظم الأسلحة التي قاوموا بها تشكيكَ المشكِّكين، وتشويشَ المغرضين، وانتقاصَ الجاهلين لمقامِ رسول ربِّ العالمين، وعلى رأس أولئك العلماء الصَّحابة رضوان الله عليهم.

ومن ذلك أنَّهم رأوا أنَّ ثمةَ آياتٍ لا يمكن أن ينقلَها إلا صادقٌ؛ لأنَّها تتضمنُ عتاباً إلهياً له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبهذا استدلتْ أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا على ذلك، فقالت: ولو كان محمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كاتماً شيئاً مما أُنزل عليه لكتمَ هذه الآية.

﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ ﴾ [الأَحۡزَاب: ٣٧][1].

ومن تلك الدلائل التي تزيد المؤمنَ يقيناً، تدبُّر بعضِ الأحداثِ التي نزل فيها القرآن، ومن ذلك[2]:

---

(١) رواه مسلم (١٧٧).

(٢) من كتاب (النبأ العظيم) للشيخ عبد الله دراز رحمه الله ص (٢٠- ٢٨) بتصرف واختصار يسيرين.

١ - في قصة الإفك:

ألم يرجفِ المنافقون بحديث الإفكِ عن زوجه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأبطأ الوحي، وطالَ الأمرُ والنَّاسُ يخوضون، حتى بلغتِ القلوبُ الحناجرَ، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يستطيعُ إلا أن يقول بكل تحفُّظ واحتراس: «**إني لا أعلم عنها إلا خيراً**»[(١)]، ثم إنَّه بعد أن بذل جهدَه في التَّحري والسُّؤال واستشارة الأصحاب، ومضى شهر بأكمله والكل يقولون: ما علمنا عليها من سوء، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر: «**يا عائشةُ، أمَا إنَّهُ بَلَغَني كذا وكذا، فَإنْ كنت بريئةً فسيبرِّئك الله، وإن كنت ألممتِ بذنبٍ فاستغفري الله**»[(٢)].

هذا كلامه بوحي ضميرِه، وهو كما ترى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصديق المتثبت الذي لا يتَّبع الظَّنَّ، ولا يقول ما ليس له به علمٌ على أنَّه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزلَ صدرُ سورة النور معلناً براءتها، ومصدراً الحكمَ المبرَمَ بشرفِها وطهارتِها.

والسُّؤال -أيها المؤمنون-: ماذا كان يمنعه لو أنَّ أمرَ القرآن إليه أن يتقوَّل هذه الكلمة الحاسمة من قبل؛ ليحمي بها عرضه، ويذبَّ بها عن عرينه، وينسبها إلى الوحي السَّماوي، لتنقطعَ ألسنةُ المتخرِّصين؟! ولكنه ما كان ليذرَ الكذبَ على النَّاس ويكذب على الله: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحَاقَّة: ٤٤ - ٤٧].

٢- ومن المواضع التي ردّ بها العلماءُ على المشكِّكين في صحة هذا القرآن:

مخالفةُ القرآنِ لطبعِ الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعتابُه الشديدُ له في المسائل المباحة.

(١) البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).
(٢) المصدر السّابق.

وأخرى كان يجيئه القولُ فيها على غيرِ ما يحبُّه ويهواه، فيخطِّئه في الرَّأي يراه، ويأذن له في الشيءِ لا يميلُ إليه، فإذا تلبَّثَ فيه يسيراً تلقاه القرآن بالعتابِ القاسي والنَّقد المرِّ، حتى في أقلِ الأشياء خطراً، فتأملوا هذه الآيات: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التَّحْرِيم: ١]. ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأَحْزَاب: ٣٧]، ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [التَّوْبَة: ٤٣]، ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التَّوْبَة: ١١٣]، ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأَنفَال: ٦٧ - ٦٨]، ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [عَبَس: ٥ - ١٠].

أرأيت لو كانت هذه التَّقريعاتُ المؤلمةُ صادرةً عن وجدانِه، معبرةً عن ندمِهِ ووخْزِ ضميره؛ حين بدا له خلافُ ما فرَّط من رأيه، أكان يُعلنُها عن نفسه بهذا التَّهويلِ والتَّشنيع؟! ألم يكن له في السُّكوتِ عنها سترٌ على نفسه، واستبقاء لحرمة آرائه؟ بلى، إنَّ هذا القرآن لو كان يفيضُ عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتمَ شيئاً من ذلك الوجدان، ولو كان كاتماً شيئاً لكتم أمثال هذه الآيات، ولكنَّه الوحي لا يستطيع كتمانه ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ [التَّكْوِير: ٢٤] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وتأمَّل آية الأنفال المذكورة ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ... ﴾ الآية تجدُ فيها ظاهرةً عجيبةً، فإنها لم تنزل إلا بعد إطلاقِ أسارى بدر، وقبولِ الفداء منهم، وقد بُدِئت بالتَّخطئةِ والاستنكارِ لهذه الفعلة، ثم لم تلبث أن ختمتْ بإقرارها وتطييب النُّفوس بها، بل صارت هذه السَّابقةُ التي وقعَ التَّأنيبُ عليها هي القاعدةُ لما جاء بعدها،

فهل الحال النَّفسيَّة التي يصدر عنها أول هذا الكلام -لو كان عن النفس مصدره- يمكن أن يصدرُ عنها آخرها؟ ولّما تمضِ بينهما فترةٌ تفصلُ بين زمجرةِ الغضبِ والندمِ، وبين ابتسامةِ الرِّضا والاستحسان؟ كلا[1].

وهكذا كلما دَرَسْتَ مواقفَ الرَّسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من القرآن في هذه المواطنِ أو غيرها، تجلَّى لك فيها معنى العبوديَّةِ الخاضعةِ، ومعنى البشريَّة الرَّحيمةِ الرَّقيقة؛ وتجلَّى لك في مقابل ذلك من جانب القرآن، معنى القوةِ التي لا تتحكَّم فيها البواعثُ والأغراض، بل تصدع بالبيانِ فُرقاناً بين الحقِّ والباطل، وميزاناً للخبيثِ والطَّيب، أحَبَّ الناسُ أم كرهوا، ورضوا أم سخطوا، آمنوا أم كفروا؛ إذ لا تزيدها طاعة الطّائعين، ولا تنقصها معصيَةُ العاصين. فترى بين المقامين ما بينهما. وشتَّان ما بين سيِّد ومسود، وعابد ومعبود.

فاحمدوا الله تعالى -أيها المؤمنون- الذي هداكم لاتباع هذا النَّبيِّ الكريم، الذي تطابقت الأدلة على صدقه في نفسه، وصدقه فيما بلغ عن ربه.

اللهم فكما هديتنا لدينه، فثبِّتنا عليه حتى نلقاك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) وأنت لو نظرت في هذه المواقف التي عوتب فيها النَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لوجدتها تنحصر في شيء واحد، وهو أنه عليه الصلاة والسّلام كان إذا ترجح بين أمرين ولم يجد فيهما أنما اختار أقربهما إلى رحمة أهله، وهداية قومه، وتأليف خصمه، وأبعدَهما عن الغلظة والجفاء، وعن إثارة الشُبه في دين الله، لم يكن بين يديه نص فخالفه كفاحاً، أو جاوزه خطأ ونسياناً، بل هو مجتهد، بذل وسعه في النظر، ورأى نفسه مخيراً فتخير، هبه مجتهداً أخطأ باختيار خلاف الأفضل، أليس معذوراً ومأجوراً؟ على أن الذي اختاره كان هو خير ما يختاره ذو حكمة بشريَّة، وإنما نبهه القرآن إلى ما هو أرجح في ميزان الحكمة الإلهيَّة، هل تُرى في ذلك ذنباً يستوجب عند العقل هذا التَّأنيب والتَّثريب؟ أم هو مقام الرّبوبيَّة ومقام العبوديَّة، وسنة العروج بالحبيب في معارج التَّعليم والتَّأديب؟!

المجلسُ الثَّالثُ
من أسرارِ الاستعاذةِ[1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فإنَّ الله تعالى شرع لعبادِه أن يستعيذوا عند إرادة البدء بتلاوة هذا القرآنِ العظيمِ، فقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النَّحل: ٩٨]!

فدعونا -أيُّها المؤمنون- نتأملْ في بعض أسرار هذا الأمر الإلهي!

إنَّ العبدَ عندما يستفتحُ لحظاتِ الاستدرارِ لنور اللهِ العظيم، تلاوةً لكتابه الكريمِ، فإنَّه يخشى أن يسطوَ الشيطانُ على قناةِ الاتّصالِ بوجدانِهِ فيجعلَه من الغافلين!

والشَّيطانُ: كلُّ متمرِّد على الله من الجنِّ والإنس، وإبليس اللَّعين رأسُ الشَّياطين في العالمين، وهو عدوٌّ مبينٌ! فقد تعهَّدَ لربِّ العالمين بإفسادِ الأرض وإضلالِ أهلِها أجمعين! ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحِجْر: ٣٩ - ٤٢].

وقد طَرَدَ اللهُ -جَلَّ جلاله- إبليسَ من سماواته، ورجمَه بالشُّهبِ الثَّواقبِ! فتَفَرَّغ اللَّعينُ لهذا الكيدِ العظيم! لا يدعُ للخيرِ بداية إلا أرْبَكَها بقاصفِ الوساوسِ ونيرانِ الفتنِ! فَجَعَلَ الرّحمن (الاستعاذة) لعبادِهِ المؤمنين نجاةً وأماناً من كل شيطانٍ رجيمٍ. وماذا أعظم من جوارِ اللهِ الواحدِ القهارِ سلاماً للمؤمنين؟

(١) مجالس القرآن، للدكتور فريد الأنصاري ص (١١٩) وما بعدها، بتصرف يسير.

ومن هنا كانت صيغةُ الاستعاذةِ راجعةً إلى معنى قول القائل: أستجيرُ بالله وحدَه من الشَّيطانِ الملعونِ المطرودِ من رحمةِ اللهِ، وأعتصمُ به تعالى من أنْ يَضُرَّني في ديني، أو يَصُدَّني عن حقٍّ من حقوقِ ربّي!

فإذا قالها الإنسان بين يدي تلاوةٍ أو صلاةٍ أو نحو هذا، استحضر دلالةَ الاستعاذة قبل بدءِ ذاك العملِ، واجتهدَ في تطهيرِ مداخلِ نفسِه تطهيراً من كلِّ طرْقٍ شيطانيٍّ خفيٍّ، مستجيراً بربّه القويّ العزيز: (أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم) فتولّي الشَّياطينُ الأدبارَ هاربةً في متاهاتِ ضلالِها، وظلماتِ كيدِها، بعيدة عن شلالِ النُّورِ الذي تدفَّق على القارئِ بمجرَّدِ طلبِ الغوثِ والأمانِ من رب العالمين!

والاستعاذةُ بهذه الصِّيغةِ ليست آية من كتابِ الله، لكنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقرؤها؛ استجابةً لأمرِ الله تعالى في القرآن: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النَّحل: ٩٨] فهي أمرٌ ربَّانيٌّ وسنَّةٌ نبويَّةٌ.

وهذه الآية مع الصِّيغةِ النَّبويَّة في الاستعاذة، كلاهما متضمنٌ لخمسِ رسالاتٍ، لا بدَّ للسَّائرِ إلى الله -جَلَّ ثناؤه- عَبْرَ مِعْرَاجِ القرآنِ الكريم من تلقِّيها جميعاً، الواحدة تلو الأخرى، وإلا فلا وصولَ ولا قبول:

- الرِّسالةُ الأولى:

أنه لا بدءَ في طريقِ اللهِ، ولا فتحَ للعبدِ الطَّارِقِ أبواب مَعَارِجِ القرآنِ؛ إلا بإعلانِ الولاءِ للهِ الحقِّ، والانتظامِ في صفِّ العابدين له وحده دون سواه! وإعلانِ معاداة الشيطانِ بما هو عدوٌّ لله ربِّ العالمين، والتَّبرؤِ منه ومِن حزبِه وأتباعِهِ! وإنَّما الاستعاذةُ فتحُ عينِ القلبِ على بصيرةٍ قرآنيَّةٍ عُظمى، لا يجوز نسيانُها أبداً! هي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فَاطِر: ٦].

إنَّ الاستعاذةَ ليست مجرَّد عباراتٍ تُلْقَى في الهواء فحسب، ولكنها اتِّخاذ موقف! فَتدبَّر!

- الرّسالة الثَّانية:

في أنَّه لا قوَّةَ للعبد على الانطلاقِ وبدءِ السّيرِ إلى اللهِ والتَّعرف إليه تعالى إلا بالاحتماء به، والالتَّجاء إليه ابتداء! فلا وصولَ إليه بمجرَّدِ الجهدِ الخاصِ والكسبِ الذاتي، بل لا بدَّ من استدرارِ توفيقِه ورحمتِه، فالهداية والتَّوفيق والسّداد، كل ذلك إنَّما هو بيده وحده جل علاه! وذلك من صميم التَّوحيد والإخلاص.

وتحقيق معنى الاستعاذة في النفس تخلُّقٌ عميقٌ بهذا المعنى العظيم، ولا صحةَ لعملٍ -من حيث القصد التَّعبديّ الخالص- إلا باستدراجِ هذا الأصلِ الإيماني في عمقِ القلب، نيَّةً تعبديَّة خالصةً، لتخليصِ العمل وتصفيته من كل مَنّ، ومن كُلِّ حول وقوة، إلا ما كان بالله وله، وحده دون سواه!

- الرِّسالة الثَّالثة:

في أنّ التَّعبدَ بالقرآن تلاوةً وتزكيةً، وتعلُّماً وتعليماً، لن يؤتيَ ثمارَه، ولن يكشف عن أنواره لعبدٍ؛ إلا إذا تبرَّأ من كلِّ حولٍ وقوَّةٍ، وقدَّم بين يدي تلاوتِه علامةَ الافتقارِ إلى الله الغني الحميد، وهي الاستعاذة، ولذلك ليس كلُّ قارئٍ للقرآن بقارئٍ، ولا كلُّ تالٍ له بتال! وإنَّما القارئُ والتَّالي له هو مَن يتلوه حقَّ تلاوته.

والتَّحقُّقُ بمقاصدِ الاستعاذةِ شرطٌ من شروطِ التَّلاوة الحقّ! فمَن أخطأ حقيقتَها أو استهانَ بها عُدِمَ الثَّمرة، وحُرِمَ النُّور! فكم من قارئٍ يقرأ القرآن وهو عليه عمى! والعياذ بالله ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فُصِّلَت: ٤٤].

- الرِّسالة الرَّابعة:

في أنَّ الشَّيطانَ قد يتدخَّل فيما يقع بقلب العبد من آثار التِّلاوة - وهو من أشدِّ الكيد- فيفسدُ الفهم، أو يُفسدُ نيَّةَ الافتقارِ والتَّعبُّد عند التَّلقي عن الله، أو يصرفُ البالَ عن مشاهدةِ نورِ الهداية؛ فلا يخرجُ العبد من تلاوته بشيءٍ، وربَّما خرجَ بضلالٍ وحيرةٍ، والعياذ بالله، كما حصل لأهلِ الضَّلالةِ قديماً وحديثاً عند قراءة القرآن! وذلك نحو ما في قوله ﷺ: «سيخرج في آخرِ الزمان قومٌ أحداثُ الأسنان، سفهاءُ الأحلام، يقولون من خيرِ قول البريَّة، يقرؤون القرآنَ لا يجاوزُ حناجرَهم! يمرقون من الدين كما يمرق السَّهمِ من الرَّميَّة!»[1].

فلا ينجو المؤمنُ من هذا وذاك إلا بطلبِ الغوثِ من الله استعاذةً به تعالى؛ لتصلَ رسالات القرآن إلى قلبه صافيةً خالصةً! لا أثر فيها لإلقاءاتِ الشيطان فهماً وقصداً.

- الرِّسالة الخامسة:

في أنَّ العبدَ المستجيرَ آمنٌ من كلِّ ذلك وغيره بإذن الله؛ لأنَّه استجارَ بعظيم! وهو -جلَّ وعلا- لا يُضَامُ جَارُه!

فالهدى المستنبَط من (الاستعاذةِ) راجعٌ إلى كونها تعبيراً عن وصفٍ نفسيٍّ، ووجدانٍ إيماني، يقع بقلبِ العبدِ قبل أن يقع بلسانه، والتَّحققُ به هو أوَّلُ الطَّريق، وتلك المنزلةُ الأولى من منازلِ الإيمانِ، لمن رامَ الإقلاعَ في أوَّلِ طريقِ التَّعرُّفِ إلى الله.

إنها كلمةُ الأدب بإعلانِ الافتقارِ الكاملِ إلى الله الغنيِّ الحميدِ جلَّ علاه، والتَّبرؤُ من كلِّ حولٍ وقوَّةٍ في العلم والعمل، إلا ما كان منَّاً كريماً وفضلاً جميلاً من الله وحده، فلا انطلاقَ بغير التَّخلُّقِ بوصفِها والتَّحقُّق بمقامِها، فإن تَفْعَلْ بصدقٍ وإخلاصٍ فأبشرْ! إنَّك آمنٌ بإذن الله، محروسٌ بجنوده جلَّ علاه، فانْعَم مطمئناً بجوارِه تعالى وحماه!

(١) رواه البخاري (٦٩٣٠)، مسلم (١٠٦٦).

أما كيف تحقَّقَ أثرُ هذه الاستعاذةِ عملياً؟

فإنَّ البداية تكون من مساءلةِ النَّفسِ بصدقٍ: ماذا تريد؟ ماذا تريد بما هي مقبلةٌ عليه من قراءةٍ أو عبادةٍ؟ أحقّاً تريدُ الوصولَ إلى الله؟ أحَقّاً تريد القيام بحقِّه العظيم جلّ علاه؟ والدُّخول في القيام بوظيفةِ الخدمة لدينِه؟ وحمل ميثاقِ عهدِه وأمانتِه، وتلقِّي رسالاتِ هديه وقرآنه؟ واستدرار مددِه وأنوارِه؟ أم أنَّها تُقرأ وكفى؟! بلا قصدٍ تعبُّديٍّ، إلا قَصْدَ التَّعَوُّدِ والتَّسميعِ، وما دون ذلك من مبطلاتِ الأعمال ومحيطاتها؟!

حتى إذا صارتْ لك حقائقُ الاستعاذةِ الإيمانيَّةِ خُلُقاً وطبعاً، أصبح معناها بقلبك زاداً إيمانياً، تجده جاهزاً -إن شاء الله- متى استدعيته بقراءتها، عند كلِّ تلاوة، وعند كلِّ تصرّف تعبّدي أنّى كان، فأبشر!

ثم إنَّ أوَّل ما يبعث النَّفسَ على الانطلاق السَّليم -بعد ذلك- هو تخليصُ الوُجهةِ وتوحيدُ القبلة!

ومما يعين على ذلك: تذكُّر أحوال السَّابقين الأولين كيف سبقوا؟! ومشاهدة غبطة الواصلين الصَّادقين كيف وصلوا؟! لقد قرؤوا القرآنَ بكمالِ الافتقارِ إلى اللهِ وتلقِّي رسالاته هدىً وشفاءً لقلوبهم؛ فانفتحت لهم معارجُ الرُّوح، وارتقوا في الدُّنيا وفي الآخرة! وتلك معارجُهم لم تزل مفتوحةَ الأبوابِ؛ فاقرأ يا صاحِ وارتق!

فيا نفسيَ المغرورة.. إلى متى تبقين هكذا شاردةً عن باب الله؟ إلى متى وأنت تستجيبين لأهوائك؟ تفرِّين إلى شهواتك وملذاتك؟ وتَتَلفعين بذاتك وأنانيتك؟ وما أنت إلا قطرةٌ من روحٍ في جرَّةٍ من طين! متى انكسرت سالت! آه يا نفس! هذه مَسامُكِ الصَّغيرة تتسع من حين لآخر؛ فيتسرب منها الشيطان إلى نفسِك ليعيثَ فساداً داخل خواطرك وأشواقك! فيحولُ دون انطلاق الرُّوح في رحلة السَّير الكوني إلى الله!

عجباً كيف تصبرين على هذه الحال! وها كلُّ الطُّيور قد أعلنت توبتَها، وانطلقتْ تضربُ بأجنحتِها بعيداً في رحلة المحبين؟! ففرِّي إلى اللهِ مستعيذةً بالله، وأعلني الافتقارَ الكاملَ له وحده جلَّ علاه؛ عسى أن تكوني من أهل النَّجاة والفتحِ المبينِ، ذلك قول الحق ذي القوة المتين: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذَّارِيَات: ٥٠]. واجأري إلى مولاك باستغاثة الفقراء الصادقين: (أعوذُ باللهِ من الشَّيطانِ الرَّجيم).

اللهم أعذنا منَ الشَّيطان الرَّجيم، ومن كلِّ ما يحول بيننا وبين فهمِ كتابك العظيم.

اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الرّابع

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فإنَّ سورة الفاتحة أعظمُ سورة في القرآن، وأجمعُ آياتِ هذه السُّورة لمعاني الدِّينِ وحقائق الملَّة قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، إذ يعترفُ العبدُ عند تلاوتها بأمرين عظيمين:

الأوّل: أنّه عبدٌ لله، لا يعبدُ أحداً سواه، ولا يتوجَّه برغبته ورهبته ومحبّته ورجائه وصلاته ونسكه وجميع عباداته إلا لله وحده، لا يشركُ به شيئاً.

والثاني: أنَّه لا يستعينُ على قضاءِ حوائجه، وكَشْفِ كُربه وتفريج همومه، وإجابةِ دعائه، وتحقيقِ آماله ورفعِ آلامه، إلا بالله، فهو القادر وحدَه على كلِّ شيء، وهو المستعان على كلِّ شأن، وهو بهذا يعترفُ لربِّه بالقوَّةِ المطلقةِ والقدرةِ التَّامة، والعلمِ الكامل والرَّحمة الواسعة والرُّبوبيَّة الشَّاملة، والفضلِ والملكِ والإنعامِ، جل جلاله وتقدَّست أسماؤه.

وهذه الآية على قلَّةِ ألفاظها، فإنَّها تضمَّنت معانيَ جليلةً وحقائقَ عاليةً، تستحق أن يتوقف المسلمُ عندها ملياً.

فمن ذلك: أنَّ العبادة قُدّمت فيها على الاستعانة؛ لأنَّ العبادةَ حقُّ الله، والاستعانةَ حقُّ المخلوق، وحقُّ الله -بلا شك- مقدَّمٌ على حقِّ المخلوق، وهي بهذا تعلِّمنا الأدبَ مع الله، وتقديمَ حقِّه وأمرِه ونهيه على كلِّ شيء؛ اعترافاً بفضله وألوهيَّته، وإجلالاً له وخضعاناً لجنابه.

ومن ذلك: أنَّ الفعلين فيها جاءا بلفظ الجمع (نعبد ونستعين)، ولم يقل (أعبد وأستعين)؛ تذكيراً للمسلم بارتباطه مع الجماعةِ المسلمة، وحرصه على إيجادها، وبُعده عن الفرديَّة والانعزال، إضافةً إلى ما فيها من التَّواضعِ الذي يقتضيه هذا الاعتراف، ذلك أنَّه إذا ذكر عبادتَه مع عبادة الجماعة، واستعانتَه مع استعانتِها ارتفعَ مِن قلبِه الالتفات إلى عبادتِه والعُجب بها، فهو يقولُ بلسان الحال: أنا -يا ربُّ- ليس مني عبادةٌ تستحقُّ أن أعترف بها؛ لكنَّ عبادتي مع إخواني هي محلُّ اعترافي لك وتوسُّلي إليك، فيسقط بذلك رؤيةُ المصلي لعمله، وهذا داعٍ لقَبوله عند ربِّه واستجابة دعائه، فإنه لا يقبلُ عملاً من مُعجَب، ولا يسمع دعاءً من مُتكبِّر.

ومن ذلك أنَّ تقديمَ العبادةِ في الآية على الاستعانة وافقَ قسمة السُّورة المذكور في الحديث القدسي «**قسمتُ الصَّلاةَ بيني وبين عبدي نصفين**»(١).

فالنِّصفُ الأوَّلُ لله، والنِّصفُ الثَّاني للعبدِ، والسُّورة مكوَّنة من سبع آيات، تبدأ على الصَّحيح بقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفَاتِحَة: ٢] فيكون ما لله فيها ثلاثُ آياتٍ ونصف، وما للعبد ثلاثُ آياتٍ ونصف.

ومن ذلك أنَّ الدِّين منقسمٌ إلى قسمين، عبادةٌ واستعانةٌ، ولا يكملُ دينُ امرئٍ حتى يقوم بهما على أكمل الوجوه. فالصَّلاة عبادةٌ واستعانةٌ، وسؤالُ اللهِ ودعاؤه عبادةٌ واستعانة، وأفضلُ الخلق مَن كمَّلهما وقام بهما على أكملِ وجهٍ وأحسنِ حال، وشرُّ الخلقِ من تركَ عبادةَ الله، وتركَ الاستعانة به على قضاءِ الحوائج، وكشف الكُرَب، وتيسير الأمور، وشرح الصدور.

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه (٣٩٥).

هذان صنفان وبقي صنفان:

أولهما: مَن قامَ بالعبوديَّةِ وقصَّر في الاستعانة، وهذا يحصلُ لبعضِ الصَّالحين، فهو يؤدي المأمورات ويتركُ المنهيات، ويفعلُ ذلك بانتظامٍ، لكنَّه مقلٌّ من الاستعانة بالله على قضاء حاجتِه وعبادةِ ربه، وقد حُرِمَ بذلك حظاً عظيماً من الافتقارِ إلى الله، واللجأ إليه، والانطراحِ بين يديه، وعرضِ حاجته على من يفرح بقضائها، ويبتلي عبادَه بأنواع البلاء ليُقبلوا بها على ربِّهم، متضرعةً قلوبُهم، وجلةً أفئدتُهم، فتسكن بمناجاة السَّميع العليم الرَّحيم، تلذُّ بدعائه، وتأنسُ بعرضِ حاجتها عليه.

وهذا الصِّنف يقعُ منه التَّقصيرُ في الاستعانة جهلاً بمقام الاستعانة، الذي لا يكملُ إيمانُ عبدٍ إلا به، وغفلةً عن الاقتداء بالأنبياء الذين يحرصون على الاستعانة بربهم، والالتجاء إليه، ويعرضون حوائجَهم على ربِّهم في كلِّ شؤون حياتهم، لا يقصِّرون في ذلك، وتأمَّل حال كليمِ الرَّحمن، عندما قتل القبطي، وجاء الرَّجل من أقصى المدينة يحذِّره، قال الله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القَصَص: ٢١ - ٢٢].

ثم لَمَّا وَرَدَ ماء مَدين، وسَقَى للفتاتين بلا أجْرٍ: ﴿تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القَصَص: ٢٤].

وهذا سيد ولد آدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما التَّقى الجمعان في بدر، رفع كفيه إلى السَّماء يَسأل ربه ويناجيه، ويدعوه دعاءَ المفتقرِ إلى الفرج من ربِّه الكريم، ويُناشده قائلاً: «**اللَّهم أنجزْ لي ما وعدتْني، اللَّهمَّ إنَّك إن تهلِك هذه العصابةَ من أهلِ الإسلام لا تُعبدُ في الأرض**»[1]، حتى أشْفَقَ أبو بكر عليه مِن شِدَّةِ تَضَرُّعِهِ وقال له: «**يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنَّه سينجز لك ما وَعَدَك**»[2].

(١) رواه مسلم ١٧٦٣.

(٢) المصدر السّابق.

لقد كان هؤلاء الأنبياء قائمين بعبادة ربِّهم على أكملِ الوجوه، ولم يمنعهم ذلك أو يحملهم على ألا يستعينوا بالله، ويلتجئوا إليه في كشفِ الكربِ وقضاءِ الحوائج؛ لعلمهم بأنَّ ذلك من تمامِ العبوديَّةِ، وممَّا يحبه الرّب من عباده.

وثاني الصنفين: مَن يستعينُ بالله في أموره، وتحصيل حاجته ولو كانت محرمةً، لكنه مقصِّرٌ في العبادة، أو تاركٌ لها بالكليَّة، وهذا موجودٌ في بعض العصاة المنحرفين، وعُتاة المجرمين، فتجدُهم يدعون الله كثيراً لقضاءِ حوائجهم -حلالاً كانت أم حراماً- لكنهم لا يرعون أمرَ اللهِ ولا نهيه، ولا يطيعون الله ولا رسوله في قليلٍ أو كثير.

فهؤلاء أصنافٌ أربعةٌ من أصنافِ الخلقِ في العمل بركنَي هذه الآية الكريمة.

وبهذا يُعلم أنَّه ينبغي للعاقل أن يتفقَّدَ هذين الأمرين العظيمين؛ في أعمالِه وسائرِ أحواله، فإذا عزم على الصِّيامِ استعانَ بالله على صدقِ النيَّةِ وصحَّة العملِ، والإقبالِ بقلبِه على الله، ثم سألَ ربَّه القبولَ، وإذا أرادَ أن يُصلِّي سألَ اللهَ الإعانةَ على إقامتها، والخشوعَ فيها، وإخلاص النيَّة وسلامتها من الوساوسِ والخطرات، وأكثر من الدعاء النبوي: «اللَّهمَّ أعنِّي على ذكركَ وشكركَ وحسنِ عبادتِك»[1].

ومن عجائب هذه الآية، أنَّ العبدَ يتوسَّلُ بها بين يدي الدُّعاء الأعظم في السُّورة ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفَاتِحَة: ٦]، فيعترفُ أنَّه عبدٌ ذليلٌ مفتقرٌ محتاجٌ طالبٌ للعون، وهذه من أعظمِ وسائل إجابة الدُّعاء، فيقال له ما أهمُّ شيءٍ تريد أن يُعينك الله عليه فيقول: اهدنا الصِّراط المستقيم.

وحريٌّ بمَن حمدَ الله وأثنى عليه ومجَّده، ثم اعترف بعبوديَّتِه بربه أن يُجابَ دعاؤه وتحقق طلباته.

(١) رواه أحمد (٢٢١١٩)، وصححه ابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢١).

والحاصل أنَّ هذه الآية عظيمةُ القدر، جليلةُ المكانة، جديرةٌ بالتَّأمل والتَّدبُّر، فيها أضعافُ ما ذكرنا من الوقفات، والتَّوجيهات والحقائق العاليات، رزقنا الله القيامَ بها، وأداءَ حقِّها، وحسن التَّفكر فيها.

اللهم وارزقنا صدقَ التَّعبدِ لك والاستعانةَ بك، واغفر اللَّهمَّ لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الخامس
عظمة الله في ضوء اسمه العليم

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فإنِّ من أعظم ما ينبغي للمؤمن أن يتأمَّلَ في معانيه، ويتدبَّر في آثاره: أسماء الله الحسنى.

ومن هذه الأسماء الحسنى التي تكرَّر ورودُها في كتاب الله تعالى: اسمه (العليم) جلَّ جلاله، وتقدَّست أسماؤه، العالمُ ببواطنِ الأمور وظواهرها، دقيقِها وجليلها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].

وهو سبحانه وتعالى يعلم الأمور المتقدمة والأمور المتأخِّرة، أزلاً وأبداً: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢].

وهو سبحانه يعلم جليلَ الأمور وحقيرَها، وصغيرها وكبيرها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٥ - ٦].

ويعلم تعالى ظواهرَ الأشياء وبواطنَها، غائبها وشاهدها، ما يعلم الخلقُ منها وما لا يعلمون: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧].

ويعلم تعالى ما تحت الأرض السّفلى، كما يعلم ما فوق السّماوات العلى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحج: ٧٠].

ويعلم تعالى جزئيات الأمور، وخبايا الصُّدور: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤].

ويعلم سبحانه خفايا ما وقع ويقع في أرجاء العالم، وأنحاء ملكه: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المُجَادلَة: ٧].

وهو سبحانه يعلم الأقوالَ والأسرار: ﴿ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴾ [طه: ٧]، ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الرَّعْد: ١٠]، أحاطَ علمُه بجميع الأشياء في كلِّ الأوقات، ولا يعرض تعالى لعلمه خفاءٌ ولا نسيان: ﴿ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥٢]،(١).

وغير ذلك من النصوصِ الكثيرةِ الدَّالة على عظمةِ علمِ الله جلَّ جلاله، فإنَّ تدبُّرَ بعض ذلك يكفي المؤمن البصير معرفةً بإحاطة علم الله تعالى، وكمالِ عظمته، وجليلِ قدره، وأنَّه الرَّبُ العظيمُ المالكُ الكريم.

أيُّها المؤمنون:

دعونا نقف -نحن وإياكم- مع آيةٍ من آيات الله، الدَّالةِ على عظمة علمه سبحانه وتعالى، وكمالِ إحاطتِه بالمعلومات، يقول تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [الأَنْعَام: ٥٩].

يا له من مشهدٍ شاملٍ واسع عميق: مَشهدِ الورقِ السّاقطِ من شجرِ الأرض جميعاً، والحبِّ المخبوءِ في أطواءِ الأرض جميعاً، والرَّطبِ واليابسِ في أرجاءِ الأرض جميعاً.

(١) المواهب الرّبانيَّة لابن سعدي ص (١٠٩ - ١٠٨) (بتصرف).

إنَّ هذا المشهدَ كما أنَّه لا يتَّجه إليه الفكرُ البشري والاهتمامُ البشريُّ، وكذلك لا تَلْحَظُه العينُ البشريَّة، ولا تلمُّ به النَّظرةُ البشريَّة، فهو المشهدُ الذي يكشفُ بجملتِه عن سعةِ علمِ الله وحده، المشرفِ على كل شيء، المحيط بكلِّ شيء، الحافظِ لكلِّ شيء الذي تتعلقُ مشيئتُه وقدرُه بكلِّ شيء: الصغيرُ كالكبير، والحقيرُ كالجليل، والمخبوءُ كالظاهر، والمجهولُ كالمعلوم، والبعيد كالقريب.

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩] فتأمَّل ماذا يدخُلُ تحت كلمةِ الغيب! إنَّه غيبٌ ممتدٌّ في عُمقِ الزَّمانِ والمكان، وفي الماضي والحاضرِ والمستقبل، وفي أحداثِ الحياةِ وتصورات الوجدان.

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فكم في البرِّ والبحرِ من مخلوقاتٍ ساكنةٍ ومتحرِّكة؟!

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ [الأنعام: ٥٩] الله أكبر! ماذا لو أنَّ كلَّ دولِ العالم اجتمعت لتشكِّلَ جيوشاً من العمال؛ لترصدَ حركةَ الأوراقِ المتساقطة؟ كم ستحصي؟ وكم سيفوت عليها؟ أمَّا الله العليم، فلا يَعزُبُ عنه ورقةٌ واحدةٌ! رطبةٌ أو يابسةٌ! صغيرةٌ أم كبيرةٌ! ورقةٌ من شجرِ البَرِ أم من شجر البحر! فسبحانه!

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ٥٩] فأطلقْ لفكرك وخيالك -أيها المؤمن بربه العليم- وتفكَّرْ في مساحةِ هذه الظُّلمات، وفي حجمِ هذه الحبَّة!... إنَّها لا تخفى على الله!

﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩]: إنَّه عمومٌ لا يَشِذّ عنه شيء! ليدخل فيه كلُّ آدمي وحيوان وشجر وبر وبحر... كلها في (كتاب مبين)![1].

(١) ينظر في (ظلال القرآن) آية ٥٩ من سورة الأنعام.

يا أمة القرآن!

ومما اختصَّ الله بعلمه: مفاتحُ الغيب، وهي خمسٌ لا يعلمُهنَّ إلا اللهُ، وهي المذكورة في آخرِ آيةٍ من سورة لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَۖ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [لُقمَان: ٣٤]،(١).

أمَّا السّاعة: فقد قال الله عنها: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٨٧].

وأما نزول الغيث: فإنَّ علمَ البشر مهما اتسعَ، فإنَّما غايته التَّوقُّع لوقتِ النُّزول، وقد يتمُّ وقد لا يتم، ثمَّ لو قُدِّرَ قدرتُهم على التَّوقيت الدَّقيق، فمَن الذي يعلم عددَ قطرِ الأمطار إلا الله! ومَن الذي يعلم مصدرَ تلكم القطرات إلا الله! ومَن ذا الذي يعلم بمواقعِ تلك القطرات حين تنزل! هذه على سهلٍ، وتلك على جبلٍ، وثالثة تصيبُ رأسَ كائنٍ حي، ورابعة على شجرة، وهكذا، فسبحان من أحاط علمُه بكلِّ شيء.

وأما علم الأرحام: فإنَّ غاية ما وصل إليه علمُ الطِّبِّ الحديث، هو القدرةُ على تحديد جنس الجنين، وهم يُصيبون كثيراً، ويخطئون كثيراً، ولو قُدِّر أنَّهم يصيبون تماماً، فإنَّ تحديد جنسِ المولود إنَّما هو معلومةٌ واحدةٌ من معلوماتٍ كثيرةٍ جداً في علم الأرحام، فمن الذي يعلم وقتَ التقاء النُّطفة بالبويضة بالسَّاعة والدَّقيقة والثَّانية؟ ومَن الذي يعلم حين التقتا عن نوع الجنس؟ ومَن الذي يعلمُ بتلكم الأسئلة الأربعة التي يُؤمرُ الملكُ بكتابتها: عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد؟ ومَن الذي يعلم متى نفخت في الجنين الرُّوح؟ ومن الذي يعلم هل سيعيش هذا الجنين حتى يخرج؟ ومن الذي يعلم اللَّحظة التي يخرج فيها هذا الجنين إلى هذه الدُّنيا؟... إنه الله وحده، جل جلاله.

(١) كما جاء في صحيح البخاري (٤٦٢٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وأما خفاءُ كسبِ الغد والأجل فهذا مما لا يحتاجُ إلى تفصيل، فكيف يُصدِّقُ بعد ذلك -بعض الناس- ما يُروِّجُه بعض الدَّجالين والكهان، عبر بعض الفضائيات أو الإذاعات باسم قراءة الحظ، أو الكف، أو الفنجان!

يا أمة القرآن!

هذه ومضة في عالمٍ عظيمٍ من معاني هذا الاسم الكريم من أسماء الله الحسنى، التي ينبغي أن يُورث العلم بها الخوف منه سبحانه، وخشيته في السِّر، وحفظ الجوارح عما يُغضبه، فإنَّه سبحانه شهيدٌ مطلعٌ، لا يخفى عليه شيء من أحوالنا.

اللهم ارزقنا خشيتَك في الغيبِ والشهادة، ومراقبتك في السِّرِّ والعلن.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس السّادس
منهج السَّلف في تلقِّي القرآن وتدبُّره[1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبده ورسوله ومصطفاه، أما بعد:

فإنَّ الرِّفعة والعِزَّة التي نالها السَّلف الصَّالح، وذَلَّت لهم رِقاب العربِ والعجم، إنَّما كانت بسبب تمسُّكهم الحقيقي بكتاب الله تعالى.

وحقيقٌ بمن يُرِيدُ سلوك طريقهم، أن يتعرَّفَ على منهجهم في تلقِّي هذا القرآنِ وتدبُّره، وهذا ما سنحاول الإشارة إليه بإيجازٍ في هذا المجلس.

إنَّ مَن تأمَّل حياةَ السَّلفِ مع القرآن، وَجَدَ أنَّ لهم منهجاً في العنايةِ بهذه العبادة العظيمة، يُمكن تحديدُ معالِمها فيما يلي؛ لعلَّنا نفيد منها، ومن أبرزِ تلك المعالم:

أولًا: معرفتُهم لمنزلةِ هذا القرآن، وإدراكُهم لمقصدِه الأعظم:

ذلك أنّ تلقِّي الأمرِ بالمحبَّة والتَّعظيم والإيمان؛ يؤدِّي إلى حسنِ التَّعامل معه، ومَن عَرَفَ قيمةَ الشَّيء اعتنى به واهتمَّ به، وقد ظهرَ ذلك في الجيلِ الأوَّلِ من خلالِ أقوالِهم وأفعالهم، ومن أقوالِهم المأثورة في بيان عظمة القرآن وأثره، التي ترجموها إلى الاستجابةِ العمليَّة:

قولُ عبدِ الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إنَّ هذا القرآنَ مأدبةُ الله، فتعلَّموا من مأدبتِه ما استطعتم، إنَّ هذا القرآنَ هو حبلُ اللهِ الذي أمرَ به، وهو النُّورُ المبينُ، والشِّفاءُ النَّافعُ عصمةٌ لمَن اعتصم به)[2].

---

(١) للدكتور محمد بن عبد الله الرّبيعة.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٧٤١ رقم (٢٠٤٠) وقال (صحيح الإسناد ولم يخرجاه) وابن أبي شيبة ٦/ ١٢٥ برقم ٣٠٠٠٨.

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (مَنْ أحبَّ أن يعلم أنَّه يُحِبُّ اللهَ ورسولَه فلينظر: فإن كان يُحبُّ القرآنَ، فهو يحبُّ اللهَ ورسوله)[1].

ويقول ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (ضَمِنَ اللهُ لَمن قرأ القرآنَ لا يَضِلُّ في الدُّنيا ولا يشقى في الآخرة، ثمَّ قرأ: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣]،[2].) والمراد بالقراءة: الاتبِّاع بدليلِ نصِّ الآية.

وقال الإمامُ البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (لا يجدُ طَعْمَه ونَفْعَه إلا مَن آمنَ بالقرآن، ولا يحملُه بحقِّه إلا الموقِن)[3].

ونحن بحاجةٍ ماسَّةٍ لتربيةِ قلوبنا على هذا المعنى، فلقد ضَعُفَ تعظيمُ القرآنِ ومحبَّتُه الصَّادقةُ والإيمانُ به في قلوبِ كثيرين، ممَّا أدَّى إلى ضعفِ الاتصالِ به، والتَّأثر فيه، وهنا مَكمَنُ المشكلة، والحلُّ: غَرسُ تعظيمِ القرآنِ في نفوسِ النَّاشئة، ومحبتهم له محبَّةً صادقةً يُبعثُ معها الأثرُ والقبول، واستمرارُ التَّذكيرِ بقيمةِ القرآن، وبالهدفِ الأسمى لنزولِه.

ثانياً: تعلُّمُهم وتعليمُهم الإيمانَ قبلَ القرآن:

والمقصود: أنَّهم غُرِسَ في قلوبِهم تعظيمُ الله، وتعظيمُ أمرِهِ ونهيه، فسَهُلَ عليهم بعد ذلك تلقِّي الأحكامِ الشرعيَّة، وهذا جانبٌ رئيسٌ في إحياءِ التَّربيةِ القرآنيَّةِ في النُّفوس.

وهذا المنهجُ قد اتَّخذه القرآنُ في تربيته للصَّحابةِ أوَّلَ الإسلام، حيث كان أوَّلُ نزولِ القرآنِ تربيةً على الإيمان في السُّور المكيَّةِ -وخاصَّةً المفصَّل منها- فكلُّه في ترسيخِ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخر، فأورَثَ في نفوسِهم الإيمانَ الصَّحيحَ والتَّعظيمَ للقرآن، وهيَّأ نفوسَهم لتلقِّي توجيهاته.

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢١.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤١٣/ ٢ برقم (٣٤٣٨).
(٣) صحيح البخاري ٤١٠ / ٢٤.

يوضِّحُ هذا المنهجَ -الذي ربَّى النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه أصحابه- أحدُ التَّلاميذِ النُّجباءُ في مدرسةِ محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو جُندُب بنُ عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كنَّا مع النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن فتيان حزاير فتعلَّمنا الإيمانَ قبلَ القرآن، ثمَّ تعلمنا القرآنَ فازْدَدنا إيماناً)[1].

فتأمّل كيف كان النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبدأُ في بناءِ الإيمانِ في نفوسِهم، حتى إذا ما رسخَ الإيمانُ في قلوبِهم، وكانوا مؤهَّلين لِتلقِّي القرآن، وجَّهَهم إليه، فازدادوا به إيماناً[2].

ثالثاً: حسنُ تلقِّيهم القرآنَ بأنه رسائلُ من ربِّهم للعملِ والامتثال، فكانوا يتدبَّرونها بالليلِ ويتمثَّلونها بالنَّهار:

وقد تواترت الأدلةُ من القرآنِ والسُّنةِ وآثارِ السَّلفِ على الأمرِ بالعملِ بالقرآنِ وأنَّه المقصودُ الأعظم[3].

١ - يقول ابنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كان الرّجُلُ مِنَّا إذا تعلَّمَ عشرَ آياتٍ لم يجاوزْهنَّ حتى يعرفَ معانيَهنَّ والعملَ بهنَّ)[4].

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن ١/ ٧٤ رقم ٦٤ والبخاري في التاريخ الكبير ٢/ ٢٢١ والبيهقي في الكبرى ٢/ ٤٩ رقم (٥٤٩٨) والطّبراني في المعجم الكبير ٢/ ٢٢٥ رقم (١٦٥٦) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ١/ ١٦ رقم (٥٢).

(٢) وروي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (لقد عشا برهة من دهرنا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السّورة على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتتعلم حلالها وحرامها، وأمرها وزجرها، وما ينبغي أن يقف عليه منها، ثم رأيت رجالاً يؤتي أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين خاتمته ما يدري أمره ولا زجره، ولا ما يسعي أن يقف عنده، فينثره نثر الدقل). أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٢/ ٤٠٣ والبيهقي في السّنن الكبرى ٣/ ١٢٠ رقم (٥٠٧٣) والحاكم في المستدرك ١/ ٩١ رقم (١٠١)، وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولا علة له، ووافقه الذهبي.

(٣) انظر عظمة القرآن، مبحث (فضائل العمل بالقرآن) ص (٤٩٦).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٤.

ويقول ابنُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (كان الفاضلُ من أصحاب النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صدرِ هذه الأمَّةِ لا يحفظُ من القرآنِ إلا السُّورةَ أو نحوها، ورُزِقوا العملَ بالقرآنِ، وإنَّ آخرَ هذه الأمَّةِ يُرْزَقُون القرآنَ منهم الصَّبي والأعمى ولا يرزقون العملَ به)[1].

كما كان هذا هو منهجُهم في تربيةِ أبنائهم وطلابهم، وتعظيمه في نفوسِهم والتَّوصية به، فتأمَّل هذه الكلماتِ العظيمة التي قالها سيِّدٌ من ساداتِ التَّابعين، وهو الحسنُ البصري رَحِمَهُ اللَّهُ حيث يقول: (إنَّ هذا القرآنَ قرأه عبيدٌ وصبيانٌ لم يأخذوه من أوَّله، ولا علمَ لهم بتأويلِه، إنَّ أحقَّ النَّاسِ بهذا القرآن من رُئِيَ في عمله، قال الله عزّ وجل في كتابه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وإنَّما تدبُّرُ آياته اتباعُه بعمله، أما والله ما هو بحفظِ حروفِه وإضاعةِ حدوده! حتى إنَّ أحدَهم ليقول: قد قرأتُ القرآن كلَّه فما أسقطتُ منه حرفاً؛ وقد -والله- أسقَطَه كلَّه! ما يُرى له القرآن في خُلقٍ ولا عملٍ! حتى إنَّ أحدَهم ليقول: إنِّي لأقرأُ السُّورةَ في نَفَسٍ واحدٍ، والله ما هؤلاء بالقرَّاء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الوَرَعة! متى كانت القرَّاءُ تقول مثل هذا؟ لا أكْثَرَ الله في الناس مثل هؤلاء)[2].

كما يُؤكِّد ذلك أيضاً وصاياهم لحملةِ القرآن والتَّأكيدِ على ظهورِ الأثر فيهم، كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ينبغي لحاملِ القرآن أن يُعرَف بليلِه إذا النَّاسُ ينامون، وبنهارِه إذا النَّاسُ يفطرون، وبحزنِه إذا النَّاسُ يفرحون، وببكائِه إذا النَّاسُ يضحكون، وبصمتِه إذا النَّاسُ يخوضون، وبخشوعِه إذا النَّاسُ يختالون. وينبغي لحاملِ القرآن أن يكون مستكيناً ليِّناً، ولا ينبغي له أن يكون جافياً ولا مماريا ولا صيَّاحاً ولا صخَّاباً ولا حديداً)[3].

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٠/ ١.
(٢) الزهد والرّقائق لابن المبارك ت أحمد فريد ج ٦ / ٦١٠ رقم (٧٤٢) ط دار المعراج.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٣٠٥/ ٨.

وهذا المنهج هو الذي خرَّجَ ذلك الجيلَ وصنَعه، ولو أنَّنا تلقَّينا القرآنَ كما تلقَّاه الجيلُ الأوَّلُ بهذا المنهج، وربَّينا عليه أجيالَنا، لظهرَ لنا أثرُه وتأثيرُه في نفوسنا.

(وحين نقرأُ القرآنَ بهذا الوعي؛ سنجدُ عنده ما نريد، وسنجدُ فيه عجائبَ لا تخطرُ على البالِ السَّاهي! وسنجدُ -عندئذٍ- في القرآنِ متاعاً وحياة؛ وسندركُ معنى قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فهي دعوةٌ للحياة، للحياة الدَّائمة المتجدِّدة)[1].

رابعاً: تلاوةُ القرآنِ بترتيلٍ وتمهُّلٍ وتحزُّن، والقيام به في الليل:

وهذا هو المنهجُ الذي قرَّره القرآنُ وأشادَ بأهله في قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦ - ١٠٧].

فتأمَّل كيفَ أمرَ اللهُ تعالى نبيَّه بأن يقرأ القرآنَ على مُكثٍ؛ وهو التَّمهُّل، والتَّرتيلُ وعدمُ الإسراعِ فيه، ثمَّ أشادَ بأهلِ هذا الوصفِ بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦ - ١٠٧].

وقد تجلَّى ذلك في حالِ السَّلف، ومما وردَ عنهم في ذلك قول ابنِ أبي مُليكة: (سافرتُ مع ابنِ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من مكةَ إلى المدينةِ، فكان يقومُ نصفَ اللَّيلِ فيقرأُ القرآنَ حرفاً حرفاً، ثم يبكي حتى تسمعَ له نشيجاً)[2].

(١) في ظلال القرآن ٢٦١/ ١.

(٢) مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر ص ١٣١.

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لا تَهُذُّوا القرآنَ هذَّ الشِّعْر، وتَنثروه نثرَ الدَّقَل، وقِفوا عند عجائِبه، وحرِّكوا به القلوبَ، ولا يكن همُّ أحدِكم منَ السُّورةِ آخرَها)[1].

فقراءةُ القرآنِ بترتيلٍ وتمهُّلٍ وتدبُّرٍ هو من أعظم ما يؤثر في النَّفس، ويُصلحُ القلبَ، وذلك كان منهجُ السَّلف الصَّالح، فهل نربِّي أنفسَنا وأجيالنا عليها؟

أما قراءةُ القرآن باللَّيل فهي أقوى وسيلةٍ للتدبُّر، وأجدرُ أن يُفقه بها القرآن، ولهذا قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴾ [المُزَّمِّل: ١ - ٦]، قال ابن عبَّاس: هو أجدرُ أن يفقه القرآن.

يقول الشَّنْقِيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: (لا يُثبِّتُ القرآنَ في الصَّدرِ، ولا يُسَهِّلُ حفظَه ويسِّرُ فهمَه، إلا القيامُ به في جوف الليل)[2].

وبالجملة -أيَّها المؤمنون- (فلقد كان القرآنُ هو محورُ حياةِ السَّلف، ومادةُ حياةِ قلوبهم، يحرصون عليه أكثرَ من حرصِهم على تحصيلِ الطَّعام والشَّراب والرَّاحة، ولمَ لا؟! وهم يُدركون بأنَّ الحياةَ الحقيقيَّةَ هي حياةُ القلب)[3].

فإن أردنا ذوقَ حلاوةِ القرآنِ كما ذاقوها، فلنسرْ على طريقتِهم، التي أشرنا إلى بعض معالمها.

اللَّهم كما مننتَ على مَن شئتَ مِن عبادِك بلذةِ مناجاتك بتلاوة كتابك، فامنن علينا بمنِّك وكرمك، واجعلنا من أهل القرآن، الذين هم أهلُك وخاصتُك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) مختصر قيام الليل ص ١٣٢.

(٢) مقدمة أضواء البيان ١/ ٤.

(٣) تحقيق الوصال بين القلب والقرآن من ٩١.

المجلسُ السَّابع
كيف نـقرأُ سور القرآن؟[1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبده ورسوله ومصطفاه، أما بعد:

فالقرآن حدائقُ ذاتُ بهجة، إذا أتَمْتَ سورةً وبدأتَ بأخرى فقد انتَقَلْتَ مِن شَجَرةٍ يانعةِ الثمرةِ إلى شجرةٍ تُشبهها بثمرةٍ تختلفُ عنها، وإذا انتقلتَ من حزبٍ إلى حزب فمن حديقةٍ غنَّاءَ إلى روضةٍ أخرى، فـ (السَّبع الطِّوال) و(ذواتُ الرَّاء) و(المسبِّحات السّبع) و(الطّواسيم) و(الٓمٓ) و(الحواميم) و(المفصل)؛ لكلِّ حزبٍ لونُه وطعمُه الخاص به، ولكل سورةٍ ذوقُها الخاص بها، فتذوقْها برفقٍ وحاذرِ الهرس! والجرش! فهو سببُ التُّخَمة والملل.

وهذا التَّنزيلُ العظيمُ هو مأدبةُ الله في الأرض، والنَّاسُ حولها ثلاثة أصناف:

جائعٌ محرومٌ منها، وسقيمٌ يأكلُ وقد فَقَدَ حاسةَ التَّذوقِ فَلَمْ يَتَهَنَّ بها، ومُعافى رأى على مأدبةِ الكريمِ مختلفاً ألوانُها، فَأَصْبَحَ يَطْعَمُ بِرِفقٍ وأدبٍ كاملَين، وفي فمه مع كلِّ (سورة) منها طعمٌ وذوقٌ وعطرٌ هو لها، ولأختِها مِن سُورِ القرآن غيرها، فكيف نَتَذَوَّقُ لَذَّةَ القرآن، ونميِّزُ حلاوةَ كلِّ سورةٍ في القرآن عن حلاوة أختِها؟

أولاً: ليكن بين يديك دائماً تفسيرٌ مختصرٌ، كالتَّفسيرِ الميسرِ أو زبدةِ التَّفسير أو الجلالين، أو المصباحِ المنيرِ أو السِّراجِ في غريبِ القرآن لـ د. الخضيري... ونحوها.

(١) للشيخ الدكتور عصام بن صالح العويد.

ثانياً: أحضرْ قلبَك وحَرِّكْه بالقرآنِ، فإن شَرَدَ فَقِفْ وَالْحَقْ بِهِ، سَتَتَعَبُ فِي البداية وسيذعنُ لك في النِّهاية[1]..، لكن لتكن على يقين أنه ضرورة كضرورةِ الرُّوحِ للجسد.

ثالثاً: اجعلْ نفسَك طَرَفاً ثم ظرفاً لخطابِ ربِّك، اجعل القرآنَ مرآةً نورانيَّةً ترى فيها أقوالَك وأفعالَك، فهذا يُعَطَّرُ وهذا يُغْسَل، وهذا يُقَصُّ وهذا يُصفَّف، وهذا يُعالج وهذا يُبتر إن لزم الأمر، وهكذا.

رابعاً: قَبْلَ أن تبدأ بالسُّورة؛ تأملْ في اسمها أو أسمائها فهو مفتاحُها الذي تدخل به إليها، وقد قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولَمَّا كانت الأسماءُ قوالبَ للمعاني، ودالةً عليها، اقتضت الحكمة أن يكون بينها وبينها ارتباطٌ وتناسب، وألا يكون المعنى معها بمنزلة الأجنبي المحضِ الذي لا تعلُّق له بها، فإنَّ حكمةَ الحكيمِ تأبى ذلك، والواقعُ يشهدُ بخلافِه، بل للأسماءِ تأثيرٌ في المسمَّيات، وللمسمَّياتِ تأثرٌ عن أسمائِها، في الحُسنِ والقُبح، والخفَّة والثِّقَل، واللَّطافة والكثافة، كما قيل:

وَقَلَّمَا أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ ذَا لَقَبٍ إِلَّا وَمَعْنَاهُ إِنْ فَكَّرْتَ فِي لَقَبِهِ

ولما كان بين الأسماء والمسميات من الارتباطِ والتَّناسبِ والقرابةِ ما بين قوالبِ الأشياء وحقائقها، وما بين الأرواحِ والأجسامِ عَبَرَ العقلُ من كلٍّ منهما إلى الآخر، كما كان إياسُ بنُ معاويةَ وغيره يرى الشَّخص، فيقول: ينبغي أن يكون اسمُه كيتَ وكيت، فلا يكاد يخطئ!... الخ كلامه) رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2].

وهذا إن كان في غيرِ القرآن فما بالُك بالقرآن العظيم؟ الذي أسماءُ سورِهِ إمَّا بنصِّ كتابٍ أو سنةٍ، أو إجماعِ صحابةٍ أو استفاضةٍ في الأمة!

(١) وقد بينت ذلك بالتَّفصيل في رسالتي (فن التَّدبُّر في القرآن) فلتُنظر من أحب التَّفصيل.
(٢) زاد المعاد (٢ / ٣٠٧).

وكان الصحابةُ رضوان الله عليهم -خصوصاً ابن عباس- يعتنون بأسماء السُّور، أو أوصافها التي تدل على مقصودها، ورَحاها الذي تدورُ حوله، فعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن عُمرَ الفاروق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قيل له: سورةُ التَّوبة؟ قال: هي إلى العَذابِ أقْرَبُ! ما أقلعتْ عن النَّاسِ حتى ما كانت تدع منهم أحداً.

وعن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في براءة: يسمُّونها سورةَ التَّوبةِ وهي سورةُ العذاب.

وعن سعيدِ بنِ جبير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قلت لابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: سورة التَّوبة؟ قال: التَّوبة! بل هي الفاضحة، ما زالتْ تنزلُ (ومنهم)، حتَّى ظننّا أن لن يبقى منَّا أحدٌ إلا ذُكِرَ فيها.

وعن قتادة قال: كانت تُسمى هذه السُّورة (الفاضحة)، فاضحةُ المنافقين[١].

وعن سعيدٍ بنِ جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال تلك سورة بدر[٢].

وفي صحيحِ مسلم عن سعيدِ بن جبير قال: قلت لابن عباس سورة الحشر؟ قال: قل: بني النضير، أي: سورةُ بني النضير[٣].

وفي البخاري عن سعيدِ بن جبير عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: جمعت المُحكم في عهدِ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقلت له: وما المُحكم؟ قال: المُفَصَّل[٤].

قال سعيدِ بن جبير: إنَّ الذي تدعونه المفصَّل هو المحكم.

---

(١) جميع الآثار السّابقة راجعها في الدر المنثور الجزء ٤.
(٢) رواه مسلم ٣٠٣١.
(٣) المصدر السّابق.
(٤) ٥٠٣٦.

وأضربُ مثلاً بأعظمِ سورِ القرآن وهي سورة الفاتحة:

هذا هو اسمُها الأشهرُ، وهو محلُّ إجماعٍ يقينيٍّ في أُمةِ القرآن، قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والفاتحةُ مشتقَّةٌ من الفتح، وهو إزالةُ حاجزٍ عن مكانٍ مقصودٍ وُلُوجُهِ، فَصِيغَتُها تقتضي أن موصوفها شيءٌ يُزيل حاجزاً)[1].

فهي المفتاحُ الأعظمُ الذي يفتح لك كل بابٍ للخير، فهي مفتاحُك لعلم الكتاب، وهي مفتاح الحُجُب بينك وبين الله، تأمَّل قولَ ابنِ كثير: (وتحوُّلُ الكلامِ من الغَيبةِ إلى المواجهةِ بكافِ الخطاب هو المناسب؛ لأنَّه لَمَّا أثنى على الله فكأنَّه اقْتَرَبَ وحَضَرَ بين يدي الله تعالى؛ فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥])[2].

ويقول ابن عاشور: (وما هنا التَّفاتٌ بديعٌ، فإنَّ الحامدَ لَمَّا حمدَ الله تعالى ووصفه بعظيم الصِّفات، بلغت به الفكرةُ منتهاها، فتخيَّل نفسَه في حضرة الرُّبوبيَّة، فَخاطَبَ ربَّه بالإقبال)[3].

فهي أبوابٌ تُفتَح شيئاً فشيئاً لمن وفَّقه الله، فتعلَّم كيف يفتح بالفاتحة تلك الأبواب المغلقة.

فإذا أضفتَ إليها أسماءها الأخرى «أم القرآن»، «الحمد»، «الشافيَّة»، «الكافيَّة»، وغيرها، تجلَّت معانيها في قلب المتدبِّرِ أكثرَ فأكثر.

اللهم افتح قلوبنا لتدبُّرِ كتابِك، وأزلْ ظلمتها بِنُورِ آياتك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) التَّحرير والتَّنوير ١ / ١٣١.

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ١٣٥.

(٣) التَّحرير والتَّنوير ١ / ١٧٩.

المجلس الثامن
بين فواتح الآيات وخواتمها[1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبده ورسوله ومصطفاه، أما بعد:

فإنَّ من أبوابِ تدبُّرِ القرآنِ الكريم، التَّأملُ في علاقة الآيةِ بخاتمتها، والوقوفُ على ذلك يفتح لك باباً من أبوابِ فهمِ كتابِ الله تعالى، ويُبيِّنُ لك نوعاً من إعجازِ القرآن الكريم، وسوف نعرض بعضَ الأمثلة[2]. مع شرح مُبسَّطٍ لها، ويستطيع الموفَّقُ أن يقيس عليها:

المثال الأول:

لَّما ذَكَرَ اللهُ قوامةَ الرَّجل على المرأة، وحقَّ الزوج في تأديب امرأته الناشز في قوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّ ﴾ [النِّسَاء: ٣٤]، خَتَمَ الآية بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴾ [النِّسَاء: ٣٤]، فَذَكَّرَ بعلوه وكبريائه جلَّ جلاله ترهيباً للرِّجال؛ لئلا يعتدوا على النِّساء، ويتعدَّوا حدودَ الله التي أمرَ بها.

المثال الثاني:

لما ذَكَرَ اللهُ تعالى عُقُوبَةَ السّرِقَةِ في قوله: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا ﴾ [المَائِدَة: ٣٨]، قال في آخِرِها: ﴿ نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [المَائِدَة: ٣٨]، أي: عَزَّ وَحَكَمَ فَقَطَعَ يَدَ السَّارق، وَعَزَّ وَحَكَم فَعَاقَبَ الْمُعْتَدِين شرعاً، وقدراً، وجزاءً، وفي ذلك القصَّةُ المشهورة، أنَّ أعرابياً سمع قارئاً يقرأ هذه الآية فأخطأ في آخرها،

(١) للدكتور عبد المحسن بن زين المطيري.

(٢) وكل هذه الأمثلة مأخوذة من كتاب (ليدبروا آياته) بأجزائه الأربعة الأولى.

وقال: (والله غفور رحيم)، فقال الأعرابي: لو غَفَرَ ورحمَ لما قطع، ولكنَّه عزَّ وحكم فقطع، فنَظَروا في المصحف فإذا هي ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المَائِدَة: ٣٨].

المثال الثالث:

في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الرَّحْمَٰن: ٢٩] مِن الإنس والجنِّ والملائكة وكلِّ المخلوقات، ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرَّحْمَٰن: ٢٩]، وفي هذا حفاوةٌ بالدُّعاء والسُّؤال، والتَّعرضُ لنفحات ذي الجلال، فإنَّها مظنَّةُ تعجيلِ التَّبديلِ والتَّغيير، فإذا سألوه وألحُّوا في سؤالهم، كان من شأنه أن يُجيبَ سائلَهم، ويُغيِّر أحوالَهم من الهوانِ والتَّخلُّفِ، والجهلِ، والمرضِ والفُرقةِ والضَّياع؛ إلى الرِّفعةِ والمجدِ والعلمِ والعافيةِ والاتحاد، وهذه مناسبةُ اتِّصال أوَّلِ الآية بآخرها[1].

المثال الرّابع:

حُكِيَ أنَّ أعرابياً سمع قارئاً يقرأ: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٩]! ولم يكن الأعرابيُّ من القرَّاء فقال: إن كان هذا كلام الله، فلا يقول كذا، ومَرَّ بهما رجلٌ، فقال له الأعرابي: كيف تُقرأ هذه الآية؟ فقال الرّجل: ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٩] فقال الأعرابي: هكذا ينبغي، الحكيم لا يذكرُ الغفرانَ عند الزَّلل، لأنَّه إغراءٌ عليه!

المثال الخامس:

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الشُّورَى: ٢٨]، ومُناسبةُ ختمِ الآية بهذين الاسمين الكريمين: ﴿ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ دون غيرهما؛ لمناسبتِهما للإغاثة، لأنَّ الوَلِيَّ يُحْسِنُ إلى مواليه، والحميدُ يُعطي ما يُحمد عليه.

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤٩٥/ ٧ وما بعدها.

المثال السّادس:

قوله تعالى: عن الحُجَّاج: ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٣]، لما كان الحجُ حَشْراً في الدنيا، والانصراف منه يُشبهُ انصراف أهل الموقف بعد الحشر -فريقاً إلى الجنَّةِ وفريقاً إلى السَّعير-؛ ذكَّرهم بذلك بقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٣]، فاعملوا لما يكون سبباً في انصرافكم منه إلى دار كرامتِه لا إلى دار إهانتِه.

المثال السّابع:

في قوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المَائِدَة: ١١٨]، فلم تُختَم الآية بقوله (الغفور الرَّحيم)؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ غَضَبٍ وانتقامٍ ممَّن اتَّخذ إلهاً مع الله، فَنَاسَبَ ذِكْرُ العِزَّةِ والحكمة، وصار أولى من ذكر الرَّحمة.

المثال الثامن:

قوله تعالى: بعد ذكر أحكام القذف: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ [النُّور: ١٠]، قد يُقال: إنَّ الْمُتَوَقَّعَ أنْ يُقال: (تواب رحيم)؛ لأنَّ الرّحمة مناسبةٌ للتَّوبة، لكن ختمت باسم الله ﴿ حَكِيمٌ ﴾ إشارةٌ إلى فائدة مشروعيَّةِ اللعانِ وحكمته، وهي السِّترُ عن هذه الفاحشةِ العظيمة.

هذه -أيها المؤمنون- بعضٌ من الحكم التي تُلتَمس من المناسبةِ بين فواتح الآيات وخواتمها، وهي بابٌ عظيمٌ من أبوابِ التَّدبُّرِ، فاجتهدوا في تدبُّر كتابِ ربكم، تنعموا وتَسْعَدوا دنيا وآخرة.

اللهم لا تحرمنا بركةَ كتابك، ولا تحجب عنا -بذنوبنا- فهمَه والعملَ به، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس التَّاسع
الطَّلاق الرَّاقي[1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبده ورسوله ومصطفاه، أما بعد:

فيقول الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٩].

قد يحصلُ الشِّقاقُ، ويقعُ الطَّلاقُ، فلماذا تتغيَّرُ النُّفوس، ويظهرُ العبوسُ؟ ففي الزَّواج كان الفرحُ والسُّرور، والبهجةُ والحبور، وعند الطَّلاق ننسى كلَّ شيء، وكأنَّها معركةٌ مع عدوٍّ لا يستحقُّ رحمةً ولا رأفةً، فلا مجالَ لتسامحٍ ولا تعاطف، ولا تراحمٍ ولا إحسان، بل صلَفٌ وجحود، وظلمٌ وغضبٌ وبغضاء!

ما هذا الذي يفعله الناس؟ ألا يقرؤون كلامَ ربِّهم جلَّ في علاه، ألا يتدبَّرون آياتِه؟ ألا يحتكمون إلى أحكامِه، ويتخلَّقون بآدابِه؟

ألا يُدركون كيف هذَّب الله أخلاقَ المؤمنين، وزرع في قلوبهم الرّحمة، على خِلاف أهل الجاهليَّة الذين كانوا يظلمون ويتجاوزون الحدَّ دون رادع.

وقد وردَ في سبب نزول هذه الآية ما روته عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حيث قالت: كان الرَّجلُ يُطلِّقُ امرأتَه ما شاء أن يُطلقَها وإن طلّقها مائةً أو أكثر، إذا ارتجعها قبل أن تنقضيَ عدَّتُها، حتى قال الرَّجلُ لامرأته: والله لا أطلقك فتبيني مني، ولا آويك إليّ، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك وكلَّما قاربت عدَّتُك أن تنقضيَ ارتجعتُك، ثمَّ أطلقك وأفعل ذلك، فشَكَت المرأةُ ذلك إلى عائشة، فذكَرَت ذلك عائشةُ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسكت فلم يقل شيئاً حتى نزل القرآن ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٩][2].

---

(١) للدكتور عويض العطوي.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣١٠٦)، والبيهقي (١٤٩٥٠).

وعلينا أن نتلقى هذا الحكمَ بالرّضى والقبول، وأن نطبِّقَه واقعاً عمليّاً عند الحاجة إليه، ولو تأملنا الآية الكريمة، وجدناها جَمَعت الحكم الفقهي مع الإشارة إلى خُلُقٍ نبيلٍ يحسنُ التَّخلُّق به، فقد قال سبحانه: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾، لقد عرّف الله لنا الطَّلاق، وسمَّاه لنا بهذا الاسم، والطّلاق: من الإطلاقِ وهو ضد التَّقييد، والقيدُ هنا هو عقد النكاح الذي سمَّاه الله ميثاقاً غليظاً، وكما تم هذا المثياق بمحبَّةٍ ووئام، يمكن أن يتمَّ فكُّه وحلُّه بتقديرٍ واحترام.

ومع أنَّ المعروفَ أنَّ الطّلاق ثلاث، إلا أن الله عز وجل قال: ﴿ مَرَّتَانِ ﴾، قالوا: المراد أنّ الطَّلاق الذي فيه رجعةٌ مرتان، فإن راجعَ زوجتَه فقد أمسكها، وإن تركها حتى تنقضيَ العدَّةُ فقد سرَّحها، وقد قال سبحانه: ﴿ مَرَّتَانِ ﴾ ولم يقل: طلقتان؛ تنبيهاً على أنَّه ينبغي أن تكون مرَّة بعد مرة، كلُّ طلقةٍ في مرَّة، لا أن يجمعهما في مرة.

وتأمّل كلمة: (إمساك)، فهي تشير إلى الحرص والحيطة والحفظ، وحتى لا يُفهم أمرٌ آخر قال سبحانه: ﴿ بِمَعۡرُوفٍ ﴾، والباء للمصاحبة، أي: هذا الإمساك يكونُ مصحوباً بمعروف، وجاء المعروف (نكرة)، ولم يقل جلّت قدرته: (المعروف)؛ ليكون ذلك أكثرَ شيوعاً، فلن يعدم الزوجُ العاقلُ صوراً كثيرة من المعروف يعاملُ بها زوجته التي عادت إليه، المُهم أن يضعَ الزوج هذه الكلمة: ﴿ بِمَعۡرُوفٍ ﴾ أمام عينَيه، فينظر عندما يعيدُ زوجته إلى بيته كيف يعاملُها، وكيف يكلّمُها، وكيف يعاشرها؟

أين هذا من أولئك الذين يرون في ضعف الزوجة فرصة لإبرازِ رجولاتٍ مزيَّفة، في موقفٍ يحسنُ فيه المعروفُ والتَّعاملُ الحسن؟

إنّ عودة الزوجة تعني استمرارَ الحياة الزوجيَّة، تعني استقرار العائلةِ، وإبحارَ السَّفينة من جديد، ولهذا بدأ سبحانه بها، فإنه (لما كان سبحانه وتعالى قد خيَّره بين شيئين: الرَّجعة والتَّسريح الموصوفين، وكانت الرَّجعة أقرب إلى الخير، بدأ بها)[1].

(١) هذا الاقتباس من كتاب نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٣/ ٣٠٦.

أما إذا تعذَّر الإمساكُ، وكان الحلُّ هو الفراقُ، فهنا يكون اللُّطفُ أكثرَ، والإحسانُ أظهر، لذا قال سبحانه في هذا المقام: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ﴾، يا لها من كلمة ما ألطفها في موقفٍ لا يعرف فيه كثيرٌ من النَّاس إلا العنف! إنَّه لطفٌ حتى في الكلمةِ المعبِّرة عن الفراق، فلم يقل سبحانه: (أو فراق، أو طرد، أو إبعاد) بل ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ﴾، إنَّ أصواتَ الكلمة كلَّها هامسةٌ هادئة، فأين هذا من صراخِ الأزواج، وعباراتِ السَّبِّ واللَّعن، والطَّرد والتَّهديد؟!

يا لها من أخلاق أصبحنا نتذكَّرُها كالأحلام، فهل من عودة لأخلاقِ القرآن؟

ليس هذا فحسب، بل لَمَّا كان التَّسريحُ يحملُ معنى المفارقةِ دون رجعة، وهذا ما لا يعهد فيه الإحسانُ عادةً، جاء تقييد ذلك التَّسريح بالإحسان فقال جَلَّت قدرته: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ﴾، والباء للمصاحبة والملابسة، فإن حصل ذلك التَّسريح فليكن مصحوباً بما يخففُ ألمَ الفراق بعد العشرة.

والإحسانُ أعلى من المعروف، فأمَرَنا بالإحسان حال الطَّلاق، حال الفراق، فمن يفعل ذلك اليوم؟!

والإحسانُ هو حُبُّ الخيرِ للنَّاس، ومساعدتُهم، ورفعُ معاناتهم، والإحسانُ عطاءٌ وحُبٌّ وكَرَم وصورُه كثيرةٌ تتناسب مع كلِّ حالة، وهذا هو المطلوب ولو في حال الطَّلاق، وقد قالوا: ومن الإحسان: (أنَّه إذا تركَها أدى إليها حقوقَها الماليَّة، ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء، ولا ينفِّر النَّاس عنها)[1]. يقول السَّعدي: (ومن الإحسانِ، ألا يأخُذَ على فراقِه لها شيئاً من مالِها، لأنَّه ظلمٌ وأخذٌ للمال في غيرِ مقابلةٍ بشيء)[2].

(١) ينظر: روح البيان: ١/ ٣٥٦.

(٢) تفسير السعدي: ص١٠٢.

ومن ذلك أيضاً: (بذلُ الصَّدَاقِ كاملاً وألا يشاحِحَها في شيءٍ لها فيه حقٌ، مع طيبِ المقال وكرم الفعال)[1].

مَن اليوم يطبِّق هذا المفهوم الرّاقي في الطّلاق؟ ويتسامى بأخلاقِهِ فوق ما ألفَه النَّاسُ من سلوكيَّات وتصرفات لا تتناسبُ مع عظمةِ هذا الدين؟

مَن يهدي هديَّةً مع طلاقه؟ أو يقول كلاماً طيباً مع طلاقه؟ أليس هذا أدعى إلى بقاء علاقاتِ أهلِ الزَّوجة مع الزَّوج؟ هل المطلوب أن يغضبَ الجميع، ويتألَّم الجميع؟ أليس هذا أدعى لحفظِ الوفاء بين الرَّجل والمرأة حتى بعد الطّلاق، فيحفظان أسرارَ بعضهما؟ بلى والله.

هذا رجلٌ في زماننا قدَّر الله أن يُطلقَ زوجتَه، لكنَّه لم يرعَ حقَّ الله فيها، بل قال لها: والله لأُحرِقنَّ قلبك في بناتِك، فكانت لا تراهنَّ إلا خِلسةً في المدرسة!

وعلى النقيض من ذلك، ذُكر أنَّ رجلاً كانت بينه وبين زوجتِه خلافاتٌ، فإذا سُئل عن ذلك، قال: هذه أسرارُ بيتي لا أُفشيها، وبعد مُدَّةٍ طلَّقها، فقالوا له: لِمَ فعلت ذلك، ما عيوبها؟ فقال: هي الآن غريبةٌ عنِّي لا يحقُّ لي التَّحدثُ في عرضها، يا لها من أخلاق، وصدق الله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٩].

والحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٣/ ٣٠٦.

المجلس العاشر

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾[1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإنَّه لَمَّا تقلَّبت الأحوالُ بيوسفَ عليه الصَّلاة والسَّلام، وتطوَّرت به الأطوار، عَرَف أنَّ هذه الأشياءَ وغيرَها لطفٌ من لطفِ الله له، فاعترف بهذه النِّعمة فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يُوسُف: ١٠٠].

وهذا من أعظمِ نعم الله على العبد، أن يعرضَ أحوالَه التي تمرُّ به على معاني أسماءِ الله الحسنى وصفاته العلى؛ فإن هذا له فائدتان:

الأولى: زيادةُ الإيمان.

الثانية: سهولةُ تلقِّي المصائبِ المؤلمة، وهذا يزدادُ حين يبلُغ العبدُ منزلةَ الرِّضا عن الله، بحيث يوقنُ أنَّ اختيارَ اللهِ خيرٌ من اختياره لنفسه.

أيها المؤمنون!

إنَّ من أسماءِ الله الحسنى التي تكرَّر ذكرُها في كتاب الله تعالى، ولها أثرُها البالغُ في حياة العبد لمن فقه معناها وعمل بمقتضاها: اسمُ الله اللَّطيف، الذي تمدّح سبحانه به في مواضعَ من كتابِ الله، منها: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأَنْعَام: ١٠٣]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [المُلْك: ١٤]، فكيف نعيشُ مع هذا الاسم؟ وما آثارُه الإيمانيَّةُ علينا؟

---

(١) الدرس في أغلبه ملخص من كتاب (المواهب الرّبانيَّة) لابن سعدي (بتصرف)، ص (١١٩) وما بعدها.

إنَّ التَّأملَ في آثارِ لطفِه بعباده، هو الذي يُجيب على هذه الأسئلة، والتي تعرَّض لها العلّامة السّعدي -حين بيّن شيئًا من آثار لطف الله بعباده- فقال:

(ومِن لطفِه بعباده: أنَّه يُقدّر أرزاقَ عباده، بحسب علمه بمصلحتهم لا بحسب مراداتهم، فقد يريدون شيئاً وغيره أصلح، فيُقدِّر لهم الأصلحَ وإن كرهوه؛ لطفاً بهم وبِراً وإحساناً ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ [الشُّورَى: ١٩]، ﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾ [الشُّورَى: ٢٧].

ومِن لطفِه بهم: أنَّه يُقدّر عليهم أنواعَ المصائب، وضروبَ المحن والابتلاءِ بالأمرِ والنَّهي الشَّاق؛ رحمةً بهم ولطفاً، وسَوْقاً إلى كمالهم وكمال نعيمهم: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البَقَرَة: ٢١٦].

ومن لطفِه بعبدِه: أن يُقدّر له أن يتربّى في ولاية أهلِ الصَّلاحِ والعلم والإيمان، وبين أهل الخير؛ ليكتسبَ من أدبهم وتأديبهم، ولينشأ على صلاحِهم وإصلاحهم، كما امتنَّ الله على مريمَ في قوله تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عِمْرَان: ٣٧].

ومن ذلك: إذا نشأ بين أبوين صالحين، وأقاربَ أتقياء، أو في بلدِ صلاحٍ، أو وفّقه الله لمقارنةِ أهلِ الخيرِ وصحبتهم، أو لتربيةِ العلماءِ الرَّبانيين؛ فإنّ هذا من أعظمِ لطفِه بعبده، فإنَّ صلاحَ العبد موقوفٌ على أسبابٍ كثيرةٍ منها؛ بل من أكثرها وأعظمها نفعاً هذه الحالة، ومن ذلك إذا نشأ العبدُ في بلدٍ أهلُه على مذهبِ أهلِ السُّنَّة والجماعة فإنَّ هذا لطفٌ له.

ومن لطفِ الله بعبدِه أن يجعلَ رزقَه حلالاً في راحةٍ وقناعة، يحصلُ به المقصود، ولا يشغلُه عما خُلقَ له من العبادة والعلم والعمل، بل يعينه على ذلك ويُفرّغه، ويُريحُ خاطره وأعضاءه، وهذا من لطفِ الله تعالى لعبدِه أنَّه ربما طمحتْ نفسُه لسببٍ من الأسباب الدنيويَّة، التي يظنُّ فيها إدراكَ بغيته، فيعلمُ اللهُ تعالى أنَّها تضرُّه وتصدُّه عما ينفعه؛ فيحولُ بينه وبينها، فيظل العبدُ كارهاً وهو لم يدرِ أنَّ ربَّه قد لطفَ به، حيث أبقى له الأمرَ النافع، وصرفَ عنه الأمرَ الضَّار، ولهذا كان الرِّضى بالقضاء في مثل هذه الأشياء من أعلى المنازل.

ومن لطفِ الله بعبدِه -إذا قدَّر له طاعةً جليلةً لا تُنال إلا بأعوان-: أن يقدِّرَ له أعواناً عليها ومساعدين على حملها، قال موسى عليه السّلام: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا﴾ [طه: ٢٩ - ٣٣]، وكذلك امتَنَّ على عيسى بقوله: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ [المَائِدَة: ١١١]، وامتنَّ على سيد الخلق في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأَنفَال: ٦٢].

ومن لطفِ الله بعبده: أن يعطيَ عبدَه -من الأولاد والأموال والأزواج- ما به تقرّ عينُه في الدنيا، ويحصلُ له به السُّرور، ثم يبتليه ببعض ذلك، ويأخذُه ويعوّضه عليه الأجرَ العظيمَ إذا صبرَ واحتسب، فنعمةُ الله عليه بأخذه على هذا الوجهِ أعظمُ من نعمتِه عليه في وجوده، وقضاءُ مجرد وطَرِه الدنيوي منه.

وهذا أيضاً خيرٌ وأجرٌ خارجٌ عن أحوالِ العبدِ بنفسه، بل هو لطفٌ من الله له، قيّض له أسباباً أعاضَه عليها الثوابَ الجزيل، والأجرَ الجميل.

ومن لطفِ الله بعبدِه: أن يبتليَه ببعضِ المصائب، فيوفّقه للقيامِ بوظيفةِ الصبرِ فيها؛ فينيلَه درجاتٍ عاليَّةً لا يدركُها بعمله، وقد يُشدِّد عليه الابتلاءَ بذلك، كما فعلَ بأيوب عليه السّلام، ويوجِد في قلبِه حلاوةَ روح الرّجاء، وتأميلَ الرّحمة، وكشفَ الضر، فيخفَّف ألمُه، وتنشطُ نفسُه، ولهذا من لُطفِ الله بالمؤمنين: أن جعلَ في قلوبهم احتسابَ الأجر، فخفَّت مصائبُهم، وهان ما يلقون من المشاقِّ في حصولِ مرضاته.

ومن لُطف الله بعبده المؤمن الضعيف: أن يعافيَه من أسباب الابتلاء التي تُضعفُ إيمانَه، وتُنقِصُ إيقانَه، كما أنَّ من لطفه بالمؤمن القوي تهيئةُ أسبابِ الابتلاء والامتحان، ويعينُه عليها، ويحملُها عنه ويزداد بذلك إيمانُه، ويعظم أجرُه، فسبحان اللطيفِ في ابتلائه وعافيته، وعطائه ومنعه.

ومن لطف الله بعبده أن يسعى لكمالِ نفسِه مع أقربِ طريقٍ يوصلُه إلى ذلك، مع وجود غيرها من الطُّرق التي تبعدُ عليه، فيُيسّر عليه التَّعلُّمَ من كتابٍ أو معلمٍ يكون حصول المقصود به أقربَ وأسهل، وكذلك يُسرُه لعبادةٍ يفعلُها بحالةِ اليسر والسّهولة، وعدمِ التَّعويق عن غيرها مما ينفعُه، فهذا من اللطف.

ومن لطف الله تعالى بعبده: أن يجعل ما يبتليه به من المعاصي سبباً لرحمته، فيفتح له عند وقوع ذلك بابَ التَّوبةِ والتَّضرع، والابتهال إلى ربِّه، وازدراءِ نفسه واحتقارها، وزوال العُجب والكِبْر من قلبِه ما هو خيرٌ له من كثيرٍ من الطّاعات.

ومن لطفه بعبده الحبيب عنده: إذا مالت نفسُه مع شهوات النَّفس الضَّارة، واسترسلَت في ذلك أن يُنَغِّصَها عليه ويُكدِّرَها، فلا يكاد يتناولُ منها شيئاً إلا مقروناً بالمكدِّرات، محشواً بالغصص؛ لئلا يميلَ معها كلَّ الميل، كما أنّ من لطفه به أن يُلذِّذَ له التَّقرُّبات، ويُحلِّي له الطّاعات، ليميلَ إليها كلَّ الميل.

ومن لطيفِ لطفِ الله بعبدِه: أن يأجرَه على أعمالٍ لم يعملها بل عزمَ عليها، فيعزمُ على قربةٍ من القربِ ثم تنحلُّ عزيمتُه لسببٍ من الأسباب فلا يفعلُها، فيحصلُ له أجرُها، فانظر كيف لَطَفَ اللهُ به! فأوقعَها في قلبه، وأدارَها في ضميره، وقد علم تعالى أنَّه لا يفعلها؛ سوقاً لبرِّه لعبده وإحسانه بكلِّ طريقٍ.

وألطف من ذلك: أن يُقيِّضَ لعبدِهِ طاعةً أخرى غيرَ التي عزمَ عليها، هي أنفعُ له منها، فيدعُ العبدُ الطّاعةَ التي ترضي ربَّه لطاعةٍ أخرى هي أرضى لله منها، فتحصلُ له المفعولةُ بالفعل والمعزوم عليها بالنيَّةِ، وإذا كان من يُهاجرُ إلى الله ورسوله، ثم يُدركُهُ الموتُ قبل حصولِ مقصودِهِ قد وقع أجرُهُ على الله -مع أنَّ قطعَ الموتِ بغير اختياره- فكيف بمَن قطعت عليه نيتَه الفاضلةَ طاعةٌ قد عزم على فعلها؟! وربما أدار الله في ضميرِ عبدِه عدَّةَ طاعات، كلُّ طاعةٍ لو انفردت لفعلَها العبد؛ لكمالِ رغبتِه، ولا يمكنُ فعلُ شيءٍ منها إلا بتفويتِ الأخرى، فيوفِّقُه للموازنة بينها، وإيثارِ أفضلِها فعلاً، مع رجاء حصولِها جميعها عزماً ونيَّة.

وألطف من هذا: أن يُقدِّرَ تعالى لعبدِه ويبتليه بوجود أسباب المعصية، ويوفِّرَ له دواعيها، وهو تعالى يعلمُ أنَّه لا يفعلها؛ ليكون تركُه لتلك المعصية التي توفرت أسباب فعلِها مِن أكبر الطّاعات، كما لطفَ بيوسفَ عليه السّلام في مراودةِ المرأة، وأحدُ السبعةِ الذين يُظلُّهم اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه: رجلٌ دعته امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فقال: إنِّي أخَافُ الله.

ومن لطف الله بعبده: أن يُقدِّرَ خيراً وإحساناً من عبده، ويُجريَه على يدِ عبده الآخر، ويجعله طريقاً إلى وصوله للمستحِق، فيثيبُ اللهُ الأولَ والآخر.

ومن لطفِ الله بعبده: أن يُجريَ بشيءٍ من ماله شيئاً من المنافع وخيراً لغيره؛ فيثيبه من حيث لا يحتسبُ، فمن غرسَ غرساً، أو زَرَعَ زرعاً؛ فأصابت منه روحٌ من الأرواحِ المحترمةِ شيئاً، آجرَ اللهُ صاحبَه وهو لا يدري! خصوصاً إذا كانت عنده نيةٌ حسنةٌ، وعقَدَ مع ربِّه عقداً في أنه مهما ترتَّب على ماله شيءٌ من النفع، فأسألك يا رب أن تأجرَني، وتجعلَه قربةً لي عندك، وكذلك لو كان له بهائمُ انتفعَ بدرِّها وركوبِها والحملِ عليها، أو مساكنُ انتُفع بسكناها ولو شيئاً قليلاً، أو ماعونٌ ونحوه انتُفع به، أو عينٌ شُرِبَ منها، أو غيرُ ذلك ككتاب انتُفع به في تعلُّم شيءٍ منه، أو مصحفٍ قُرئ فيه، والله ذو الفضل العظيم.

ومن لُطف الله بعبدِه: أن يفتحَ له باباً من أبوابِ الخير لم يكن له على بال، وليس ذلك لقلة رغبته فيه، وإنَّما هو غفلةٌ منه، وذهولٌ عن ذلك الطّريق، فلم يَشعُر إلا وقد وَجَدَ في قلبِه الداعي إليه، واللافت إليه؛ ففرح بذلك، وعَرَفَ أنَّها من ألطافِ سيِّده، وطُرُقه التي قيّض وصولها إليه، فصرفَ لها ضميرَه ووجّه إليها فكره، وأدرك منها ما شاء الله وفتح) اهـ كلامه[1]...

والحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) ينظر:.

* تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.

* المواهب الربانية من الآيات القرآنية.

* فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن.

كلها للسعدي.

المجلس الحادي عشر
واستنارت حياتهم بالقرآن[1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فلقد تأثَّرَ سَلفُنا الصالح بآيات الله، وكانوا حَدِيثي عَهْدٍ بنزولها، وكان رسول الله ﷺ يحيا بالقرآن بين أظهُرِهم، ولكنّ القرآن الكريم الذي أخرج لنا تلك النماذجَ المشرقة من سلف الأمة، لم يفقد قدرتَه على التَّأثير على قارئيه في زماننا، ولم يُعْدَم مِن أهله مَن يتلوه حَقَّ تلاوته؛ ويستخرج منه كُنُوزَه، ويَسْتَلهمُ منه توجيهه، ويسير على خطاه وهديه، حيث تبقى هذه الخيريَّة في أُمَّةِ الاستجابة إلى آخر الزمان كما جاء فيما روي عن النَّبيِّ ﷺ مِن وُجوه مختلفة: «**مثلُ أمَّتي مَثَلُ المَطَرِ لا يُدرَى أولُه خيرٌ أم آخره**»[2]. قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيانِ معناه: (أيْ أنَّ في المتأخِّرين مَن يُشبه المتقدِّمين ويُقاربُهم حتى يبقى -لقوَّةِ المشابهةِ والمقارنة- لا يَدرِي الذي ينظُرُ إليه أهذا خيرٌ أم هذا، وإن كان أحدُهما في نفسِ الأمرِ خيراً، فهذا فيه بُشرى للمتأخِّرين بأنَّ فيهم مَن يُقاربُ السَّابقين)[3].

وها هنا بعضُ المواقفِ المعاصرةِ التي تَحدَّثَ بها أصحابُها في بيانِ حالِهم مع القرآنِ تدبُّراً وعملاً، وكيف كان أثرُ ذلك في تحوُّلهم من الضلال إلى الهداية، ومن اتِّباع الشهوات إلى الاجتهاد في العبادات، لقد أثمرَ ذلك في قلوبهم حلاوةً وإيماناً لا يجدهما إلا مَن عاشَ مع القرآن كما عاشوا، وتدبَّره كما تدبَّروا!

---

(١) للدكتورة أسماء بنت راشد الرّويشد.

(٢) رواه أحمد (١٢٣٢٧) وصححه ابن حبان (٧٢٢٦)، وقال ابن عبد البر عنه: روي من وجوه حسان، ينظر: التَّمهيد (٢٠ / ٢٥٣).

(٣) ينظر: مجموعة الفتاوى (١١ / ٣٧١).

- فهذا أحدُهم أزهَرَتْ حياته بالقرآن، يقول: اكتَشَفْتُ أنَّ العلاج الناجح لكل داء هو القرآن الكريم، دائي كان ذنوبي، وضَعْفُ سيطرتي على شهوات نفسي، حتى أوصلني ذلك إلى حد كره ذاتي، ولم يكن عُمري قد تجاوز السّابعة عشر بعد!

وقبيل رمضانَ بأيام سمعتُ كلماتٍ ناصحةً تَحُثُّ على استثمار فرصةِ رمضان، وجعله نقطةَ انطلاقٍ لحياةٍ جديدةٍ من خلال تدبُّر القرآن الكريم، فامتثلتُ لهذه الموعظة وقرأتُهُ بخشوعٍ وتدبُّرٍ، فأحسستُ به يَغسِلُ كُلَّ رُكامِ الآثام بداخلي، وبدأتُ أدوِّنُ كل آيةٍ أتأثَّرُ بها في دفتر خاص، وأبحثُ عن تفسيرها، فأقرؤه بعد ذلك فيزيدُ إيماني وأهنأ بالسَّكينة، فأزهرتْ حياتي بالقرآن، والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.

- وآخرُ استوقفتْه آيةٌ من سورة الأنفال، إنَّها قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فيقول: بحثتُ عن تفسيرها وتأثَّرت به جداً، فأصبحتْ بعد ذلك المقياس والمحكَّ لكلّ موقفٍ يمرُّ بي: هل أنا في المسار الصحيح، أم حِدْتُ عن الطّريق؟ فتَسْتَحِثُّني للإسراع في الاختيار، ففي الآية دعوةٌ بنداءِ الإيمان، وأمرٌ بالمسارعة إلى طاعةِ كلِّ أمرٍ مِن الله ورسوله؛ خشيةَ أن يُحالَ بينك وبين قلبك إذا توانيتَ أو تردَّدت، ثم تتمنى بعد ذلك الوصولَ إليه فلا تستطيع!

- وهذه فتاةٌ عرفتْ طعمَ الحياة الحقيقيَّة يومَ تدبَّرتْ كلامَ الله فأحبَّته وآثرتْ مَحابَّه على كل شهواتها، فتقول: مررتُ ذاتَ يوم -وأنا أقرأ في كتاب الله- بآيةٍ لَكأنَّني أقرؤها لأوَّل مرَّة، وقفتُ هذه المرة أمامَها وقوفاً طويلاً، انتهى بي إلى بكاءٍ شديدٍ، ولَّد في أعماقي إصراراً كبيراً، وقوةً لا تقف عند حدٍّ في تغيير واقعِ نفسي وأمتي؛ ولو خطوةً واحدةً إلى الأمام، لقد أحسستُ بقُشَعْريرةٍ لا تزالُ تسري في أوصالي كلما ردَّدتُها،

وكأنَّها تناديني قائلةً: غيِّري وإلا تُغَيَّري! إنَّها قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المَائِدَة: ٥٤]، إنَّه فضلُ الله يؤتيهِ مَن يشاء، وإنِّي لأسألُ اللهَ أن أكون ممن يؤتاه بمنته ورحمته، وأن نكونَ ممَّن يستعملُهم سبحانه في طاعته وخدمةِ دينه، لا ممَّن يستبدلُهم... آمين.

- فتاةٌ أخرى تُحدِّث عن آيةٍ غيَّرت حياتَها، فتقول: قرأتُ ذات يومٍ آيةً غيَّرت مجرى حياتي كلَّه، وهي قوله تعالى: ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾ [النِّسَاء: ١٠٨]، وكنت عاصيةً لله عزَّ وجلَّ ثلاثَ سنوات كاملة، حاولتُ أن أتركَ المعصية لكني ما استطعت... وجلستُ يوماً أبكي بشدة، وأناجي ربي، فسمعت الآيةَ السابقة، فانشرح لها صدري، وتَملَّكني الحياءُ من ربي عز وجل، وسألت نفسي حينها بصدقٍ: هل أقبلُ أن يراني أبي أو أمي أو أي أحدٍ في هذه الدنيا على ما أنا فيه؟ أو حتى أن يسمعوا بما أفعل؟

وكان جوابي الأكيد لنفسي: لا، وألف لا...، فإن كنت قد استحييتُ من العباد، فكيف بربِّ العباد وهو المُطَّلع على كل شيء! فاستحييتُ من نظرِهِ سبحانه إلي وأنا أعصيه، وقررت أن أتركَ ما أنا فيه، ومَن تركَ شيئاً لله عوَّضَه اللهُ خيراً منه، وبمنَّةٍ من الله وفضلٍ تركتُ المعصية، وها أنا أنعم بالسَّعادة بفضل ربي منذُ سنوات.

- ما أعظمَ أثر هذا القرآن في النُّفوس المؤمنة! فهذا متدبِّرٌ يقول: كم أثَّرَ فيَّ قولُه سبحانه: ﴿ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [المُؤۡمِنُون: ١٠٥]، لقد صارت أمامَ عيني كلَّما هممتُ بمعصية، أتخيَّلُ أنَّ اللهَ سبحانه يُخاطبني بها فأرتدع، فها هو القرآن بين أظهُرِنا يُتلى آناء الليل وأطراف النهار، نوراً يمحو ظلماتِ الهوى، لا يتركُ لأحدٍ على الله حُجَّة، فلنستمع لآياتِه، ونتَّعظ بها قبل أن يُقالَ لنا: ﴿ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [المُؤۡمِنُون: ١٠٥].

- وهذا أحدهم يقول: احتاجت أمي في يوم من الأيام لشيء يُكَلِّفُ بعض المال، وكنتُ ألمس رغبتَها فيه وحاجتَها إليه، وكان لديَّ بعضُ المال الذي رصدتُه لحاجةٍ لي، لكنَّه قد يقضي حاجةَ أمي، ومرَّ في نفسي خاطرٌ: لِمَ لا أقدم حاجتَها على حاجتي؟ ألم يأمرني اللهُ ببرِّها؟ وراودتني نفسي فصارعتُها؛ حتى قررت تقديمَ حاجتِها على حاجتي مهما كلَّفني ذلك، وتذكَّرت قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحَدِيد: ١١]، قَضيتُ حاجتَها، وكلَّفني ذلك مبلغاً من المال، كُلِّي أملٌ في رضاها بعد رضا الله، ولَمَّا فاجأتُها بالأمرِ بكتْ من شدَّة الفرح، فانشرح صدري لما وفَّقني الله إليه من برِّها وإدخال السُّرور عليها.

العجيب في الأمر أنَّه في اليوم التَّالي لقضائي حاجتَها، تمَّ تحويلُ مبلغٍ لحسابي مكافأةً من جهةٍ رسميَّةٍ، والأعجبُ أنَّها كانت بمعدَّلِ الضِّعفِ وزيادة، فبكيتُ حينها لأنَّني تذكَّرتُ موعودَ الله عزَّ وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحَدِيد: ١١].

إنَّهم جميعاً عاشوا مع الآيات بتفاعلٍ! حتى سَرَت الرُّوح في قلوبِهم، وشَعَّتْ أنوارُ القرآن في نفوسِهم، إنَّه الحقُّ في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتًا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ [الأنعَام: ١٢٢].

هذه -أيها المؤمنون- نماذجُ من أحوالِ أناسٍ يعيشون في عصرنا، ويتأثَّرون بها حولهم، عاشوا مع آيةٍ فنقلتْهم إلى عالمٍ آخر من السَّعادة، وحياةِ القلوب، التي هي الحياةُ الحقيقية. هذا حالُهم مع آيةٍ، فكيف بمَن عاش مع القرآن طيلة حياته؟!

اللهم اجعل القرآنَ ربيعَ قلوبنا، ونورَ صدورنا، وجلاءَ أحزانِنا، وذهابَ همومِنا، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الثاني عشر
كيف نقرأ ونستمع لسّورة النساء؟[1]

الحمدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فإنَّ الحديثَ عن تدبُّر القرآن الكريم حديثٌ ذو شجون، والكلامُ فيه له شُعَبٌ وتفاصيلُ ومناهج، وإنَّ من الأساليب التي تُعينُ على تقريبِ فَهمِ هذه العبادةِ العظيمة -عبادة التَّدبُّر- أن يُذكرَ نموذجٌ يُحتذى، ويُقاسُ عليه في كيفيَّة قراءة القرآن قراءةً تدبُّريَّة.

ولعلَّنا في هذا المجلسِ نضرِبُ لذلك مثلاً بسورةٍ عظيمةٍ من السّبعِ الطِّوال المليئةِ بالأحكام، تلكم هي سورةُ النساء، نحاوِلُ أن نُجيبَ عن هذا السُّؤال: كيف نقرأ ونستمعُ سورةَ النساء؟

سورةُ النساء -أيُّها المؤمنون- عامَّتُها في (حقوقِ الضعفاء): المرأةُ واليتيمُ واليتيمة والسّفيهُ والوارثُ الضعيف، والذي يُغلَب في التِّجارة، والموالي (الخدم)، والمظلوم والمريض والمسافر والخائف والمُسْتَضْعَفُ في الأرض والكلالة... ونحوهم؛ لذا لم يأمر الله عزَّ وجلَّ بالقِسط (العدل) في شيءٍ من القرآن كما أمر به في سورتي النساء والمائدة، وبعضُ آياتها قد يحتاجُ ربطُها بهذا المعنى إلى تَكلُّفٍ وقد نُهينا عنه كما في البخاري عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]. لكن مَعاقِدُها تدورُ على القِسطِ والعَدل:

(١) للشيخ الدكتور عصام بن صالح العويد.
(٢) البخاري: (٧٢٩٣).

- ففي مطلعِها نقرأ قولَه تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾ [النِّسَاء: ٢]، وقوله: ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ ﴾ [النِّسَاء: ٣]، وقوله: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ ﴾ [النِّسَاء: ٤]، وقوله: ﴿ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾ [النِّسَاء: ٥].

وفي وسطها نقرأ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ ﴾ [النِّسَاء: ١٩]، وقوله: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴾ [النِّسَاء: ٢٨]، وقوله: ﴿ وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ ﴾ [النِّسَاء: ٣٣].

وقوله: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ.. فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴾ [النِّسَاء: ٣٤]، وقوله: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ ﴾ [النِّسَاء: ٤٣].

ونقرأ في أواخرها: أنَّ الجهاد فيها من أجلِ الضُّعَفاء: ﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرٗا ﴾ [النِّسَاء: ٧٥].

ونقرأ فيها صلاةَ الخوف: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡ ﴾ [النِّسَاء: ١٠٢] الآيات.

وتكرَّرَ الأمرُ فيها بالعدلِ مع الضعفاء، والتَّخويف باطِّلاع الله وكمال علمه بالخفايا، كما قال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النِّسَاء: ١٣٥].

وختمت (النساء) بآية الكلالة ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ﴾ [النِّسَاء: ١٧٦] والكلالة: من لا ولدَ له ولا والد، وهذا نوع ضَعفٍ في المال ظاهر.

فإن شَرَعْتَ -أيها الموفَّق- في قراءتِها أو سماعها، فاعرِضْ نفسك عليها، كيف أنت في إنصافِك من نفسِك وأدائِك لحقِّ الضعيف، أو انتصارِك له حين يُظلَم، أياً كان:

- المرأة: سواء كانت أمّاً أو بنتاً أو أختاً أو زوجةً أو قريبةً أو بعيدةً، مسلمةً أو كافرةً.

- اليتيم واليتيمة أو اللقيط واللقيطة، حين يُظلَمون من الأفراد أو المجتمع.

- الوارِثُ أو الوارثةُ حُرِموا من ميراثِهم.

- سائقٌ أو خادمةٌ أو عامل، لم يستلموا حقوقَهم من أشهرٍ متطاولة.

- مظلومٌ من النَّاس أو من الحكومات.

- مريضٌ لم يجدْ مستشفى يؤويه.

- خائفٌ مُستَضعَفٌ مِن جبَّارٍ في الأرض.

وغيرُهم كثير، ثمَّ تأمَّل بعضاً من تهديدِ اللهِ للباغين على حقوقِ الضعفاء:

- ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [النِّسَاء: ٦].

- وبعد آيةِ المواريثِ وعدَ وتوعَّدَ سبحانه: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النِّسَاء: ١٣ - ١٤].

وقال في المَهرِ: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [النِّسَاء: ٢١].

وقال في شأنِ الزَّوجةِ وظلمِها: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النِّسَاء: ٣٤].

وقال في الأموالِ وظُلمِ النَّاس فيها: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النِّسَاء: ١٦٠ - ١٦١].

هذا -أيها المؤمنون- بعضُ حديثِ سورةِ (النساء) إلينا، جَعَلَها اللهُ حجةً لنا لا علينا، وغفر لنا ولوالدينا، ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الثالث عشر

﴿ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾[1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فتَمُرُّ بالأُمَّةِ والفردِ أوقاتٌ من الانتصار، ومثلها من الانكسار، وأوقاتٌ من الفرح، وأخرى من الحزن، فيُسَرُّ بالأولى، ويحزنُ للثانية، وربما بلغت عند البعض حَدَّ اليأس، أو إساءة الظَّنِّ بالله وبإخوانه المسلمين، فأورثه ذلك قُعوداً وإحباطاً.

ولا يقتصرُ هذا الأمر على أفراد النَّاس أو آحادِهم وعوامِّهم؛ بل ربما يَشمَلُ فئاتٍ كثيرةً من المجتمع؛ من علمائه أو قادته أو غيرهم، وهي طبيعةٌ حدَّثنا عنها القرآن الكريم في مواضعَ كثيرة، لنعالجها ونتبصَّر الطّريقَ إزاءَها.

وإذا عدنا إلى قصة الأحزاب سنتذكَّر أنَّ الأحزاب اجتمعت على النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ من خارجِ المدينة وداخلها؛ كقريشٍ ويهود والمنافقين، ولكن لِنتأمل وصفَ القرآن لهذه الحال، إذ يقول: ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴾ [الأَحۡزَاب: ١٠ - ١١]، فتأمَّل التَّعبيرَ بقوله: ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠... ﴾.

ثم يُعيدُ التَّاريخُ نفسَه بعد أكثر من ستةِ قرون من حادثة الأحزاب، حين هَجَمَ التَّتارُ على بلاد الإسلام، فيأتي الإمامُ ابنُ الأثير، وهو أحد كبار المؤرِّخين فيقول: (لقد بَقِيتُ عِدَّةَ سنينَ مُعْرِضاً عن ذكر هذه الحادثة -يقصد دخول التَّتار وإفسادَهم وقتلَهم في بلاد المسلمين- استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أُقدِّم رِجلاً، وأؤخِّرُ أخرى، فمن يسهُل عليه نعيُ الإسلام والمسلمين، ومَن الذي يهون عليه ذكرُ ذلك، فيا ليتَ أمِّي لم تلدني، ويا ليتني متُّ قبل هذا وكنتُ نسياً منسياً)[2].

(١) للدكتور محمد بن مصطفى السّيد.

(٢) (الكامل في التَّاريخ) لابن الأثير ١٠ / ٣٣٣.

تأملوا معي هذه الرُّوح التي غلبتْ عليه أثناء تسطيرِ هذه الكلمات، وهي من جهةٍ تُحمدُ له على حزنِهِ على ما أصابَ الإسلامَ والمسلمين، لكن لا تُحمدُ له تلك النظرةُ التَّشاؤميَّة التي عاشَها ونقلها إلى كل من قرأ كلماتِه هذه، ولكم أن تساءلوا: هل مات الإسلامُ بعد سقوط بغداده، أم أنَّه اتَّسعَ وانتشرَ، ووصل إلى أماكنَ لم يصل إليها من قبل؟

بعضُ الناس -وبعضُهم فضلاء- قد يقع -من حيث لا يشعر- فيما ذمَّ اللهُ به طائفةً من المنافقين، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٥٤]، كما يغيبُ عنه الحديث القدسي: «**أنا عندَ حسنِ ظنِّ عبدي بي، فليظنَّ بي ما شاء**»[(١)].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإنَّما كان هذا ظنُّ السوءِ وظنُّ الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظنّ غيرِ الحق؛ لأنَّه ظنُّ غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وذاته المبرَّأة من كلِّ عيبٍ وسوء، بخلافِ ما يليقُ بحكمته وحمده، وتفرّدِه بالرّبوبيَّة والألوهيَّة، وما يليق بوعدِهِ الصّادق الذي لا يخلفُه، وبكلمتِه التي سبقتْ لِرُسلِه أنَّه ينصرُهم ولا يخذلُهم، ولجنده بأنَّهم هم الغالبون، فمن ظنَّ بأنَّه لا ينصرُ رسولَه ولا يتمُّ أمرَه، ولا يؤيّدُه ويؤيدُ حزبَه ويُعليهم ويُظفرُهم بأعدائه، ويُظهرُهم عليهم؛ فقد ظنَّ بالله ظنَّ السوء)[(٢)].

إذاً فنحن مأمورون بحسنِ الظَّنِ بربِّنا، ومأمورون بالوثوق بحكمتِه وقدرته التي نجهلُ بعضَها، ويغيبُ عنا بعضُها لمحدوديَّةِ عقولِنا فلا نستوعبُها، وتظهرُ لنا آثارُ بعضها في الحياة والكون والسُّنن، وحين نشعرُ بذلك الشعور؛ فإنه سيقودنا إلى الرِّضى والتَّسليم - بلا شك، إضافةً إلى قدرٍ جيدٍ من الرَّاحة النفسيَّةِ التي تُعينُنا على مواجهة مصائبِ الحياة ومصاعبها، وعندها ترتاحُ نفوسنا، وتسكن قلوبنا.

---

(١) رواه البخاري (٧٥٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: (أنا عند ظن عبدي بي).
(٢) (زاد المعاد) ٢٠٥/ ٣.

وحتى نستشعرَ أهميَّةَ هذا الأمر، لنستمعْ إلى حديث جابرِ بن عبدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل موته بثلاثةِ أيَّام يقول: «**لا يموتنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسنُ الظَّنَّ بالله عزَّ وجلَّ**»(١).

إنَّ حسنَ الظنِّ بالله شأنُ المؤمن الموفَّقِ الواثقِ بربِّه، وهو الذي يجعلُه متفائلاً في حياته، يسيرُ باتجاه العملِ الفاعلِ المثمرِ البنَّاء، متخلِّياً عن اليأس والإحباط، وهو ما سوف يُساعدُه على الثَّباتِ أمام العقبات التي تعترضُه في حياته وعملِه ودعوته.

وبعد أن يُحسنَ المرءُ الظنَّ بربه؛ فإنَّه مأمورٌ بإحسانِ الظَّنِّ بإخوانِه المسلمين، ولنستمعْ سوياً إلى قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحُجُرَات: ١٢]، ولنستمع أيضاً إلى قول النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إيَّاكم والظَّنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديث**»(٢).

إنَّ حُسنَ الظَّنِّ بالمسلمين يُورثُ الألفةَ والمحبَّةَ بينهم، وفي المقابل فإنَّ سوءَ الظَّنِّ يورثُ العداوةَ والبغضاءَ والحسدَ، الأمرُ الذي يدفعُ المرءَ إلى ارتكابِ جرائمَ وقبائحَ ليس لها حدّ، ولذلك جاء في تمام الآية: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ [الحُجُرَات: ١٢]، كما جاء في تمام الحديث: «**ولا تَحَسَّسُوا ولا تَجَسَّسوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عبادَ الله إخواناً**»(٣).

لقد قرَّرَ أهلُ العلم أنَّ البغضَ والحَسَدَ ينشآنِ أولَ ما ينشآن عن سوءِ الظَّنِّ بالآخرين، حيث يتأوَّلُ المرءُ أفعالَ إخوانه أياً كانت أسوأ تأويل، وهذا واضحٌ ومُشاهدٌ، فكم يرى المرءُ أقواماً أساؤوا الظَّنَّ بإخوانِهم؛ فنشأ عن ذلك ما لا يخفى من الحقدِ والحسدِ والغيبةِ والنَّميمةِ، ولو أنَّهم أحسنوا الظَّنَّ بهم لكان الأمرُ أهونَ من ذلك بكثير، ولما احتاجوا كل ذلك، بل باتوا في راحةٍ واطمئنان.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٧).

(٢) رواه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣).

(٣) التَّخريج السّابق.

كم هُدمتْ بيوتٌ وأُسر، بل كم فُضَّت عقودٌ وشراكات، وانهارت أعمالٌ بسببٍ من سوءِ الظَّنِّ، والشيطانُ واقفٌ يترصَّدُ ليوسِّعَ الشَّرخَ ويزيدَ في العداوة.

هذا، وإنَّ حسنَ الظنّ ليس مطلوباً مع كلِّ أحد، فربَّما يأتي مع أُناسٍ يجبُ ألا نحسنَ الظَّنَّ بهم، فيغترّ بهم وبأعمالهم المرء، كحالِ بعضِ المنافقين، ففي حديث عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما أظنُّ فلاناً وفلاناً يعرفان من أمرنا شيئاً**»، قال الليث: (كانا رجلين من المنافقين)[1].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (إنَّ مثلَ هذا الذي وَقعَ في الحديث ليس من الظَّنِّ المنهيِّ عنه، لأنَّه في مقام التَّحذيرِ من مثلِ مَن كان حالُه كحال الرَّجلين، والنَّهيُ إنَّما هو عن الظَّنِّ السّوءِ بالمسلمِ السَّالمِ في دينِه وعرضِه، وقد قال ابن عمر: إنَّا كنَّا إذا فقدنا الرَّجل في عِشاء الآخرةِ أسأنا به الظَّنَّ، ومعناه: أنَّه لا يغيبُ إلا لأمرٍ سيءٍ، إما في بدنه، وإما في دينه)[2].

إنَّ هذا الأمرَ يقودنا إلى ألا نكونَ أغراراً تُلبَّس علينا الأمور، فيستغلُّنا بعضُهم تحت حجةِ حسنِ الظَّنِّ بالآخرين، فيُمرِّر علينا -وتحت نظرنا وسمعنا- ما يريدُ من أعمالٍ أو قراراتٍ أو أفكارٍ أو أخبار، بل المطلوبُ منَّا التَّمحيصُ؛ خاصَّةً مع من لا تَظهرُ عدالتُه أو لا يظهرُ عدلُه، والتَّدقيقُ في الأمور، ومتابعتُها جيداً، حتى لا نقعَ في شراكِ هؤلاء.

إنَّنا إذ نتحدّث عن ذلك، نطرحُ الأمرَ من جانبيه، والمسلمُ مطلوبٌ منه ألا يفقدَ حسنَ الظَّنِّ بالمسلمين، كما أنَّه مطلوبٌ منه ألا يحسنَ الظَّنَّ بكلِّ أحدٍ ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفُرْقَان: ٦٧].

اللَّهم طهِّرْ قلوبَنا من أمراضِها، وارزقْنا القصدَ في الفقر والغنى، واغفرْ اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) البخاري (٦٠٦٧).

(٢) فتح الباري ١٠/ ٤٨٦.

المجلس الرّابع عشر
من أسرار قراءة بعض السّور يوم الجمعة[1]

يمرُّ على المؤمن يومَ الجمعة عددٌ من السُّور، إمَّا أن يقرأها بنفسه كسورة الكهف، أو يسمعَها من إمام المسجد في صلاة الفجر أو الجمعة، أو يسمعَها في خطبة الجمعة. وعند حصرِ هذه السُّورِ وَجَدْتُ أنَّها ثماني سورٍ، منها المكي وهي سورة السّجدة و(ق) والكهف والأعلى والغاشية، ومنها المدني كالجمعة والمنافقون والإنسان، فهذه ثماني سورٍ من السُّور التي كان النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأُ بها ويحثُّ على القراءةِ بها يوم الجمعة[2].

وإيماناً منَّا بأنَّ كلَّ عملٍ يأْمُرُ بِهِ الله أو يأمرُ به رسولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشتَمِلُ على حكمٍ ومَعَانٍ يظهرُ بعضُها للمتأمِّلِ المتدبِّرِ لأوَّلِ وهلة، وتحتاجُ بعضُها إلى إعمالِ الفكرِ لاستخراجِها واستنباطِها، فسنحاول التَّدبُّرَ في هذه السُّور الثمان؛ لنرى شيئاً من أسرارِ هذه المزيَّة والفضيلة التي اختصت بها.

وهذه السّورُ تَشتَرِكُ في أنَّها تُذكِّرُ الإنسانَ بقضايا كبرى في حياته يجبُ أن تُكرَّر على سمعِ المؤمنِ باستمرار، بحيث تستقرُّ في نفسِه استقراراً ينفي كلَّ شكٍّ، وتُشكِّلُ بتكرارِها وعيَ المؤمن الذي يواظبُ على حضورِ هذه الصلوات مع الجماعة.

---

(١) للدكتور عبد الرحمن بن معاضة الشهري.

(٢) عن ابن عباس أن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [السَّجْدَة] و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ [الإنسَان]، وأن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرأ في صلاة الجمعة سورة الجمعة والمنافقون. أخرجه مسلم (٨٧٩).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال كان النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ في الجمعة، في صلاة الفجر، آلم تنزيل، السّجدة، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ [الإنسَان]. أخرجه البخاري (٨٩١).

أولًا: سورة الكهف

أغلبُ المتدبِّرين لهذه السُّورةِ يرون أنَّ المقصدَ الذي تدورُ حولَه آياتُ هذه السُّورة: هو الإرشادُ إلى كيفيَّةِ النَّجاةِ والعصمةِ من الفتنِ بأنواعِها، وقد وردَ في السُّورة أربعةُ أمثلةٍ للفتنِ؛ تُعتبرُ من أعظمِ الفتن التي يُبتلى بها المرءُ في حياته:

- فتنةُ الدِّين في قصَّةِ أصحابِ الكهف، وكيف اعتصمَ الفتيةُ بالله، وفرُّوا من كُفرِ قومِهم، فعصمَهم اللهُ ونجَّاهم.
- فتنةُ المالِ في قصَّة صاحبِ الجنتين، وكيف فَشِلَ الرّجلُ في الاختبارِ فَمَحَقَ اللهُ مالَه.
- فتنةُ العلم في قصّةِ الخَضِرِ مع موسى عليه الصّلاة والسّلام، وكيف شكرَ الخضر هذه النعمة.
- فتنةُ الملكِ في قصّة ذي القرنَين، وكيف نجحَ ذو القرنين في هذا الابتلاء بشكرِ هذه النعمةِ العظيمةِ، واستعملَها في طاعة الله.

وهذه المعاني العظيمةُ يحتاجُ المؤمنُ إلى تذكُّرها باستمرار، فشُرعت قراءتُها كلَّ جمعةٍ. وفي اسمها ما يدلُّ على موضوعِها ومقصدِها، وهو (الكهف)؛ فهو عصمةٌ ماديَّةٌ لمن يلجأُ إليه عادة، وكذلك معاني وآياتُ هذه السُّورةِ عصمةٌ لمن قرأها وتدبَّرَها من هذه الفتن، ومن أعظمِ الفتنِ فتنةُ الدَّجال، ولذلك قال النَّبيِّ ﷺ: «**فمن أدركه منكم - أي الدجال-، فليقرأْ عليه فواتحَ سورةِ الكهف**»[1]. وفي رواية: «**مَن قرأ العشرَ الأواخرَ من سورةِ الكهفِ فإنَّه عصمةٌ له من الدَّجال**»[2].

(١) صحيح مسلم (٢٩٣٦).

(٢) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (٩٤٨).

وحذَّرَ اللهُ من الشَّيطان في أثناء هذه السُّورة وأشارَ إلى مخالفته للإنسانِ وعداوته له في قوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكَهْف: ٥٠].

ثانياً: سورة السّجدة

تدورُ آياتُها حولَ بيانِ حقيقةِ الخلقِ وأحوالِ الإنسان في الدُّنيا والآخرة، ببيانٍ شافٍ كافٍ، يبعدُ من نفسِ الإنسانِ كلَّ فكرةٍ إلحاديَّةٍ تحاولُ التَّسلُّلَ إلى ذهنِ المؤمنِ، في زحامِ الأفكار وعولمةِ الثقافات. فهي تفصِّل كيف خلقَ اللهُ السّموات والأرض في ستَّةِ أيام، وكيف خلقَ الإنسانَ الأولَ من طين، وخلقَ سلالتِه من ماءٍ مهينٍ، في تفصيلٍ رائعٍ يَطمئنُّ له القلبُ المؤمن، ويزدادُ تعلُّقُه بربِّه، ولا يملكُ إلا أن يخرَّ ساجداً بين يديه، ولذلك سُمِّيت سورةُ السّجدة، وشُرع سجودُ التَّلاوةِ عند الآيةِ الخامسة عشر من آياتها.

ثالثاً: سورة ق

سورة (ق) كان النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرؤها في الخطبةِ يوم الجمعة في أحيانٍ كثيرة، وقد ذكرتْ أمُّ هشامٍ بنتُ حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُا حديثاً يدلُّ على كثرةِ تكرار النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقراءة سورةِ (ق) في خطبة الجمعة، حيث قالت: وما أخَذْتُ ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ [ق: ١] إلا على لسانِ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرؤها كلَّ يومِ جمعةٍ على المنبر إذا خَطَبَ النَّاس[1]. وآياتُها تدورُ على بيانِ حقيقةِ البعثِ واليومِ الآخر، مع الاستدلالِ على اليومِ الآخر والبعثِ بعد الموت، والاستدلال على توحيدِ الألوهيَّةِ بتوحيدِ الرُّبوبيَّة.

(١) رواه مسلم (٣٧٨).

رابعاً: سورة الجمعة

سُمِّيت بسورة الجمعة لمجيء ذكرِ يومِ الجمعة فيها، وهي تؤكِّدُ على تذكير الأمَّة في هذا اليوم العظيم؛ بنعمةِ الله عليها بإرسالِه محمداً عليه الصلاة والسَّلام، وأنَّ اللهَ قد جعلَه هدايةً لها بعد الضَّلالِ المبينِ الذي كانت فيه، ولا شكَّ أنَّ هذا من أعظمِ القضايا في حياةِ المؤمن، التي لا ينبغي أن تغيبَ عن ذهنه، ولذلك شُرعت قراءتُها في صلاة الجمعة.

خامساً: سورة المنافقون

تؤكّد السُّورة على كشفِ المنافقين، وبيانِ حقيقتهم، وأبرزِ صفاتهم، لتكونَ بمثابةِ تحذيرٍ أسبوعي من طائفةٍ خطيرةٍ تَهدمُ الإسلامَ من الداخل، وتوضِّحُ للمؤمنين أنَّ حصونَنا مهددةٌ من داخلِها بهؤلاء المنافقين! ولِعظم خطرِهم وعدمِ انقطاعِهم من المجتمع، منذُ عهدِ النَّبيِّ ﷺ حتى اليوم، شُرِعَ التَّحذيرُ منهم بشكلٍ متكررٍ، بتلاوةِ هذه السّورة في صلاة الجمعة.

سادساً: سورة الإنسان

تؤكِّد السُّورة على تذكيرِ الإنسانِ بأصلِ خلقتِه، وتبيِّن عاقبتَه ومصيرَه في الآخرة؛ ليكونَ على حذرٍ وعلى بينةٍ من أمره، فقد فصَّل اللهُ في السّورة كيف بدأ خلقَ الإنسان، وكيف انقسمَ النّاسُ إلى مؤمنٍ شاكر، وكافر جاحد، ومصير كلٍّ من الفريقين. وأطالَ في بيان مصيرِ أهلِ الجنَّةِ تشويقاً وتحفيزاً للمؤمنين. وأشارَ فيها إلى نعمةِ نزولِ القرآن، ووجوبِ الصبرِ على العمل به.

سابعاً: سورة الأعلى

المقصدُ من هذه السّورة: تأكيدُ تعلُّق النُّفوسِ بالله العظيم الأعلى، والحرصِ على الآخرة ونعيمها، وعدمِ التَّعلُّق بالدُّنيا وبهرجِها الزائل، وهي تحملُ رسالةً قصيرةً مركزة، تؤكِّد للمؤمنِ أنَّ العلوَّ الحقيقي هو في طاعةِ الله وخشيته ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٠]، وأنَّ الشقاء والخسران في اجتنابِ هذه النصيحةِ والتَّعلق بالدنيا ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [الأعلى: ١١ - ١٢]. لاحظ هنا كيف وصف الشَّقي بقوله: ﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٢]، وهذه الحقيقة الكبرى ينبغي أن تكونَ نصبَ عينَي المؤمن في حياته كلها، تُكرَّر عليه كل حين، ولذلك فهي تُقرأُ في الرّكعة الأولى من صلاةِ الجمعة، وصلاةِ الاستسقاء، وصلاة العيد.

ثامناً: سورة الغاشية

تذكِّر هذه السّورةُ العظيمة بقدرةِ الله العظيمة، وأصنافِ الناس يوم القيامة، ومصيرهم في الآخرة. وهي هي! المعاني الكبرى المصيريَّةُ، التي لا ينبغي أن تغيبَ عن المؤمن أبداً، ويحتاج إلى تعلُّمها وتذكُّرها دوماً، ولذلك شُرعتْ قراءتُها في الرَّكعة الثّانية من صلاةِ الجمعةِ والعيد والاستسقاء.

ونلاحظُ من الأمور المشتركة بين هذه السُّور الثَّمان ما يلي:

١ - تأكيدها على القضايا الكبرى في حياة البشر.

بدءُ خلقِ السّمواتِ والأرض، وبدءُ خلقِ الإنسان، والمنهجُ الصحيحُ في الدنيا، والمصيرُ في الآخرة. وهي قضايا ضَلَّتْ فيها البشريةُ ضلالاً مبيناً، لا يعرفه إلا مَن قرأ في كُتُب الضالين، وعرفَ كيف ضَلَّ سعيُهم في الحياة الدنيا، وكيف هدانا الله بهذا القرآنِ العظيم.

٢- تكرارُ آياتِ التَّذكيرِ والذِّكر والذِّكرى في السُّور.

في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴾ [الكَهْف: ٢٤]، وقوله في آيةٍ عظيمةٍ محوريَّةٍ في منهج المؤمن في عبادته لله وحبسِه نفسَه عليها: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾ [الكَهْف: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ ﴾ [الكَهْف: ٥٧].

وقوله تعالى: في إشارة إلى سببِ نسيان غُلامِ موسى للحوتِ وأنَّه الشَّيطان: ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ ﴾ [الكَهْف: ٦٣]، وقوله في آخر السُّورة وهي من أدلِّ الآيات على مقصودِنا: ﴿ وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴾ [الكَهْف: ١٠٠ - ١٠١].

وفي سورةِ السّجدة: ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ﴾ [السَّجْدَة: ١٥]، وقوله أيضًا: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ ﴾ [السَّجْدَة: ٢٢] وقد تقدَّم نظيرُها في الكهف.

وفي سورةِ (ق) ورد فيها آياتٌ تدورُ حولَ معنى الذكرى والتَّذكير. كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴾ [ق: ٣٧] وفي آخرها قال: ﴿ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥].

وفي سورة الجمعة قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الجُمُعَة: ٩ - ١٠].

وفي سورة المنافقون قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [المُنَافِقُون: ٩].

وفي سورة الإنسان: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الإِنسَان: ٢٥].

في سورة الأعلى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأَعْلَى: ٩ - ١٠] الآيات.

وفي سورة الغاشية: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغَاشِيَة: ٢١ - ٢٢].

لاحظْ كيفَ عظَّمَ وظيفةَ التَّذكير؟! فكأنَّ رسالةَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقصورةٌ على التَّذكير؛ لبيانِ أهميةِ التَّذكيرِ وتكرارِه على مسامعنا.

وتكرارُ التَّذكيرِ بمشتقاته وصيغِه في هذه السّورِ له دلالتُه، حيث إنّ التَّذكيرَ يلزمُ منه التَّكرارُ مرةً بعد مرة، وهذا يتناسبُ مع الأمرِ بقراءتِها كلَّ جمعةٍ في مواضعِها المعروفة.

المجلس الخامس عشر

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾[1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبده ورسوله ومصطفاه، أما بعد:

فإنَّ الله تعالى حين ذَكَرَ فَلاحَ المؤمنين، ذكر الصلاةَ باعتبارها أوَّلَ وسامٍ نوراني -بعد الإيمان- يشعُّ من قلوبِهم، وهو أمرٌ يَكَادُ يكونُ مُطَّرِداً في كُلِّ آي القرآن، يقول تعالى في أوَّل سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البَقَرَة: ١ - ٣]، ومن أجملِ ما وردَ في ذلك فاتحة سورة (المؤمنون)؛ إذ جَعَلَ اللهُ أوَّلَ صفاتِهم الخشوعَ في الصلاة، وآخرَها المحافظةَ على الصَّلاة، وكلُّ أعمالِ الصّلاحِ من فعلِ الخيراتِ وتركِ المنكرات، جعلَها فيما بينهما، فاقرأ وتدبَّر، واحفظْها واحدةً واحدة: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المُؤۡمِنُون: ١ - ٩]، فالخيرُ كلُّه فاتحتُه الصلاة، والخيرُ كلُّه خاتمتُه الصلاة، والخيرُ كلُّه غايتُهُ الصلاة، والخيرُ كلُّه وسيلتُه الصلاة.

فإن كنتَ تُصلِّي حَقّاً؛ فأنت تاركٌ لكلّ منكرٍ من الكبائرِ والموبقات!

كالشّركِ بالله، والسّحر، وقتل النَّفْس التي حرَّمَ اللهُ إلا بالحقِّ، وأكلِ الرّبا، وأكلِ مال اليتيم، والتَّولي يوم الزحف، وقذْفِ المحصنات الغافلات، وكذا تناوُلِ المحرماتِ من المطعوماتِ والمشروبات، كأكلِ الميتةِ، والدَّمِ، ولحم الخنزير، وما أُهلَّ به لغيرِ الله،

(١) منتقى من كلام للدكتور فريد الأنصاري رحمه الله في كتابه (بلاغ الرّسالات القرآنيَّة) (ص:١١٣-١٢١) بتصرف يسير.

وشُربِ الخمرِ أمِّ الفواحش، وسائرِ المُسكرات المخدِّرات، والسُّقوطِ في المحرماتِ من المعاملاتِ والملبوسات، كالكبْر والظُّلم، والغَضب، وشهادةِ الزُّور، وأكلِ أموالِ الناس بالباطل، والقِمار، وسائرِ المنكرات!

فتدَبَّرْ كيف أنَّ الله جلَّ جلاله ذكَر في سياق صفاتِ الفَلاح -مما أوردناه قبلُ من فواتحِ سورة (المؤمنون)- عدداً من الأفعال والتروك، كان جانبُ التَّركِ فيها أكثرَ حضوراً، باللفظِ أو بالمعنى، كما في (الإعراضِ عن اللَّغو)، و(حفظ الفروج) الذي هو في معنى النَّهي عن الزنى، والنهي عن مسالِكِه وأسبابِه، و(رعي الأماناتِ والعهود)، الذي هو في معنى النَّهي عن الخِيانات بشتَّى أنواعها، وهذا شيءٌ مهمٌّ جداً، ذلك أنَّ الصلاةَ كما ذكرنا تركٌ من التُّروك.

وجامعُ ذلك كلِّه قولُ الله ذي الأسرار والأنوار: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العَنكَبُوت: ٤٥] هل أبصرتَ هذه الآية؟ أبصرْ إذاً كيف أنَّ اللهَ تعالى أسنَدَ فعلَ النهي للصلاة نفسها! كأنَّها هي ذاتُها شخصٌ معنوي، في هيئة نبيٍّ مُرسَلٍ يؤدِّي مُهمَّتَه التَّبليغيَّة، أو عبدٍ مُصلحٍ يقومُ بوظيفتِه الإصلاحية! أعدِ التِّلاوةَ وتدبَّر: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العَنكَبُوت: ٤٥] عَجِيبٌ! لأنَّ معنى (أن تُصلي): هو أن تَرحلَ عن خطاياك إلى الله... تَخرجَ من دركاتِ العادةِ إلى درجات العبادة، وهذا كلامٌ يعبِّرُ عن حقائقَ لا يعلمُ مدى عمقها في النَّفسِ إلا الله! إذ تتحوَّل الأذواقُ وتتبدَّل، يتغيَّرُ طعمُ المنكرِ في قلبِك فلا تستحليه.

ويتبدَّلُ ذوقُ شهواتِ الحرامِ من الرَّغبةِ إلى الغضبة! وَتُصبحُ خَلْقاً آخر! أبصرْ ثم أبصرْ فإنَّ الصَّلاةَ تَصْنعُكَ! نعم إنَّها لتنهى عن الفحْشاء والمنكر.

هل غلبتك الفاحشةُ ولم تستطع التَّخلص منها؟ هل أنت مدمنٌ على خطيئةٍ ما؟ دواؤك واحد صلِّ! تقول لي: إنِّي أصلِّي... لا، لا! صلِّ فإنَّك لا تصلي! ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العَنكَبُوت: ٤٥]، صلِّ، تَجِد أنَّ ما كان يأسرُك من المحرمات بالأمس، ويملأ عليك قلبَك نزوةً ورغبةً، فلا تستطيعُ التَّخلصَ منه، هو من أبغضِ الأشياء إليك اليوم! إنَّ القرآنَ سيفٌ قاطعٌ، إذا قطع القولَ في حقيقةٍ فلا مِراءَ بعدُ إلى يوم القيامة! ولقد قال الحقُّ كلمتَه، ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [يُونُس: ٣٢].

إنَّ الصَّلاةَ سفرٌ من الأرض إلى السَّماء؛ فأنَّى لمنازلِ السَّلامِ أنْ تَصطدِمَ بنوازلِ الحرام؟ أبداً، لا شهودَ للدرجاتِ في نَتانةِ الدَّرَكات.

فيا حسرةً على العباد! لو يُدرِكون ما هذه الصلوات؟ ويا حسرةً ثم يا حسرةً على نابتةٍ من أبناءِ الإسلام تعدَّدت بهم السُّبُلُ من هنا وهناك، وتفرَّقتْ بهم الأهواءُ، وانغمسوا في التِّيهِ من كلِّ صوبٍ، وأضاعوا هذه الصلوات خشوعَها ومواقيتَها وجمالَها، فصدقَ عليهم قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا﴾ [مَرۡيَم: ٥٩].

اللهم اجعلنا وذُرِّياتنا ممَّن يقيمُ الصلاة، ولا تحرمنا لذَّتها وبركتها بسبب ذنوبنا، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس السّادس عشر
دلالة الاقتران وأثرها في التَّدبُّر[1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على رسولِ الله وعلى آله وصحبِه ومن والاه، أما بعد:

فإنَّ من أبواب التَّدبُّر: التَّأمل فيما يُسمِّيه العلماءُ بـ (دلالة الاقتران)، أي: دلالةُ عطفِ الكلِمة على كلِمة، ودلالة مجيئها معها واقترانها بها، وهو بابٌ لطيفٌ من أبوابِ التَّدبُّر، وفيه فوائدُ كثيرةٌ جمَّة.

وسنذكر في هذا المجلس بعضَ الأمثلة[2].على هذه القاعدة المهمة، التي تبيِّن المراد بها:

المثال الأول:

تأمَّل كيف قرَنَ اللهُ بين أكلِ الطّيِّبات وعملِ الصالحات في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون: ٥١] فأكلُ الحلالِ الطّيِّبِ مما يُعينُ العبدَ على فعل الصالحات، كما أنَّ أكلَ الحرامِ أو الوقوعَ في المشتبهات، مما يُثقِلُ العبدَ عن فعلِ الصالحات.

المثال الثاني:

تأمَّل في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ [الفُرْقَان: ٥٩] تجد أنَّ الله تعالى يقرن استواءه على العرش باسم (الرّحمَنُ) كثيراً، وذلك لأنَّ العَرش محيطٌ بالمخلوقات قد وَسِعَها. والرّحمةُ محيطةٌ بالخلق واسعةٌ لهم، كما قال تعالى: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾ [الأَعْرَاف: ١٥٦] فاستوى على أوسع المخلوقات بأوْسَعِ الصفات.

---

(١) للدكتور عبد المحسن بن زين المطيري.

(٢) وكل هذه الأمثلة مأخوذة من كتاب (ليدبروا آياته) بأجزائه الأربعة الأولى.

المثال الثالث:

بُشرى لمن يسعى في طلبِ الرِّزق الحلال بالتِّجارة ونحوها، ذَكَرَها اللهُ تعالى في قوله: ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [المُزَّمِّل: ٢٠] فقد كان بعض الصحابة يتأوَّلُ مِن هذه الآية فضيلةَ التِّجارة والسَّفر لأجلها، حيثُ قَرَنَ اللهُ بين المجاهدين والمكتسبين المال الحلال؛ وذلك أنَّ اللهَ ما ذَكَرَ هذين السّببين لنسخِ تحديد القيامِ إلا تنويهاً بهما؛ لأنَّ في غيرهما من الأعذار ما هو أشبه بالمرض.

المثال الرّابع:

لما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] قال بعدها: ﴿ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]، فبعد أنْ ذَكَرَ استحقاقَه للعبودية ذكرَ سبب ذلك وهو كماله في نفسه، وكماله لغيره فلا تصلحُ العبادة إلا لمن هذه شأنه: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [الفُرْقَان: ٥٨] ومَن كان يعبدُ الله، فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموت.

المثال الخامس:

قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عِمْرَان: ٢١] هذه الآية من أظهرِ الأدلة على بيان منزلةِ العلماء الآمرين بالمعروف، حيثُ قَرَنَ اللهُ خُطورة جريمة قتلهم بقتل الأنبياء؛ لأنَّ العلماء هم ورثةُ الأنبياء.

المثال السّادس:

قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴾ [آل عِمۡرَان: ٧٩] دلَّت الآية على أنَّ العِلْمَ والتَّعليم والدراسة تُوجِبُ كون الإنسان ربانياً؛ فمن اشتغل بذلك لا لهذا المقصد ضاع سعيُه، وخَابَ عملُه.

المثال السّابع:

قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ ﴾ [النَّصۡر: ٣] جمع بين التَّسبيحِ والاستغفار؛ إذ في الاستغفار محوُ الذُّنوب، وفي التَّسبيحِ طلبُ الكمال.

المثال الثامن:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٨] إنَّ قَرْنَ شَهَادَةِ العلماء بشهادة ربِّ العالمين وشهادة الملائكةِ تزكيَّةٌ عظيمة لأهلِ العلم، فإنَّ اللهَ لا يستشهد بمجروح.

هذه -أيها المؤمنون- بعضُ الأمثلة التي تفتح باباً لتدبُّر هذا الكتاب العظيم، فأقبلوا عليه، وتدبَّروه تسعدوا وتفلحوا.

اللهم ارزقنا فَهْم كتابِك والعمل به، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس السّابع عشر

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾[1]

الحمدُ لله الذي نصرَ عبادَه يومَ الفرقان، يومَ التقى الجمعان، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد ولد عدنان، أما بعد:

فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٢٣] إشَارَةٌ مِن الله تعالى -في ثنايا الحديث عن غزوة أحد- إلى منَّته على الصحابة رضوانُ الله عليهم حين نصرَهم يوم بدر، الذي سمّاه يومَ الفرقان، الذي فرَّق الله فيه بين الحقِّ والباطل، فاستبانَ أهلُ الإيمان حقاً، وصارت بدرٌ وصفاً عاصماً من النفاق وتاجاً على رؤوس أهله، بتزكيةِ الله لهم (افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم)[2].

أيها الصائمون:

إنَّ يومَ بدر الذي وقعَ في مثلِ هذا اليوم العظيم -السّابع عشر من رمضان- اجتمعت فيه أنواعٌ من المنن من الله على عبادِه، فدعونا نقفُ متدبِّرين مع بعض الآياتِ التي نزلت في هذه الغزوة، ولننطلقْ من تلك السّورة العظيمة التي سمَّاها ابنُ عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا سورةَ بدر؛ إنها سورة الأنفال، وسوف نقفُ فيها على إشاراتٍ تذكِّرُ ببعض الدلالات:

أولاً: ابتدأت السّورة بـ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ [الأنفَال: ١] ثمَّ تأخَّرَ الجوابُ بعد أربعين آية في قوله سبحانه: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الأنفَال: ٤١] وهنا يَبْرُزُ السّؤال: لماذا تأخَّرَ الجوابُ؟

---

(١) للدكتور عمر بن عبد الله المقبل.

(٢) البخاري (٣٠٠٧)، مسلم (٢٤٩٤).

فالجوابُ -والله أعلم-: لتذكيرِ الأمَّة بالأصول العظمى التي يجب أن تتعلَّقَ بها، وهي: التقوى، وإصلاح ذات البين، وإقامة الصلاة، والخوف من اللهِ والتوكُّل عليه، وفي هذا التأخيرِ للجوابِ إشارةٌ إلى التحذير من التعلُّقِ بالمال، وأثره في إفسادِ ذاتِ البَين، إذا غلب على مصالحِ الشخصِ ونيَّاته، أو كان هذا هو الدافعُ للجهاد في سبيل الله.

ثانياً: كم من الأحداثِ التي تكونُ في ظاهرها مؤلمةً، وفي طَيَّاتها الخيرُ للأمة: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧] فقد كان الصّحابة يتمنَّون السّلامةَ من الحرب، ويريدونَ الظَّفَرَ بالعيرِ التي جاءتْ من الشام، فكان ما وَقَعَ - رغمَ ألمه – خيرٌ وأحسنُ تأويلاً.

ثالثاً: إذا صَدَقَ المؤمنون في فعلِ ما أمرَهم اللهُ به - ولو كانت عدَّتهم وعتادهم قليلاً، أعانَهم بجندٍ من عنده، وهو ما وقع في بدر: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الأنفال: ١٢] وقال سبحانه: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧].

رابعاً: تنبيهُ الصحابة وكلُّ مَن يأتي بعدَهم إلى أهميةِ الاستجابةِ لأمرِ الله ورسوله، وخُطورةِ التَّأخيرِ عن الاستجابة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٤ - ٢٥].

خامساً: أهميةُ الدعاءِ وصدقِ التّضرُّعِ في كشفِ المحن، وكفِّ أذى المعتدين: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩]، وتأمَّلوا -أيُّها المؤمنون- في كلمة: ﴿ تَسْتَغِيثُونَ ﴾ ففيها دلالةٌ على الحالةِ الكاملةِ من الدعاء، وأنَّه ليس مجرَّد دعاءٍ بقلبٍ غافلٍ لاهٍ.

سادساً: ومِن الدلالات المهمَّةِ التي تضمنتْها سورةُ الأنفال، التَّذكير بالنِّعم السّابقة ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

سابعاً: أثرُ الاستغفارِ في دفعِ العذاب ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

ثامناً: طمْأنةُ المؤمنين أنَّ ما يُنفقُهُ أعداؤهم في الصّدِّ عن سبيلِ اللهِ أنَّه سيكون حسرةً عليهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

تاسعاً: على المؤمنين أن يعدُّوا العُدَّة، ويفعلوا الأسباب في قتالِ أعدائهم، وألا يستغرقَهم الفكرُ في: كيف سننتصرُ على الأعداء؟ فإنَّ اللهَ أيَّد رسولَه ﷺ بأنواعٍ من الكرامات في هذه الغزوة ﴿ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٧].

وكذلك أيضاً: ﴿ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ [الأنفال: ٤٤].

ونقرأُ متدبِّرين في السُّورة نفسها: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ ﴾ [الأنفال: ٦٠] وهذا يشملُ الإعدادَ بكلِّ صوره الحسيَّة والمعنويَّة، فإذا قصَّرت الأمَّةُ في ذلك، فقد عَصَتْ ربَّها؛ ومن عصى ربَّه فكيف ينتظرُ منه الانتصارَ والعونَ والتَّوفيق؟!

عاشراً: اجتماعُ الكلمةِ ووحدةُ الصَّفِّ مِن أعظمِ أسبابِ القوةِ، وإضعاف أثرِ مكائدِ الأعداء، وعكس ذلك التَّفرُّق، وقد تجلَّى هذا المعنى بوضوح في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفَال: ٤٦] ومَن تأمَّلَ واقعَ الآيةِ وجدَ حقيقتَها جليَّة.

أحد عشر: دَأْبُ المنافقين التَّخذيلُ، وبثُّ كلِّ ما يوهنُ الصفوفَ في أحْلَكِ الظروف: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ﴾ [الأنفَال: ٤٩] ويدفعُ كيدَهم مثلُ التَّوكّل على الله؛ ولذا قال سبحانه بعد مقولةِ المنافقين السّابقة: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفَال: ٤٩].

اثني عشر: تضمَّنتِ السّورةُ قاعدةً من قواعدِ صلاحِ القلب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفَال: ٧٠] وهي وإنْ نزَلتْ في شأنِ الأسرى؛ إلا أنَّ المعنى أعمُّ، كما هي القاعدة المعروفة عند أهل العلم: العبرةُ بعمومِ اللَّفظِ لا بخصوصِ السّبب.

ثلاثة عشر: التَّنويهُ بشأنِ الصَّحابةِ رضوان الله عليهم أجمعين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [الأنفَال: ٧٢] فاعرفوا لهم قدرَهم وترضَّوا عنهم، فقد بذلوا الغالي والنفيس، وضحَّوا بكل ما استطاعوا، حتى وصل إلينا هذا الدين غضّاً طَرِيّاً.

أربعة عشر: وفي قوله تعالى: في سورة آل عمران: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٣] تذكيرٌ بأصلٍ عظيمٍ في هذا الباب، وهو أنَّ النَّصرَ من عند الله: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٦].

فمن أرادَه فلينصُر اللهَ بنصرِ دينه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [مُحَمَّد: ٧] وهذا يُوجِبُ البعدَ عن كلِّ ما يُسخطُ الله، ومِن أخطرِ هذه الذُّنوب أكلُ الرِّبا الذي وصفَه الله بأنَّه حربٌ له ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٢٣] تنبيهٌ إلى الحال التي كان عليها الصَّحابة رضوان الله عليهم، فمع ما كانوا عليه من الضّعفِ إلا أنَّ نصرَ اللهِ إذا نَزَلَ لم تدفعْه أيُّ قُوَّةٍ في الدنيا، وإذا خَذَلَ اللهُ الأُمَّةَ فلن تستطيعَ أن تنتصرَ ولو وقفتْ معها جميعُ قوى الأرض: ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٠].

وفي قوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٢٣] إشارةٌ واضحةٌ إلى أنَّ شُكرَ النِّعم من أعظمِ أسبابِ عونِ اللهِ وإمدادِه ونصرِه، وأنَّ كُفرَ النِّعم ونسيانَ شكرِها، من أعظمِ أسبابِ الخذلان.

هذه -يا عباد الله- بعضُ الدلالاتِ الإيمانيَّةِ التي تضمنتْها قصةُ بدرٍ في ضوءِ سورةِ الأنفال وآيةٍ من آل عمران، فاتقوا الله واشكروا له نعمةَ نصرِه لعبادِه في ذلك اليوم العظيم، وتدبَّروا هذه السّورة، وتأمَّلوا في عِبرِها ودلائِلها.

اللهم أبرِم لهذه الأمةِ أمرَ رُشد، يُعزُّ فيه أولياؤك، ويُذلُّ فيه أعداؤك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الثامن عشر

﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فيقول الله تعالى: ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ [فَاطِر: ٢].

هذه -أيها المؤمنون- هي الآيةُ الثانيةُ من سورةِ فاطر، وهي تتحدَّثُ عن معنى بليغٍ من معاني قدرةِ الله التي ختمَ بها الآيةَ الأولى، وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [فَاطِر: ١]، وحين تستقرُّ هذه الصورةُ في قلبِ المؤمن فإنه سيحدثُ في قلبِه تغيراً كبيراً في تصوُّراتِه ومشاعرِه واتجاهاتِه وموازينِه وقِيَمِه في هذه الحياةِ جميعاً.

إنَّها تقطعُه عن شبهةِ كلِّ قوَّةٍ في السّماوات والأرض، وتصلُه بقوَّةِ الله، وتُيَئِّسُه من مظِنَّةِ كلِّ رحمةٍ في السّماوات والأرض، وتصله برحمة الله، وتوصِدُ أمامَه كلَّ بابٍ في السّماوات والأرض، وتفتحُ أمامَه بابَ الله، وتُغلِقُ في وجهِه كلَّ طريقٍ في السّماوات والأرض، وتَشرعُ له طريقَه إلى الله.

ورحمةُ الله التي نصَّت عليها الآيةُ الكريمة: ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ ﴾ [فَاطِر: ٢] تتمثَّل في مظاهرَ لا يحصيها العدُّ.

ورحمةُ اللهِ تتمثَّلُ في الممنوعِ تمثُّلَها في الممنوح، ويجدُها مَن يفتحُها اللهُ له في كلِّ شيءٍ، وفي كلِّ وضعٍ وحال، وفي كلِّ مكانٍ، يجدُها في نفسِه، وفي مشاعرِه، ويجدُها فيما حوله، وحيثما كان، وكيفما كان.

وما مِن نعمةٍ -يُمسكُ اللهُ معها رحمتَه- حتى تنقلبَ هي بذاتها نقمة، وما مِن محنةٍ -تحفُّها رحمةُ الله- حتى تكونَ هي بذاتها نعمة!

ينامُ الإنسان على الشَّوك -مع رحمة الله- فإذا هو مِهادٌ، وينامُ على الحريرِ -وقد أُمسِكت عنه الرّحمةُ- فإذا هو شوكُ القتاد!

ويُعالج أعسَرَ الأمورِ -برحمةِ الله- فإذا هي هوادةٌ ويُسر، ويُعالج أيسرَ الأمور، وقد تخلَّت -رحمة الله- فإذا هي مشقةٌ وعُسر، ويخوضُ بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمنٌ وسلام، ويعبر بدونها المناهجَ والمسالكَ فإذا هي مهلكةٌ وبَوَار!

ولا ضيقَ مع رحمة الله! إنَّما الضِّيقُ في إمساكها دون سواه، لا ضيقَ ولو كان صاحبُها في غياهِبِ السّجن، أو في جحيمِ العذابِ، أو في شِعابِ الهلاك، ولا وسعةَ مع إمساكِها ولو تقلَّبَ الإنسانُ في أعطافِ النَّعيم، وفي مراتعِ الرَّخاء، فمن داخلِ النفسِ -برحمة الله- تتفجَّرُ ينابيعُ السّعادةِ والرّضا والطّمأنينة، ومن داخلِ النفس -مع إمساكها- تدبُّ عقاربُ القلقِ والتَّعبِ والنَّصبِ والكدِّ والمعاناة!

يبسطُ اللهُ الرِّزق -مع رحمته- فإذا هو متاعٌ طيِّبٌ ورخاء، وإذا هو رَغَدٌ في الدنيا وزادٌ إلى الآخرة، ويُمسكُ رحمته، فإذا هو مثارُ قلقٍ وخوفٍ، وإذا هو مثارُ حسدٍ وبغض، وقد يكونُ معه الحرمانُ ببخلٍ أو مرضٍ، وقد يكون معه التَّلفُ بإفراطٍ أو استهتار.

ويمنحُ اللهُ الذُّريَّة -مع رحمته- فإذا هي زينةٌ في الحياة، ومصدرُ فرحٍ واستمتاع، ومضاعفةٌ للأجر في الآخرة بالخَلَفِ الصَّالحِ الذي يذكرُ الله، ويمسكُ رحمتَه فإذا الذُّريَّةُ بلاءٌ ونكدٌ وعنتٌ وشقاء، وسهرٌ بالليلِ وتعبٌ بالنهار! ويهبُ اللهُ الصحةَ والقوةَ -مع رحمته- فإذا هي نعمةٌ وحياةٌ طيِّبةٌ والتذاذٌ بالحياة.

ويُمسك نعمتَه، فإذا الصِّحةُ والقوةُ بلاءٌ يُسلِّطُهُ اللهُ على الصحيحِ القويِ، فينفقُ الصحةَ والقوةَ فيما يحطِّمُ الجسمَ ويُفْسِدُ الرُّوح، ويدَّخِرُ السّوءَ ليوم الحساب!

ومن رحمةِ الله أن تحسَّ برحمة الله، فرحمةُ اللهِ تضمُّك وتغمرُك وتفيضُ عليك، ولكنْ شعورُك بوجودِها هو الرَّحمة، ورجاؤك فيها وتطلُّعُك إليها هو الرَّحمة، وثقتُك بها وتوقُّعها في كلِّ أمرٍ هو الرّحمة. والعذاب هو العذابُ في احتجابِك عنها، أو يأسِك منها، أو شكِّكَ فيها. وهو عذابٌ لا يصبُّه اللهُ على مؤمنٍ أبداً ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: ٨٧].

ورحمة الله لا تعزُّ على طالبٍ في أيِّ مكان، ولا في أي حال!

وجدَها إبراهيمُ عليه السّلام في النار.

ووجدها يوسفُ عليه السّلام في الجُبِّ كما وجدها في السّجن.

ووجدها يونسُ عليه السّلام في بطنِ الحوتِ في ظلماتٍ ثلاث.

ووجدها موسى عليه السّلام في اليمِّ وهو طفلٌ مجرَّدٌ من كلِّ قوَّةٍ ومن كلِّ حراسة! كما وجدها في قصرِ فرعونَ وهو عدوٌ له متربِّصٌ به ويبحث عنه.

ووجد رحمةَ اللهِ أصحابُ الكهفِ في الكهف، حين افتقدوها في القصورِ والدُّور، فقال بعضهم لبعض: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الكَهْف: ١٦].

ووجدها رسولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصاحبُه في الغار، والقومُ يتعقَّبونهما ويقصُّون الآثار.

ووجدها كلُّ من أوى إليها، يائساً من كلِّ ما سواها، منقطعاً عن كلِّ شبهةٍ في قوة، وعن كلِّ مظنةٍ في رحمة، قاصداً باب الله وحدَه دون الأبواب.

ثم إنَّه متى فتحَ اللهُ أبوابَ رحمته فلا مُمسِكَ لها، ومتى أمسكها فلا مُرسلَ لها، ومِن ثَمَّ فلا مخافةَ من أحد، ولا رجاءَ في أحد، ولا مخافةَ من شيءٍ، ولا رجاءَ في شيءٍ، ولا خوفَ من فوتِ وسيلة، ولا رجاءَ مع الوسيلة، إنَّما هي مشيئةُ الله! والأمرُ مباشرةً إلى الله ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فَاطِر: ٢]، يقدرُ بلا مُعقِّبٍ على الإرسالِ والإمساكِ، ويُرسلُ ويمسكُ وفقَ حكمةٍ تكمنُ وراءَ الإرسال والإمساك.

وما بينَ النَّاسِ ورحمةِ الله إلا أن يطلبُوها مباشرةً منه، بلا وساطةٍ وبلا وسيلةٍ إلا التَّوجُّه إليه في طاعةٍ وفي رجاءٍ وفي ثقةٍ وفي استسلام.

﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فَاطِر: ٢]، فلا رجاءَ في أحدٍ من خلقه، ولا خوفَ لأحدٍ من خلقه. فما أحدٌ بمُرسلٍ من رحمة الله ما أمسَكَه اللهُ.

أيَّة طُمأنينة؟ وأيُّ قرار؟ وأيُّ وضوحٍ في التَّصوُّرات والمشاعر والقيم والموازين تُقرُّهُ هذه الآية في قلبِ المؤمن؟! آيةٌ واحدةٌ ترسمُ للحياةِ صورةً جديدة، وتُنشئ في الشُّعورِ قيَماً لهذه الحياةِ ثابتة، وموازينَ لا تهتزُّ ولا تتأرجح، ولا تتأثَّرُ بالمؤثِّراتِ كلِّها، ذهبتْ أم جاءت، كَبُرتْ أم صَغُرت، جَلَّت أم هانت، كان مصدُرها الناس أو الأحداث أو الأشياء!

صورةٌ واحدةٌ لو استقرتْ في قلبِ إنسانٍ لصمدَ كالطَّودِ للأحداثِ والأشياءِ والأشخاص والقُوى والقِيَمِ والاعتبارات، ولو تضافرَ عليها الإنسُ والجنُّ، وهم لا يَفتحونَ رحمةَ الله حين يُمسكُها، ولا يمسكونَها حين يفتحُها.

آيةٌ من القرآنِ تفتحُ كُوَّةً من النورِ، وتُفجِّرُ يُنبوعاً من الرَّحمة، وتَشُقُّ طريقاً ممهَّداً إلى الرّضا والثِّقة والطّمأنينة والرّاحة في ومضةِ عين، وفي نبضةِ قلب، وفي خَفقةِ جَنان[1].

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٩٢١. بتصرف.

وها أنتم -أيها المؤمنون- في شهرِ الرَّحمة، وشهرِ فتحِ أبوابِ الجنان وإغلاق أبواب النِّيران، وتصفيدِ الشَّياطين، فتعرَّضوا لنفحاتِ ربِّكم، عسى رحمةٌ يرسلُها عليكم، لا يُمسكُها أحدٌ، تسعدونَ بها دنيا وآخرة.

اللَّهم واجعلنا من عبادك المرحومين، وأدخلْنا برحمتك في عبادك الصالحين، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس التَّاسع عشر

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾[1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبدِه ورسوله ومصطفاه، أما بعد:

حين يقرأُ المؤمنُ هذه الصفات أو تلك، فَحَقِيقٌ بِهِ أن يَبحثَ عن نَجَاتِهِ من خلالِ التَّأسِّي بالصفات العالية الفاضلة، والهربِ من صفاتِ أعداءِ الله، وأولياءِ الشَّيطان.

ألا وإنَّ من تلك الآياتِ العظيمة التي تستوقفُ المؤمن، هي ما ذكرَه الله تعالى في خواتيمِ سورةِ الفرقان، والمعروفة بـ(صفاتِ عبادِ الرَّحمن).

وقد اشتملت هذه الصفاتُ على صفاتٍ لهم في العبادة، وأُخرى في المعاملةِ، وبعضُها في السُّلوك، ولا شكَّ أنها جميعها داخلةٌ تحت العبادة بمفهومها الواسع في الإسلام.

- صفتان ظاهرتان جامعتان: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ [الفُرْقَان: ٦٣] كان الابتداءُ بهاتين الصفتين الظاهرتين لعباد الرّحمن؛ لأنَّهما الدليلان القابلان لأن يتبيَّنَهما المُتَبَيِّنُ بسبب ظهورهما، ولأنَّهما الثَّمرةُ الطّبيعيَّةُ الظاهرة، والنتيجةُ المنطقيَّةُ الحسنةُ لكثيرٍ من أنواعِ المجاهدة الرّوحيَّةِ والبدنيَّةِ في العديد من المجالات، وهما من بابِ الأخلاق الذي قُدِّمَ لأهميَّتِه، ففي الحديث: (إنما بعثت لأُتمِّمَ صالحَ الأخلاق)[2].

الصفة الأولى: ﴿ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ [الفُرْقَان: ٦٣].

---

(١) للدكتور عبد الله بن منصور الغفيلي.

(٢) أخرجه أحمد، ج (٨٩٣٩)، والبخاري في (الأدب المفرد) (٢٧٣)، وصححه ابن عبد البر في (التَّمهيد) (١٤/ ٣٣٤).

فطريقةُ المشي صفةٌ ظاهرةٌ، تدلُّ على تمثيلِ أصحابِها للبساطةِ والفِطرة، وابتعادِهم عن التَّصنُّعِ والفرحِ الشديدِ أشَراً! والمرحِ الشديدِ بطراً!

فهم ﴿ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾، أي: بسكينةٍ ووقارٍ من غير تجبُّرٍ ولا استكبار[1]، ولذا -والله أعلم- قال: ﴿ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ وَلَمْ يَقُل (في الأرض) فهي وسيلةٌ لتحقيقِ مقصدِهم لغيرها لا الإخلاد إليها.

كما في قول سبحانه: ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴾ [الإسْرَاء: ٣٧] فالأرضُ ظرفٌ لهم ومقصدٌ عندهم؛ فلذلك يمرَحون فيها ويقضون أوقاتهم باللَّهو عليها، أمَّا عبادُ الرَّحمن فإنَّهم يمشونَ من غيرِ استكبارٍ ولا مرح، ولا أشَرٍ ولا بَطَر، وليس المرادُ أنَّهم يمشون كالمرضى من التَّصانُع تصنُّعاً ورياء، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما يَنحطُّ من صَبَبٍ، وكأنَّما الأرضُ تُطوى له[2].

الصفة الثانية: ﴿ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ [الفُرْقَان: ٦٣].

فهذا هو المظهرُ الخارجيِّ الثاني لعبادِ الرَّحمن، وقد صارَ فيهم سجيَّةً وطبعاً لا كلفةَ فيه، وهو لسانُهم الرَّطب ومنطقُهم العذب.

والخطابُ موجَّهٌ لعبادِ الرّحمن من الجاهلين مباشرة: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴾ [الفُرْقَان: ٦٣]! فهم في أعلى درجةِ التَّبيُّن من اتهامِهم لهم، إلا أنَّهم آثروا السّلام، وكأنَّهم لا يعلمون شيئاً مما يقول الجاهلون.

ومع أنَّ الإسلامَ شَرَعَ للمسلم أخْذَ حقِّهِ ممن ظلمه؛ إلا أنَّهُ يَذكُرُ هنا الأكملَ لعبادِ الرّحمن، خاصةً الدعاة، فقد ظُلِموا من الجاهلين فكان المقابلُ السّلامَ، وهو ما أمرَ اللهُ به نبيَّه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأَعْرَاف: ١٩٩].

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير (٦/١٢٢).

(٢) ينظر تفسير ابن كثير (٦/١٢٢).

قال جعفر الصادق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ما في القرآنِ أجمع لمكارمِ الأخلاقِ من هذه الآية)[1].

- ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ [الفُرْقَان: ٦٤].

وهو انتقال من الأخلاق للتعبُّد، فلا قَوَامَ للأخلاقِ بدونه! كما أنَّ التَّعبدَ المفتقِرَ للخُلُقِ هو أجوفُ الأثر.

وفي هذه الصفة معنيان:

الأول: أنَّ هذه الصفةَ الخفيَّةَ لبَيَاتهم بين يدي ربِّهم سُجَّداً وقياماً، أتَتْ في مقابلِ الصفتَين الظاهرتَين للعباد، وهما المشيُ هوناً والتَّخاطبُ سَلاماً.

وهذا واضحٌ من قوله: ﴿ لِرَبِّهِمْ ﴾، فلا يكادُ يعلمُ مخلوقٌ بما يقومون به من إخلاصهم لله.

والثاني: أنه ذكرهم بواحدةٍ من أهمِّ العبادات! بل أهمُّها وهي الصّلاة، فهي عَمودُ الدينِ ورُكنُه الرَّكين.

كما أنَّهم تأسَّوا في ذلك بقدوتِهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد قال عنه ربه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المُزَّمِّل: ٢٠].

وقد ذكر الله أهمَّ حالتَين في الصلاة فذكرهم بهما، وهما السُّجود والقيام.

- عباد الرَّحمن مشفقون على أنفسِهم خائفون من ربهم:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفُرْقَان: ٦٥ - ٦٦] ففي هاتين الآيتين إظهارُ الضعف والخوف من ربِّهم، مع ما في ظاهرهم من الشفقةِ والخوفِ مِن أن يكون مصيرُهم العذابَ.

(١) التَّفسير البغوي (٢/ ٢٦٠).

فهم يتحدَّثون عن جهنمَ بصفتَين فيها، أنَّها كالغريمِ الملازمِ لغريمِه المدين، وأنَّها بئسَ المستقرُّ والمُقام.

وحيث إنَّ هؤلاء العبادَ يطمعون أن يستجيبَ لهم ربُّهم ويغفرَ لهم خطاياهم، وحيث إنَّه لا يوجد يومَ القيامة من دارٍ سوى دارِ الجنَّةِ أو النار، فكان إشفاقُهُم من جهنَّمَ وطَمَعُهم أنْ يستجيبَ لهم ربُّهم بأن يَصرفَ عنهم عذابَها بالكليَّة، معناه أنَّهم يدعونَ اللهَ تعالى ضمناً أن يتغمَّدَهم برحمته فيدخلَهم الجنَّةَ منَّاً منه وفضلاً بعد أن يمتنَّ عليهم ويتفضل بغفرانِ ذنوبهم، وسترِ عيوبهم، وقبولِ أعمالهم الصالحة.

- **التَّوسط في الإنفاق:**

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفُرْقَان: ٦٧] هنا يبيِّنُ سلوكَهم الاقتصادي، وتعامُلَهم المالي في العطاءِ والإمساك، وهذا هو التَّكاملُ بين الأخلاقِ والعبادةِ والإنفاق.

فهم وسطٌ بين الإسراف والإقتار، فالإسرافُ هو الإنفاقُ بكثرةٍ هي غايةُ ما يكون من النفقةِ، والإقتارُ هو الإمساكُ بشدّةٍ هي غايةُ ما يكونُ في النفقةِ سلباً، والتوسُّطُ بينهما هو الشرعُ والعقلُ والحكمة.

فليسوا بمبذِّرين في إنفاقِهم فيصرفون فوقَ الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم فيقصِّرونَ في حقِّهم فلا يكفونهم، بل هم عَدْلٌ خيار، وخَيرُ الأُمورِ أوسطُها، لا هذا ولا ذاك[1].

- ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الفُرْقَان: ٦٨]:

وهنا بيانُ اجتنابهم لعظائمِ الذنوب، وأشدّها الشركُ بالله، فهو أعظمُ الذنوب، والمراد هنا: إثباتُ ضدِّها من التَّوحيدِ والنقاء.

(١) ينظر تفسير ابن كثير (٦/١٢٢).

وهم بهذا يَنسجِمون انسجاماً كاملاً مع الكون حولهم، فما خَلَقَه اللهُ إلا لتوحيده وعبادته: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذَّارِيَات: ٥٦].

وهذه الصفةُ مؤكِّدةٌ للصفاتِ السّابقة؛ من خوفِهم ودعائِهم له بأن يصرفَ عنهم عذابَ جهنم، وصفتِهم بالبَياتِ بين يديهِ سُجَّداً وقياماً فكان التَّتويجُ أنَّهم لا يَدْعُون آلهةً أخرى، وهو التَّوحيدُ المنجي من العذاب، والذي يكون معه الغفرانُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النِّسَاء: ١١٦].

- ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الفُرْقَان: ٦٨].

هذا هو الذنبُ العظيمُ الثاني، الذي بَرِئ منه عبادُ الرّحمن، واتَّصَفُوا بأنهم لا يُقارفوه، وهو قتلُ الإنسانِ بدون حقٍّ، وفي الصحيحين قال ﷺ: «**لا يَحِلُّ دَمُ امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التَّارك للجماعة**»[1].

فالنفس غاليةُ الثَّمن، فمَن أهدَرَها وَقَعَ في الذنب العظيم!

وكان من عظيمِ هذا الذنب أنَّ مَن اقترفَ منه بِحَقٍّ واحدٍ من النَّاسِ كان كمَن اقترفَه بحقِّ الجميع، إلا أنَّ الاستثناء في قوله: ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الفُرْقَان: ٦٨] دلالةٌ على صفةٍ أخرى في عباد الرّحمن، وهي أنَّهم أحرصُ النَّاس على إقامةِ الحدود، فيقيمونَ القصاصَ من القاتل؛ وكلِّ مَن حَلَّ دَمُه بالشرع. فهم أبعدُ الناسِ عن اقترافِ ذنبِ القتل العظيم، وهم أقربُ الناسِ لإقامته إن كان بالحق.

(١) البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

- ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [الفُرْقَان: ٦٨].

هذا هو الذنبُ العظيمُ الثالثُ من الذنوبِ التي برئ منها عبادُ الرّحمن، فنفوسُهم كبيرةٌ، لا تَجُرُّها شهوةٌ تنزلُهم من مكانتِهم العالية، بأخلاقهم الكبيرة تلك؛ لتكونَ هذه الصفةُ ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [الفُرْقَان: ٦٨] خاتمةً لصفاتٍ سلبيَّةٍ برَّأ الرَّحمن منها عباده.

فمن تمامِ عبوديَّتِهم لله، ومعرفتهم بمعاني التَّوحيد، لا تنساقُ نفوسُهم إلى شهوةٍ محرَّمةٍ، لها تبعاتُها في الدنيا والآخرة.

- عباد الرّحمن يرجعون للحقِّ ويتوبون من الذنب:

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفُرْقَان: ٦٨ - ٧١] فمَن اقترفَ تلك الكبائرَ استحقَّ العذابَ يوم القيامة.

لكنَّ هذا ليس آخرَ المطافِ، فما زالت الرُّوح في البَدَنِ فإنَّ إمكانية التَّصحيحِ واردةٌ؛ وهي بالتَّوبةِ من المنكرات، ويتحقَّق ذلك بالإيمانِ الصادقِ والعملِ الصالح.

والجزاءُ: هو قبولُ التَّوبة، وتبديلُ السّيئاتِ حسنات وليس بعد هذا الكرم الرّبّاني كرم.

- عباد الرّحمن لا يشهدون الزور، ويمرُّون باللغو -إن مروا- كراماً:

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ [الفُرْقَان: ٧٢] ولعلَّ الأقربَ هنا أنَّ الزُّورَ في الآية هو شهادةُ الزور، لاقترانِه بالذنوب العظيمةِ السّابقة، وقد ذُكر معها في أحاديثَ عدَّة، كما يمكن تفسيره باجتنابهم شهادةَ مشاهد الحرام، وكذا مجالس اللغو.

فإن مرُّوا به -اضطراراً-، فلا يتلطَّخون بشيء من ذلك، كما وُصِفَ قولُهم حين مخاطبة الجاهلين لهم بالسّلام.

- عباد الرّحمن مبصرون سامعون لآيات الله:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفُرْقَان: ٧٣] فهم مقبِلون على التَّذكير والمُذكِّر، يستمعون القولَ من الناصح فيَعوه.

وليسوا ممن يجلسون للنُّصحِ والتَّذكيرِ والقرآنِ وهم غيرُ مستحضرين لقلوبِهم وأفئدتهم؛ فيكونُ حالهم كما وصفَ اللهُ بقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يُونُس: ٤٢].

بل هم إذا ذُكِّروا بآيات الله على درجةٍ كبيرةٍ من الاستماع والبصيرة.

قال الحسن البصري: كم من رجلٍ يقرؤها ويخرُّ عليها أصمَّ أعمى، وقال قتادة: لم يصمّوا عن الحقِّ ولم يعموا فيه، فهم -والله- قومٌ عقلوا عن الله، وانتفعوا بما سمعوا من كِتابه[1].

- عباد الرّحمن يسألون ربَّهم قرَّةَ أعينٍ من الأزواج والذُّريَّة والأتباع:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفُرْقَان: ٧٤] فهم حريصون على الذُّرِّية بشرط صلاحها، فيكثِّرون عددَ المؤمنين المتصفينَ بصفات عباد الرّحمن.

قال عكرمة: (لم يُريدوا بذلك صَبَاحَةً ولا جمالاً، ولكن أرادوا أن يكونوا مُطيعين).

وقال الحسن البصري: (لا والله ما شيءٌ أقرَّ لعينِ المسلمِ من أن يرى ولداً، أو ولدَ ولدٍ، أو أخاً، أو حميماً مطيعاً لله عز وجل)[2].

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٦ / ١٣١).
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٦ / ١٣٢).

وإنَّما طلبوا أن يكونوا للمتقين أئمة؛ ليُرشدوهم ويعينوهم على الطّاعةِ والخير، بخلافِ ما لو كانوا أتباعاً؛ فلن يكون لهم من التَّأثيرِ كما لو كانوا متبوعين.

وهم بهذا يضربون أروعَ الأمثلة، في علوِّ الهمَّة وسمو الرّوح؛ ولذلك كان جزاؤهم عالياً، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفُرْقَان: ٧٥ - ٧٦].

فالجزاءُ من جنس العمل، فيُجزَون الغُرُفاتِ بما كانوا يبيتون في سجودٍ وقيامٍ، ويُلقَّون التَّحيَّةَ والسّلام بما كانوا يخاطبونَ الجاهلين بالسّلام، ويخلدونَ في الجنَّةِ مستقراً ومقاماً باستعاذتهم وخوفِهم من ملازمةِ جهنمَ التي ساءت مستقراً ومقاماً[1].

.اللَّهم اجعلنا من اتَّصفَ بهذه الصِّفات فنالَ هذا الجزاء، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) ينظر للاستزادة: تأملات في سورة الفرقان، للدكتور: حسن باجودة.

المجلس العشرون
بصائر تدبُّريَّة من سورة القدر[1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فإنَّ مِن السُّورِ العظيمةِ التي ينبغي للمؤمن أن يتدبَّرَها -خاصةً مع إقبال العشر الأواخر- سورةَ القدر، التي يقول الله فيها:

بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القَدْر: ١ - ٥].

هذه السّورةُ العظيمةُ سورةٌ مكيَّةٌ، سُمِّيت بالقدْرِ لتكرارِ ذكرِهِ فيها، ولكونها تُركِّزُ على بيان عظمِ ليلةِ القدر، ومنزلتِها وفضلها.

قال أبو بكر الوراق: سُمِّيت ليلةَ القدر؛ لأنَّه نزلَ فيها كتابٌ ذو قَدْر، على لِسَانِ مَلكٍ ذي قَدْر، على أُمَّةٍ لها قدْر، ولعلَّ الله تعالى ذكَرَ لفظَ القَدْر في هذه السّورة ثلاثَ مراتٍ لهذا السّبب[2].

وقد ابتدأت السّورة بالتَّنويه بفضل القرآنِ وعَظَمَتِهِ؛ بإسناد إنزاله إلى الله تعالى، ورفع شأن الوقت الذي أُنزِلَ فيه، ونزولِ الملائكة في ليلةِ إنزاله، وتفضيلِ الليلةِ التي تُوافِقُ ليلةَ إنزاله من كلِّ عام.

---

(١) للدكتور محمد بن عبد الله الرّبيعة.

(٢) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٣٢)، ويروى في سبب نزولها عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد حتى يمسي فعل ذلك ألف شهر، فتعجب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون من ذلك، فأنزل الله قوله: ليلة القدر خير من ألف شهر أي قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرّجل ألف شهر.
ينظر: جامع البيان (٥٤٦/ ٢٤)، الدر المنثور (٥٣٥/ ١٥).

ثم تحدَّثت عن نُزُولِ جبريلَ والملائكةِ الأبرار، بالأنوارِ والخيراتِ على عبادِ اللهِ المؤمنين، حتى طلوع الفجر.

وهذه بعضُ البصائرِ التَّدبُّريَّة المُهمَّة في السّورة، فمنها:

أنَّ اسمَ السّورةِ (القدر) وهو الشرفُ والفضلُ والمكانةُ العالية، أو التَّدبيرِ والتَّقديرِ، وهذا مناسبٌ لما تحدَّثت عنه السّورةُ من بيانِ عظمِ ليلةِ القدر، هذه الليلةُ التي تميَّزتْ بابتداءِ نُزُولِ القرآن فيها، ونزولِ الملائكةِ مع جبريل، وليس من شكٍّ أنَّ حدوثَ مثل هذه الأمور فيه دلائلُ على: عظَمَةِ المُنزِلِ وهو الله، والمُنزَل وهو القرآن، والمُنزَلِ إليه وهو النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن البصائر: أنَّ سورة القدر جاءت في المصحفِ بَعدَ سورةِ العلقِ، فكأنَّ الضمير في قوله: ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾، إيماءٌ إلى القرآن، الذي ابُتدئَ نزولُه بسورة العلق.

ومن البصائر: أنَّ قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القَدْر: ١] اشتَمَلَتْ على تنويهٍ عظيمٍ بالقرآن، فتأمَّل كيف افتُتِحت بنون العظمة ﴿ إِنَّآ ﴾، ثم الإخبار عنه بالجملةِ الفعليَّة ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾، وكلاهما من أساليب التَّأكيد.

ومن البصائر: أنَّ تسميةَ ليلةَ القدرِ بـ ﴿ لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ دون (ليلة النُّزُول)! إما ليكونَ ذكرُها بهذا الوصفِ تشويقاً لمعرفتها وتعظيماً لها، أو بياناً لعظم قدر ما أُنزِلَ فيها وهو القرآن، فتعظِّمه الأمَّة، ولذلك عَقَّبَ بقوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القَدْر: ٢].

ومن البصائر: أنَّ قوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القَدْر: ١] دَالٌّ على أنَّه أُنزِلَ جملةً واحدةً من اللَّوحِ المحفوظِ إلى بيتِ العزَّةِ في السّماء الدنيا في تلك الليلة، ثمَّ نزلَ مُفَرَّقاً حَسَبَ الوقائع والأحداث، وكان أوَّلَ ما نَزَلَ منه: صَدْرُ سورة العلقِ، في أولِ ليلةٍ نزلَ فيها جبريلُ على النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي ليلةُ القدر.

ومن البصائر: أنَّنا نُدركُ عظمةَ هذه الليلة حين نتصوَّرُ نزولَ القرآنِ الذي شهدته الأرض في هذه الليلة، وحين نتدبَّر حقيقةَ الأمرِ الذي تم فيها، ونتأمل آثاره المتطاولة في مراحل الزمان، وفي تصوّرات القلوبِ والعقولِ؛ فإنَّنا نرى أمراً عظيماً حَقّاً، ونُدْرِكُ طَرَفاً من مغزى هذه الإشارة القرآنيَّة إلى تلك الليلة: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القَدْر: ٢][1].

ومن البصائر: أنَّ الاستفهامَ في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾؟ إشعارٌ بعظمِها وفضلِها. وفيه دلالةٌ على أنَّ علوَّ قدرِها خارجٌ عن دائرةِ درايةِ الخلقِ، لا يدريه ولا يعلمُه إلا علام الغيوب[2].

ومن البصائر في قوله: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [القَدْر: ٣]: أنّ تَفْضِيلَ ليلةِ القدرِ بالخيرِ على ألفِ شهر، دالٌّ على تضعيفِ فضلِ ما يحصل فيها من الأعمال الصالحة.

ومن البصائر: أنَّ ليلةَ القدرِ هي في حقيقتِها فرصةٌ لإطالةِ العمر، فألفُ شَهْرٍ تُعادِلُ تقريباً اثنين وثمانين عاماً، فمَن يُدْرِكُ لِيلَةَ الْقَدْرِ عَشَرَ مَرَاتٍ، فكأنَّما عاشَ عشرين وثمانمائة عاماً، ومَن أدركها عشرين مرَّة فكأنما عاشَ ألفاً وستمائةً وأربعين من الأعوام، وهكذا... وأيُّ نعمةٍ أكبرُ من ذلك! وفضل الله واسع.

ومن البصائر: أنَّ العبرةَ ليست بطولِ الأعمار، وإنَّما بحسنِ الأعمال، فليس المهمُّ الكم، وإنما الكيف، ورُبَّ لحظةٍ واحدةٍ هي في جوهرِها خيرٌ من الحياة كلِّها، فليلةُ القدرِ تعادلُ اثنين وثمانين عاماً، وهذا ما يجعلنا نتعرَّضُ لنفحاتِ الله، ونتعرَّضُ لمواسمِ الخيرِ المضاعفة.

ومن البصائر: أنَّ هذه السّورة تعظِّم في نفوسنا ليلةَ القدر، وبيانَ مدى شرفِها وجليلِ قدرها، وفي هذا ما يحفِّزُ المؤمنَ لتحرِّي تلك الليلةِ واغتنامها حقَّ الاغتنام، وفيها كذلك بيانٌ لعظمِ قدْرِ القرآن، حيثُ جَعَلَ اللهُ نُزولَه في هذه الليلة المباركة العظيمة.

---

(١) في ظلال القرآن (٦ / ٣٩٤٥).

(٢) تفسير أبي السّعود (٩/ ١٨٢).

ومن البصائر: أنَّ التَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [القَدْر: ٤]! دليلٌ على أنَّ هذا التَّنزُّلَ متكررٌ في المستقبل في كلِّ عام، وأنَّ هذا من دلائلِ فضلها وقدرها، ويظهر أنها تَنزَّلُ جماعاتٍ وبكثرة، ولهذا عبر بـ ﴿ تَنَزَّلُ ﴾ بالتَّشديد دون (تنزِل) بالتَّخفيف.

ومن البصائر: أنَّ كثرةَ تنزُّلِ الملائكةِ في هذه الليلة لكثرةِ بركتِها، والملائكةُ يتنزَّلون مع تنزُّلِ البركةِ والرّحمة، كما يتنزلون عند تلاوةِ القرآن، ويحيطون بحِلَقِ الذِّكر، ويضعون أجنحتَهم لطالبِ العلمِ بصدقٍ تعظيماً له[1].

وفي ذكرِ تنزُّل الملائكةِ في هذه الليلةِ دليلٌ على كثرةِ خيراتِ هذه الليلة، وما يصاحبها من رحماتٍ تتنزَّلُ بها الملائكةُ من ربِّ الأرض والسّموات.

ومن البصائر: تخصيصُ تنزُّلِ الرّوح -وهو جبريل- ؛ لكونه الموكَّلَ بالوحي، وإظهاراً لشرفه وفضلِه، وشَرَفِ ما يَنزِلُ به مع الملائكة من السّلام والرّحمة.

ومن البصائر: أنَّ قوله: ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ [القَدْر: ٤] يَدُلُّ على عِظَم أدَبِ الملائكة مع ربِّهم، في استئذانهم إياه لنزولِهم؛ لأنَّهم كانوا يرغبون إلى أهل الإيمان والذكر، ويتمنون لقاءهم[2].

ومن البصائر: أنَّ قوله: ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القَدْر: ٤] يَدلُّ على أنَّ الملائكةَ تَنزِلُ لأجلِ كلِّ أمرٍ فيه مصلحةُ المكلفين، ولذا فإنَّ لفظَ الأمرِ يعمُّ خيرَ الدنيا والآخرة.

ومن البصائر: أنَّ اللهَ وَصَفَ هذه الليلةَ بأنَّها سلامٌ، وفي هذا دليلٌ على أنَّها سلامٌ في السّماء والأرض، إلا ما يكونُ مِن قِبلِ المُكَلَّفِينَ المُخيَّرِينَ مِن إنسٍ وجن[3].

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٤٤).
(٢) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٣٢).
(٣) معارج التَّفكر (٢/ ٣٠٠ - ٣٠١).

ومن البصائر: أنَّ وصفَها بأنها سلام، تشبيهٌ لها بالجنَّة في نعيمها وفضلها، ولذلك وَرَدَ أن الملائكةَ تُسلِّم فيها على الطّائعين، كما روي عن الحسن قال: إذا كان ليلةُ القدر لم تزلِ الملائكةُ تخفقُ بأجنحتها بالسّلام من الله والرّحمة، من لدن صلاةِ المغربِ إلى طلوعِ الفجر[1].

ومن البصائر: أنَّ مِن السّلامِ الذي حَصَلَ في هذه الليلةِ المباركة للبشريَّة نُزُولُ القرآن، الذي يحقِّق لها في الدنيا السّلام، ويهدي مَن اتَّبعه دارَ السّلام يوم القيامة.

ومن البصائر: أنَّه ورد عن ابن عباس أنَّ ليلة القدر هي ليلةُ السّابع والعشرين، واستدلَّ بأن السّورة ثلاثون كلمة، وكلمة ﴿ هِيَ ﴾ التي في السّورة، هي الكلمة السّابعة والعشرون.

ومن البصائر: أنَّ ذِكرَ نهايتها في قوله: ﴿ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴾ [القَدْر: ٥] للتَّعريف بمنتهاها؛ ليحرصَ الناسُ على كثرةِ العملِ فيها قبل انتهائها، فَذِكْرُ نهايةِ الشيء مُحفِّزٌ لاستشماره قبل انتهائه[2].

ومن البصائر: أنَّ الإتيان بحرف ﴿ حَتَّىٰ ﴾ التي هي لانتهاء الغاية، دالٌّ كما ذكر بعضُ أهلِ العلم على أنَّ ليلةَ القدرِ تمتدُّ بعدَ مطلع الفجر، بحيث إنَّ صلاةَ الفجر تُعتَبر من تلك الليلة، وهذا توسعةٌ من الله في امتدادِ الليلةِ إلى ما بعد طلوعِ الفجر، والله أعلم.

وختاماً -أيُّها الإخوة- فإنَّ هذه السّورةَ عظيمةُ القدرِ في مضمونها ودلالاتها، فحريٌّ بالمسلمِ أن يُعظِّمَها، ويُعظِّمَ مَا عَظَّمَهُ اللهُ، وَيَستَغلَّها بالطّاعةِ والإنابة والتَّوبة.

اللهم كما مننتَ على أُمةِ محمدٍ ﷺ بهذه الليلة، اللهم فاجعل لنا فيها أوفرَ الحظِّ والنصيبِ من واسع مغفرتك ورحمتك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) الدر المنثور (١٥ / ٥٣٩).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (٣٠ / ٤٦١).

المجلس الحادي والعشرون
مناجاة نبيٍّ[1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

يقولُ الله تعالى في سورةِ إبراهيم، عن نبيِّه وخليلِه إبراهيمَ عليه الصّلاة والسّلام:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

إنَّها مناجاةُ أبٍ كبيرٍ في السِّنِّ، رزقَهُ اللهُ الولدَ على كِبَرٍ، فحمدَ ربَّه، وأثنى عليه، وتوجَّه نحو ربِّه مناجياً في شأن ذرِّيَّته من بعده، فقد مضى أكثرُ عمرِه فلم يبقَ له من العمرِ إلا القليلُ، فمَن سيحفظ أبناءه من بعده إلا اللهُ، ونِعْمَ بالله حافظاً وكفيلاً.

إنَّه خليلُ اللهِ إبراهيمُ عليه السّلام، يشغلُه شأنُ أسرتِه في مكة، فالمكان لا زرعَ فيه ولا أُنس، فكيف سيعيشون؟! فيعرِضُ ذلك على ربِّه عَرْضاً لطيفاً فيقول: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، (أي: بوادٍ لا يصلُح للنبتِ لأنَّه حجارةٌ، فإنَّ كلمة (ذُو) تدلُّ على صاحب ما أُضيفت إليه، وتمكِّنه منه، فإذا قيل: ذو مالٍ، فالمالُ ثابتٌ له، وإذا أُريدَ ضدُ ذلك قيل: غير ذي كذا، كقوله تعالى: ﴿ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ ﴾ [الزُّمَر: ٢٨]، أي: لا يعتريه شيءٌ من العِوَجِ، ولأجل هذا الاستعمال لم يقل: بوادٍ لا يُزرع أو لا زرعَ به)[2].

(١) للدكتور عويض العطوي.
(٢) التَّحرير والتَّنوير (١٣/ ٢٤١).

إنَّه يخافُ عليهم من الهلاك، ويأخذُ بأسبابِ العيشِ والحياة، ويبيِّن السّببَ في إسكانِهم عند البيتِ المحرم فيقول: ﴿ لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، إنَّه مَلمَحٌ مهمٌّ، أن يختارُ الأبُ مكانَ إقامةِ أسرتِه، فلا يهتمُّ دائماً برغبات الجسد وملذَّاتِ الحياة، من الأماكنِ الجميلة، والمواقعِ المميزةِ، وينسى شأنَ الرُّوح، بل عليه أن يُقدِّم أولاً ما يُغذِّي هذه الرّوح، وما يُساعد على صلاحِ أبنائه، فالمكانُ له أثرُه في التَّربية، فمكةُ بلدٌ لا زرعَ فيه، ولا يوجدُ فيها مما تشتهيهِ نفوسُ النَّاس شيء، لكنَّ فيها الإيمانَ والتَّوحيدَ وعبادةَ ربِّ العالمين، لذا قال: ﴿ لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، إنَّه هدفٌ نبيلٌ على كل أبٍ أن يضعَه أمامَ عينَيه وهو يخطِّطُ لحياتِه وحياةِ أبنائه، فالمكان الذي تتهيَّأ فيه دُورُ العبادة، أفضلُ من المكانِ الذي تقلُّ فيه، والمكانُ الذي يُذكَر فيه اسمُ الله كثيراً خيرٌ من الذي لا يُذكَر فيه إلا قليلاً.

ثمَّ إنَّ إبرازَ الصلاةِ هنا على وجهِ الخصوص يشيرُ إلى أنَّ ممَّا اهتم به الأنبياءُ الكرامُ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في تربيتِهم لأولادِهم بعد شأنِ التَّوحيدِ والخوفِ من الشِّرك، هو شأنُ الصلاة، ولهذا شواهدُ كثيرةٌ في القرآن يمكن رصدها في قصصِ الأنبياء عليهم السّلام مع أولادهم.

ولا ينسى الأبُ الرّحيمُ، ما تُسبِّبُه الوحدةُ للإنسان من وحشةٍ وضيقٍ في الصدر، فيسألُ ربَّه ويقول: ﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ وهذا يشير إلى أنَّ الانقطاعَ عن الناس والبعد عنهم ليس مرغوباً، فكثيرٌ من العبادات لا تتحقَّقُ إلا بمخالطةِ الناس، والعيشِ معهم.

ثم إنه ذكرَ الأفئدةَ فقال: ﴿ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾، ولم يقل: فاجعلْ بعضَ الناس؛ وذلك لأنَّ الفؤادَ إذا هوى مكاناً تعلَّق به، فهو يُريدُ أُناساً يبقون ويألفون هذا المكانَ ليعمروه، لا أن يمرُّوا عليه ويتجاوزوه، وفي التَّعبير بالأفئدةِ هنا رقةٌ ولطفٌ، تصوِّر القلوب رفافة مجنحة، وهي تهوي إلى ذلك البيتِ وأهلِه في ذلك الوادي الجديب، إنَّه تعبيرٌ نديٌّ يندِّي الجدبَ برقّةِ تلك القلوب[1].

(١) انظر: في ظلال القرآن (٤ / ٤١١).

ثمّ إنَّ هذا المكانَ الذي لا زرعَ فيه ولا سكّانَ لن يَؤُمَّه أحدٌ، ولن يستقرَّ فيه أحدٌ، ولن يكون ذلك إلا بصرفِ أفئدةِ بعضِ النَّاس إليه، ولهذا تبقى مكَّةُ خاليةً من أسباب الجذبِ المعروفةِ لدى الناس، من لَطافةِ الجوِّ، وكثرةِ الخضرة، وجريان الماء، وكثرةِ الزروع... وغيرها، ومع هذا هي أعظمُ مكانٍ يَؤُمُّهُ الناسُ على مدى التَّاريخ، وذلك ليبقى المحرِّكُ الوحيدُ لهم في ذلك هو طاعةُ الله، ورجاءُ أجره سبحانه.

وقد قال إبراهيم عليه السّلام: ﴿أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، وربما لو قال: (أفئدةَ النَّاسِ) لجاءَ كلُّ البشرِ، ولما استوعبَهم المكان، ولله في خلقه شأنٌ وحكمةٌ.

كما لا ينسى الأبُ الرّحيمُ أهلَ بيتِه في معيشتهم، بل يدعو الله لهم فيقول: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، وفي هذا المقطع مجموعةٌ من الدلالات واللطائف:

فيه أنَّ عنايةَ المربِّي برزقِ أهلِ بيته أمرٌ مهمٌّ، وهو شأنٌ لا يلامُ عليه، بل هو مسؤولٌ عن ذلك، ولا يصحُّ ما نراه من تضييعِ بعضِهم لمسؤوليةِ أهليهم ومعيشتِهم، فهو مشغولٌ عنهم دائماً، يذهب وهم نائمون، ويعود وهم نائمون، حتى إنَّ بعضَ الأسرِ لَتعيشُ على الصدقات ومساعداتِ الآخرين؛ والأبُ موسِرٌ وعلى قيد الحياة.

وفيه أيضاً أنَّ ذكر ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يُشير أنَّها من أعظمِ أنواعِ الأمنِ الغذائي، وقد يكون في ذلك إشارةٌ إلى الزراعة فيما يصلح لها قرب مكة، أو إلى جلب الثَّمرات إليهم من أقطارِ الأرض البعيدة، وهو ما يؤيِّدُه قوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القَصَص: ٥٧] يقول أبو السُّعود: (وقد حصلَ كلاهما حتى إنَّه يجتمعُ فيه الفواكهُ الرّبيعيَّةِ والصيفيَّةِ والخريفيَّةِ في يومٍ واحد)[1].

(١) تفسير أبي السّعود (٤/ ٤٢).

وفيه أيضاً إشارةٌ إلى تربيةِ الأسرةِ على شكر النعمة، حيث قال: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ فلا يكفي حصولُ النِّعم بل لا بدَّ من فعلِ أسبابِ بقائها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

وممَّا يُستفادُ من هذه المناجاة: معرفةُ آدابِ السُّؤالِ والتَّضرُّعِ، وقد كان (في دعائه عليه السّلام من مراعاةِ حُسنِ الأدب، والمحافظةِ على قوانين الضَّرَاعةِ، وعرضِ الحاجة، واستنزالِ الرَّحمةِ، واستجلابِ الرَّأفةِ ما لا يخفى، فإنَّه عليه السّلام بذِكْرِ كونِ الوادي غيرَ ذي زَرْعٍ بيّنَ كمالَ افتقارِهم إلى المسؤول، وبذكْرِ كونِ إسكانِهم عند البيت المحرم أشار إلى أنَّ جوارَ الكريمِ يستوجبُ إفاضةَ النعيم، وبعرضِ كونِ ذلك الإسكانِ مع كمالِ إعوازِ مرافقِ المعاشِ لمحضِ إقامةِ الصلاةِ وأداءِ حقوقِ البيت مهَّدَ جميعَ مبادئِ إجابةِ السُّؤال، ولذلك قُرِنَت دعوتُه عليه السّلام بحُسنِ القبول)[1].

إنَّها معالمُ تربويةٌ مهمةٌ تستلهمُها من قصصِ الأنبياءِ الكرامِ مع أبنائهم، ولن تجدَ نموذجاً أرقى ولا أعظم منهم.

هذه -أيها المؤمنون- بعضُ دلائلِ هذه المناجاة النَّبويَّة، فما أجملَ التَّأسي به، ومراعاةَ الأدبِ وعلوِّ الهمَّةِ في دعواتنا.

اللهم ارزقنا الأدبَ معك، وصدقَ اللجَأِ إليك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) تفسير أبي السّعود (٤/ ٤٢).

المجلس الثاني والعشرون

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾[1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

يقولُ الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦].

هذه آيةٌ قرآنيةٌ إيمانية، لها صلةٌ عظيمةٌ بعبادةٍ من أعظمِ العبادات، ألا وهي عبادةُ الدعاء.

وهذه الآية المتعلِّقةُ بالدعاء جاءت متوسطةً بين عددٍ من آياتِ الصيام وكأنَّها -والله أعلم- تشيرُ إلى أهميَّة الدعاءِ في رمضان، والدعاءُ عموماً -في رمضان وفي غيره- له شأنٌ عظيمٌ، بل هو صفةُ عبادِ الله الصالحين: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأَنبِيَاء: ٩٠].

يا أمَّةَ القرآن! لقد انطوت هذه الآية الكريمة -﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]- على جملةٍ من الهدايات، منها:

أولاً: أنَّ القرآنَ قد اشتمل على أربعة عشر سؤالاً، وكلُّها تبدأ بـ (يسألونك)، ثم يأتي الجواب بـ: (قل) أو (فقل)، إلا هذا الموضع الوحيد، فإنه بدأ بهذه الجملة الشرطية: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]، وجاء جوابُ الشرطِ من دون الفِعل: قل، بل قال: ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]، فكأنّ هذا الفاصل -(قل)- مع قصرِه، كأنه يُطِيلُ القُرْبَ بين الداعي وربِّه، فجاء الجوابُ بدون واسطة؛ بل قال: ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ تنبيهاً على شدَّةِ قربِ العبدِ من ربِّه في مقامِ الدعاء!

---

(١) للدكتور عمر بن عبد الله المقبل.

ولو تأملتَ -أيها المبارك- في قوله: ﴿ عِبَادِى ﴾ فكم في هذا اللفظِ من الرَّأفة بالعباد؛ حيث أضافَهم إلى نفسِه العليةِ سبحانه وبحمده! فأين الدَّاعون؟ وأين الطّارقون لأبوابِ فضلِه؟! وهو قد حَثَّهم سبحانه على الدعاءِ فقال: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأَعْرَاف: ٥٥] وقال جل وعلا: ﴿ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [غَافِر: ١٤].

وأما قوله سبحانه: ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ ففيها إثباتُ قُربِهِ من عبادِه جلَّ وعلا، وهو قُربٌ خاصٌّ بمَن يعبدُه ويدعوه، وهو -واللهِ- من أعظمِ ما يدفعُ المؤمنَ للنشاط في دعاء مولاه.

ولتنظر -أيها المؤمن- في نتيجةِ ذلك التَّضرُّع، ألا وهي في قوله: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ ﴾ ففي هذا ما يدلُّ على قدرةِ الله وكمالِ سمعه سبحانه، وهذا ما لا يقدرُ عليه أيُّ أحدٍ إلَّا هو سبحانه! وقد قال جلَّ وعلا: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غَافِر: ٦٠] فقد وعد سبحانه بالاستجابةِ لَمن دعاه وهو موقنٌ بالإجابة.

إنَّ أيَّ مَلِكٍ من مُلُوكِ الدنيا -ولله المثل الأعلى- مهما أُوتيَ من القوة والسّلطان لا يمكنه أن يُنفِّذَ كلَّ ما يُطلب منه؛ لأنَّه مخلوقٌ عاجزٌ، لا يستطيع أن يدفعَ عن نفسه المرضَ والموت، فضلاً عن غيرِه، فتباركَ اللهُ القويُّ العزيزُ، الرّحيم الرّحمن.

لكن تأمَّل -أيها المؤمن- في قوله تعالى: ﴿ إِذَا دَعَانِ ﴾، ففيها إشارةٌ إلى أنَّ من شرطِ إجابةِ الدعاء أن يكون الداعي حاضرَ القلبِ حينما يدعو ربَّه، وصادقاً في دعوة مولاه، بحيث يكون مخلصاً مشعراً نفسه بالافتقار إلى ربِّه، ومُشعراً نفسه بكرم الله، وجوده[1].

(١) ينظر فيما سبق: مفاتيح الغيب (٥/ ٨٤)، وتفسير القرآن الكريم للعثيمين (١/ ٣٤٥).

ثانياً: ومن هدايات هذه الآية ودلالتها:

أنَّ الله تعالى يجيب دعوةَ الداع إذا دعاه، ولا يلزم من ذلك أن يجيبَ مسألته؛ لأنه تعالى قد يؤخِّر إجابةَ المسألةِ ليزدادَ الداعي تضرعاً إلى الله، وإلحاحاً في الدعاء، فيقوى بذلك إيمانُه، ويزدادَ ثوابُه أو يدَّخره له يوم القيامة؛ أو يدفع عنه من السّوء ما هو أعظمُ فائدةً للداعي، وهذا هو السِّرُّ -والله أعلم- في قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾[1].

ثالثاً: ومن هدايات هذه الآية ودلالتها وتاجها ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]:

أنَّك تلحظ فيها سِرَّاً من أسرار عظمةِ هذا الدين، وهو التَّوحيد، فهذا ربُّك -أيها المؤمن- وهو ملكُ الملوك، القهارُ الجبار، الذي لا يُشبهُ مُلْكَه مُلكٌ، ولا سُلطانَه سلطانٌ، لا تحتاج إذا أردت دعاءه إلى مواعيدَ، ولا إلى أذونات، ولا شيءَ من ذلك، إنَّما هو رفعُ اليدين، مع قلبٍ صادقٍ، وتسأل حاجتَك، كما قال بكر بن عبد الله المزني -أحد سادات التَّابعين-: (مَن مثلُك يا ابن آدم! خُلِّيَ بينك وبين المحراب، تدخلُ منه إذا شئتَ على ربِّك، وليس بينك وبينه حجابٌ ولا ترجمان؟!)[2]. فيا لها من نعمةٍ لا يعرفُ قدرَها إلا الموفَّق.

وإذا تبيَّن وقعُ هذه العبادة الجليلة، فإنَّك ستُدرِكُ أنَّ الحرمان الحقيقيَّ للعبد حينما يُحرَمُ طرقَ الباب، وأن تُنسيَه نفسُه هذا السَّبيلَ العظيم! كما قال أبو حازم: لَأَنا من أن أُمنعَ الدُّعاءَ، أخوَفُ منِّي من أن أُمنعَ الإجابة[3].

(١) تفسير القرآن الكريم للعثيمين (٣٤٥/ ١).
(٢) حليَة الأولياء: (٢/ ٢٢٩).
(٣) حليَّة الأولياء: (٣/ ٢٤١، ٧/ ٢٨٨).

وقد أجمع العارفون أنَّ التَّوفيقَ ألا يكلِكَ اللهُ إلى نفسك، وأنَّ الخذلانَ هو أن يخلِّي بينك وبين نفسك، فإذا كان كلُّ خيرٍ فأصلُه التَّوفيق، وهو بيدِ الله لا بيد العبد، فمفتاحه الدُّعاءُ والافتقارُ وصدقُ اللَّجأ والرَّغبةُ والرَّهبة إليه، فمتى أعطى العبدَ هذا المفتاحَ فقد أرادَ أن يفتحَ له، ومتى أضلَّه عن المفتاحِ بقي بابُ الخير مُرتجاً دونه، قال أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إنِّي لا أحملُ همَّ الإجابة، ولكنِّي أحملُ همَّ الدعاء، فإذا أُلهمتُ الدعاءَ فإنَّ الإجابةَ معه)[1].

وعلى قَدرِ نيةِ العبدِ وهمَّتِه ومراده ورغبته في ذلك يكون توفيقُه سبحانه وإعانتُه، فالمعونة من الله تنزلُ على العبادِ على قَدْرِ هِمَمهم وثباتِهم ورغبتِهم ورهبتِهم، والخذلانُ ينزلُ عليهم على حسب ذلك... وما أُتِيَ مَن أُتي إلا من قبلِ إضاعةِ الشكر، وإهمالِ الافتقار والدعاءِ، ولا ظَفَرَ مَن ظَفَر -بمشيئة الله وعونه- إلا بقيامه بالشكر، وصدقِ الافتقار والدعاء[2].

ومن المعاني المهمةِ التي ينبغي أن يستحضِرها العبدُ -وهو في مقام الدعاء- ما أشارَ إليه الإمام أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ -وهو يتحدَّثُ عن الحكمة من مشروعيةِ الدُّعاء- فيقول: (وقد قَضَى الله سبحانه أن يكون العبدُ مُمتحناً ومُستعمَلاً، ومُعلَّقاً بين الرَّجاء والخوف -اللذين هما مَدرجتا العبودية- ليستخرجَ منه بذلك الوظائفَ المضروبةَ عليه، التي هي سِمَةُ كلِّ عبد، ونصبةُ كلِّ مربوبٍ مُدَبَّرٍ)[3].

(١) ينظر: الأساس في التفسير: ٩/ ٤٩٧٧.
(٢) ابن القيم في الفوائد: (١٨١).
(٣) شأن الدعاء: (٩ / ١٠).

رابعاً: ومن هداياتِ هذه الآية ودلالتِها:

استحبابُ الدعاءِ عند الفِطر في رمضانَ وغيرِه، وهذا ما يدلُّ عليه ظاهرُ القرآن، وفعلُ السّلف، وفي السُّنة المرفوعةِ أحاديثُ لا تخلو من مَقال، ولكن ها أنت ترى ظاهرَ القرآن يَعضُدُها، ووَجهُ الدلالةِ من الآيات على هذا المعنى: أنَّ اللهَ تعالى ذكر هذه الآية -آية الدعاء- بُعيدَ آياتِ الصيام وقُبيلَ آية إباحةِ الرَّفَثِ في ليلِ الصيام، (وفي ذكره تعالى هذه الآيةِ الباعثة على الدعاء متخلِّلَةً بين أحكامِ الصيام، إرشادٌ إلى اجتهادٍ في الدعاء عند إكمال العِدَّة، بل وعند كلِّ فِطر)[1].

فما أجملَ العبدَ وهو يُظهرُ فقرَه وعبوديتَه بدعاء مولاه، والانكسارِ بين يدي خالِقه ورازِقِه، ومَن ناصيتُه بيده!

وما أسعدَه حينما يهتبلُ أوقاتَ الإجابة ليناجي ربَّه، ويسألَه من واسعِ فضله من خيرَي الدنيا والآخرة!

نسألُ الله تعالى أن يرزقَنا صدقَ اللَّجأ إليه، والانطراحَ بين يديه، وكمالَ التَّضرُّع له، وقوةَ التَّوكل عليه، وألا يُخيِّبَ رجاءنا فيه، ولا يردَّنا خائبين بسببِ ذنوبنا وتقصيرنا.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) تفسير ابن كثير: ١ / ٢٧٣.

المجلس الثالث والعشرون

﴿ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾[1]

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على رسولِ الله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

إنَّ الحديث هاهنا سيدورُ حول هداية قولِ الله تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العَلَق: ١٤]. فهذه آيةٌ عظيمةٌ في أوَّلِ سورةٍ نزلتْ في القرآن، وهي سورةُ العلق.

آيةٌ تهُزُّ الوجدان، وتفعلُ في النَّفس ما لا تفعلُه سُلطاتُ الدنيا، ولا أحدثُ التَّقنيات في عالم المخابرات، آيةٌ تضبطُ النَّوازعَ، وتقوي الوازعَ، وتكبحُ الجماحَ، وتدعو إلى إحسانِ العمل، وكمالِ المراقبة. وقد جاءت بهذا البيانِ المعجزِ الذي لا تصل إليه قوةُ بشر، جاءت بهذا التَّعبيرِ الواضح مُبيِّنةً عمَّا تحتها من معنى، جاءت بصيغة الاستفهام: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾؟

وتحت هذه الآية من اللطائفِ والأسرارِ الشيءُ الكثيرُ، ففيها إشارةٌ إلى وجوب المراقبة لله عز وجل، وفيها تهديدٌ لَمن يتمادى في الغي، وفيها تلويحٌ إلى وجوبِ الإقصارِ عن الشر، وفيها تلميحٌ إلى أنَّ العلمَ باطِّلاع الله عزَّ وجل على الخلائق أمرٌ فطريٌّ لا يحتاج إلى دليل، وفيها تعريضٌ بغباوةِ مَن يجهلُ هذه الحقيقة، أو يكابرُ في شأنها.

فيا الله ما أجملَ أن يستحضرَ كلُّ أحدٍ هذه الآية إذا امتدت عينُه إلى خيانةٍ، أو يدُه إلى حرامٍ، أو سارت قدمُه إلى سوءٍ، أو تحرَّك لسانه بقبيحٍ. وما أروعَ أن تكون هذه الآية نُصْبَ أعيُننا إذا أردنا القيام بما أُنيطَ بنا من عمل.

---

(١) للدكتور محمد بن إبراهيم الحمد.

وفي هذا سرٌّ بديعٌ، ودرسٌ عظيمٌ تفيد منه الأمةُ بعامَّة، ويفيدُ منه الأفرادُ بخاصة؛ فواجبٌ على المصلحين وقادةِ الأمم أن يتنبهوا لهذا المعنى، وأن يحرِصوا على إشاعتِه بين الناس؛ ذلكم أنَّ وازعَ الدين والمراقبة لربِّ العالمين يفعلُ في النفوس ما لا يفعلُه وازعُ القوة والسُّلطان؛ فإذا ألفَ المرءُ أن يراقبَ ربَّه، ويستحضرَ شهودَه واطِّلاعه عليه: فإنَّ المجتمعَ يأمن بوائقَه، ويستريحُ من كثيرٍ من شروره. أما إذا كان الاعتمادُ على وازعِ القوة، وحارسِ القانون، فإنَّ القوةَ قد تضعف، وإنَّ الحارسَ قد يغفَل، وإنَّ القانون قد يؤوَّل، وقد يُتحايل؛ للتخلُّص من سلطانه.

لذلك تكثرُ الجرائمُ والمفاسدُ إذا قلَّت التربيةُ الدينيةُ في مجتمعٍ ما، فإذا أشعنا هذا المعنى في الناس، وعمدنا إلى تربيتهم بأسلوبِ الدينِ والفضيلة أرحنا واسترحنا، ووفَّرنا جهوداً كبيرة، وقد تكون ضائعةً في غير ما فائدة؟ فالمراقبة حارسٌ قويٌّ يمنعُ الإنسانَ من التَّفكير في الجرائم والشرور، والتَّقصير في أداء الحقوق.

فلا عجبَ -إذاً- أن تكون هذه الآيةُ في أولِ سورةٍ نزلت من القرآن الكريم؛ لكي يكون المؤمنُ على ذكرٍ من هذا المقام العالي، الذي إذا تمثَّلَه كان في قبيل المحسنين، الذين يعبدون الله كأنَّهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونَه فإنَّه يراهم.

وتلك هي مرتبةُ الإحسانِ التي هي أعلى مراتبِ الدين، والتي إذا استشعرها المؤمنُ حال قيامِه بعبوديَّة ربه كان عملُه متقناً مُضاعفاً؛ فإذا صلَّى مستشعراً ذلك المعنى تضاعفَ أجرُ صلاتِه، وهكذا بقية الأعمال الصالحة.

ولعلَّ الصيام من أعظم العبادات التي تتجلَّى بها عبوديةُ المراقبة؛ فالصيامُ مدرسةٌ لقيام تلك العبوديَّة العظمى؛ ذلكم أنَّ الصائمَ يُمسكُ عن المفطرات طيلةَ النهار، فتراه أميناً على نفسه، رقيباً عليها في الصغيرةِ والكبيرة، متمثِّلاً هيبةَ مولاه، واطلاعه، وشهوده كأتمِّ ما يكون، فلا تحدِّثه نفسُه بتناولِ مفطِّرٍ ولو قل، ولا يخطرُ بباله أن ينقُض صيامَه ولو توارى عن الأعين، فيصلُ بذلك إلى مرتبةِ الإحسان؛ حيث يعبدُ الله كأنَّه يراه، ولهذا خص الله عزَّ وجلَّ الصيامَ من بين سائرِ الأعمال بأنَّه له، وهو يجزي به.

فقد ثبت في الصَّحيحَين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كلُّ عملِ ابن آدم له، الحسنةُ بعشرة أمثالِها إلى سبعمائة ضعف**» قال الله عز وجل في الحديث: «**إلا الصيام فإنَّه لي وأنا أجزي به؛ إنَّه تركَ شهوتَه وطعامَه وشرابَه من أجلي**»(١). وفي رواية: «**كلُّ عملِ ابنِ آدمَ له إلا الصيام فإنَّه لي**».

فالصيامُ سرٌّ بين العبد وبين ربِّه لا يطَّلع عليه غيرُه؛ فإنَّه مُركَّبٌ من نيَّةٍ باطنةٍ لا يطلع عليها إلا الله، وتركٍ لتناولِ الشهوات التي يستخفى في تناولها في العادة؛ فإذا تركَ ما تدعوه إليه نفسُه لله عز وجل حيث لا يطَّلعُ عليه غيرُ مَن أمَرَهُ ونهاه، دلَّ ذلك على صحةِ إيمانه، والله عز وجل يحبُّ مِن عبادِه أن يعاملوه سرَّاً بينهم وبينه، وأهلُ محبَّته يحبُّون أن يعاملوه هكذا؛ فإذا استشعرَ الصائمُ هذا المعنى العظيمَ انبعثَ إلى مراقبةِ الله عز وجل في شتَّى شؤونه؛ فالذي يطَّلع عليه في صيامه مطَّلعٌ عليه في جميع أحواله.

وإذا راقبَ الإنسانُ ربَّه، واحترمَه في خلواته أظهرَ اللهُ فضلَه، ورفعَ ذكرَه؛ فالجزاءُ من جنسِ العمل، ومَن يعمل سوءاً يُجزَ به.

قال أبو حازم رَحِمَهُ اللَّهُ: (لا يُحسنُ عبدٌ فيما بينه وبين الله عز وجل إلا أحسنَ اللهُ فيما بينه وبين الناس، ولا يُعَوِّر -أي: يُفسد- فيما بينه وبين الله عز وجل إلا عوَّرَ اللهُ فيما بينه وبين العباد، ولمصانعةُ وجهٍ واحدٍ أيسرُ من مصانعةِ الوجوه كلّها، إنَّك إذا صانعت اللهَ مالت الوجوهُ كلُّها إليك، وإذا أفسدتَ ما بينك وبين الله شنأتْك الوجوهُ كلُّها)(٢).

اللهم ارزقنا خشيتك في الغيب والشهادة، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وآله وصحبه.

---

(١) البخاري: (١٨٩٤)، ومسلم: (١١٥١).

(٢) حليَّة الأولياء ٣ / ٢٣٩.

المجلس الرّابع والعشرون

﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾[1]

الحمدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلام على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

من السُّور العظيمة التي يحفظُها عامةُ المسلمين سورةُ التَّكاثر، وقد تضمَّنت معانيَ عظيمةً، يَحسُنُ بنا أن نتوقَّف عندها، خاصةً ونحن في عصرٍ عَظُمَ فيه التَّكاثر، فما أحوجنا إلى معرفةِ منهجِ القرآن في الحديثِ عن التَّكاثر في ضوءِ سورة التَّكاثر:

فهذه السُّورة أُخلِصَت للوعدِ والوعيدِ والتَّهديدِ، وكفى بها موعظةً لَمن عَقَلَها، فقوله تعالى: ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ [التَّكاثُر: ١] أي: شَغَلَكم على وَجهٍ لا تُعْذَرُونَ فيه، فإنَّ الإلهاءَ عن الشيء هو الاشتغالُ عنه.

وتأمَّل في قوله: ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ﴾ فهو أبلغُ في الذمِّ مما لو قال: شَغَلَكم، فإنَّ العاملَ قد يستعمل جوارحَه بما يعملُ وقلبُه غيرُ لاهٍ به، فاللَّهوُ هو ذهولٌ وإعراض، والتَّكاثر: تفاعل؛ من الكثرة، أي: مكاثرةُ بعضِكم لبعض.

والله تعالى لم يذمَّ الكثرة، ففي الصحابة أغنياء، وفي الأنبياء -قبل ذلك- ملوكٌ لا يُداني ملكَهم أحدٌ، وإنَّما ذمَّ الله التَّكاثرَ الذي سببه الفخرُ والكبر، وأثَرُهُ: الإلهاءُ والإشغال، ويَحْمِلُ على الأشَرِ والبَطَرِ، ونسيانِ الشُّكر.

ولم يَذْكُرِ الله تعالى ما الشيء الذي يتكاثرُ به العبادُ؟ لِيَشمَلَ كلَّ شيءٍ يتكاثرُ به العباد! وأنَّ كلَّ ما يُكاثِرُ به العبدُ غيرَه -سوى طاعة الله ورسوله- وما يعود عليه بنفع معادِه

(١) ملخص من مجموع كلام العلامتين: ابن القيم وابن عثيمين -رحمهما الله- على هذه الآية وعلى هذه السّورة الكريمة، بتصرف واختصار.

فهو داخلٌ في هذا التَّكاثر، فالتَّكاثرُ في كلِّ شيءٍ: من مالٍ، أو جاهٍ، أو رياسةٍ، أو نسوةٍ، أو حديثٍ، أو علم -ولا سيما إذا لم يُحتجْ إليه- والتَّكاثر في الكتب، والتَّصانيف، وكثرة المسائل، وتفريعها وتوليدها، وقُلْ مثلَ ذلك في التَّكاثر في عصرنا بكثرة المراكب، والأسهم، والعقارات!

والتَّكاثر أن يطلبَ الرّجلُ أن يكون أكثرَ من غيره، وهذا مذمومٌ إلا فيما يُقرِّبُ إلى الله، فالتَّكاثر فيه منافسةٌ في الخيرات، ومسابقةٌ إليها.

وإنَّما ذمَّ اللهُ التَّكاثرَ بالأموالِ والأولادِ على الوجه المذموم؛ لأنَّه مِن أعظمِ ما يُلهي النفوسَ عن الله والدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التَّكَاثُر: ١ - ٤] فكلُّ مَن شغلَه وألهاه التَّكاثرُ بأمرٍ من الأمور عن الله والدار الآخرة فهو داخلٌ في حكم هذه الآية.

ثم تأمَّل -أيها المؤمن- في قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فَجعَلَ الغايةَ زيارةَ المقابرِ دون الموت.

ولفظ ﴿زُرْتُمُ﴾ مشعرٌ بأنَّهم غيرُ مستوطنين ولا مستقرِّين في القبور، وأنَّهم فيها بمنزلةِ الزائرين، يحضرونها مدةً ثم يظعنون عنها، وينتقلون إلى دارِ القرار كما كانوا في الدنيا زائرين لها غيرَ مستقرِّين فيها، ودارُ القرارِ هي الجنة أو النار.

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهذا من الله توعُّدٌ لَمن ألهاه التَّكاثر، وعيداً مؤكداً إذا عاين تكاثرَه هباءً منثوراً، وعَلِمَ أنَّ دنياه التي كاثرَ بها، إنما كانت خدعاً وغروراً، فوجد عاقبةَ تكاثره عليه، لا له، وخَسِرَ هنالك تكاثرُه، كما خسرَ أمثالُه، وبدا له من اللهِ ما لم يكن في حسابه، وصار تكاثره الذي شغلَه عن الله والدار الآخرة

من أعظمِ أسبابِ عذابه، فعُذِّبَ بتكاثرِه في دنياه، ثم عُذِّبَ به في البرزخ، ثم يُعذَّبُ به يوم القيامة، فكان أشقى بتكاثرِه إذ أفاد منه العَطَب، دون الغنيمة والسّلامة، فلم يَفز مِن تكاثره إلا بأن صار من الأقلِّين! فيا له تكاثراً ما أقلّه! ورزءاً ما أجلّه! ويا له من غنىً جالِباً لكلِّ فقرٍ! ومالاً توصَّل به إلى كلِّ شرٍ! يقولُ صاحبُه -إذا انكشف عنه غطاؤه-: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفَجْر: ٢٤]، وعَمِلتُ فيه بطاعة الله قبل وفاتي: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المُؤْمِنُون: ٩٩ - ١٠٠] تلك كلمةٌ يقولُها، فلا يُعوَّلُ عليها، ورجعةٌ يسألُها فلا يُجاب إليها.

وتأمَّل حُسْنَ موقعِ ﴿كَلَّآۚ﴾ في هذا الموضع، فإنَّها تضمَّنت رَدْعاً لهم، وزجراً عن التَّكاثر، ونفياً وإبطالاً لما يؤمِّلونه من نفع التَّكاثر لهم، وعزَّتهم وكمالهم به، فتضمنت اللفظة: نهياً، ونفياً، وأخبرهم سبحانه أنَّهم لا بدَّ أن يعلموا عاقبةَ تكاثرهم علماً بعد علم، وأنَّهم لا بدَّ أن يروا دارَ المكاثرين بالدنيا التي ألهتهم عن الآخرة رؤيةً بعد رؤية، وأنه سبحانه لا بدَّ أن يسألَهم عن أسبابِ تكاثرِهم، من أين استخرجوها وفيما صرفوها؟[1].

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التَّكَاثُر: ٥] يعني: حقاً؛ لو تعلمون علم اليقين لعرفتم أنَّكم في ضلال، ولكنَّكم لا تعلمون علم اليقين؛ لأنَّكم غافلون لاهونَ في هذه الدنيا، ولو علمتم علمَ اليقين لعرفتم أنَّكم في ضلالٍ وفي خطأٍ عظيم.

ثم قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التَّكَاثُر: ٦ - ٧]، جملة ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ، لا صلةَ لها بما قبلها، وهي جملةٌ قسَمية، فيها قسمٌ مقدّرٌ، والتَّقديرُ: والله لترون الجحيم.

و﴿ٱلۡجَحِيمَ﴾ اسمٌ من أسماء النار -أعاذنا الله منها-.

(١) ملخصاً من كلام ابن القيم.

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ تأكيدٌ لرؤيتها، وسيكون هذا يومَ القيامة، حين يُؤتى بها تُجَرُّ بسبعين ألف زِمام، كلُّ زِمام يجرُّهُ سبعون ألف ملكٍ، فما ظنُّك بهذه النار -والعياذ بالله- إنَّها نارٌ كبيرةٌ عظيمة؛ لأنَّ فيها سبعين ألف زِمام، كلُّ زِمام يجره سبعون ألف ملك، والملائكةُ عِظَامٌ شِدادٌ فهي نارٌ عظيمةٌ أعاذنا الله منها.

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التَّكَاثُر: ٨] يعني: ثمَّ في ذلك الوقت، وفي ذلك الموقفِ العظيم، تُسألُنَّ عن النَّعيم.

وهذا السُّؤال -على الصحيح من أقوال العلماء- يَشمَلُ المؤمنَ والكافر، فكلٌّ سيسألُ عن النعيم، لكنَّ الكافر يُسألُ سؤالَ توبيخٍ وتقريع، والمؤمنُ يُسأل سؤال تذكير.

والدليلُ على أنَّ السّؤال عامٌّ: ما جرى للنبي ﷺ وأبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حين خرجَ الرَّسول ﷺ ذات يوم -أو ليلة- فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «**ما أخرجَكما من بيوتكما هذه السّاعة**» قالا: الجوعُ يا رسول الله، قال: «**وأنا، والذي نفسي بيده، لأخرجَني الذي أخرجكما، قوموا**»، فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلمّا رأته المرأةُ، قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ «**أين فلان؟**» قالت: ذهب يستعذبُ لنا من الماء، إذ جاء الأنصاريُّ، فنظرَ إلى رسول الله ﷺ وصاحبَيه، ثم قال: الحمدُ لله ما أحدٌ اليومَ أكرمَ أضيافاً منِّي، قال: فانطلق، فجاءهم بعِذْق فيه بُسرٌ وتمرٌ ورُطَبٌ، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المُدية، فقال له رسولُ الله ﷺ: «**إياك، والحلوب**»، فذبحَ لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العِذق وشربوا، فلمّا أن شبعوا ورووا، قال رسولُ الله ﷺ لأبي بكر، وعمر: «**والذي نفسي بيده لتسألُنَّ عن هذا النعيمِ يوم القيامة، أخرجَكم من بيوتكم الجوعُ، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم**»[1].

(١) رواه مسلم (٢٠٣٨).

ولكن يختلفُ السُّؤال، سؤالُ المؤمنِ سؤالُ تذكيرٍ بنعمةِ الله عز وجل عليه حتى يَفْرَحَ، ويعلمَ أنَّ الذي أنعمَ عليه في الدنيا يُنعِمُ عليه في الآخرة، بمعنى أنَّه إذا تكرَّم بنعمتِه عليه في الدنيا تكرَّم عليه بنعمتِه في الآخرة، أما الكافرُ فإنَّه سؤالُ توبيخٍ وتنديم.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خاتمة تفسيره لهذه السّورة:

(فلله ما أعظمَها من سورةٍ وأجَلَّها، وأعظمَها فائدة، وأبلغَها موعظةً وتحذيراً، وأشدَّها ترغيبا في الآخرة، وتزهيداً في الدنيا، على غاية اختصارِها، وجزالةِ ألفاظِها، وحُسنِ نظمها، فتبارك مَن تكلَّم بها حقّاً، وبلَّغها رسوله عنه وحياً)[1].

اللهم استعملنا في طاعتك، واجعلنا لنعمِك من الشاكرين، وآلائك من الذاكرين، واجعل ما رزقتنا عوناً لنا على طاعتك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ٩٤).

المجلس الخامس والعشرون

﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

مِن القصصِ العظيمة التي قصَّها اللهُ تعالى في كتابه، قصَّةُ سبأ، وبها سُمِّيت تلك السّورةُ المكيَّةُ العظيمة، يقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سَبَإ: ١٥ - ٢١].

قال بعض العلماء عن سياق القرآن لهذه القصة: (لقد استوعبت تاريخ أمة في سطور، وصورت لنا أطواراً اجتماعيَّةً كاملة في جملٍ قليلةٍ أبدع تصوير، ووصفتْ لنا بعضَ خصائصِ الحضارةِ والبداوةِ في جملٍ جامعة، لا أظنُّ غيرَ اللسانِ العربي يتَّسع لحملِها كقوله: ﴿ قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾، وكقوله: ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾، وكقوله: ﴿ بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾. حتى إذا وَصَلَ القارئ إلى مصيرِ الأمة التي سمع ما هالَه من وصفها، واجهه قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ وَأدْرَكَهُ الغرقُ في لُجَجِ البلاغة الزاخرة)[1].

(١) تفسير ابن باديس (ص: ٣٩٨).

أيها المؤمنون!

إنَّ مملكةَ سبأ نموذجٌ يحكي كلَّ بلدٍ يُنعم اللهُ عليها، وتُجبى إليه ثمراتُ كلِّ شيءٍ، بل بلغ بهم الحالُ أنَّ أحدَهم لا يحتاج إذا أراد السَّفرَ أن يتزوَّد، فالخيراتُ في طريقه، وعن يمينه وشماله، يقطفُ منها ما يشاء، وامتنَّ اللهُ عليهم بذلك فقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾ والآية هنا: ما أدَرَّ اللهُ عليهم من النِّعم، وصرفَ عنهم من النِّقم، الذي يقتضي ذلك منهم أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسَّر الله الآية بقوله: ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ وكان لهم وادٍ عظيمٍ، تأتيه سيولٌ كثيرة، وكانوا قد بَنَوا سَدّاً محكماً، يكون مَجمَعاً للماء، فكانت السّيولُ تأتيه، فيجتمعُ هناك ماءٌ عظيم، فيفرِّقونه على بساتينهم، التي عن يمين ذلك الوادي وشمالِه، وتغلُّ لهم تلك الجنتان العظيمتان من الثمار ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغِبطةُ والسّرور، فأمرهم اللهُ بشكرِ نعمِه التي أدرَّها عليهم من وجوه كثيرة:

منها: هاتان الجنتان اللتان غالِبُ أقواتِهم منهما.

ومنها: أنَّ الله جعلَ بلدَهم بلدةً طيبةً، لِحسنِ هوائها، وقلَّة وَخَمِها، وحصولِ الرّزقِ الرَّغدِ فيها.

ومنها: أنَّ الله تعالى وعدَهم -إن شكروه- أن يَغفِرَ لهم ويرحمَهم، ولهذا قال: ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾.

ومنها: أنَّ الله لَمَّا علمَ احتياجَهم في تجارتِهم ومكاسبِهم إلى الأرضِ المباركة، هيَّأ لهم من الأسبابِ ما به يتيسَّرُ وصولُهم إليها، بغاية السّهولة من الأمن وعدم الخوف وتواصل القرى بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم مشقة، بحملِ الزادِ والمزاد، ولهذا قال: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾ أي: سيراً مقدَّراً يعرفونه، ويحكمون عليه، بحيث لا يتيهون عنه: ﴿ لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ أي: مطمئنين في السَّير، في تلك الليالي والأيام، غيرَ خائفين، وهذا من تمامِ نعمةِ الله عليهم، أن أمَّنَهم من الخوف.

فأعرضوا عن المُنعِم، وعن عبادتِه، وبطروا النِّعمة، ومَلُّوها، حتى إنَّهم طلبوا وتمنَّوا أن تتباعدَ أسفارُهم بين تلك القرى، التي كان السَّير فيها متيسِّراً، ﴿ وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾ بكفرِهم بالله ونعمتِه، فعاقبَهم اللهُ تعالى بهذه النعمة، التي أطغتهم، فأبادها عليهم، فأرسلَ عليها سيلَ العَرِمِ، أي: السّيلَ المتوعِّر، الذي خَرَّبَ سَدَّهم، وأتلفَ جنَّاتِهم، وخَرَّبَ بساتينهم، فتبدَّلت تلك الجناتُ ذاتُ الحدائق المعجِبة، والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجارٌ لا نفع فيها، ولهذا قال: ﴿بَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ ﴾ أي: شيءٍ قليلٍ من الأكل الذي لا يقع منهم موقعاً ﴿ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴾ وهذا كلُّه شجرٌ معروفٌ، وهذا من جنس عملِهم.

فلمَّا أصابَهم ما أصابهم، تفرَّقوا وتمزَّقوا، بعدما كانوا مجتمعين، وجعلَهم اللهُ أحاديث يُتحدَّث بهم، وأسماراً للناس، وكان يُضرب بهم المثلُ فيقال: تفرَّقوا أيدي سبأ. ولكن لا ينتفعُ بالعبرةِ فيهم إلا مَن... قال الله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ صبَّارٍ: على المكارِه والشدائد، يتحمَّلُها لوجه الله، ولا يتسخَّطها بل يصبرُ عليها. شكورٍ: لنعمةِ الله تعالى يُقِرُّ بها ويعترفُ ويثني على مَن أولاها ويصرفها في طاعته، فهذا إذا سمع بقصتِهم، وما جرى منهم وعليهم، عَرَف بذلك أنَّ تلك العقوبةَ جزاءٌ لكفرِهم نعمةَ الله، وأنَّ مَن فعل مثلَهم، فُعِلَ به كما فُعِل بهم، وأنَّ شكرَ الله تعالى حافظٌ للنِّعمة دافعٌ للنَّقمة، وأنَّ رُسُلَ الله صادقون فيها أخبروا به، وأنَّ الجزاءَ حقٌّ، كما رأى أنموذجه في دار الدنيا[1].

(١) انتهى ملخصاً من تفسير السّعدي: (ص: ٦٧٧) وما بعدها.

أيها المؤمنون!

إنَّ آفةَ الأكثرين من الناس أنَّهم يحسبونَ الغِنى دليلَ الرّضوان الأعلى، ويحسبون أنَّ المال إذا قلَّ عند آخرين فلأنَّهم ليسوا موضعَ القبول ونسُوا أنَّ الله يختبرُ بالعطاءِ والحرمان بالبأساءِ والضراءِ حيناً، وبالنَّعماء والسَّراءِ حيناً آخر، وأنَّ النَّجاح في هذا الاختبار يجيءُ من موقفِ المرءِ نفسِه بإزاءِ ما يلقى من أقدار الله: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبيَاء: ٣٥].

وقد سقطت مملكةُ (سبأ) في الامتحانِ عندما استهانت بنعمةِ الله وكفَرَتها ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سَبَإ: ١٧]؟ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ [إبْرَاهِيم: ٢٨]؟

وعندما تزولُ النّعمةُ تذهبُ الوحدةُ والصِّحَّةُ والأمنةُ، وتجيءُ أضدادُ هذه الأحوال، وأصحابُها لها أهل، وما نزل بهم عدل؛ لأنهم: ﴿ وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سَبَإ: ١٩] وأبرزتْ سورة سبأ أنَّ السّاقطين في امتحانِ النعماءِ كثيرون، وأنَّ أُمماً بَطِرت معيشتَها، فكان أولُ ما فعلت مخاصمةَ الوحي، ومعاداةَ الرّسل، والزَّعمَ بأنَّ ما لديهم يكفي ويشفي! ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سَبَإ: ٣٤ - ٣٥].

وإذا كان المالُ فتنةَ الأمم الأولى، فقد بقي فتنةَ الأممِ المعاصرة، وبدلَ أن يُحسنَ الواجدون التَّصرُّفَ فيما أُوتوا، طَغَوا على الفقراءِ والضعفاء، فنشأت مذاهبُ اجتماعيةٌ تستأصلُ حقَّ التَّملك، ونَشِبت الحروب بين شتى الطَّبقات.

وعند التَّأمُّل، نجدُ العراكَ على الحطامِ الفاني، ونرى أنَّ معالمَ الدينِ قد اختفت، وزادت الآفاقُ ظلمة، ونشأت فلسفاتٌ تعبُدُ الحياةَ وتنسى الآخرة، ولا نجاةَ إلا بالعودة إلى الدين الحق: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ: ٢٠ - ٢١].

اللهم اجعلنا لنعمك من الشاكرين، وأعذنا يا ربَّنا من حالِ الكافرين لنعمِك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس السّادس والعشرون
الحياء كما تصوِّره قصة موسى والمرأتين[1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فَثَمَّة خُلُقٌ عظيمٌ، حثَّتْ عليه الشّريعة الإسلامية، بل وصفه رسولنا بأنه: «**خير كله**»، وكذلك وصفه بأنه: (لا يأتي إلا بخير)[2]. بل إنَّه من الإيمان[3].، كما صح ذلك عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... إنه خُلق الحياء.

وسنقف اليوم متدبِّرين لما جاء عن هذا الخلق في قصة موسى عليه السّلام مع المرأتين، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِّ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القَصَص: ٢٣].

هذه الآيةُ واحدةٌ من مشاهدِ قصة موسى عليه السّلام التي وردت في سورة القصص، وهو خبره عليه السّلام مع فتاتين، هما ابنتا صاحب مدين، والقصةُ مجرياتُها معروفةٌ، لكنَّ فيها دروساً وعبراً قد يغفلُ كثيرٌ من الناس عنها، وجديرٌ بنا أن نقفَ معها متدبِّرين، ناظرين في بعض دلالاتها.

وابتداءً: تأمَّل ذلك الأدبَ الرَّفيع، والخُلُقَ الكريم من موسى عليه السّلام ومن هاتين الفتاتين.

---

(١) لفضيلة أ.د. ناصر بن سليمان العمر.

(٢) صحيح مسلم عن عمران بن الحصين رضي الله عنه، رقم (٣٧) (١/ ٦٤).

(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، البخاري (٢٤) (١/ ١٤)، ومسلم (٥٩) (١/ ٦٣).

أمَّا الفعلُ الذي صدر من موسى عليه السّلام فإنَّه يكشفُ عن شخصيَّةٍ إيجابيَّةٍ، تتسمُ بالنُّبل والخلقِ الكريم، وأمَّا الفتاتان فلا يخفى ما في موقِفِهما من الحياءِ والحشمة، والبعدِ عن مخالطةِ الرِّجالِ وإن كان ثمنُه عملاً شاقاً، يكلِّفهما وقوفاً طويلاً، مع جهدٍ في ذودِ الأنعام حتى لا تختلطَ بغيرها، فكان هذا مثارَ السّؤال: ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾؟

إنَّ الشخصيَّةَ الإيجابيَّةَ تكترثُ لما يدورُ في واقعِها من الأحداث، ولَمَّا كان موسى عليه السّلام كذلك ولاحظ من دون أُمَّةِ النَّاسِ ما لاحظ، ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾، أي تدفعان (غنمَهما عن حياضِ النَّاس، لعجزِهما عن مزاحمةِ الرِّجال وبخلهم، وعدم مروءتهم عن السّقي لهما)[1]. فقال لهما عليه السّلام: ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾؟ وفي كل هذه القصّةِ لم يخاطبهما موسى عليه السّلام إلا هذه الكلمة فقط.

﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ﴾ والأشبه أنَّ النَّاطقةَ واحدةٌ، ولكن لَمَّا كانت الثانيةُ مُقرَّةً راضيَّةً نَسَبَ القولَ لهما فقال: ﴿ قَالَتَا ﴾، وقولها: ﴿ لَا نَسْقِي ﴾ تعبير بالمضارع لا وصف للماضي، يُشعر بأنَّ هذا ديدنهما، فلم نسقِ كما رأيتَ، وهذا حالنا دائماً وأبداً هكذا: ﴿ حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ﴾، وهذه هي علَّة البُعد والانزواء: وجودُ الرّعاء، وهذا شأنُ العفيفةِ الطّيبةِ، تصبرُ على الجهدِ واللأواء، ولا تختلط بالرِّجال.

فحريٌّ بالأخوات والبنات أن ينظُرْنَ في هذا الأدب، ويتأمَّلْنَ بعده ما يحدث الآن في الأسواق، بل ماذا يحدثُ في العمرة، وعند المطاف من المزاحمة!

وقد روي عن عطاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله عن نساء النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لم يكُن يُخالِطْنَ، كَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَطُوفُ حَجْرَةً من الرِّجَالِ، لَا تُخَالِطُهُمْ فقالت امْرَأَةٌ: انطلقي نستلم يا أمَّ المؤمنين، قَالت: عنكِ، وأبَتْ)[2].

(١) تفسير السّعدي: ص ٦١٤.

(٢) صحيح البخاري (١٦١٨).

فكانت النِّساءُ في عهد النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطُفنَ بعيداً عن الرِّجال، ودونَ اختلاط كما في واقعنا اليوم.

وبعضُ الناس اليوم يجادل، فيحتجّ بواقعِ الناس على جواز اختلاطِ النساءِ بالرّجال، وكأنَّ واقعَ النَّاس منهاجٌ شرعيٌّ!

ولنعد إلى قول الفتاتين: ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ ففيه بيانُ ما قد يستغرب من خروج مثلهما، فكأنَّهما قالتا: لا تستغرب خروجنا، فسببُه أنَّه ليس عندنا أحدٌ يخرجُ بالغنمِ سوانا، فأبونا شيخٌ كبيرٌ.

وقد اختصرتا الجوابَ الذي يُشعر بما وراءه، فذِكرُ الأبِ وحدَه يبيِّن أنَّه ليس لهما إخوانٌ ذكور، وإلا فلم يكن لائقاً أن تخرُج البنات، ولذلك لَمَّا توسَّموا في موسى عليه السّلام القوَّةَ والأمانةَ استأجرَه والدُ الفتاتين.

فلتعتبرْ بهذا بعضُ من يُكثِرن الخروج إلى الأسواق اليوم، مع وجود من يكفيهنَّ مؤونة ذلك.

أيها المؤمنون!

إنَّ الاقتضابَ في هذا الحوار، سواءٌ أكان من موسى أم من المرأتين، عجيبٌ وله دلالاتٌ مهمة، تصبُّ في نأي الأفاضل عن فضولِ الكلام بين الجنسين، ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ [القَصَص: ٢٤] فهل سمعتم أنَّ الفتاتين قالتا له: شكراً؟ أو جزاك الله خيراً؟

إنَّ الكلمات الرّقيقة ربما تُحدث في النفوسِ شيئاً، والله عزَّ وجل يقول في سورة الأحزاب: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ ﴾ [الأَحْزَاب: ٣٢].

لقد قام موسى عليه السّلام بالعملِ الذي رآه ضرورياً، ثم ابتعد، لم يدفعْه الفضولُ إلى أكثر من ذلك!

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ [القَصَص: ٢٥] وفي هذا الشَّأنِ لم تخرج المرأتان كما خرجتا أول مرَّةٍ للسقي، بل قال الله تعالى: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا ﴾، وذلك لأنَّ رعي الغنم كان يحتاجُ إليهما معاً، أما هنا فالأمرُ لا يستلزم حضورَهما معاً، إنَّما هو دعوة.

ولنتدبَّر قوله تعالى: ﴿ تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ لم يقل: على حياء؛ ذلك أنَّ إضافة (الهمزة والسّين والتَّاء) يدل على قوة الحياء.

وكانت النساءُ في عصر النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خرجتِ المرأةُ من المسجدِ تلصقُ بالجدارِ إذا مرَّ الرّجال، كما صحَّ في سنن أبي داود عن أسيد الأنصاري: أنّه سَمِعَ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ وهو خارجٌ من المسجدِ فاخْتَلَطَ الرِّجالُ مع النِّساءِ في الطّرِيقِ فقال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للنِّساءِ «**استأْخِرْنَ، فإنَّه ليس لكُنَّ أن تَحقُقْنَ الطّريقَ، عليكُنَّ بحافاتِ الطّرِيقِ**»، فكانتِ المرأةُ تلْتَصِقُ بالجدار حتَّى إنَّ ثوبَها لَيَتَعَلَّقُ بالجدارِ من لُصُوقِها بِهِ[1]. أما اليومَ فقد أصبح بعضُ الرّجال هو الذي يلتصق بالجدار!

﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ [القَصَص: ٢٥] لم تدعُهُ أصالةً عن نفسها، وإنما نسبت الأمرُ إلى أبيها.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القَصَص: ٢٥].

وتأمَّلوا مع الفتاتين قال موسى عليه السّلام عبارةً واحدةً مقتضبة ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾، أمَّا مع الأبِ فقد قصَّ عليه القصصَ وتوسَّع في الحديث.

نعم، لك أن تتبسّط في الحديث مع الرّجال، أما مع النساء، فمنهجُ القرآنِ هو الاقتصاد، مع مراعاةِ طريقةِ الكلامِ التي تبتعد عن الخضوع، والتَّكسر! وعلى الأخوات كذلك أن يقتصدْنَ ويقتصرنَ على ما هو ضروري.

(١) سنن أبو داود (٥٢٧٤)، وحسنه الألباني، وانظر: الصحيحة (٨٥٦).

ثم قال تعالى: ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القَصَص: ٢٦]، ويبدو أنَّها استندت في ذلك على أنَّ خروجهما للسَّقي والرَّعي، لا يليقُ بهما كفتاتين، فاستجاب والدُها؛ لأنَّه يُريد أن يُحصِّنَ ابنته، ثم خاطب موسى عليه السّلام: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ ﴾ [القَصَص: ٢٧].

ولا يبعدُ أن يكونَ من مقصدِ والدهما من هذه الأجرةِ بالزواج أن يكون الرّاعيُ للغنم من أهل البيت، لأنَّه عند زواجه بالبنت ستصيرُ أمها محرماً له؛ وسيكون من أهل البيت بالجملة.

أما قوله: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ فهذه هي شروط الولاية: القوة والأمانة، وكما في سورة يوسف: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يُوسُف: ٥٥].

وهذا متكرِّرٌ ومطَّردٌ في القرآن، فلا يولَّى إلا القويُّ الأمين.

وأخيراً، وقفة لا بدَّ منها تتعلَّقُ بتيسيرِ المهر، يقول الشيخ الكبير: ﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ ﴾ على ماذا؟ ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ﴾ [القَصَص: ٢٧].

عجباً! هل رأيتم من يُزوِّج ابنته بالأقساطِ الميسَّرة، وبدون دفعة أولى؟ هذا ما لا نعرفُه في يومنا هذا إلا على طريقةِ من يؤخِّرون الصداق كله تحسباً للإلزام بالإبقاء على العقد كرهاً، فهنيئاً لهذا الشيخ الكبير، وهنيئاً لهذه البنت، فقد ظفرت بتوفيق الله ثم حكمة أبيها وعقله بنبيِّ الله موسى عليه السّلام.

إنَّها قصةٌ فيها دررٌ عجيبةٌ، ووقفاتٌ تدبُّرِيَّةٌ في محرابِ الفضيلة والعفاف، بعيداً عن سَعار الاختلاط الذي تورَّط فيه بعضُ الناس مع كلِّ أسف، فارجعوا إلى القصَّة وتدبَّروها، فإنَّها حافلةٌ بالمعاني والدلالات[1].

اللهم اهدنا لأحسنِ الأخلاق لا يهدي لأحسنِها إلا أنت، واصرف عنَّا سيِّئها، لا يصرف عنا سيئها إلا أنت، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) أفدت في هذه المعاني والدلالات مما كتبه واستنبطه بعض طلاب العلم، كالشيخ عقيل الشمري والشيخ ناصر الحمين، وغيرهما، جزاهم ربي خيراً.

المجلس السّابع والعشرون

﴿ هَٰرُونَ أَخِي ﴾[1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على رسولِ الله؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقد قال الله -عز وجل- في سورة (طه) عن موسى عليه السّلام:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴾ [طه: ٢٥ - ٣٥].

والحديث ههنا حول قوله تعالى: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ﴾ [طه: ٢٩ - ٣٠].

أي: مُعيناً يُعاونُني، ويؤازرُني، وسأل موسى ربَّه أن يكون ذلك الوزيرُ من أهلِه؛ لأنَّه من بابِ البِرِّ، وأحقُّ الناسِ ببِرِّ الإنسان قرابتُه، ثم عيَّنَه بسؤاله، فقال: ﴿ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴾ أي: قَوِّني وشُدَّ ظهري به.

﴿ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴾ أي: في النبوة، بأن تجعلَه نبياً رسولاً كما جعلتني، فأجابَ اللهُ دعاءه، وقال: ﴿ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٣٦]، وقال في آية أخرى: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القَصَص: ٣٥].

ففي هذه الآية إحسانٌ من موسى لأخيه هارون عليهما السّلام، ورغبةٌ منه أن يشتركَ معه أخوه في تبليغِ الدعوة، والتعاونِ على البِرِّ والتَّقوى.

---

(١) للدكتور محمد بن إبراهيم الحمد.

ولا ريبَ أنَّ الاشتراك بالخير من أعظمِ أسبابِ مضاعفةِ الثواب، ونيلِ المراد؛ لما في ذلك من القوَّةِ وشدِّ الأزر.

وهذا ما حصل لموسى عليه السَّلام؛ ولهذا قيل: إنَّ هذه أعظمُ شفاعةٍ في تاريخ البشر؛ فهذا هو معنى الآية.

وكما أنَّ هذا هو معنى الآية فهي -كذلك- تشيرُ إلى ما ينبغي أن تكون عليه العلاقةُ بين الإخوة؛ من المحبة والتَّآزر والتَّعاون.

ولهذا سُئل حكيمٌ: أيهما أحبُّ إليك أخوك أو صديقك؟ فقال: (أخي إذا كان صديقي).

فهذه الإجابةُ الحكيمةُ تشيرُ إلى أنَّه ينبغي أن يكون الأخُ صديقاً لأخيه، دون أن يكتفي برابطةِ الأخوة؛ وإن كانت من أعظمِ الرَّوابط.

والمتأمِّلُ في أحوال الناس، وما يُكتبُ في العلاقات عموماً؛ يلحظُ فتوراً في علاقاتِ الإخوةِ فيما بينهم، وقِلَّةً في الكتابات التي تتعرَّضُ لهذا النّوع من العلاقات.

فالإخوة -في كثير من الأحيان- يميلون إلى طابعِ الرّسميَّةِ في علاقاتهم، وربَّما مالوا إلى جانب الندِيَّة، وربما كان بعضُهم يحقِرُ بعضاً، ولا يقضيه حقَّ الاحترام والتَّقدير؛ فيخسرُ الإخوة خسارةً فادحةً؛ إذ يفوتهم الأجرُ والتَّآزر، والتَّعاون على مرافق الحياة.

ويفوتهم أيضاً جوانبُ كثيرةٌ من السَّعادة والصَّداقة المؤسسَّة على الثقة والرّابطة القويَّة.

ويُعرِّضون أُسرهُم، ووالديهم، وأولادهم؛ لنكساتٍ وعداواتٍ؛ ربما أكلت الأخضر واليابس.

والذي ينبغي في العلاقات بين الإخوة: أن تقومَ على الإيثار، والمحبة، والصفاء، وتدبُّر العواقب، وتقدير الصغيرِ للكبير، ورحمة الكبير بالصغير، وإنزالِ ذي المنزلة مكانَه اللائق به، وتشجيعِ المتباطئ والمتكاسل؛ حتى ينهضَ بنفسه، وأن يُكمِّلَ بعضُهم بعضاً؛ حتى يسعدوا أنفسَهم، وأسرهم، وألا يجعلوا لقائلٍ فيهم مقالاً.

وإذا قُدِّرَ للإنسان أن يكون ذا شُهرة، أو علمٍ، أو جاهٍ، أو مال، أو نحو ذلك، فيَحْسُنُ به ألا ينسى نصيبَ إخوانه منه، وألا يتطاول عليهم.

كما ينبغي لَمن كان لهم أخٌ قد نَالَ ما نَالَ مما ذُكر: أن يُعينوه على نفسه، وألا يقفوا أمام طموحاته، وأن يحملوا عنه ما يجب عليه من نحوِ برِّ الوالدين، وما جرى مجرى ذلك، فيكونوا بذلك شركاءَ له في الأجر والنجاح.

ومما يعين على شيوعِ روح الصفاء بين الإخوة: أن يُبادروا إلى قسمةِ الميراث؛ لكي يظفرَ كلُّ طرفٍ بنصيبه، وليقطعوا دابرَ الفتنة، وسوءَ الظن.

ومما يُصفِّي الودَّ بين الإخوة: أن يحرصوا على الوئامِ والاتفاقِ حالَ الشراكة؛ فإذا كان بينهم شراكةٌ في نحو تجارةٍ أو غيرها، فليحرصوا على ذلك، وعلى أن تسودَ بينهم روحُ الإيثار والمودة والشورى والرّحمة والصدق والأمانة وحسن الظن.

وأن يُحِبَّ كلُّ واحدٍ منهم لأخيه ما يحبُّه لنفسه، وأن يَعرِفَ كلُّ طرفٍ ما له وما عليه.

كما يحسنُ بهم أن يناقشوا المشكلاتِ بمنتهى الصراحة والوضوح، وأن يحرصوا على التَّفاني والإخلاص في العمل.

كما يجمل بهم أن يكتبوا ما يتَّفقون عليه إذا كان الأمرُ يستدعي ذلك.

فإذا ساروا على تلك الطّريقة حلَّتْ فيهم الرّحمة، وسادتْ بينهم المودة، ونزلتْ عليهم بركاتُ الشركة.

ومن الأمور التي تُبقي على المودةِ بين الإخوة: لزومُ التَّواضع، ولينُ الجانب، والتَّغاضي، والتَّغافل، والصفحُ، ونسيانُ المعايب، وتركُ المنَّة على الإخوة، والبعد عن مطالبتهم بالمثل، وتوطين النفسِ على الرّضا بالقليل مما يأتي منهم، ومراعاةُ أحوالهم، وطبائعهم، وتجنُّب الشدَّةِ في العتاب حالَ وقوع الخطأ، وتجنُّبُ الخصام، والجدالُ العقيم، والمبادرةُ بالهديةِ والزيارةِ إن حَصَلَ خلاف.

ومن ذلك أن يستحضرَ المرءُ أنَّ إخوانه لحمَةٌ منه؛ فلا بدَّ له منهم، ولا فكاكَ له عنهم.

ومن ذلك أن يستحضرَ المرءُ أنَّ معاداةَ الإخوة شرٌّ وبلاءٌ، فالرَّابح فيها خاسرٌ، والمنتصر مهزومٌ.

ومن ذلك أن يُربِّي الإخوةُ أولادَهم على احترام أعمامِهم، وتوقيرهم.

هذا وقد أرانا العيان نماذجَ رائعةً، ومثلاً عُليا من صداقاتِ الإخوة، وقيامِهم بالحقوقِ ما جَعَلَهم مَضرِبَ مَثَل، ومَوضِعَ أُسوة.

وبعد، فهذه إلماحاتٌ وإشاراتٌ من قوله تعالى: ﴿هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾ [طه: ٣٠ - ٣١].

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الثامن والعشرون

﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبدِه ورسوله ومصطفاه، أما بعد:

فلا يكادُ يمرُّ على المسلمِ يومٌ أو أقل، إلا ويأتيه خبرٌ أنَّ فلاناً قال وقال، أو أنَّ شيئاً حدث، أو أنَّ أمراً حصل؛ وذلك لكثرة وسائلِ الاتصال في هذا العصر، ولتعدُّد وسائلِ الأخبار ونقلِ المعلومات.

والمسلمُ مُطالبٌ أن يلتزم بحدودِ الشرع في هذا الموضوع وغيرِه، والذي رسمَه القرآنُ بذلك التوجيه الرّبانيِّ العظيم، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحُجُرَات: ٦].

هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت ضمنَ سياق الآداب العظيمة التي أدَّبَ الله بها عبادَه في سورة الحجرات.

وهذه الآية -أيها المؤمنون- نزلت لأن رسول الله ﷺ اتفق مع سيِّدِ بني المصطلق -الحارث بن أبي ضرار- بأن يُرسلَ له من يأخذ زكاةَ بني المصطلق، ولما حان وقت الزكاة أرسل رسول الله ﷺ الوليدَ بن عقبة إلى بني المصطلق ليأتي بزكواتهم، فلمَّا وصل الوليدُ إلى منتصف الطّريق خاف على نفسه القتل، فرجعَ إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: إنَّ الحارث منعني الزكاةَ وأراد قتلي!

---

(١) للدكتور عمر بن عبد الله المقبل.

فغضب رسولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وبعثَ بعْثاً إلى الحارث سيدِ بني المصطلق، والحارثُ لا يعلم بشيءٍ مما حَدَثَ، ولكنَّه لما شعرَ أنَّ رسولَ الله لم يُرسل له أحداً تحرَّكَ إلى رسول الله، فالتقى الحارث بالبعثِ الذي بعثَه الرّسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إليه! فقالوا له: أتاك الوليدُ فمنعته الزكاة وأردت قتله، فقال الحارث: لا والذي بعث محمداً بالحقِّ ما رأيته ولا أتاني!! ثم انطلق الحارثُ إلى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال له رسولُ الله: «**منعتَ الزكاةَ وأردتَ قتلَ رسولي؟**» فقال الحارث: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني! وما جئتك إلا حينما تأخَّرَ رسولُك إلي، فخشيتُ أن تكون سخطةً من الله ورسوله علينا، فنزلت آية الحجرات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ [الحُجُرَات: ٦][(١)].

ولنعُد إلى شيءٍ من دلالاتِ هذه الآية القرآنية، والتي يجدر بنا أن نقفَ معها:

الدلالة الأولى: أنَّ خبرَ العدلِ مقبولٌ غيرُ مردود، اللهم إلا إن لاحت قرائنُ تدل على وهمه وعدم ضبطه فإنه يُرَدُّ.

الدلالة الثانية: (أنَّه سبحانه لم يأمر بردِّ خبرِ الفاسقِ وتكذيبه وردِّ شهادته جملةً، وإنَّما أمر بالتَّبيُّن، فإن قامت قرائنُ وأدلةٌ من خارجٍ تدلُّ على صدقه عملَ بدليل الصِّدق، ولو أَخبرَ به من أخبر)[(٢)].

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٨٤٥٩) بسند لا بأس به، وقال ابن عبد البر (الاستيعاب) عند ترجمة الوليد بن عقبة: ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن -فيما علمت- أن قوله عز وجل: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ نزلت في الوليد بن عقبة وذلك أنه بعثه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

(٢) مدارج السّالكين: (١ / ٣٦٠).

الدلالة الثالثة: أنها تضمَّنت ذمَّ التَّسرُّع في إذاعةِ الأخبارِ التي يُخشى من إذاعتها، ولقد عاب ربُّنا تبارك وتعالى هذا الصنفَ من الناس، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النِّسَاء: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [يُونُس:٣٩][(١)].

الدلالة الرّابعة: أنَّ في تعليلِ هذا الأدبِ بقوله: ﴿ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحُجُرَات: ٦] ما يُوحي بخطورةِ التَّعجُّل في تلقِّي الأخبارِ عن كلِّ أحدٍ، خصوصاً إذا ترتَّبَ على تصديقِ الخبرِ طعنٌ في أحد، أو بهتٌ له.

وهنا مثالٌ قد يواجهنا يومياً: فقد يرى أحدُنا شخصاً دخلَ بيته والناسُ متَّجهون إلى المساجد لأداءِ صلاتِهم، فلو قيل: إنَّ فلاناً دخلَ بيتَه والصلاةُ قد أُقيمت، لكان ذلك القولُ صواباً، لكن هل تبيَّن سببُ ذلك؟ وما يدريه؟! فقد يكونُ الرّجلُ لتوِّه قدمَ من سَفَرٍ، فهو قد جمعَ الصلاتَين جمعَ تقديم، فلم تجب عليه الصَّلاةُ أصلاً، أو لغيرِ ذلك من الأعذار!

وهذا مثالٌ آخرُ قد يواجهنا في شهرِ رمضان مثلاً: قد يرى أحدُنا شخصاً يشربُ في نهارِ رمضانَ ماءً أو عصيراً، أو يأكل طعاماً في النهار، فلو نَقَلَ ناقلٌ أنَّه رأى فلاناً من الناس يأكلُ أو يشربُ لكان صادقاً، ولكن هل تبيَّن حقيقة الأمر؟ قد يكون الرّجلُ مسافراً وأفطر أوَّلَ النهار فاستمرَّ في فطره -على قولِ طائفةٍ من أهل العلم في إباحةِ ذلك- وقد يكون مريضاً، وقد يكون ناسياً... إلى آخر تلك الأعذار.

(١) ينظر: القواعد الحسان في تفسير القرآن (٩٨).

إذا تبيّن هذا المعنى، فإنَّ من المؤسفِ أن يَجِدَ المسلمُ خَرْقاً واضحاً من قبل كثيرٍ من المسلمين لهذه الآية القرآنية المحكمة: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحُجُرَات: ٦]، وازداد الأمرُ واتَّسع مع وسائل الاتصال المعاصرة؛ كأجهزةِ الجوالِ والإنترنت ووسائل التَّواصل الاجتماعي، وغيرها من الوسائل.

وأعظمُ من يُكذبُ عليه من الناس في هذه الوسائل هو رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكم نسِبت إليه أحاديثُ وقصصٌ لا تصحُّ عنه بل بعضُها كَذِبٌ عليه، لا يصحُّ أن يُنسبَ لآحادِ الناس؛ فضلاً عن شخصِه الشريف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ويلي هذا الأمرَ في الخطورة: التَّسرُّعُ في النَّقلِ عن العلماء، خصوصاً العلماء الذين ينتظر الناسُ كلمتَهم، ويتتبَّعون أقوالهم، وكلُّ هذا محرّم لا يجوز، وإذا كنَّا أُمرْنا في هذه الآية القرآنية: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحُجُرَات: ٦] أن نتحرَّى ونتثبَّت من الأخبار عموماً؛ فإنَّها في حقِّ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحقِّ ورثته أشدُّ وأشد.

ومثل ذلك يقال: في النَّقل عما يصدرُ عن خواصِّ المسلمين، ممَّن يكون نقلُ الكلام عنهم له أثرُه، فالواجبُ التَّثبُّت والتَّبيُّن، قبل أن يندم الإنسان حين لا ينفعُ الندم.

ولا يقتصرُ تطبيق هذه الآية القرآنية: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ على ما سبق ذكرُه، بل هي قاعدةٌ يحتاجها الزوجان، والآباء مع أبنائهم، والأبناء مع آبائهم.

والله كم من بيتٍ تقوَّضت أركانُه بسبب الإخلالِ بهذه الآية القرآنية!

قد تصلُ رسالةٌ إلى جوال أحد الزوجين، فإن كانت من نصيب جوال الزوجة، واطلع الزوجُ عليها سارع إلى الطّلاق قبل أن يتثبَّت من حقيقة هذه الرّسالة التي قد تكون رسالةٌ طائشة، جاءت من مُغرِضٍ أو من سفيهٍ، أو قد تكون جاءت على سبيل الخطأ!

وقُلْ مثلَ ذلك في حقّ رسالةٍ طائشة -جادة أو هازلة- تصل إلى جوال الزوج، فتكتشفُها الزوجة، فتتَّهم زوجُها بخيانة أو غيرها، فتبادر إلى طَلَبِ الطّلاقِ قبل أن تتثبَّتَ من حقيقة الحال!

ولو أنَّ الزوجين أعملا هذه الآية القرآنيَّة: ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ لما حصل هذا كلُّه.

وإذا انتقلتَ إلى ميدانِ الصحافة أو غيرها من المنابرِ الإعلامية؛ وجدتَ عجباً من خَرْقِ سياجِ هذا الأدب... فكم من تحقيقاتٍ صحفيَّةٍ بُنيت على خبرٍ إما أصلُه كذبٌ، أو ضُخِّمَ وفُخِّمَ حتى صُوِّرَ للقراء على أنَّ الأمر بتلك الضخامة والهول، وليس الأمر كما قيل!

والواجب على كلِّ مؤمنٍ مُعظِّمٍ لكلام ربِّه أن يتقي ربَّه، وأن يتمثَّل هذا الأدب القرآني الذي أرشدت إليه هذه الآيةُ القرآنيةُ الكريمة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [الحُجُرَات: ٦].

جعلنا الله وإياكم من المتأدِّبين بأدبِ القرآن، العاملين به.

اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على رسولنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً.

المجلس التَّاسع والعشرون

﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾[1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

يقولُ الله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

هذه الآية العظيمة تُعدُّ بَلْسَماً لكثيرٍ من الأدواءِ التي يُبتلى بها كثيرٌ من العقلاء؛ حيث يُبتلون بمَن لا خلاقَ لهم من السفهاء الذين يثيرون حولَهم الغبارَ، ويُسيؤون إليهم بالكلام البذيء المؤذي.

ويكثر ذلك في بعضِ الدوائرِ التي تَضُمُّ خَلِيطاً من الناس، كما يَشِيعُ في مجتمعاتِ الطّلاب والمعلّمين.

وخيرُ علاجٍ لتلك الإساءات هو الإعراضُ عن الجاهلين؛ فمَن أعْرَضَ عنهم حَمَى عِرْضَه، وأراحَ نفسه، وسَلِمَ من سماع ما يؤذيه.

قال عز وجل: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

فبالإعراضِ عن الجاهلين يَحفظُ الرَّجلُ على نفسِه عِزَّتها، إذ يرفعُها عن الطّائفة التي تلذُّ المهاترةَ والإقذاع، قال بعض الشعراء:

إنِّي لأُعرض عن أشياءَ أسمعُها ... حتى يقولَ رجالُ إنَّ بيَ حَمَقا

أخشى جَوابَ سفيهٍ لا حياءَ له ... فَسْلٍ وَظَنَّ أُناسٌ أنَّه صَدَقا

---

(١) للدكتور محمد بن إبراهيم الحمد.

وقال أبو العتاهيَة:

والصَّمْتُ للمرءِ الحليم وقاية ... ينفي بها عن عِرْضِهِ ما يَكْرَهُ

فكلِ السفيه إلى السَّفاهةِ وانتصِفْ ... بالحلمِ أو بالصَّمتِ ممن يسْفهُ

والعرب تقول: (إنَّ من ابتغاءِ الخيرِ اتقاءَ الشَّرِّ).

وروي أنَّ رجلاً نالَ من عمر بن عبد العزيز رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فلم يجبه، فقيل له: ما يمنعُك منه؟ قال: التَّقيُّ مُلْجَمٌ.

هذا وإنَّ من أعظمِ ما يُعينُ على الإعراض عن الجاهلين -زيادة على ما مضى- ما يلي:

أولاً: التَّرفُّعُ عن السّباب؛ فذلك من شرفِ النَّفسِ، وعلوِّ الهمَّة، كما قالت الحكماء: (شرفُ النَّفسِ أن تحملَ المكاره كما تحملَ المكارم).

قال الأصمعي: بلغني أنَّ رَجُلاً قال لآخر: والله لَئن قلتَ واحدةً لتَسْمَعَنَّ عشراً، فقال الآخر: لكنك إن قلت عشراً لم تسمع واحدة.

وشتم رجلٌ الحسنَ، وأربى عليه، فقال له الحسن: أمَّا أنت فما أبقيت شيئاً، وما يعلم الله أكثر.

ثانياً: استحضارُ كونِ الإساءةِ دليلاً على رفعةِ شأنِ المُساء إليه وشرفه، فذلك مما يهوِّن ما يلقى من سبٍّ وتجريح.

..... وما زالت الأشرافُ تُهجى وتُمدَحُ

قال الإمام الشافعي - رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إذا سَبَّني نذل تزايدتُ رفعةً ... وما العيبُ إلا أن أكونَ مُسابِبُه

ولو لم تكن نفسي عليَّ عزيزةً ... لكنَّها من كلِّ نذلٍ تحاربُه

ثالثاً: الاستهانةُ بالمسيء؛ فذلك من ضروبِ العِزَّةِ والأنفَة، ومن مُستحسن الكِبرِ والإعجاب، ومن ذلك قول بعضِ الزعماء في شعره:

أوَ كلما طَنَّ الذُّبابُ طَرَدْتُه ... إنَّ الذبابَ إذاً عليَّ كريمُ

وأكثرَ رجلٌ من سَبِّ الأحنفِ وهو لا يجيبُه، فقال السَّابُّ: والله ما مَنَعَ الأحنفَ من جوابي إلا هواني عليه.

وفي مثله يقول الشاعر:

نَجَا بِكَ لُؤمُكَ مَنْجَى الذباب ... حَمَتْه مقاذِيرُه أن يُنالا

وشتمَ رجلٌ الأحنفَ، وجَعَلَ يَتبعُه حتى بَلَغَ حَيَّه، فقال الأحنف: يا هذا إن كان بقي في نفسِك شيء؛ فهاتِه وانصرفْ، لا يسمعُك بعضُ سفهائِنا، فتلقى ما تكره.

وأسمعَ رَجُلٌ ابنَ هُبَيرَةَ فأعرضَ عنه، فقال: إيَّاك أعني، فقال له: وعنكَ أُعرِض.

رابعاً: أن يستحضر أنَّ مجاراةَ السُّفهاء شرٌ وبلاء، فهناك من إذا ابتُلي بسفيهٍ ساقطٍ -لا خلاقَ له، ولا مروءةَ فيه- أخذَ يُجاريه في سَفهِهِ وقيلِه وقالِه، مما يجعلُه عرضةً لسماع ما لا يُرضيه؛ من ساقطِ القولِ ومرذوله، فيُصبح بذلك مساوياً للسفيه؛ إذ نزلَ إليه، وانحطَّ إلى رتبتِه.

إذا جَارَيــــتَ فِي خُلُــــقٍ دنيئــــاً فأنـــت ومَـــن تجاريه ســـواءُ

قال الأحنف بن قيس: مَن لم يصبر على كلمةٍ سَمِعَ كلمات، ورُبَّ غَيظٍ تجرَّعتُه مخافةَ ما هو أشدُّ منه.

خامساً: أن يستحضرَ الإنسانُ أنَّه بالإعراض عن الجاهلين يُكرِمُ نفسَه بذلك، ويُكرمُ قرابةَ السّفيهِ الأبرياء الأعزاء؛ لأنَّهم لا ذنبَ لهم، ولهذا قيل: (لأجلِ عينٍ تُكْرَمُ ألْفُ عين).

وقد يَظُنُّ ظانٌّ أنَّ الإعراضَ عن الجاهل والإغضاء عن إساءته -مع القدرة عليه- موجبٌ للذِّلَّةِ والمهانة، وأنَّه قد يَجُرُّ إلى تَطَاوُلِ السّفهاء! وهذا خطأ؛ ذلك أنَّ العفوَ والحلمَ لا يشتبه أيٌّ منهما بالذّلّة بحال؛ فإنَّ الذِّلَّةَ احتمالُ الأذى على وجهٍ يُذْهِبُ الكرامة.

أما الحلمُ فهو إغضاءُ الرَّجُلِ عن المكروه، حيثُ يَزيدُه الإغضاءُ في أعْيُنِ الناس رفعةً ومكانة.

سياسـةُ الحلـمِ لا بَطْـشٌ يُكدِّرُها فهـو المهيـبُ ولا تخشـى بـوادِرُه

فالعفوُ إسقاطُ حقِّكَ جُوْداً وكرماً وإحساناً مع قدرتك على الانتقام، فتؤثرُ التَّرك؛ رغبةً في الإحسانِ ومكارمِ الأخلاق.

بخلافِ الذُّل؛ فإنَّ صاحبَه يتركُ الانتقامَ عَجزاً وخوفاً ومهانةَ نفس؛ فهذا غيرُ محمود، بل لعلَّ المنتقمَ بالحقِّ أحسنُ حالاً منه؛ لأنَّ منَ النَّاسِ من بلغت به الرّقاعةُ واللؤمُ أن يُفسِّرَ الإكرام والإغضاء بالضعف، وعليه يحمل قولُ أبي الطّيب المتنبي:

إذا أنـتَ أكرمـتَ الكريـمَ ملكتَه وإن أنت أكرمـــتَ اللَّئيمَ تمرَّدا

وقول الشريف الرّضي:

في النـــاسِ إن فتَّشتَـــهم مَـــنْ لا يُـعِـــزُّك أو تُـذِلَّـــه
فاتـــرك مـجامـــلةَ اللـئـــيـ ـــم فإنَّ فيهـــا العجـــزَ كلَّه

ومعنى قوله: (أو تذله): إلا أن تُذِلَّه، كما في الشاهد النحوي:

وكنـــتُ إذا غَمَـــزتُ قناة قوم كـــسرتُ كعوبها أو تســـتقيما

أي: إلا أن تستقيما.

وهذا راجعٌ إلى حكمةِ الإنسان، وتقديرِه الأمور، وتدبُّرِه للعواقب؛ فيعرف متى يأخُذُ بالحزم، ومتى يأخذ بالحلم، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد.

المجلس الثلاثون

﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾

الحمدُ لله، والصَّلاة والسّلام على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فيقولُ الله تبارك وتعالى في صدر سورة الروم: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٖ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الرُّوم: ١ - ٧].

يقول العلامة الشنقيطي في تعليقه على هذه الآية الأخيرة: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾: (اعلم أنَّه يجب على كلِّ مسلمٍ في هذا الزمان أن يتدبَّر آيةَ (الرّوم) هذه تدبُّراً كثيراً، ويُبيِّنَ ما دَلَّتْ عليه لكلِّ من استطاع بيانه له من الناس.

وإيضاح ذلك: أنَّ من أعظمِ فتنِ آخر الزمان التي ابتلى اللهُ بها ضعافَ العقول من المسلمين، شدَّةَ إتقانِ الإفرنج لأعمالِ الحياة الدنيا، ومهارتِهم فيها على كثرتها، واختلاف أنواعها، مع عجزِ المسلمين عن ذلك، فظنُّوا أنَّ من قدر على تلك الأعمال أنَّه على الحق، وأنَّ من عجز عنها متخلِّفٌ وليس على الحقِّ وهذا جهلٌ فاحش، وغلطٌ فادح.

وفي هذه الآية الكريمة إيضاحٌ لهذه الفتنة، وتخفيفٌ لشأنها، أنزَلَه اللهُ في كتابه قبل وقوعها بأزمان كثيرة، فسبحان الحكيم الخبير ما أعلمَه، وما أعظمَه، وما أحسن تعليمه!

فقد أوضح جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون، ويدخل فيهم أصحابُ هذه العلوم الدنيوية دخولاً أوَّلياً، فقد نفى عنهم -جل وعلا- اسمَ العلم بمعناه الصحيح الكامل؛ لأنَّهم لا يعلمون شيئاً عمَّن خلقَهم، فأبرزهم من العدمِ إلى الوجود، ورزقَهم، وسوف يميتُهم، ثم يحييهم، ثم يجازيهم على أعمالهم، ولم يعلموا شيئاً عن مصيرهم الأخير الذي يقيمون فيه إقامةً أبديةً في عذابٍ فظيعٍ دائم، ومن غَفل عن جميع هذا فليس معدوداً من جنس من يعلم؛ كما دلَّت عليه الآيات القرآنية المذكورة، ثم لمَّا نفى عنهم -جل وعلا- اسمَ العلم بمعناه الصحيح الكامل، أثبتَ لهم نوعاً من العلم في غاية الحقارة بالنسبة إلى غيره.

وعاب ذلك النوعَ المذكورَ من العلم، بعيبين عظيمين:

أحدهما: قلته وضيق مجالِه، لأنَّه لا يجاوز ظاهراً من الحياة الدنيا، والعلم المقصور على ظاهرٍ من الحياة الدنيا في غاية الحقارة، وضيق المجال بالنسبة إلى العلم بخالقِ السّماوات والأرض جل وعلا، والعلمِ بأوامره ونواهيه، وبما يقرِّب عبدَه منه، وما يُبعدُه عنه، وما يُخلِّدُ في النعيم الأبديِّ والعذاب الأبدي من أعمال الخير والشر.

والثاني: مما عابَ اللهُ به علمَهم ذلك: هو دناءةُ هدفِ ذلك العلم، وعدمُ نبلِ غايته؛ لأنَّه لا يتجاوز الحياةَ الدنيا، وهي سريعةُ الانقطاع والزوال، ويكفيك من تحقيرِ هذا العلم الدنيوي أن أجود أوجه الإعراب في قوله: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا ﴾ أنه بدل من قوله -قبله-: ﴿ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ فهذا العلم كـ(لا علم) لحقارته.

وقوله: ﴿ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ يُفيدُ أنَّ للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرُها ما يعرفُه الجهالُ من التَّمتُّع بزخارفها، والتَّنعم بملاذها وباطنها، وحقيقتها أنَّها مجازٌ إلى الآخرة، يتزوَّدُ منها إليها بالطّاعة والأعمال الصالحة.

وفي مجيء قوله: ﴿ ظَٰهِرٗا ﴾ -بصيغة التَّنكير- دليلٌ على أنَّهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من ظواهرها.

والضمير ﴿ وَهُمۡ ﴾ الثانية في الآية ﴿ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ أياً كان إعرابها على اختلاف النحاة، فإن ذكرَها منادٍ على أنَّهم معدنُ الغفلة عن الآخرة، ومقرُّها، ومحلُّها، وأنها -أي الغفلة- منهم تنبع، وإليهم ترجع.

وقال بعضُ العلماء: وفي تنكير قوله: ﴿ ظَٰهِرٗا ﴾ تقليلٌ لمعلومهم، وتقليلُه يُقربه من النفي، حتى يُطابق المبدَل منه، ووجهه ظاهر.

واعلم أنَّ المسلمين يجب عليهم تعلُّمَ هذه العلوم الدنيويَّة، كما أوضحنا ذلك غاية الإيضاح في سورة (مريم)، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴾ [مَرۡيَم: ٧٨]، وهذه العلوم الدنيوية التي بيَّنَّا حقارتَها بالنسبة إلى ما غفلَ عنه أصحابُها الكفار، إذا تعلَّمها المسلمون، وكان كلٌّ من تعليمها واستعمالها مطابقاً لما أمر الله به على لسان نبيه، كانت من أشرفِ العلوم وأنفعِها؛ لأنَّها يستعانُ بها على إعلاءِ كلمةِ الله ومرضاتِه جل وعلا، وإصلاح الدنيا والآخرة، فلا عيبَ فيها إذاً؛ كما قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ ﴾ [الأنفَال: ٦٠].

فالعملُ في إعدادِ المستطاع من القوَّةِ امتثالاً لأمر الله تعالى، وسعياً في مرضاته، وإعلاء كلمته ليس من جنس علم الكفَّار الغافلين عن الآخرة كما ترى، والآياتُ بمثل ذلك كثيرة، والعلمُ عند الله تعالى) انتهى كلام الشنقيطي.

نسأل الله تعالى أن يُعيدَ للأمةِ مجدَها وعزَّتَها، وأن تأخذ بأسبابِ القوة الدينية والدنيوية، وأن يخذلَ أعداءها.

اللهم واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الحادي والثلاثون
الفاتحة تجتثُّ شجرة التشبه[1]

الحمد لله الذي أعزنا بدينه، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد، الذي أخرجنا الله به من دركات الكفر إلى منازل الإيمان العالية، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الإسلام ربَّى في أتباعه الاعتزاز بدينهم، ورفع الرأس به في كل محفلٍ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٣٩]، ونهاهم عن التشبه بأعدائهم كما في الحديث الصحيح: «**لتتبعن سَنَنَ من كان قبلكم، شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراعٍ، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ تبعتموهم، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟**»[2]..، وفي «**السنن**» عن ابن عمر: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[3].

ومع اتساع دائرة التواصل مع غير المسلمين في هذا العصر، فخليقٌ بالمؤمن أن يتدبَّر المعاني التي تنفخ في روحه العزة والفخر بهذا الدين، لا أن ينحني ويرضى بالدُّون حين يتشبَّه بمن نهاه الله ورسوله عن التشبُّه بهم، كما هو مشاهدٌ من كثير من المسلمين اليوم، الذين بدت عليهم مظاهر التشبه بالكفار في اللباس، وبعض العادات ذات الأبعاد الدينية.

والمتأمِّل في كتاب الله تعالى يجد العلاج الرَّباني لهذه الظاهرة، في آياتٍ شتَّى، من أعظمها تدبُّر سورة الفاتحة، السَّبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيه نبيُّنا ﷺ، ذلك أن نصف هذه السورة ذهب في تقرير مسألة الاستقلال والعزة بهذا الدين، والحذر

(١) للدكتور عمر بن عبد الله المقبل.
(٢) البخاري (٣٤٥٦)، مسلم (٢٦٦٩).
(٣) أبو داود (٤٠٣١).

من التشبُّه باليهود والنصاري -الذين ذكرهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الآنف الذكر- فكيف بغيرهما من الأمم التي لا كتاب لها، وليس لها من الأحكام التي تميزت بها الأمم الكتابية وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفَاتِحَة: ٦ - ٧].

فأنت ترى كيف أمرنا في اليوم والليلة سبع عشرة مرةٍ على الأقل بهذا الدعاء العظيم: أهدنا الصراط المستقيم الذي سار عليه من: ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النِّسَاء: ٦٩]، وتأكد بالبراءة من طريق الأمة اليهودية التي غضب عليها لتركها العمل بالعلم، وبالبراءة من طريق الأمة النصرانية التي عبدت الله تعالى على غير هدىً ولا كتابٍ منير.

إن تدبُّر هذه السورة ليجتثُّ شجرة التشبُّه من أصلها، لكن هل الذين يتشبهون بالكفار يدركون ويتدبَّرون ما يقرؤون؟!

ومن بدائع هذه الآية العظيمة أهدنا الصراط المستقيم أنها تضمنت سؤالَ العبد أن يهديه ربه إلى طريق الأنبياء جملة وتفصيلاً، فهذا الدعاء يشمل الهداية إلى الصراط، وهو لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في نفس الصراط إذا وفِّق العبد لسلوكه، أي أن يُهدى لجميع التفاصيل الدينية علماً وعملاً، ولهذا قال بعض العلماء: فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد، ولهذا وجب على الإنسان أن يدعوَ الله به في كل ركعةٍ من صلاته، لضرورته إلى ذلك[1].

(١) ينظر: تفسير السعدي: ٣٩.

وبما تقدم، ينفتح للمتدبر سرٌّ من أسرار هذه السورة العظيمة، التي أُمرنا بقراءتها في كل ركعة، فهل نرى أثرها على حياتنا جميعاً، وعلى إخواننا وأخواتنا من الذين رضوا لأنفسهم بالدون حين تشبهوا بالكفار؟!

اللهم ارزقنا الاعتزاز بديننا، وأعذنا من التشبه بأعدائك...

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الثاني والثلاثون

من هدايات قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد: فيقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [البَقَرَة: ١٠٤].

هذا أول نداء في القرآن لأهل الإيمان -حسب ترتيب المصحف-، وحريٌّ بمن كان حريصاً على الخير، راغباً في الاهتداء بالقرآن أن يقف مع هذا النداء الكريم، ليفهم معناه، ويعرف مقاصده من خلال تدبر هذه الآية الكريمة.

والقارئ لهذا النداء الرباني الكريم من غير تدبُّر له وتأمُّل في ألفاظه وتفكُّر في مقاصده؛ قد لا يفهم منه إلا أنه نهيٌ للمؤمنين عن قول راعنا، وأمرٌ لهم بأن يقولوا بدلاً عنه أنظرنا، وأن يسمعوا ويستجيبوا، حتى لا يكونوا كالكافرين الذين أعدَّ الله لهم العذاب الأليم.

وأما عند تدبُّر هذه الآية والتفكُّر فيها فسيجد أن هذا النِّداء المبارك قد اشتمل على أصلٍ من أصول العقيدة، وعلى قاعدةٍ من قواعد الشريعة، وأدبٍ من الآداب الشريفة، وطريقةٍ مهمة من طرائق التربية الرشيدة، وبيان ذلك فيما يلي:

أما الأصل العظيم من أصول العقيدة فهو النهي عن التشبُّه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم؛ وذلك أن اليهود -عليهم لعائن الله- كانوا يتخيَّرون من الكلام ما فيه توريةٌ لما يقصدونه من التنقيص والسِّباب، فإذا أرادوا أن يقولوا: (اسمع لنا) يقولون: رعنا)

(١) للدكتور محمد بن عبد الله بن جابر القحطاني.

يورُّون بالرُّعونة، وهي في لغتهم سبٌّ وشتيمة، فنهى الله تعالى عباده المؤمنين عن التشبُّه باليهود في هذا القول.

ومعلومٌ أن من أصول عقيدتنا -أهل الإسلام- «أنَّ من تشبَّه بقوم فهو منهم» كما أخبر الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي هذا الخبر «دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد، على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم، ولباسهم وأعيادهم، وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا» كما قال الحافظ ابن كثير.

وأما القاعدة الكبيرة من قواعد الشريعة فهي قاعدة سدِّ الذرائع، وذلك أن أهل الإيمان كانوا لا يقصدون بقولهم رعنا إلا معناه المعروف عندهم وهو: أمهلنا، أو اسمع لنا، فنهوا عنه لما قد يترتب على استعمالهم له من مفسدة، وهي أن اليهود والمنافقين يقولونه على وجه الاستهزاء والمسبَّة.

(والذريعة عبارةٌ عن أمرٍ غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع) كما قال القرطبي.

وبناء على هذه القاعدة يُحكم على كل ذريعةٍ إلى محرم ووسيلةٍ إليه بالتحريم، ولهذا أمثلة كثيرة جداً يصعب حصرها، ذكر الإمام ابن القيم منها تسعة وتسعين مثالاً في كتابه القيم (إعلام الموقعين)، وقرر أن سدَّ الذرائع المفضية إلى الحرام أحد أرباع الدين.

وأما الأدب الشريف الذي يستفاد من هذا النداء فهو:

أدب انتقاء أنسب الألفاظ واختيار أحسن الأقوال؛ فلا يليق بأهل الفضل الحريصين على معالي الأمور أن يقولوا كلمة تحتمل معنى غير مناسب. وقد قال ربنا جلَّ وعلا: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴾ [الإسْرَاء: ٥٣]،

واللسان ميزان عقل الإنسان، وما يلفظه من الأقوال معيار لما يتصف به من الخصال، والقول السديد مع التقوى يصلح الله بهما الأعمال.

وأما الطريقة التربوية الرشيدة فهي إيجاد البدائل لما نُنهى عنه قدر الإمكان، وهي طريقةٌ ربانيَّةٌ نبويَّة مهمة.

فما من شيءٍ محذور للناس به حاجة إلا وفي المباح عنه غُنية وكفاية، والموفَّق من سلك سبيل الهدى، واختار من الأمور ما سَلِم من المحذور، وأرشد الناس إلى ما لا شبهة فيه ولا نزاع.

هذا باختصار بيان لبعض ما اشتمل عليه هذا النِّداء الرَّباني من المعاني الشريفة والمقاصد الرفيعة...

وربُّنا المسؤول أن يرفعنا وينفعنا ويهدينا بكتابه الكريم.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الثالث والثلاثون

﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلقد وعظ الله تعالى عباده في كتابه فقال: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البَقَرَة: ١٩٧]

وفي هذا المعنى يقول ابن الجوزي[١]: (ما أبله من لا يعلم متى يأتيه الموت، وهو لا يستعد للقائه! وأشد الناس بَلَهاً وتَغْفِيلاً من قد عبر السِّتين، وقارب السبعين -فإن ما بينهما هو معترك المنايا، ومن نازل المعترك، استعد- وهو مع ذلك غافل عن الاستعداد.

قال الشباب لعلنا في شيبنا ندع الذنوب، فما يقول الأشيب؟

والله إن الضحك الكثير من الشيخ ما له معنى، وإن المزاح منه بارد المعنى، وإن تعرضه بالدنيا -وقد دفعته عنها- يضعف القوى، ويضعف الرأي، وهل بقي لابن ستين منزل؟!

فإن طمع في السبعين؛ فإنما يرتقي إليها بعناء شديد: إن قام، دفع الأرض، وإن مشى لهث، وإن قعد تنفَّس، ويرى شهوات الدنيا ولا يقدر على تناولها، فإن أكل كد المعدة، وصعب الهضم، فهو يعيش عيش الأسير.

فإن طمع في الثمانين، فهو يزحف إليها زحف الصغير!

وعشر الثمانين من خاضها ... فإن المُلَمَاتِ فيها فنون

فالعاقل من فهم مقادير الزمان؛ فإنه فيما قبل البلوغ صبي، ليس على عمره عيار[٢].، إلا أن يرزق فطنة، ففي بعض الصبيان فطنة تحثهم من الصغر على اكتساب المكارم والعلوم.

---

(١) صيد الخاطر: ٤٣٩.

(٢) أي: وزن وكيل، والمعنى: ليس على عمره محاسبة ولا مؤاخذة، بل زمان الصبا والطفولة.

فإذا بلغ، فليعلم أنه زمان المجاهدة للهوى، وتعلُّم العلم، فإذا رزق الأولاد، فهو زمان الكسب للمعاملة.

فإذا بلغ الأربعين، انتهى تمامه، وقضى مناسك الأجل، ولم يبق إلا الانحدار إلى الوطن، كأن الفتى يرقى مِن العُمر سلماً إلى أن يجوز الأربعين وينحط.

فينبغي له عند تمام الأربعين أن يجعل جلَّ همَّته التزود للآخرة، ويكون كل تلمُّحه لما بين يديه، ويأخذ في الاستعداد للرحيل، وإن كان الخطاب بهذا لابن عشرين، إلا أن رجاء التدارك في حق الصغير لا في حق الكبير.

فإذا بلغ الستين؛ فقد أعذر الله إليه في الأجل، وجاز من الزمن[1].، فليقبل بكلِّيته على جمعِ زاده، وتهيئة آلات السفر، وليعتقد أن كل يومٍ يحيا فيه غنيمةٌ ما هي في الحساب، خصوصاً إذا قوي عليه الضعف وزاد، فإنه لا محرك كهوى[2].، وكلما علت سنُّه، فينبغي أن يزيد اجتهاده.

فإذا دخل في عَشر الثمانين، ليس إلا الوداع، وما بقي من العمر إلا أسف على تفريط، أو تعبُّد على ضعف.

نسأل الله عز وجل يقظةً تامة، تصرف عنا رقاد الغفلات، وعملاً صالحاً نأمن معه من الندم يوم الانتقال.. والله الموفق).

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) أي: قطع أكثره.

(٢) أي: كالضعف.

المجلس الرابع والثلاثون
من أسرار قوله تعالى:
﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البَقَرَة: ٢١٦].

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (في هذه الآية عدة حِكَم وأسرار، ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرَّة من جانب المسرَّة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛ لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد، وأوجب له ذلك أموراً منها:

أنه لا أنفع له من امتثال الأمر، وإن شقَّ عليه في الابتداء؛ لأن عواقبه كلها خيراتٌ ومسرَّات، ولذاتٌ وأفراح، وإن كرهتْه نفسه فهو خيرٌ لها وأنفع، وكذلك لا شيء أضرُّ عليه من ارتكاب النَّهي، وإن هويته نفسه ومالت إليه، وإن عواقبه كلها آلامٌ وأحزان، وشرورٌ ومصائب، وخاصية العقل تحمل الألم اليسير؛ لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبه من الألم العظيم، والشرِّ الطويل.

فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غاياتها، والعاقل الكيِّس دائماً ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها، فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة، فيرى المناهي كطعامٍ لذيذ قد خلط فيه سمٌّ قاتل، فكلما دعته لذته إلى تناوله، نهاه ما فيه من

(١) الفوائد لابن القيم: ١٣٦.

السُّم، ويرى الأوامر كدواء كريه المذاق، مفضٍ إلى العافية والشفاء، وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله، أمره نفعه بالتناول، ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها، وقوةِ صبرٍ يوطِّن به نفسه على تحمُّل مشقة الطريق؛ لما يؤمِّل عند الغاية، فإذا فُقد اليقين والصبر، تعذَّر عليه ذلك، وإذا قوي يقينه وصبره هان عليه كل مشقَّة يتحمَّلها في طلب الخير الدائم، واللذة الدائمة.

ومن أسرار هذه الآية: أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور سبحانه، والرضا بما يختاره له، ويقضيه له، لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعل مضرَّته وهلاكه فيه -وهو لا يعلم-، فلا يختار على ربه شيئاً، بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوَّض إلى ربه، ورضي بما يختاره له، أمدَّه فيما يختاره له بالقوة عليه، والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عُرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أنه يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها في عَقَبةٍ، وينزل في أخرى، ومع هذا فلا خروج له عما قدِّر عليه، فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور، ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه؛ لأنه مع اختياره لنفسه.

ومتى صحَّ تفويضه ورضاه، اكتنفه في المقدور العطف عليه، واللطف به، فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهوِّن عليه ما قدَّره.

اللهم إنا نسألك العافية، ونسألك الرضا بعد القضاء، وبُرد العيش بعد الموت.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الخامس والثلاثون
من أسرار آية الكرسي[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمن المعلوم أن أفضل آية في كتاب الله تعالى هي آية الكرسي، كما أخبر بذلك النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح[2]: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥].

وخليق بالمؤمن أن يتأمَّل في أسرار هذه الآية التي فضلت على سائر آي القرآن، ومن قرأها في ليلةٍ لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح[3].

وهذه الآية مشتملة على عشر جمل؛ كل جملة لها معنىً عظيم جداً:

- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الإله بمعنى المألوه، أي: المعبود حباً وتعظيماً؛ ولا أحد يستحق هذا الوصف إلا الله تعالى؛ وهو يدل على نفي الألوهية الحقة نفياً عاماً قاطعاً إلا لله وحده.

- ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ وهذان اسمان من أسمائه تعالى؛ جامعان لكمال الأوصاف والأفعال؛ فكمال الأوصاف في الحي؛ وكمال الأفعال في القيوم فـالحي ذو الحياة الكاملة التي لم تُسبق بعدم، ولا يلحقها فناء، فهو سبحانه لم يزل، ولا يزال حيّاً كاملاً في جميع أوصاف الكمال.

---

(١) للعلامة العثيمين رحمه الله، ملخصاً من تفسيره للآية في كتابه: (تفسير سورتي الفاتحة والبقرة): ٣/ ٢٥٠.
(٢) مسلم (١٨٨٥).
(٣) البخاري (٢٣١١).

والقيوم أي: القائم على نفسه فلا يحتاج إلى أحدٍ من خلقه؛ والقائم على غيره فكل أحد محتاجٌ إليه، قال جمعٌ من السلف: هما الاسم الأعظم الذي إذا دعا به العبد أُجيب؛ لأنهما تضمَّنا جميع الأسماء الحسنى؛ فصفة الكمال في الحيِّ، وصفة الإحسان والسلطان في القيوم.

- ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ ﴾ أي لا يعتريه نعاسٌ، ولا نوم؛ لكمال حياته وقيُّوميته.

- ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي له وحده؛ ففي الجملة حصرٌ، ففيها إثبات عمومِ ملكه سبحانه، وأنه لا يتصرف أحدٌ في ملكه بغير رضاه.

- ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾؛ أي لا يملك أحدٌ يوم القيامة أن يجلب نفعاً أو يدفع ضراً، ولو كان النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهو أعظم الناس جاهاً عند الله- إلا بإذنه سبحانه لكمال سلطانه سبحانه وهيبته.

- ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾؛ فهي تدل على سعة علمه سبحانه وتعالى، فهو يعلم الأشياء علماً شاملا لها جملةً وتفصيلاً يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أي المستقبل؛ وَمَا خَلْفَهُمْ) أي الماضي.

- ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ ﴾ لها معنيان:

المعنى الأول: لا يحيطون بشيءٍ من علمِ نفسه؛ أي: لا يعلمون [عن-من] أسماء الله، وصفاته، وأفعاله، إلا بما شاء أن يُعلمهم إيَّاه، فيعلمونه.

المعنى الثاني: ولا يحيطون بشيءٍ مما يعلمه في السموات والأرض إلا بما شاء أن يُعلمهم إياه، فيعلمونه.

- ﴿ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ أي شمل، وأحاط، و(الكرسي) هو موضع قدمي الله سبحانه وتعالى؛ وهو بين يدي العرش كالمقدمة له؛ صحَّ ذلك عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

- ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ ﴾ أي لا يُثقله، ويشقُّ عليه حفظهما؛ أي حفظ السموات والأرض، ففي هذه الجملة التنبيه على صفات العلم، والقدرة، والحياة، والرحمة، والحكمة، والقوة لله تعالى.

- ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾، العلي، أي: ذو العلوِّ المطلق، وهو الارتفاع فوق كل شيء؛ والعظيم، أي: ذو العظمة في ذاته، وسلطانه، وصفاته.

هذه عشر جمل اشتملت عليها هذه الآية العظيمة، فتدبَّروها -أيها المؤمنون- يزدَدْ إيمانكم، ويَعْظم وقعها في قلوبكم.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس السادس والثلاثون
من هدايات خواتيم سورة البقرة[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمن الآيات العظيمة التي ورد في فضلها بعض الأحاديث، خواتيم سورة البقرة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥ - ٢٨٦].

وهاتان الآيتان جاءتا كالنتيجة لما ورد في السورة من الأحكام والتشريع، فكأنها مشعرتان بحال المؤمنين مع ما جاء في السورة من تكليفاتٍ وتشريعاتٍ شهادة من الله تعالى لهم بقولهم واستجابتهم، ولهذا جاءت الآثار بفضلها، ومنها:

ما أخرجه مسلم عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (لما أسري برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتهي به إلى سدرة المنتهى.... -وفيه- قال: وأعطي رسول الله ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله....)[2].

(١) د. محمد بن عبد الله الربيعي.

(٢) مسلم (١٧٣).

وأخرج الإمام أحمد عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش، لم يعطهن نبيٌّ قبلي**».

وفي الصحيحين عن أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**»[1].

ولما نزلت الآية التي قبلهما وهي قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٤]، اشتدَّ ذلك على أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فشكوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فقالوا ذلك. فأنزل الله هاتين الآيتين**»[2].

أيها الإخوة:

هاتان الآيتان العظيمتان فيهما من المعاني ما يستحق إفرادهما بالبيان والتأمُّل؛ إذ هما كالنتيجة لما تضمنته السورة، فلا شك أنهما متضمنتان قواعد وأصولاً عظيمة، قال ابن القيم: (ختم السورة بهذه الخاتمة العظيمة التي هي من كنزٍ تحت العرش، وفيها من العلوم والمعارف وقواعد الإسلام، وأصول الإيمان، ومقامات الإحسان ما يستدعي كتاباً مفرداً)[3].

(١) البخاري (٣٧٨٦)، ومسلم (٨٠٧).
(٢) مسلم (١٢٥)، وأحمد: ٢/ ٤١٢.
(٣) طريق الهجرتين: ١/ ٥٥٩.

ومما تضمنته الآيتان من القواعد والأصول ما يلي:

بيان أصول الإيمان المتعلقة بالوحي الدالَّة على كمال الإيمان بالتشريع والعمل به.

بيان ركني الإيمان الصحيح الكامل، وهما السمع والطاعة، المستلزمان للقَبول التام والانقياد الكامل.

بيان القاعدة العظيمة المتضمنة رفع الحرج عن الأمة في التشريع، وهي قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إظهاراً لكمال رحمة الله للأمة، وتكريماً لها بعد كمال استجابتها، وإبرازاً لكمال دين الإسلام، بعثاً للنفوس على إكماله، وتحذيراً من تركه وإهماله، وقد بسط الله تعالى هذه القاعدة بأربعة أمور إظهاراً للكمال والرحمة، وهي تمثل قواعد في التشريع:

- العفو عن النِّسيان والخطأ.

- عدم التشديد عليهم بتحميلهم الإصر الذي حمله من قبلهم.

- عدم تحميلهم ما لا طاقة لهم به، وهذا كمال التخفيف.

- كمال العفو والمغفرة والرحمة، وهذا من كمال الرحمة بالأمة.

ختم الآية بما يدل على حيازة المؤمنين لولاية الله تعالى واستحقاقهم لنصره، وقد جاء ذلك على وجه الدعاء من المؤمنين تأكيداً على قيامهم بالدين الذي أكرمهم الله به، ورغبة في نشره والدفاع عنه.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أوليائه المفلحين.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس السابع والثلاثون
من هدايات قوله تعالى:
﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٥٩].

وردت الآيات السابقة لهذه الآية في حال من انهزموا يوم أحد، وتضمنت تلك الآيات الكريمة استحقاقهم للَّوم والعتاب؛ حيث تولَّوا منهزمين، وتركوا رسول الله ﷺ تجاه العدو، ولو جرى معهم رسول الله ﷺ على ما يستحقون، لقابلهم بالعتاب والتوبيخ، ولكنه لاقاهم برفقٍ، ولم يواجههم باللوم، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ والفظاظة: الخشونة، وغلظ القلب قسوته، والانفضاض: الانصراف.

والمعنى: لو كنت خشناً في قولك أو فعلك، قاسي القلب، لانصرفوا من مجلسك، ولما استضاؤوا بنور هديك، وكأن الآية تقول: هو ليِّن في قوله وفعله، ولينه هذا لم يصدر عن أمرٍ عارض من نحو رغبة أو رهبة، بل كان عن طبيعة كريمة النفس.

(١) للشيخ العلامة محمد الخضر حسين، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفاته: ١/ ٣٨٩. بتصرف.

فليعتبر في هذه الآية من يتولى أمراً يستدعي أن يكون بجانبه أصحاب يظاهرونه عليه، حتى يعلم يقيناً أن قوة الذكاء وغزارة العلم وسعة الحياة وعظم الثروة، لا تكسبه أنصاراً مخلصين، ولا تجمع عليه من فضلاء الناس من يثق بصحبتهم إلا أن يكون صاحب خلق كريم من اللين والصفح والاحتمال.

ثم قال سبحانه: ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ ﴾ والعفو: عدم المؤاخذة على الإساءة مع القدرة على المؤاخذة عليها، فأمر بالعفو، وإنما كان يعفو عما يختص به من الحقوق؛ كأن يؤذيه شخصٌ في مال، أو يسيء إليه بكلمة جافية لا تبلغ حد الكفر، وأما الإساءة فيما هو حقٌّ لله؛ كترك صلاةٍ أو صيام أو شرب خمر، فلا يملك العفو عنه إلا الله سبحانه وتعالى.

واسْتَغْفِرْ لهُم: أي: اطلب لهم من الله المغفرة للذنوب المتعلقة بحقوقه سبحانه وتعالى، وأما الجنايات المتعلقة بحقوق العباد فأمر العفو عنها متعلقٌ بالمجنيِّ عليهم.

وَشَاوِرُهم في الأمر: أي: راجعهم في الأمر؛ لترى رأيهم فيه، والمراد من الأمر ما يعرض من أمور الدنيا، من نحو تدبير الحروب، وأما أمور الدين، فقد أغناه الله عن الشورى فيها بما ينزل عليه من الوحي، أو بالاجتهاد الذي ينظر فيه بنور الله.

وهذه الآية قررت أصلاً عظيماً من أصول السياسة الرشيدة، وهو: أن لا يستبد وليُّ الأمر في تصريف الأمور دون أن يأخذ رأي أولي العلم، وقد قررتْ هذا الأصل بأبلغ وجه؛ إذ وجهت الأمر فيه إلى أكبر الناس عقلاً، وأعرفهم بطرق المصالح، وأقلِّهم حاجة إلى الاستعانة برأي غيره، وهو أكمل الخليقة -صلوات الله وسلامه عليه- فليس لأحدٍ بعد هذا أن يتخيل أنه في غنى عن المشاورة بما أوتيه من كمال العقل، وسداد الرأي.

وفي الشورى فوائد منها:

- استبانة الرأي الحق من بين آراء متعددة.

- وفيها تطييب خواطر من يهمهم أن يدبر الأمر على بصيرة.

- وفيها تأليف قلوبهم بما في مراجعة وليِّ الأمر لهم من التنبيه على رفعة أقدارهم في نظره...

ثم قال تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾:

والآية ظاهرة في أن التوكل يكون عند تعاطي الأسباب، فقد أمرت بالتوكل عند العزم على العمل، فهنالك عزمٌ وعملٌ يقارنهما التوكل، وفي هذا ردٌّ على أن التوكل نفض اليد من الأسباب جملة.

رزقنا الله وإياكم التأدُّب بهدي كتابه، ووفَّقنا لأرشد أمرنا، والحمد لله رب العالمين.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الثامن والثلاثون
من فوائد قصة آدم وإبليس[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن الله تعالى حين أتمَّ نعمته على آدم بأن خلق منه زوجته حواء؛ ليسكن إليها، حذره وزَوْجه من الشيطان غاية التحذير، حتى لا يخرجهما من الجنة التي أسكنهما الله إياها، وأباح أن يأكلا من جميع ثمارها، إلا شجرةً معينة حرَّمها عليهما، فقال: ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩].

وقال الله لآدم: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٨ - ١١٩]، فمكثا في الجنة ما شاء الله أن يمكثا، وعدوُّهما يراقبهما ويرصدهما، وينظر الفرصة فيهما، فلما رأى سرور آدم بهذه الجنة، ورغبته العظيمة في دوامها، جاءه بصورة الصديق الناصح، فقال: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠].

فلم يزل يوسوس ويزيِّن، ويُمني ويلقي عليهما من النصائح الظاهرة -وهي أكبر الغش- حتى غرَّهما فأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها، فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما بعدما كانا مستورين، وبدءا يلزقان على أبدانها العارية من ورق الجنة؛ ليكون بدل اللباس، وسُقط في أيديهما، وظهرت في الحال عقوبة معصيتهما، وناداهما ربهما: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ٢٢]، فأوقع الله في قلبيهما التوبة التامة، والإنابة الصادقة: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقالا: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

---

(١) للعلامة السعدي، تيسير اللطيف المنان: ٢٦٣-٢٦٩. بتصرف.

فتاب الله عليهما، ولكن الأمر الذي حذرهما الله منه -وهو الخروج من هذه الجنة إن تناولا منها- تحتم ومضى، فخرجا منها إلى الأرض التي حُشي خيرُها بشرِّها، وسرورُها بكدرها، وأخبرهما الله أنه لا بدَّ أن يبتليهما وذريتهما، وأن من آمن وعمل صالحاً كانت عاقبته خيراً من حالته الأولى، ومن كذَّب وتولى فآخر أمره الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، وحذر الله الذرية منه، وأبدلهم الله بذلك اللباس -الذي نزعه الشيطان من الأبوين- بلباسين:

لباس يواري السوآت، ويحصل به الجمال الظاهر في الحياة.

ولباس أعلى من ذلك وهو لباس التقوى، الذي هو لباس القلب والروح بالإيمان والإخلاص والإنابة، والتحلِّي بكل خلقٍ جميل، والتخلِّي عن كل خلقٍ رذيل.

هذه القصة العظيمة -أيها المؤمنون- ذكرت في مواضع كثيرة من القرآن، وقد اشتملت على فوائد كثيرة منها:

- فضيلة العلم، وأن الملائكة لما تبيَّن لهم فضل آدم بعلمه عرفوا بذلك كماله، وأنه يستحق الإجلال والتوقير.

- ومنها: أن من منَّ الله عليه بالعلم، فعليه أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن يقول كما قالت الملائكة والرسل: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البَقَرَة: ٣٢]، وأن يتوقى التكلُّم بما لا يعلم، فإن العلم أعظم المنن، وشكر هذه النعمة الاعتراف لله بها، والثناء عليه بتعليمها، وتعليم الجهَّال، والوقوف على ما علمه العبد، والسكوت عما لم يعلمه.

- ومنها: أن الله جعل هذه القصَّة لنا معتبراً، وأن الحسد والكبر والحرص من أخطر الأخلاق على العبد، فكبر إبليس وحسده لآدم صيَّره إلى ما ترى، وحرص آدم وزوجه حملهما على تناول الشجرة، ولولا تدارك رحمة الله لهما لأودت بهما إلى الهلاك، ولكن رحمة الله تكمِّل الناقص، وتجبر الكسير وتنجي الهالك، وترفع الساقط.

- ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا وقع في ذنب أن يبادر إلى التوبة والاعتراف ويقول ما قاله الأبوان من قلبٍ خالص، وإنابةٍ صادقة؛ فيما قصَّ الله علينا صفة توبتهما إلا لنقتدي بهما، فنفوز بالسعادة، وننجو من الهلكة؛ وكذلك ما أخبرنا بما قاله الشيطان من توعُّدنا، وعزمه الأكيد على إغوائنا بكل طريق، إلا لنستعدَّ لهذا العدو الذي تظاهر بهذه العداوة البليغة المتأصلة.

والله يحبُّ منا أن نقاومه بكل ما نقدر عليه من تجنُّب طرقه وخطواته، وفعل الأسباب التي يخشى منها الوقوع في شباكه، ومن عمل الحصون من الأوراد الصحيحة، والأذكار القلبيَّة والتَّعوذات المتنوعة، ومن السلاح المهلك له من صدق الإيمان، وقوة التوكل على الله، ومراغمته في أعمال الخير، ومقاومة وساوسه والأفكار الرديئة التي يدفع بها إلى القلب كل وقت بما يضادها، ويبطلها من العلوم النافعة والحقائق الصادقة.

اللهم ارزقنا الاعتبار والادِّكار، وأعدنا إلى جنة الخلد، مع الذين أنعمت عليهم من النَّبيِّين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس التاسع والثلاثون

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد.

فإن الحديث ههنا سيكون حول قول الله تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٦٣] فهذه آيةٌ عظيمةٌ تذكر بنعمةٍ جسيمة يستوجب شكرها، ويُسْتَنْكَرُ كُنُودُها.

تلك هي نعمة الألفة، وتقارب القلوب، ومحبة الناس بعضهم بعضاً، والعجيب أن كثيراً من النعم التي نتقلب فيها صباحاً ومساءً لا نعرف قدرها إلا عند فقدها...

ومن تلك النعم نعمة تأَلُّف القلوب، وعطف بعضها على بعض، ومودة بعضها بعضاً.

ولو وقفت مع نفسك، وسألتها: ما الذي ألف بين قلبك وقلوب كثيرين ممن تعرفهم من أقاربٍ لك، وأباعدٍ منك؛ لأدركت أن ذلك محض فضل الله عزَّ وجلَّ.

ثم تأمَّل في السعادة التي تغمرك والأجور والمصالح التي تجنيها من جراء تلك المحبة والألفة.

وإذا أردت أن تتصور عظم تلك النعمة فاسأل نفسك: ما مصيرك لو زالت تلك النعمة أو بعضها؟

وما موقفك لو زالت تلك الألفة بينك وبين أصدقائك، أو أقربائك، من والدين، أو أولاد، أو إخوان، أو معارف؟

وماذا سيكون طعم الحياة إذا خَلَتْ من معاني الألفة؟

---

(١) للدكتور محمد بن إبراهيم الحمد.

إنها ستكون كالملح الأجاج، وكالماء الزعاق.

وإنك لترى في حياة الناس نماذج لذلك؛ حيث زالت المودة بين أناس أشد ما يكونون قرابة كالآباء مع بعض أبنائهم، وكالإخوة والجيران والأصدقاء فيما بينهم. وربما بُذلت في سبيل إعادة المياه إلى مجاريها جهودٌ، وأموال، وشفاعات في غير طائل.

ومن هنا ندرك نعمة الألفة، وأنها محض فضل الله عزَّ وجلَّ.

وهذا بدوره يدعونا إلى أن نرعى تلك النعمة حق رعايتها، وذلك بالحرص على تحقيق التقوى، والبعد عن المعاصي.

ولهذا امتنَّ الله عز وجل على نبيه ﷺ بهذه النعمة الكبرى؛ فقرنها بكونه تبارك وتعالى كافيه، ومؤيده بنصره، ونصر المؤمنين.

والتأليف بين قلوب المؤمنين منَّة أخرى على الرسول ﷺ إذ جعل أتباعه متحابِّين؛ وذلك أعون له على سياستهم، وأرجى لاجتناء النفع بهم؛ بحيث يكونون على قلب رجلٍ واحد.

وكما أن ذلك منَّة من الله على رسوله ﷺ، فهو كذلك منَّة على المؤمنين؛ إذ نزع من قلوبهم الأحقاد والإحن التي كانت دأب الناس في الجاهلية؛ فكانت سبب التقاتل بين القبائل بعضها مع بعض، وبين بطون القبيلة الواحدة.

فلما آمنوا بمحمد ﷺ انقلبت البغضاء بينهم مودة، كما قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٣].

وما كان ذلك التآلف والتحابّ -كما يقول ابن عاشور- إلا بتقدير الله تعالى، فإنه لم يحصل من قبل بوشائج الأنساب، ولا بدعوات ذوي الألباب ولا ببذل الطائل من الأموال ولو كان جميع ما في الأرض.

ولكن الله أَلَّف بينهم بعزَّته وقدرته؛ فهو عزَّ وجلَّ قويُّ القدرة؛ فلا يعجزه شيء، محكِم التكوين؛ فيجعل المتعذِّر كالأمر المسنون المألوف؛ فكان ذلك التأليف بينهم آية من آيات هذا الدين.

فهذا سرٌّ من أسرار تلك الآية العظيمة يتبين من خلاله عظم شأن تألف القلوب، وأثره في ترابط المسلمين وسعادتهم، وعزتهم، وهيبتهم، وتقوية آصرتهم.

اللهم ألف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الأربعون

﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمن جوامع الكلم القرآنية، ما ختمت به سورة الأعراف، في وصية من الله لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ حيث يقول: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال القرطبي: (هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات.

فقوله: خُذ العفو دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين.

ودخل في قوله: وأمر بالعرف صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار.

وفي قوله: ﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزُّه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة.

وهذه الخصال تحتاج إلى بسط، وقد جمعها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لجابر بن سليم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

قال جابر بن سليم، أبو جُرَيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: ركبت قعودي ثم أتيت إلى مكة، فطلبت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فأنخْت قعودي بباب المسجد، فدلوني على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فإذا هو جالسٌ عليه برد من صوف، فيه طرائق حمر، فقلت:

---

(١) للقرطبي في تفسيره: ٧/ ٣٧٥. باختصار.

«السلام عليك يا رسول الله **فقال: وعليك السلام**. فقلت: إنا معشر أهل البادية، قوم فينا الجفاء، فعلِّمني كلماتٍ ينفعني الله بها. **قال: ادن، ثلاثاً**، فدنوت **فقال: أعد علي**، فأعدت عليه **فقال: اتق الله! ولا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه منبسط، وأن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، وإن امرؤ سبَّك بما لا يعلم منك فلا تسبَّه بما تعلم فيه، فإن الله جاعل لك أجراً، وعليه وزراً، ولا تسبنَّ شيئاً مما خوَّلك الله تعالى** قال أبو جري: فو الذي نفسي بيده، ما سببت بعده شاة ولا بعيراً»[1].

وروى البخاري من حديث عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ قال: ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس.

وقال جعفر الصادق: أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق في هذه الآية، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ أي بالمعروف، وهو كل خصلةٍ حسنة ترتضيها العقول، وتطمئن إليها النفوس. قال الشاعر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أي: إذا أقمت عليهم الحجة، وأمرتهم بالمعروف، فجهلوا عليك فأعرض عنهم، صيانةً له عليهم، ورفعاً لقدره عن مجاوبتهم.

وهذا وإن كان خطاباً لنبيه عليه الصلاة والسلام، فهو تأديب لجميع خلقه.

(١) البزار (١٩٧٧)، وأحمد (٢٠٦٣٢)، وصححه ابن حبان (٥٢٢)، والحاكم (١/ ١٢٤).

روى البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قدم عيينة بن حصن، فنزل على ابن أخيه الحرِّ بن قيس بن حصن -وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولاً كانوا أو شباناً، فقال عيينة لابن أخيه: يا بن أخي، هل لك وجهٌ عند هذا الأمير، فتستأذن لي عليه؟ قال: سأستأذن لك عليه، فاستأذن لعيينة، فلما دخل قال: يا بن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، قال: فغضب عمر حتى همَّ بأن يقع به! فقال الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله قال لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله.

وهكذا شأن المؤمن يهتدي بالقرآن في غضبه ورضاه، فاللهم اجعلنا من الوقَّافين عند حدودك الحافظين لعهودك، العاملين بكتابك.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الحادي والأربعون
من فضائل الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ضوء قوله تعالى:
﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التَّوْبَة: ٤٠].

لما بايع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل العقبة أمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة، علمت قريش أن أصحابه قد كثروا، وأنهم سيمنعونه فأعملت آراءها في استخراج الحِيَل، فمنهم من رأى الحبس، ومنهم من رأى النفي، ثم اجتمع رأيهم على القتل، فجاء الخبر من السماء، وأمره أن يفارق المضجع، فبات عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مكانه، ونهض الصديق لرفقة السفر، فكانت الوجهة للغار، فبدأ الصديق بدخوله؛ ليكون وقاية له إن كان ثم مؤذٍ، فلما وقف القوم على رؤوسهم وصار كلامهم بِسَمْع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصديق، قال الصديق -وقد اشتدَّ به القلق-: يا رسول الله! لو أنَّ أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا! فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»[2].

لما رأى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حزنه قد اشتد -لكن ليس على نفسه- قوَّى قلبه ببشارة لا تَحْزَنْ إن الله معنا فظهر سرُّ هذا الاقتران في المعية لفظاً، كما ظهر حكماً ومعنىً، إذ يقال: رسول الله، وصاحب رسول الله، فلما مات، قيل: خليفة رسول الله، ثم انقطعت إضافة الخلافة بموته، فقيل: أمير المؤمنين.

---

(١) الفوائد لابن القيم: ٧٤، بتصرف.

(٢) البخاري (٤٦٦٣)، مسلم (٢٣٨١).

فأقاما في الغار ثلاثاً، ثم خرجا منه، فلما استقلا على البيداء لحقهما سراقة بن مالك، فلما شارف الظَّفَر، أرسل عليه الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سهماً من سهام الدعاء، فساخت قوائم فرسه في الأرض إلى بطنها، فلما علم أنه لا سبيل له عليهما، أخذ يعرض المال على من قد ردَّ مفاتيح الكنوز صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ويقدم الزاد إلى من أشبعه الله.

كانت تحفة ثاني اثنين مدَّخرة للصديق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ دون الجميع:

فهو الثاني في الإسلام، وفي بذل النفس، وفي الزهد، وفي الصحبة، وفي الخلافة، وفي العمر، وفي سبب الموت؛ لأن الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مات عن أثر السم، وأبو بكر سم فمات، أسلم على يديه من العشرة: عثمان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وكان عنده يوم أسلم أربعون ألف درهم، فأنفقها أحوج ما كان الإسلام إليها، فلهذا قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**ما نفعني مال ما نفعني مال أبي بكر**»[1]. فهو خيرٌ من مؤمن آل فرعون؛ لأن ذلك كان يكتم إيمانه، والصديق أعلن به، وهو خير من مؤمن آل ياسين؛ لأن ذلك جاهد ساعة، والصديق جاهد سنين.

نطقت بفضله الآيات والأخبار، واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار، فيا مبغضيه في قلوبكم من ذكره نار، كلما تليت فضائله علا عليهم الصغار! أترى لم يسمع الروافض: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾؟

دعي إلى الإسلام فما تلعثم ولا أبى، وسار على المحجَّة فما زلَّ ولا كبا، وصبر في مدته من مدى العدى على وقع الشبا، وأكثر في الإنفاق فما قلَّل حتى تخلل بالعبا!

تالله لقد زاد على السبك في كل دينار دينار: ثاني اثنين إِذْ هُمَا في الغار.

---

(١) الترمذي (٣٦٦١) وصححه ابن حبان (٦٨٥٨).

من كان قرين النَّبيِّ في شبابه؟ من ذا الذي سبق إلى الإيمان من أصحابه؟ من الذي أفتى بحضرته سريعاً في جوابه؟ من أول من صلى معه؟ من آخر من صلى به؟ من الذي ضاجعه بعد الموت في ترابه؟ فاعرفوا حق الجار.

نهض يوم الردة بفهم واستيقاظ، وأبان من نصِّ الكتاب معنىً دقَّ عن حديد الألحاظ، فالمحبُّ يفرح بفضائله، والمبغض يغتاظ.

كم وقى الرسولَ بالمال والنفس؟ وكان أخصَّ به في حياته، وهو ضجيعه في الرمس، فضائله جلية، وهي عن اللبس خلية!

لقد دخلا غاراً لا يسكنه لابث، فاستوحش الصديق من خوف الحوادث، فقال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما ظنك باثنين، والله الثالث؟**»[1]، فنزلت السكينة، فارتفع خوف الحادث، فزال القلق وطاب عيش الماكث، فقام مؤذن النصر ينادي على رؤوس منائر الأمصار: ثاني اثنين إِذْ هُمَا في الغار.

والله ما أحببناه لهوانا، ولا نعتقد في غيره هوانا، ولكن أخذنا بقول علي وكفانا: (رضيك رسول الله لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا)[2].

اللهم ارض عن الصديق، واجمعنا به في دار كرامته.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) البخاري (٤٦٦٣)، مسلم (٢٣٨١).

(٢) الخلال في السنة: ١/ ٢٧٣، والآجري في الشريعة: ٤/ ١٧١٢.

المجلس الثاني والأربعون
الواعظ العظيم في أول سورة هود[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هُود: ٦ - ٧].

اعلم أن الله تبارك وتعالى ما أنزل من السماء إلى الأرض واعظاً أكبر، ولا زاجراً أعظم مما تضمنته هذه الآيات الكريمة وأمثالها في القرآن، من أنه تعالى عالم بكل ما يعمله خلقه، رقيب عليهم، ليس بغائبٍ عما يفعلون.

وضرب العلماء لهذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم مثلاً؛ ليصير به كالمحسوس، فقالوا: لو فرضنا أن ملكاً قتَّالاً للرجال، سفاكاً للدماء، شديد البطش والنكال على من انتهك حرمته ظلماً، وسيَّافه قائم على رأسه، والنِّطع مبسوطٌ للقتل، والسيف يقطر دماً، وحول هذا الملك الذي هذه صفته جواريه وأزواجه وبناته، فهل ترى أن أحداً من الحاضرين يهتم بريبة أو بحرام يناله من بنات ذلك الملك وأزواجه، وهو ينظر إليه، عالم بأنه مطلعٌ عليه؟! لا، وكلا! بل جميع الحاضرين يكونون خائفين، وجلةٌ قلوبهم، خاشعةٌ عيونهم، ساكنةٌ جوارحهم خوفاً من بطش ذلك الملك.

(١) أضواء البيان: ٣/ ٩، للعلامة الشنقيطي.

ولا شك -ولله المثل الأعلى- أن رب السموات والأرض جلَّ وعلا أشدُّ علماً، وأعظم مراقبةً، وأشد بطشاً، وأعظم نكالاً وعقوبة من ذلك الملك، وحماه في أرضه محارمه، فإذا لاحظ الإنسان الضعيف أن ربه جلَّ وعلا ليس بغائبٍ عنه، وأنه مطلعٌ على كل ما يقول وما يفعل وما ينوي، لان قلبه؛ فخشي الله تعالى، وأحسن عمله الله جلَّ وعلا.

ومن أسرار هذه الموعظة الكبرى، أن الله تبارك وتعالى صرَّح بأن الحكمة التي خلق الخلق من أجلها هي أن يبتليهم أيُّهم أحسن عملاً، ولم يقل: أيهم أكثر عملاً، فالابتلاء في إحسان العمل، كما قال تعالى: في هذه السورة الكريمة: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هُود: ٧].

وقال في الملك: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [المُلك: ٢].

ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خلق من أجلها هي أن يبتلى -أي يختبر بإحسان العمل- فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار، ولهذه الحكمة الكبرى سأل جبريل النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا ليعلمه لأصحاب النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**أخبرني عن الإحسان**»، أي وهو الذي خلق لأجل الاختبار فيه، فبين النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الطريق إلى ذلك هي هذا الواعظ، والزاجر الأكبر الذي هو مراقبة الله تعالى، والعلم بأنه لا يخفى عليه شيء مما يفعل خلقه، فقال له: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1]. انتهى كلامه.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) مسلم (٨).

المجلس الثالث والأربعون
من أسرار قوله تعالى:
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1]

الحمد لله الذي أنزل القرآن، وتكفل بحفظه، والسعادة لمن اتبعه، والصلاة والسلام على خيرته من خلقه ورسله، أما بعد:

فإن من أعظم نعم الله تعالى على العباد -بعد إنزال القرآن- أنه تكفَّل بحفظه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحِجْر: ٩]، وهذه الآية الكريمة تضمنت جملة من الفوائد، منها:

الأولى، والثانية: أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله تعالى عليٌّ على خلقه، وهذا مأخوذ من قوله: نَزَّلْنَا الذكر فإنه نزل به جبريل من الله العزيز العليم؛ فكونه نازلاً من عند الله يدل على علوِّ الله، وكونه أيضاً من عنده يدل على أنه كلام الله؛ فإن الكلام صفة للمتكلم ونعتٌ من نعوته.

الثالثة: عظمة القرآن ورفعة قدره وعلوِّ شأنه؛ حيث أخبر تعالى في هذه الآية بما أخبر، أنه الذي تولى إنزاله وحفظه، ولم يَكِل ذلك إلى أحدٍ من خلقه.

الرابعة: أن القرآن مشتملٌ على كل ما يحتاج العباد إليه من أمور الدنيا وأمور الدين، ومن الأحوال الظاهرة والباطنة، فإن معنى الذكر أنه متضمنٌ لتذكير العباد وتنبيههم لكل ما يحتاجون إليه، وتتعلق به منافعهم ومصالحهم، والأمر كذلك؛ فإنه مشتملٌ على أمور الدين والدنيا ومصالحهما، على أكمل وجه وأشمله، بحيث لو تذكَّر الخلق بتذكيره،

(١) ينظر: المواهب الربانية: ٥٢، للعلامة السعدي، بتصرف يسير.

ومشَوا على إرشاده؛ لاستقامت لهم جميع الأمور، ولاندفعت عنهم الشرور؛ ولهذا أكثر الله في القرآن من حثِّ العباد على الاهتداء به في كل شيء، والتفكُّر والتدبُّر لمعانيه النافعة ويترتب على هذا المعنى:

الفائدة الخامسة: وهي أن من قام بالقرآن وتذكر به كان رفعة له، وشرفا وفخراً، وحسن ذكر وثناء، وبهذا أُوِّل قوله تعالى: وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ الزخرف: ٤٤ أي: شرف ورفعة لمن تذكَّر به واستقام عليه.

السادسة: أن التذكُّر بغيره غير مفيد ولا مجدٍ على صاحبه نفعاً؛ لأنه إذا ثبت وتقرر أنه مادة التذكير لجميع المنافع؛ عُلم أن ما ناقضه وخالفه فهو بضد هذا الوصف؛ ولهذا أتى بالألف واللام المفيدة للاستغراق والعموم.

السابعة والثامنة: أن الله تكفَّل بحفظه حال إنزاله، فلا يمكن أن يقربه شيطانٌ فيغيِّره ويزيد فيه وينقص، أو يختلط بغيره، بل نزل به القويُّ الأمين جبريل على قلب الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القلب الزكي الذكي، الذي هو أكمل قلوب الخلق على الإطلاق، وضمن الله لرسوله قرآنه وبيانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القِيَامَة: ١٨ - ١٩].

وتكفل الله أيضاً بحفظه بعدما نزل وتقرر، فأكمله الله تعالى، وأكمل به على عباده النعمة، واستحفظه لهذه الأمة على اختلاف طبقات علمائها وأئمتها، ووكلهم به، وأئتمنهم عليه؛ فكل قرن حمل عدوله وأزكياؤه -الذين ضمن الله لهم العصمة عند اتفاقهم- ألفاظه ومعانيه غضةً طرية، لا تغيير فيها ولا تبديل، وكل من أراد إدخال شيء فيه أو إخراج شيء منه؛ قيَّض الله من يذبُّ عنه ويحفظه، وهذا من حفظه، ويؤيد هذا الفائدة التاسعة:

أن هذا من أدلة صدقه وصدق ما اشتمل عليه، وصدق من جاء به -وهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فإنه تعالى خبَّر بأنه أنزله، وأنه حافظ له؛ فوقع كما أخبر الله تعالى، فصار هذا آية وبرهاناً على صدقه، وصحة ما جاء به، كما يشهد بذلك الواقع.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الرابع والأربعون
تلطَّف ولا تُدْهِن[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن التلطُّف بالقول والفعل أمرٌ مشروع إذا لم يكن على حساب الحق، وقد اتخذه الفتية أصحاب الكهف منهجاً في عزلتهم التي أثبتها الله في سورة (الكهف) في مقام الثناء عليهم وعلى صنيعهم؛ ولكن بعض الناس -ومنهم دعاة وطلاب العلم- قد يخرجهم التلطف من حيِّز المدارة المشروعة إلى حيز المداهنة المحرمة، فبدل أن يكون ناصحاً أميناً، يسعى لمدارة الناس ليكسب ودَّهم على حساب دين الله، وفرق بين الملاطفة والمدارة وبين المداهنة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذمٍّ، والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يردَّه عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقرَّه على باطله، ويتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق.

وقد ضُرب لذلك مثل مطابق: وهو حال رجل به قرحة قد آلمته، فجاءه الطبيب المداوي الرفيق، فتعرف على حال قرحته، ثم أخذ في تليينها، حتى إذا نضجت، أخذ في بطّها[2]. برفق وسهولة، حتى أخرج ما فيها، ثم وضع على مكانها من الدواء ما يمنع فساده، ويقطع مادة المرض، ثم تابع عليها بالمراهم التي تنبت اللحم، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها، ثم يشد عليها الرباط، ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت وشفي من قرحته.

---

(١) أ. د. ناصر بن سليمان العمر.

(٢) بطَّ الدُّمَّل: شقَّه. ينظر: المعجم الوسيط: ١/ ٦١.

والمداهن قال لصاحبها لا بأس عليك منها، وهذه يسيرة لا شيء فيها، فاسترها عن العيوب بخرقة، ثم الْه عنها، فلا تزال مدتها تقوى وتستحكم حتى عظم فسادها[1].

وقد أصاب ابن القيم كبد الحقيقة، وأنت واجد عند بعض المداهنين العزوف عن دعوة الحق مداهنة وذلك باسم التلطف، فكم من المهمات يتغافل عنها رغبة في عدم تعكير الأجواء، وقد دأب أرباب الضلال إلى السعي للظفر بمداهنة أهل الحق، ولم ينقطع طمعهم في ذلك حتى من النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال الله تعالى: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القَلَم: ٩]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ [يُونُس: ١٥]، والله سبحانه يوجه خطابه الحاسم لنبيه من فيقول: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكَهْف: ٢٩].

فعلى الداعية ألا يتنازل عن الدين، ثم يخادع نفسه بأنه يسلك مسلك التلطف والحكمة، بل تلك هي المداهنة المذمومة والركون المذموم للباطل.

إن على الداعية أن يحمل الدين وينشره في قالبٍ لطيفٍ حسن، ولا يصح الخلط بين اللطف في الدعوة وبين التنازل عن ثوابت الدين أو التنازل عن دعوة الناس تلطيفاً لأجواء الحياة.

ولا بد أن نعي في مثل هذا المقام أنه كما يوجد من يداهن السلطان فهناك من يداهن الجمهور، ويسعى لإرضائهم ولا يتكلم إلا بما يرغبون، حفاظاً على التفافهم حوله، وسعياً في زيادة حبِّهم له، وهذا شأنه كشأن الأول، فالمداهنة محرمة أياً كان المداهَن، وليس التلطُّف حينها من التلطف الممدوح، وقد قال النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس**»[2].

(١) الروح: ١/ ٢٣١.

(٢) الترمذي (٢٤١٤)، صححه الألباني.

وهناك بعض العاملين في حقل الدعوة، قد دخل عليهم الشيطان وبلغ منهم مبلغاً أعظم، وذلك من باب التلطف بالناس وتحسين صورة الإسلام في نظر غير المسلمين، فبدؤوا يؤولون أخباره ويبدِّلون أحكامه تلطفاً بالآخرين، وتحبيباً لهم في الدين -زعموا- وهذا الذي ضلَّ به السابقون.

وأما الذين يداهنون من أجل المكاسب الدنيوية فما أكثرهم في سائر الأزمان فكيف الشأن الآن؟!

والمقصود، لاطف الناس ودارهم، ولكن لإيصالهم إلى ما يحبه الله ويرضاه، وإلا فلا تدهن فتغش! وأَرْضِ الله ولو سخط الناس، يكتُبُ لك الله رضاه، واحذر سخطه فيحلَّ عليك غضبه، ومن يحلل عليه غضب الله فقد هوى.

اللهم أعذنا من ذلك، ومن اتباع الهوى المردي، وصلَّى الله وسلَّم على من تلطف وصدع بالحق لا بالهوى، وآله وصحبه أجمعين، ومن تأسى به واقتفى سنته إلى يوم الدين.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الخامس والأربعون
من صور التضرع النبوي: (دعاء زكريا بالولد)[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن سورة مريم هي سورة رحمة الله بعباده وأنبيائه، فقد تكررت فيها مفردة (الرحمة) عشرين مرة، ولذا افتتحت السورة بقصة زكريا وابنه يحيى، وكان تقديمها لبيان ما يتجلى فيها من مشاهد عظيمة للرحمة بأولياء الله وأنبيائه.

فكان مطلعها: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ [مَرْيَم: ٢] فأضيفت الرحمة للرب؛ لأنه المنعم المتصرف: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [آل عِمْرَان: ٧٤]، وفي قوله: عَبْدَهُ إشارة إلى أنها رحمةٌ خاصة بعباده تقتضي الإجابة والإسعاد في الدارين.

وتفيد أن التعبد لله من أعظم أسباب الرحمة والإجابة، كما أن في ذكر رحمته بأوليائه عوناً على محبته وذكره ومعرفته.

ثم يبين السياق القرآني صورة التضرع النبوي لزكريا في قوله: إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا فالنداء استكانة في الدعاء لا سيما إذا كان الدعاء خفياً، كما قال تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأَعْرَاف: ٥٥] وهكذا فعل زكريا، وذلك أعظم إيماناً وإخلاصاً وتضرعاً، ويستمر السياق مجلياً تضرع نبي الله وانكساره بين يدي مولاه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مَرْيَم: ٤] فجمع بين ضعفه وافتقاره وبين حسن ظنه ويقينه بربه، ثم يكشف عن باعثٍ عظيم لدعائه بالولد وهو قوله: ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى ﴾ [مَرْيَم: ٥].

---

(١) د. عبد الله بن منصور الغفيلي.

فقد خاف أن يتولى من بعده من لا يدعو الناس إلى عبادة الله، فقد كان الدين مسيطراً على همه، فلم يسأل الولد ليشبع رغبة الأبوة، أو يستعين به على نوائب الدهر، وإلا لم يكن بعد تقدم عمره واشتعال الشيب في رأسه، وهذا يؤكد صدق ضراعته وصلاح مقصده.

ثم بعد هذه المقدمة المتضمنة كمال الأدب والافتقار والإخلاص، وحسن الظن والثناء، يأتي الطلب الذي يدل على علوِّ همته، وشريف قصده، وحسن اختياره: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ [مَرْيَم: ٥]، فهو تعلق بالكرم الإلهي، وتأكيد على الاختصاص بالموهوب من الواهب؛ لتكون هبةً إلهية معجزة، متميزةً من مصدرها، مؤكَّدةً بتميز نوعها، ولذا طلب أن يكون الموهوب: ﴿ وَلِيًّا ﴾ ولاية الدين وميراث النبوة، ولذا قال: ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ [مَرْيَم: ٦] فالأنبياء لا يورِّثون، وإنما يورَّث علمهم ودينهم وهو لم يخلف مالاً، كما أن آل يعقوب قد انقطعوا من زمن بعيد.

ثم يزيد زكريا طمعاً في فضل ربه، بأن يكون الموهوب صالحاً: ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مَرْيَم: ٦]: أي مرضياً عندك وعند خلقك.

وهذا أفضل ما يكون من الأولاد، فاستجاب الله دعوته فقال: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [مَرْيَم: ٧]، فما أجمل إجابة الله لضراعة عبده حينما يناديه في الملأ الأعلى باسمه، ويقول نبشرك بغلام، بل ويسميه بنفسه سبحانه!

إنها رحمة عظيمة تعجَّب منها زكريا فقال: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مَرْيَم: ٨] مع وجود المانع لديه وزوجته، فأجيب: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مَرْيَم: ٩] أي: يسير ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مَرْيَم: ٩]، فخَلْقُكَ من عدم أعظم، فسبحان الله القدير، المستحق للعبادة والضراعة.

فيا أيها المؤمن.. ما الذي يحول بينك وبين أن تنطرح بين يديه؟ وتقبل عليه؟ وتسأله من واسع رحمته، وسابغ فضله؟ فهو قريب من عباده ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأَعْرَاف: ٥٦].

اللهم ارزقنا صدق الضراعة بين يديك، ولا تحرمنا لذة مناجاتك بذنوبنا.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس السادس عشر

﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيشعر بعض الناس بثِقَل حين يتلو القرآن أو يستمع إليه، فتجده يسعى إلى ختم السورة بأسرع ما يمكن، وإذا كان مستمعاً؛ فلربما غير المحطَّة، وربما استرق النظر إلى ساعته مراراً إذا كان في صلاة التراويح.

وإذا كان الإسراع في القراءة يحرم المرء من التلذذ بالقرآن، فإن النصوص جاءت في النهي عن ذلك، من ذلك ما رواه أحمد عن نهيك بن سنان، أنه أتى عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال: هذا مثل هذٍّ الشعر، أو نثراً مثل نثر الدَّقل؟ إنما فُصِّل لتفصِّلوا[2].

لكن تعالوا لنتأمل معاً موقع القرآن الكريم منَّا، وموقعنا من القرآن الكريم، فالله يخاطب نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكل قارئ للقرآن الكريم قائلا: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ [طه: ٢]، (فليس المقصود بالوحي وإنزال القرآن عليك وشرع الشريعة لتشقى بذلك، ويكون في الشريعة تكليف يشقُّ على المكلَّفين، وتعجز عنه قوى العاملين، وإنما الوحي والقرآن والشرع شرعة الرحيم الرحمن، وجعله موصلاً للسعاة والفلاح والفوز، وسهَّله غاية التسهيل، ويسَّر كل طرقه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح وراحة للأبدان)[3].

---

(١) د. محمد بن مصطفى السيد.

(٢) مسند أحمد (٣٩٥٨).

(٣) تفسير السعدي: ٥٠١.

جاءت الآية مطلع سورة طه، لكن خاتمتها جاءت لتؤكد نتيجة الإعراض عن القرآن الكريم: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]، ففي الأولى سعادة الإنسان بالقرآن، وفي الثانية شقاوته بالإعراض عنه، بأن تصبح معيشته ضنكاً، أي: ضيقة، وهذا يعني أن تكون المعيشة عذاباً على صاحبها، فيمتلئ قلبه بالهموم والأحزان من حيث رام أن يسعد نفسه وقلبه.

تصنف بعض دول العالم بأنها الأفضل في دخل الفرد والتنمية البشرية لكنها الأعلى في الانتحار، ألا يدعونا ذلك للتساؤل عن سرِّ الانتحار هذا على الرغم من وجود الحياة المرفهة، مع حرية مطلقة في معاقرة الشهوات؟!

لقد خسر هؤلاء الروح وغذاءها، فلم يجدوا بغيتهم في كون ملذَّات الدنيا كلها بين أيديهم، بل عاد عليهم ذلك باليأس والبؤس والإحباط والشقاء فانتحروا.

ألسنا نقرأ قول الله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ألم نسمع قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

إن حياة القلب لا تكون إلا بعبودية الله، ولنتأمل التعبير بقوله: إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحييكم، فحياتنا الهانئة السعيدة، لا تكون إلا بطاعتنا لله تعالى واستجابتنا لرسوله.

وإذا ربطنا الآيات بقول الله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، سنجد أنها خصَّت المؤمنين دون غيرهم بالإفادة من شفاء القرآن ورحمته، نتيجة لتصديقهم بآياته وعملهم بها، والشفاء عامٌّ من أمراض القلوب المعنوية من الضلال والفساد والجهل، وشفاء للأبدان من أمراضها الحسية.

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس السابع والأربعون

أكل الحلال في ضوء قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ففي عصر تنوَّعت فيه مصادر الأموال، وكثر الدَّخن فيها، فحريٌّ بالعبد أن يجتهد في طيب مصدر رزقه الذي له أثر على بدنه، وقلبه، وإجابة دعوته، والمؤمن حين يجتهد في هذا، فإنما يتأسى بصفوة الخلق الذين قيل هم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ [المُؤمِنُون: ٥١].

و(الطيِّب) في النصوص الشرعية يأتي كثيراً بمعنى الحلال، وضده الخبيث بمعنى الحرام، ومنه: كلوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ أي المُحلَّلات.

وقد يأتي (الطيب) بمعنى الجيد، والخبيث بمعنى الرديء، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٧].

و الصالح في قوله: ﴿ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ يكون بفعل المأمورات وترك المنهيات، وتناول المباحات.

ونلحظ في هذه الآية الكريمة اهتماماً بلقمة الحلال حين خوطب بذلك الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ ليطبقوا هذا، وليبلغوه للناس.

ولما كان المقصود من الأكل وهو الغذاء واللذة، يحصل ببعض قال سبحانه: ﴿ مِن طَيِّبَٰتِ ﴾ فقال من التي تدل على التبعيض.

---

(١) للعلامة عبد الحميد بن باديس، ينظر: تفسير ابن باديس: ٣٥٣، بتصرف.

ولما كان المخاطب بأكل الحلال والعمل الصالح شأنه أن تستشرف نفسه لتعيين ثمرة ذلك، جاء الخبر مؤكداً به إِنَّ فِي وَإِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عليم.. وحين يخبر الله عن علمه، فإنما يقصد به العلم المستلزم للجزاء، فكان كنايةً عن الجزاء، وفي هذا تفخيم لهذا الجزاء وتعظيم له، فهو جزاء الله العليم وكفى به.

والله تعالى حين أمر بالأكل، فمن أجل بقاء البدن، واشترط أن يكون من الطيبات، لأنها هي التي تغذي ولا تؤذي، أما الخبائث ففيها الأذى ويتفه أو يعدم منها الغذاء.

وأمر بالعمل الصالح الذي فيه ذكاء للنفس وتزكية لها، ونفع لها في العاجل والآجل وخير للعباد والبلاد.

وأخبر بعلمه بعمل العاملين؛ ليجتهدوا في العمل ويُخلصوا له فيه، وينتظروا جزاءهم من عنده.

والدين كله عمل صالح وتوحيد خالص، وقد انتظمتهما الآية تصريحاً في العمل واستلزاماً في التوحيد، وبيَّن تعالى بهذه الآية أن هذا الذي اشتملت عليه هو دين الله لجميع الأمم، أوصى به رسله -صلوات الله وسلامه عليهم- ليبلغوه لخلقه، فهو حقيقٌ أن يؤخذ به ويعمل عليه.

وههنا نكتةٌ بلاغية في ترتيب هذه المذكورات في الآية:

فإن الأعمال تتوقف على سلامة الأبدان، فكانت المحافظة على الأبدان من الواجبات، ولهذا قدَّم الأمر بالأكل على الأمر بالعمل.

فليس من الإسلام تحريم الطيبات التي أحلَّها الله، ولا تضعيف الأبدان كما يفعله بعض الجهال، الذين يظنون هذا ديناً، والميزان العدل في ذلك هو ما كان عليه النَّبيِّ ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم.

وفي تقديم الأكل من الطيبات على العمل الصالح تنبيهٌ على أنه هو الذي يثمرها؛ لأن الغذاء الطيب يصلح عليه القلب والبدن، فتصلح الأعمال، كما أن الغذاء الخبيث يفسد به القلب والبدن، فتفسد الأعمال.

فعلى المؤمن أن يتحرى في مأكله ومشربه -وكل ما به قوام ذاته- الحلال الطيب، يمتثل بذلك أمر الله، ويقصد التوصل به إلى العمل الصالح، وعليه أن يتحرى في فعله وتركه أمر الله ونهيه، حتى يكون عمله عملاً صالحاً طيباً متقبلاً، يمتثل بذلك أمر الله، ويقصد قبول عبادته ودعائه لديه.

والمتحري للحق والخير جدير بالتوفيق إليه وكثرة إصابته.

رزقنا الله التحري لطاعته، والتوفيق لمرضاته، والتأدُّب بكتابه آمين.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الثامن والأربعون
تلقي الشَّائعات في ضوء قصَّة الإفك[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فيقول الله تعالى عن شائعة الإفك: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النُّور: ١٥].

في هذه الآية العظيمة تصويرٌ عجيب لدقائق شأن الشائعات، وكيفية تلقي الناس لها، وإذاعتهم لها بعد ذلك، ولعل هذا الأمر يتضح من خلال هذا التحليل لمضمون هذه الآية الكريمة:

أولاً: مجيء كلمة ﴿إِذْ﴾ في مطلع هذه الآية؛ يشعر بلحظة تلقِّي الخبر، وأنها لحظةٌ حاسمة، يختلف الناس في التعامل مع الخبر بحسب هذه اللحظة، ولذلك جاء ذكر توقيت تلقي الإنسان للخبر في بداية هذه الآية.

ثانياً: التعبير عن سماع الخبر بالتلقي، فقال سبحانه وتعالى: تلقونه ؛ بدلاً من تسمعونه، مع أن جلَّ الشائعات يكون تلقيها عن طريق السمع، وأداة ذلك هي الأذن كما لا يخفى، ولكن في ذكر التلقي هنا دلالةٌ لطيفة؛ إذ فيه إيماءٌ إلى شوق المتلقي لما يتلقَّى، فكأن هناك أناساً متعطشين لمثل هذه الشائعات، يبحثون عنها، ويتلقَّفونها، فإذا حصل لهم ما يريدون تلقَّوها تلقي الأهل لغائبهم، ففي التعبير بالتلقي دلالةٌ على استعداد المتلقي وترحيبه بما سيأتي، وهذا ينبئ عن مرضٍ في بعض القلوب، وخصوصاً ما كانت من الفئة الحاقدة على الدين وأهله، ولعلنا نلحظ هذا التلقي أحياناً في تلقف أخبار الأخيار، وتصيُّد أخطائهم، ونشرها وتكبيرها؛ على ما يرى الناس ويسمعون.

---

(١) للدكتور عويض بن حمود العطوي.

ثالثاً: صيغة ﴿ تَلَقَّوْنَهُۥ ﴾ مصوِّرة للجهد المبذول من متلقي الخبر، فهو (تفعل) مثل التصيُّر، فهو عن قصدٍ من جهة، وهو يجهد من جهة أخرى، وهذا من أعجب ما يكون في الإنسان؛ حيث إنه يصرف همَّته، ويشغل نفسه، ويبذل جهده في ملاحقة شؤون الناس، وتلقُّف أخبارهم، وقد يكون في هذه الصيغة دلالةٌ على تنقُّل الأخبار بين الناس، بل بين هذه الفئة خصوصاً.

رابعاً: جاءت كلمة ﴿ تَلَقَّوْنَهُۥ ﴾ محذوفة (التاء)، والأصل (تتلقونه)، وفي هذا تصويرٌ لسرعة التلقي؛ بسبب تلهف السامع لسماع الخبر والشائعة، وإذاعته لها.

خامساً: قوله تعالى: بألسنتكم، نلحظ فيه كيف كان تلقي الخبر باللسان، مع أن اللسان ليس هو الأداة لتلقي الأخبار، بل الأداة المعنية بذلك هي الأذن. ومع هذا لم يكن النظم الجليل: إذ تلقونه بآذانكم، بل بألسنتكم، لما في ذلك من تصوير اختلال موازين التلقي عند هذه الفئة الراغبة في الشَّر، ونشر الشائعات المغرضة بين الناس، فكان في ذكر التلقي باللسان بيانٌ أن هذا الخبر الذي تتلهَّفون له، وتتلقَّونه تلقي الغائب؛ لم يمرَّ من قنواته التي تضمن سلامته، أو سلامة التعامل معه؛ وهي: الأذن، ثم العقل، ثم بعد ذلك اللسان، بل إن الذي حصل هو تلقي من اللسان إلى اللسان، فما أدقَّ هذا التصوير لحال كثير من محبي نشر السوء.

سادساً: مجيء هذه الكلمة مجموعة بألسنتكم، وكذلك قوله تعالى: بأفواهكم، فيه ملمحٌ لكثرة الفاعلين لهذا الأمر، ولانتشار ذلك بين الناس، وإلا لقبل: إذ تلقونه باللسان، وتقولون بالفم، ويؤيد هذا إضافة ذلك إلى مخاطبين، ليكون ذلك أكثر حضوراً وواقعية.

سابعاً: في وقوع قوله تعالى: ﴿ وَتَقُولُونَ ﴾ مباشرة بعد قوله تعالى: إذ تلقونه دليلٌ على سرعة السعي في نشر الخبر، وعدم عرضه على محكِّ الدين والعقل، وفي التعبير بالمضارع وتقولون دليل على تجدُّد ذلك منهم في غير مرة.

ثامناً: في مجيء مادة القول وتقولون، دون تنشرون، أو تذيعون مثلاً؛ للدلالة على تفوههم بهذا الخبر المنقول، وإجرائهم ذلك الخبر السيئ على ألسنتهم، وهذه خطيئة أخرى زيادة على خطيئة التلقي التي ذكرت سابقاً.

تاسعاً: قوله تعالى: بأفواهكم تأكيدٌ لحصول القول منهم، وذلك لأن ذكر القول يغني عن ذكر هذا القيد بأفواهكم؛ لأنه من البدهي أن القول سيكون بالفم، وفي النص على ذلك زيادة على التأكيد المذكور لطيفةٌ أخرى؛ وهي أن المذكور -هنا- هو الفم، لا اللسان، فعلمنا من ذلك أن التلقي كان باللسان؛ والإخراج كان بالفم، وهذا يعني أن وسيلة التلقي لم تكن هي الوسيلة المناسبة؛ ولا الصحيحة، وكذلك طريقة الإخراج، لم تكن هي الطريقة الصحيحة؛ ولا السليمة.

وقد دلَّ ذكر الفم في الإخراج على أن حجم الشائعة قد تضخم في نفس هذا المتلقي، حتى ما قدر اللسان الذي تلقاها على إخراجها؛ لأنه زاد فيها من مرويَّاته أو تحليلاته، أو كذبه، أو زوره، حتى أصبح اللسان عاجزاً عن حملها، فكان لا بد أن يتآزر الفم بجميع مكوناته؛ بما فيها اللسان لحمل هذا العبء الثقيل ليخرجه مرةً أخرى.

ولك أن تتأمَّل -أيها المؤمن بربه- حجم هذه الشائعة التي هذا وصفها، وكم سيكون تأثيرها في الناس، وهذا الأمر من التلقي إلى الإخراج بهذا التصوير العجيب هو تجسيدٌ دقيق لواقع محبي الشر، ومتلقي السوء، وناقليه، فاحذر أن تكون منهم.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس التاسع والأربعون
الحوار في القرآن الكريم[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن من محاسن الدين الإسلامي أنه يقوم على الحق والعدل، ويحرر القضايا، وينصف الخصوم، ويقيم الحجة، وقد أرسل الله لعباده رُسُلاً مبشرين ومنذرين، ودعاة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالأحسن، ولم يطلب إكراه أحدٍ على الإيمان به: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦]، وطلب من كل محاور حجته: ﴿ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [النَّمل: ٦٤].

ومن أهمِّ ما يميز المسلم دعوته إلى الله بقوله وفعله، وسمته، فحياته كلها دعوة، قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأَنْعَام: ١٦٢]، لذا كان على المسلم معرفة منهج الحوار وطرقه وآدابه الشرعية؛ لقوله: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النَّحل: ١٢٥]، وقوله: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [يُوسُف: ١٠٨].

وقد أولى الله تعالى الحوار اهتماماً في كتابه العزيز، فذكر حوار الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، وبيَّن لنبيه ﷺ كيف يحاور أثناء تبليغه دعوة ربه، كما حفلت السنة بنماذج من حواره كان مع الآخرين على تنوعهم.

وقد ورد في القرآن ذكر المحاورة، وهي المفاعلة من الحوار، قال تعالى: ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾ [الكَهْف: ٣٤]، ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾: أي يخاطبه ويجاوبه.

---

(١) د. أسماء بنت راشد الرويشد.

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ﴾ [المُجَادلَة: ١]، قوله: ﴿ تَحَاوُرَكُمَآ ﴾ أي: مراجعتكما الكلام.

وفي القرآن آيات تحكي طرق الأنبياء والمرسلين عليهم السلام في دعوة أقوامهم بالمحاورة، قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غَافِر: ٥]، ثم يبين الله كيف ردَّ عليهم الرسل عليهم السلام وحاوروهم وجادلوهم بالحسنى، وذكر الله حوار نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى وسليمان وعيسى عليهم السلام ورسلٍ آخرين مع أقوامهم، وذكر تعالى حوار أتباع الرسل من المؤمنين مع من لم يؤمن من قومهم، وذكر حوار الملائكة معه سبحانه وكلامه مع بعض رسله عليهم السلام، وذكر حوار الأنبياء مع الملائكة عليهم السلام، وحوار الملائكة مع مريم عليها السلام، وذكر حوار عيسى عليه السلام معه، وحوار الملائكة عليهم السلام مع الكفار يوم القيامة، وحوار المؤمنين مع الكافرين، وحوار الكافرين فيما بينهم في النار، وحوار الأعراف مع أهل الجنة وأهل النار.

ومن الحوارات الدعوية التي وردت في القرآن الكريم حوار يوسف عليه السلام مع السجينين عندما سألاه عن تعبير رؤياهما، فابتدأهما بالدعوة إلى الله، ثم عبَّر لهما رؤياهما.

كما تكرر في القرآن نقل حوارات دارت بين موسى عليه السلام وبين فرعون، ومنها حوار موسى عليه السلام وهو يعرض حججه الدامغة عندما سأله فرعون: وَمَا رَبُّ العالمين، فبين له عليه السلام بقوله: ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الدُّخَان: ٧] فعارضه فرعون ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٥]. فلم يعبأ به موسى عليه السلام، واستمر ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

[الشُّعَرَاء: ٢٦]، وهنا بلغت المعارضة غايتها من فرعون حينما قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٧]، فتجاهله عليه السلام ولم يشغله الرد عن مقصوده في الحوار، واستمر بقوله: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٨]، وعرض عليه حينها المعجزات الدالة على صدقه عليه السلام ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٣٢ - ٣٣].

كما أن أسلوب الحوار من أنفع الأساليب التعليمية، وفي القرآن نماذج من استعماله في هذا المجال، كما في قصة موسى مع الخضر عليه السلام، وفيها: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ [الكَهْف: ٦٦ - ٦٩].

وهناك حوارات دعوية كثيرة جداً منقولة في كتاب الله تعالى، فليجتهد المسلم في تأمُّلها وتدبُّرها؛ ليستمد منها منهجاً دعوياً متيناً مؤثراً بإذن الله، نسأل الله تعالى أن يهدينا سبل الرشاد وأن يسددنا في الأقوال والأفعال.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الخمسون

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فيقول الله تعالى في سورة القصص، مخبراً عن أمِّ موسى التي فُجِعت بالتقاط آل فرعون لولدها: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القَصَص: ١١] فَلِمَ خَصَّت أمُّ موسى أخته بتتبُّع مسيره في اليمِّ حتى وصل إلى قصر فرعون!

لِمَ الأخت هي المؤهَّلة لحمل الرسالة في ذلك الجو المرعب القاتل!

ما السرُّ الذي ألهمه الله في قصة موسى حتى يبرز خبر الأخت؟ أليس له أقارب غيرها؟ أين جيرانهم؟ أين الصالحون من بني إسرائيل؟

قصتنا اليوم قصة الأخت التي أعلى الله شأنها في كتابه بذكرها في هذه اللحظات الرهيبة من حياة رسولٍ من أعظم الرسل عليهم الصلاة والسلام.

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ فمضت أخت موسى في عالمٍ من الخوف والقتل والجبروت، تسير خلف أخيها الرضيع، وفي قلبها بحارٌ من الحبِّ والحنان والرحمة، لا يمكن لقلبٍ على الأرض -بعد أمِّه- أن يقوم بهذا الدور الشجاع إلا قلب الأخت!

مضت أخت موسى تتبع التابوت حتى ألقاه الموج في داخل القصر.

كان بإمكانها أن تعود وقد أدَّت مهمتها، وأعذرت من أمها وأخيها، وبذلت جهدها، لكن هيهات للحبِّ أن تنتهي قصته وهيهات للأخوة أن تسدل ستارها!

---

(١) د. عبد الله بن بلقاسم.

مضت الفتاة ووجه أخيها موسى في عينها، وصوته يدوي في أذنيها، مضت تقتحم أهوال القصر، ودخلت إلى لجَّة الموت تنظر ماذا حلَّ بأخيها، ماذا جرى له؟ أي يدٍ حملته؟ وماذا فعلوا به؟

ويبدو من الآيات أنها تخطَّت حواجز هائلة، حتى اقتربت من دوائر القرار الحاسم، وهي ضعيفةٌ مسكينة، وتحسست أنباء حيرة القصر في البحث عن مرضعة للصَّبي الذي امتنع عن الرضاع من كل المرضعات.

ورغم احتمالات انكشاف الأمر أمام مخابرات فرعون، تحركت الأخت المحبَّة من جديد وصدعت باقتراحها المحفوف بالمخاطر: ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القَصَص: ١٢ - ١٣].

قصة أخت موسى قصة حبٍّ مكررةٌ في كل بيتٍ مؤمنٍ في بيوتنا قلوب تحمل هذا الحبَّ لنا!

في بيوتنا أخواتنا الذي سطر القرآن ما يحملنه من الحبِّ لنا!

لم يقل ربنا: (وقالت فلانة)؛ لأن القضية ليست قضية فلانة بل قال سبحانه: وَقَالَتْ لأخته ؛ لأن المعنى في الأخوة الكامنة هنا الأخوة التي تبعث على الرحمة والعطاء والصلة والإحسان والقرب.

الأخت هذا الاسم الجميل الذي يحرِّك مشاعر المحبَّة في قلوب المؤمنين وألطاف الأخوة في أفئدة الصالحين.

الأخت هذه الكلمة التي تذرف لها الدُّموع، وتتحرَّك لها القلوب.

الأخت هي النسخة المؤهَّلة الحمل رسالة الأم...

إنها شريكة الرَّحِم والصُّلب والمهاد والثدي، والبدايات الأولى، والبراءات الصغيرة.

بعد كل هذا التاريخ من القربى -ومع شديد الأسف- تشاهد صوراً تنكَّرت لكل الماضي، وقطعت أواصر القربى، فسقطت الأخت إلى قاع الاهتمامات، وأصبحت قريبة من الدرجة الرابعة والخامسة!

أصحبت تدخل بيت أخيها كأنها غريبة، تحضر حزينة، وتذهب باكية!

انقرضت البسمة لها من وجوه إخوانها، ورحلت الرحمة عنها من قلوبهم!

لم يعد من الأخوة إلا مسمياتٌ جافةٌ، وكلماتٌ فاترة، وتكلُّفات ثقيلة.

أخوات في الستين والسبعين، قد انحت ظهورهن، وشحبت وجوههن، ورقَّت عظامهن، وساء أزواجهن، لا يجدون ذرةً من الاحترام، ولا لفتةً من التكريم، عند إخوانهم الذين ربما ربَّت بعضهم، وأطعمته في حجرتها، وسهرت ليلها معه في طفولته.

أين أخت موسى؟ وجيل جديد من الشباب ينظر إلى أخواته كأنهن خادمات في بيته، يأمرهنَّ وينهاهنَّ ويشتمهن، وربما بلغت به الوقاحة والظلم أن يضربهنَّ في بيوتٍ جاهلة، لا تقدِّر قيمةَ الأخت ولا منزلتها، ولا ترفع رأساً بحقوقها.

وهناك رجال أدُّوا حقوق أخواتهم شابت رؤوسهم، يسافر أحدهم مئات الأميال ليسأل عن حال أخته، ويتفقَّد أمرها مع زوجها، كيف حالها؟ وكيف معاملته لها؟ يشعرها بأنه سندها بعد الله، وعونها بعد أبيها، يمدُّها بماله، ويعينها بكلماته، ويخفِّف أحزانها، ويؤنسها إذا حزنت، ويفرح بها إذ قدمت، ويكرم زوجها من أجل أن يكرمها،

ويتواضع له من أجل أن يتواضع لها، يعطيها حقَّها قبل أن تسأله، يعلم أنها ضعيفة تحتاج إلى مال أبيها وأمِّها، فيبادر إليها.

الشاب الشَّهم هو الذي يعامل أخته الكبيرة كأنها أمُّه، فهو يرى فيها مشهد أمِّه الحبيبة فيكرمها ويزروها ويتذكَّر وجه أمِّه فيها، ويحسن إلى أمِّه وأبيه بالإحسان إليها، وينظر إلى أخته الصغيرة أنها ابنته فيرحمها ويحسن إليها ويتلطَّف بها، ويسعى في خدمتها، والله الموفق.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الحادي والخمسون
من أسرار قوله تعالى:
﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فدعونا نرتحل بقلوبنا وعقولنا إلى أعماق هذا الحوار العظيم، بين إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصَّافَّات: ١٠٢].

أولاً: تأمَّلوا الخطاب وكيف أن إبراهيم عليه السلام عرض الأمر الفادح بطريقةٍ هادئة واضحة.

إن العظماء يبدون أكثر هدوءا في الأزمات الطاحنة، والفتن المدلهمَّة والأحداث الكبرى.

والكبار وحدهم قادرون على السيطرة على مشاعرهم وأنفسهم في الأوقات العصيبة، إنهم يلتزمون أخلاقيَّات الحوار مهما كان الموضوع صعباً.

يابني القرآن العظيم يؤكِّد بنقل هذه الكلمة أن اللحظة الحرجة لا تمنح إذناً بالقفز عن الاتزان والهدوء والأخلاق.

ثانياً: إني أرى فِي الْمَنَامِ أني أذبحك الوضوح والصدق والدقة. إن وضع الأفراد والأمم أمام مشكلاتها الحقيقية يتطلب قدراً عالياً من المسؤولية في الصراحة والشفافية، ففي عبارةٍ موجزة دقيقة وضع الخليل عليه السلام ابنه مباشرة في الموضوع، دون تضليل أو خداع.

(١) د. عبد الله بن بلقاسم.

إننا نعاني في مجتمعاتنا المسلمة من فقدان الوضوح والمباشرة في تعاملاتنا الفردية والجماعية.

إننا نمارس تضليلاً فردياً وجماعياً، ونستخدم اللغة التي هي وسيلة البيان والوضوح للتَّعمية والتشويش وتشويه الحقيقة، وبمرور الزمن وترسُّخ العادة، أصبح من الصعب أن تواجه الناس بالحقيقة دون أن تخسرهم، وتجذرت فينا ثقافة الخداع، والقدرة على التمويه.

لا يمكن لبيتٍ ولا لأمةٍ أن تنهض نهضةً حقيقةً دون أن تصطدم بكل صدقٍ مع أزماتها، وأن تعترف بكل شجاعةٍ بحجم الآلام التي تعانيها، والأخطار التي تحدِّق بها، وأن تتخلى على الفور عن المجاملة الخادعة التي تخدِّر إحساسها بمشكلاتها.

ثالثاً: النبوَّة والأبوة أعلى مرتبتين بشريتين تستحق التوقير في الوعي الإنساني، لكنها مع ذلك لا تعنى القهر واستلاب الخيارات الفردية، لقد كان الأمر واضحاً للخليل، وكان بإمكانه أن يمارس حقَّه في تنفيذ الأمر دون عرض على الغلام الذي بلغ معه السعي، لكن إبراهيم عليه السلام أدرك أنه أمام إنسانٍ مستقلٍّ له حقٌّ في أن يختار قراره هو بمعزلٍ عن خيار الأب.

إن إبراهيم عليه السلام لم يكن ليتخلَّى قط عن تنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى، لكنه أراد أن تكون مشاركة ابنه طوعية حتى يحظى بأجر التسليم والاتباع، فقبل إسماعيل بالعرض مختاراً، طائعاً محتسباً، سائراً إلى أمر الله بكل مشاعر الاحتساب والرغبة في التنفيذ، لقد تحول الابن من مجرد القبول وترك الممانعة أو الفرار إلى مرتبةٍ أعلى.

إن الغلام يتولى حفز أبيه المحب التنفيذ: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾: رسالة مهمة للخليل في الوقت الصعب، ومساندة غالية في لحظة الابتلاء المريرة.

إنها ثمرة الحوار الأمين، والعرض المسؤول الذي تقدم به لابنه، ينال ثمنها هذا الموقف المؤمن الشجاع الصارم.

رابعاً: التسليم، لقد كان بالإمكان أن يأتي جبريل في أوضح صور الوحي إلى إبراهيم؛ لينقل إليه الأمر بالذبح، لكن الابتلاء -ولأمرٍ ما- جاء في صورة منام، ورؤيا الأنبياء حق؛ لتعظم البلية به.

إن النفوس المرواغة تبحث عن أي منفذ للفرار من تنفيذ أمر الله، وتفرح بكل حيلةٍ تسهل عليها ترك أوامره، لكنَّ الخليل لم يفعل، لقد كان في أسمى حالات التسليم، ولم يكن لديه تفكير البتة في التراجع أو التغيير.

إننا اليوم أمام مشكلة ضخمة تتعلق باهتزاز ركن التسليم في قلوبنا، إن إبراهيم لم يتساءل عن أسباب هذه الأمر، ولم يراجع ربه في توضيح أسبابه، ولم يبحث عن مبررات هنا أو هناك، ليتنصَّل منه!

لقد بدا واضحاً أن التسليم معناه شيء واحد: هو القبول بأمر الله دون تردُّد أو شكٍّ.

ماذا يحدث اليوم في مجتمعاتنا من المناكفة والمصادمة المستمرة للوحي بمسوِّغات سخيفة؟ واعتراضات سامجة، وحيل بلهاء!

لقد نصَّب بعض الناس نفسه حاكماً على النصوص، يمرِّر منها ما يشاء، ويردُّ ما يشاء، بحسب ظنونه وأوهامه التافهة.

إن النص -بعد فهمه على منهج الأنبياء والصحابة- ليس لأحدٍ خيار فيه إلا التسليم.

لقد فهم إسماعيل مبررات أبيه للقيام بهذا الأمر الجلل: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ سأذبحك يا بني، لأن الله أمر بذلك، ليس هناك مذكرة تفصيلية، ولا فذلكة قضائية، ولم يطالب إسماعيل أباه بشيء آخر!

لقد انتهى كل شيء! فحين يأمر الله، يموت شيطان الاعتراض في قلب المؤمن، ويتخلى عن كل وساوس المشاغبة والتشكيك: أفعل ما تُؤْمَرُ! كل قضيةٍ أخرى تقبل النقاش والمراجعة إلا ما تُؤمَر به من الله، أما أي شيء آخر، فلا بأس بالحوار والبحث والسؤال.

اللهم ارزقنا الانقياد لشرعك، والتسليم لأمرك ونهيك.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الثاني والخمسون

وقفات مع قوله تعالى:

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ففي سورة الطور تتجلَّى بعض مشاهد المتقين، بعد دخولهم جنة النعيم، ومن أكثر ما يلفت النظر في هذه السورة، حديثهم عن أسباب دخولهم كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الطُّور: ٢٥ - ٢٨].

إن إقبال الإنسان على صاحبه، وإقباله عليه بكلِّيته، لا يكون غالباً إلا عند إلقاء البشارات، والأخبار السارَّة، وكذلك يفعل أهل الجنة حين يُقبل بعضهم على بعض، ويتساءلون: ماذا كنتم تعملون في الدنيا؟ كيف نلتم هذا العطاء الرباني؟ كلٌّ يسأل صاحبه ويحكي قصته، وكلهم -على اختلاف أشكال تعبيرهم- يدورون في الجواب على حقيقة واحدة: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾.

إن معنى الإشفاق هو الخوف المصحوب برحمة، والحذر المصحوب بعناية، كما قال تعالى: عن المتقين في سورة الأنبياء: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبيَاء: ٤٩] أي مشفقون على أنفسهم منها؛ فيحذرون الوقوع فيما يهوي بهم في عذابها.

ومن ثم فالإشفاق هو وازع التقوى وموردها ومغذِّيها.

---

(١) د. فريد الأنصاري: من مجالس التدبر: ٢/ ١٦٦، بتصرف يسير.

فمعنى أنهم كانوا في أهلهم مشفقين، بيانٌ لما كانوا عليه من قبل في حياتهم الدنيا، من حال الحذر والرهب، والخوف من لقاء الله، والاحتياط في الأعمال ليوم الحساب، والتصرف على ذلك الميزان، وبذلك الشعور الإيماني العميق.

وعبَّروا بأنهم كذلك كانوا في أهليهم؛ لأن الإنسان وسط أهله وأبنائه أكثر تعرضاً للغفلة والفتنة؛ بسبب ما يصحب العيش بين الأزواج والولدان من الميل إلى الكسل والراحة والدعة، ومن الانشغال بمُتَع الحياة الدنيا وشهواتها، والانغماس في همومها، والتفكير في الكسب والمال، لكن أهل التقوى لم يشغلهم ذلك كله، رغم عدم تقصيرهم في طلب ما كتب الله لهم منه، ولم يفتنهم عن عبادة الله ورعاية حقوقه، والسير إليه تعالى بقلوبٍ وجلة، وأعمالٍ خالصة، وسط ذلك المحيط الدنيوي المغري بالتنعُّم العاجل الفاني، بل إنهم أناروا بيوتهم بمصابيح التقوى، ولقَّنوا أهليهم حقيقة الإشفاق من رب العالمين، فصار الأبناء في ذلك لآبائهم تابعين.

فكانت النتيجة أن تفضل عليهم الله بمنِّه، فسلَّمهم من عذابه، ونجَّاهم من عقابه، وأدخلهم جنته، فذلك قوله تعالى: حكايةً عنهم: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ والسَّموم: ريح جهنم الحارقة، التي تدخل في مسام الجلد من شدة حرارتها.

وفي الأخير اكتمل جواب المتسائلين عمَّا به كان نجاتهم بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ وسباق الكلام دالٌّ على أن مدار الدعاء، كان حول طلب النجاة من النار، والفوز برضا الرحمن.

وقد يتسع معنى الدعاء هنا، ليشمل كل معاني العبادة وعلى رأسها التوحيد والإخلاص، وأما الابتهال إلى الله بالدعاء رغباً ورهباً، فهو حُداء العبد السائر إلى ربه بأقدام الخوف والرجاء، وهذا إنما هو من آثار الإشفاق الذي كانوا عليه من قبل، وهو علامة التقوى، والصفة الأساس التي وصفهم الرحمن بها في صدر السياق، ومن ثم ختم المشهد كله بهذا التذييل: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾.

واستعمال ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ مقرونا بـ(أل) الاستغراقية في اسميه تعالى البر، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ يفيد تخصيص ذلك به وحده، والمعنى: لا بر على الحقيقة سواه، ولا رحيم على الكمال غيره.

والبر معناه: الكثير العطاء والإحسان، الوفي الذي لا يخيب ظن عبده به، والرحيم معناه: الكثير الرحمة، الذي تسع رحمته كل من تاب إليه من عباده ورجع.

فاللهم إن مغفرتك أوسع من ذنوبنا، ورحمتك أرجى عندنا من أعمالنا، فاغفر لنا وارحمنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الثالث والخمسون

من أسرار قوله تعالى:

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله تعالى في سورة المجادلة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المُجَادلَة: ١١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة مبيناً بعض أسرار هذه الآية العظيمة:

خصَّ سبحانه رفعه بالأقدار والدرجات الذين أوتوا العلم والإيمان، وهم الذين استشهد بهم في قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٨] وأخبر أنهم هم الذين يرون ما أنزل إلى الرسول هو الحق بقوله تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ [سَبَإ: ٦]، فدلَّ على أن تعلم الحجة والقيام بها يرفع درجات من يرفعها، كما قال تعالى: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ [الأَنْعَام: ٨٣] قال زيد بن أسلم: بالعلم.

فرفع الدرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان، فكم ممن يختم القرآن في اليوم مرة أو مرتين، وآخر لا ينام الليل، وآخر لا يفطر، وغيرهم أقل عبادة منهم وأرفع قدراً في قلوب الأمة!

---

(١) لشيخ الإسلام ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: ١٦/ ٤٨-٥١. بتصرف.

وكذلك ترى كثيراً ممن لبس الصوف، ويهجر الشهوات، ويتقشف، وغيره -ممن لا يدانيه في ذلك- من أهل العلم والإيمان أعظم في القلوب وأحلى عند النفوس، وما ذاك إلا لقوة المعاملة الباطنة، وصفاتها، وخلوصها من شهوات النفوس، وأكدار البشرية، وطهارتها من القلوب التي تكدر معاملة أولئك.

وإنما نالوا ذلك بقوة يقينهم بما جاء به الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وكمال تصديقه في قلوبهم، وودِّه، ومحبته، وأن يكون الدين كله لله، فإن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وابتهاجها وسرورها، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ [الرَّعْد: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [يُونُس: ٥٨]، ففضل الله ورحمته القرآن، والإيمان، من فَرِحَ به فقد فرح بأعظم مفروحٍ به، ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه، ووضع الفرح في غير موضعه، فإذا استقر في القلب، وتمكَّن فيه العلم بكفايته لعبده ورحمته له، وحلمه عنده، وبرِّه به، وإحسانه إليه على الدوام، أوجب له الفرح والسرور أعظم من فرح كل محبٍّ بكل محبوب سواء، فلا يزال مترقياً في درجات العلو والارتفاع بحسب رقيِّه في هذه المعارف، هذا في باب معرفة الأسماء والصفات.

وأما في باب فهم القرآن، فهو دائم التفكُّر في معانيه، والتدبُّر لألفاظه، واستغنائه بمعاني القرآن وحِكَمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئاً من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قَبِلَه، وإلا ردَّه، وإن لم يشهد له بقَبول ولا ردٍّ وقفه، وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن: إما بالوسوسة في خروج حروفه، وترقيقها، وتفخيمها، وإمالتها، والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط، وغير ذلك، فإن هذا حائلٌ للقلوب، قاطعٌ لها عن فهم مراد الرب من كلامه.

وكذلك مراعاةُ النغم وتحسين الصوت، وكذلك تتبُّع وجوه الإعراب، واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان.

وكذلك صرفُ الذِّهن إلى حكاية أقوال الناس، ونتائج أفكارهم، وكذلك تأويلُ القرآن على قول من قلَّد دينه، أو مذهبه، فهو يتعسَّف بكل طريقٍ حتى يجعل القرآن تبعاً لمذهبه، وتقويةً لقول إمامه، وكلٌّ محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك، أو أكثره، والله سبحانه وتعالى أعلم. انتهى كلامه.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الرابع والخمسون

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله تعالى: يوم تبلى السرايرففي هذه الآية العظيمة يذكِّر الله عباده بشأن القلوب، وأعمالها، وسرائرها، مما لا يعلمه الناس وهو بها عالم كما ينبه الله سبحانه وتعالى إلى أن هذه السرائر ستُبلى وتُختبر يوم القيامة، ويظهر ما فيها من الإخلاص والمحبة والصدق، أو ما يضادها من النفاق والكذب والرياء؛ وذلك في يوم القيامة يوم الجزاء والحساب، وهذا واضحٌ من الآية وما قبلها وبعدها؛ حيث يقول الله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطَّارِق: ٨ - ١٠].

والقلب هو محطُّ نظر الله وعليه يدور القَبول والرد كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[2].

والسريرة إذا صلحت صلح شأن العبد كله، وصلحت أعماله الظاهرة ولو كانت قليلة.

والعكس من ذلك عندما تفسد السريرة، فإنه يفسد بفسادها أقوال العبد وأعماله، وتكون أقرب إلى النفاق والرياء عياذاً بالله تعالى، ويوضح هذا الأمر قوله: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**».

---

(١) الشيخ عبد العزيز بن ناصر الجليل.

(٢) البخاري (٥٢)، مسلم (١٥٩٩).

يقول ابن القيم في تفسير هذه الآية يوم تبلى السرايز: (وفي التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة، وهو أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة؛ فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحاً، فتبدو سريرته على وجهه نوراً وإشراقاً وحياء، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعاً لسريرته، لا اعتبار بصورته، فتبدو سريرته على وجهه سواداً وظلمة وشيناً، وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها)[1].

ومما سبق يتبين لنا عظم شأن القلب، وخطورة السريرة، حيث إنها محطُّ نظر الله سبحانه وتعالى وعليها مدار القبول عنده سبحانه، وحسب صلاحها وفسادها يكون حسن الخاتمة وسوؤها.

وكلما صلحت السريرة تمت الأعمال الصالحة وزكت ولو كانت قليلة، والعكس من ذلك في قلَّة بركة الأعمال حينما تفسد السريرة ويصيبها من الآفات ما يصيبها.

وهذا هو الذي يفسر لنا تفوُّق أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على غيرهم ممن جاء بعدهم، ممن قد يكون أكثر من بعض الصحابة عبادةً وقربات؛ حيث إن أساس التفاضل بين العباد عند الله هو ما وقر في القلب من سريرةٍ صالحة مطابقة لما ظهر في العلانية من أعمال وأقوال.

يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم كانوا أفضل منكم. قيل له: بأي شيء؟ قال: إنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة منكم).

(١) التبيان في أقسام القرآن: ١٠٥.

وأخبار السلف في حرصهم على أعمال القلوب وإصلاح السرائر كثيرة ومتنوعة، وبخاصةٍ فيما يتعلق بمحبة الله سبحانه وتعالى والخوف منه وإخلاص العمل له سبحانه؛ ومن ذلك ما ذكره خالد بن صفوان قال: لقيت مسلمة بن عبد الملك فقال: يا خالد أخبرني عن حَسَن أهل البصرة، قلت: أصلحك الله أخبرك عنه بعلم: أنا جاره إلى جنبه وجليسه في مجلسه وأعلم من قِبَلي به: أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبهه قولاً بفعل، إن قعد على أمرٍ قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمرٍ كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيءٍ كان أترك الناس له، رأيته مستغنيا عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه، قال: حسبك! كيف يضل قوم هذا فيهم؟

فإن سألت: ما العلامات التي تعرف بها السريرة الصالحة من الفاسدة؟ فيقال: إن لذلك علامات، منها:

- العناية بأعمال القلوب، ومنها: إخلاص الأعمال والأقوال لله سبحانه وتعالى، ومحاولة إخفائها عن الناس، وكراهة الشهرة والظهور، والزهد في ثناء الناس.

ويضاد ذلك: الرياء، وإرادة الدنيا بعمل الآخرة وحب الظهور.

- الإنابة إلى الدار الآخرة، والتجافي عن الدنيا، والاستعداد للرحيل، وحفظ الوقت وتدارك العمر.

ويضاد ذلك: الركون إلى الدنيا، وامتلاء القلب بهمومها ومتاعها الزائل، ونسيان الآخرة، وقلة ذكر الله تعالى، وتضييع الأوقات.

- سلامة القلب من الحقد والغل والحسد.

ويضاد ذلك: امتلاؤه بهذه الأمراض.

- التسليم لأمر الله وأمر رسوله دون لماذا؟ وكيف؟

ويضاد ذلك: الولوع بالمتشابهات والخواطر الرديئة.

فكل هذه الخصال -وغيرها- تدل على صلاح في السريرة؛ وأضدادها إنما هي من خصال المنافقين الذين فسدت سرائرهم كما صحت بذلك السنة عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلنجتهد -أيها الإخوة- في إصلاح السرائر، حتى إذا ابتليت يوم القيامة نجت من الفضيحة والخزي، والله المستعان.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الخامس والخمسون

﴿ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمن المواقف المهولة التي لا بد أن يقفها الإنسان يوم القيامة، ما ذكره الله تعالى في خواتيم سورة الفجر: ﴿ كَلَّآۚ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفَجْر: ٢١ - ٢٤].

يقول العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معلقاً على هذا المشهد:

يُذكِّر الله سبحانه وتعالى الناس بيوم القيامة إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكا دكا حتى لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، تدك الجبال، فلا بناء، ولا أشجار، تمد الأرض كمد الأديم، ويكون الناس عليها في مكان واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر.

في هذا اليوم ﴿ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾ ولكن قد فات الأوان؛ لأننا في الدنيا في مجال العمل، وفي زمن المهلة فيمكن للإنسان أن يكتسب لمستقرِّه، كما قال مؤمن آل فرعون ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾ [غَافِر: ٣٩]، فهي متاع يتمتع به الإنسان كما يتمتع المسافر بمتاع السفر حتى ينتهي سفره، فهكذا الدنيا، واعتبر ما يستقبل بما مضى.

---

(١) تفسير جزء عم: ٢٠١-٢٠٥، باختصار.

كل ما مضى كأنه ساعةٌ من نهار، كأننا الآن مخلوقون، فكذلك ما يستقبل سوف يمرُّ بنا سريعاً ويمضي بنا سريعاً، وينتهي السفر إلى مكان آخر ليس مستقراً، إلى الأحداث والقبور، ومع هذا فإنها ليست محل استقرار؛ لقول الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التَّكَاثُر: ١ - ٢]، وقد سمع أعرابي رجلاً يقرأ هذه الآية، فقال: والله ما الزائر بمقيم! ولا بد من مفارقة لهذا المكان. وهذا استنباطٌ قويٌّ، وفهمٌ جيد، تؤيده الآيات الكثيرة الصريحة في ذلك.

﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ لم يُذكر الجائي، لكن قد دلَّت السنة أنه يؤتى بالنار تقاد بسبعين ألف زمام، كل زمامٍ منها يقوده سبعون ألف ملك، وما أدراك ما قوة الملائكة، قوةٌ ليست كقوة البشر، ولا كقوة الجن، بل هي أعظم وأعظم بكثير... وقيادة النار بهذا العدد الكثير دليلٌ على أنها عظيمة.

وهذه النار إذا رأت أهلها من مكان بعيدٍ سمعوا لها تغيُّظاً وزفيراً، وليس زفيرها كزفير المعدات والطائرات، بل هو زفيرٌ تنخلع منه القلوب.... فلهذا أنذرنا الله تعالى منها.

فهذه ثلاثة أمور كلها إنذار: مجيء الرب جلَّ جلاله، صفوف الملائكة، الإتيان بجهنم.

يوميد يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذكرى والمعنى: إذا جاء الله تعالى في يوم القيامة، وجاءت الملائكة صفوفاً صفوفاً، وأحاطوا بالخلق، وحصلت الأهوال والأفزاع، يتذكر الإنسان أنَّه وُعِد بهذا اليوم، وأنه أُعلم به من قِبَل الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأنذروا وخوفوا؛ ولكن من حقَّت عليه كلمة العذاب فإنه لا يؤمن ولو جاءته كل آية، حينئذ يتذكر، لكن يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

يقُولُ ياليتني قدمت لحياتي يتمنى أنه قدَّم لحياته! وما هي حياته؟ أهي حياة الدنيا؟ لا والله! فالحياة الدنيا انتهت وانقضت وليست الحياة الدنيا حياة في الواقع، فهي هموم وأكدار، كل صفوٍ يعقبه كدر، كل عافيةٍ يتبعها مرض، كل اجتماعٍ يعقبه تفرق، أين الآباء؟ أين الإخوان؟ أين الأبناء؟ أين الأزواج؟ هل هذه حياة؟!....

كل إنسان يتذكر أن مآله أحد أمرين: إما الموت، وإما الهرم!

نحن نعرف أناساً كانوا شباباً في عنفوان الشباب، فعمَّروا لكن رجعوا إلى أرذل العمر، يرقُّ لهم الإنسان إذا رآهم في حالة بؤسٍ، حتى وإن كان عندهم من الأموال ما عندهم، وعندهم من الأهل ما عندهم؛ لكنهم في حالة بؤس....

الحياة هي ما بيَّنها الله تعالى في قوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ ﴾ [العَنكَبُوت: ٦٤] أي: لهي الحياة التامة ﴿ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [العَنكَبُوت: ٦٤].

إذاً على الإنسان أن يستعدَّ قبل أن يقول: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾.

اللهم ارزقنا الاستعداد لذلك اليوم العظيم، وارحمنا برحمتك ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، يا رب العالمين.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس السادس والخمسون

﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده؛ أما بعد:

فقد ذكر الماوردي في (أدب الدنيا والدين)[2]. أنه مرَّ بعض الزُّهاد برجلٍ قد اجتمع عليه النَّاسُ، فقال: ما هذا؟ قالوا: مسكين، سَرَقَ منه رَجُلٌ جُبَّة..

وَمَرَّ بِهِ آخَرُ فَأَعْطَاهُ جُبَّةً، فقال: صَدَقَ اللهُ: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [اللَّيْل: ٤].

لو نظرت -على سبيل المثال- في أحوال الناس في المطار؛ لرأيت من الناس (سعياً شتَّى)، فكلٌّ يحمل حقيبة سفر؛ لكن المقاصد متفرقة، فهذا مسافر لأداء العمرة، وهذا في رحلة علاجٍ طبي، وذاك لتجارة يخشى كسادها، ورابع للنزهة، وخامس للدراسة، وسادس للتقديم على وظيفة، وسابع لزيارة أقاربه، وثامن لحضور بطولة رياضية، وتاسع بلا هدف فاصل، وعاشر الهدف سافل!

تعدَّدت الأغراض، وتنوَّعت المقاصد، واختلفت الغايات، وكلهم مسافر! وصَدَقَ اللهُ: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾.

لو تأمَّلت هذه الآية الفذة التي بلغت الغاية إيجازاً وصدقاً لرأيت كيف أنها في غاية المناسبة حينما وقعت جواباً لأقسام ثلاثة أقسم بها ربُّ العزة في مطلع سورة الليل.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [اللَّيْل: ١ - ٤].

---

(١) للشيخ مهند بن حسين المعتبي.

(٢) أدب الدنيا والدين: ١٥١.

فقد أقسم بالليل والنهار وهما في غاية التضاد، فالأول أسود معتم، والثاني أبيض مضيء، وليس الليل كالنهار!

ثم أقسم بنفسه: خالق الذكر والأنثى، وهما كذلك متضادان، ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ [آل عِمْرَان: ٣٦].

ثم جاء جواب القسم مجلياً لهذه الحقيقة، وهي الاختلاف الكثير، والتضاد الكبير في أعمال الناس وسعيهم إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشتى فَمِنْ عامل خيراً، ومن عاملٍ شراً! و(شتَّى) جمع شتيت، كـ(مرضى) جمع مريض.

والسعي هنا مطلق العمل لا سعي الأقدام، وما زال النَّاسُ مذ خلقهم ربُّهم وهم على غير قلب رجل واحد، فابنا آدم عليه السلام يقول قابيل لهابيل: ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ [المَائِدَة: ٢٧]، ويرد هابيل: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المَائِدَة: ٢٨] وكان سعيهما شتى!

وما اختلاف سعي الأعمال إلا لاختلاف ما تنطوي عليه القلوب فالقلب يأمر، والجوارح تنفذ، فاختلفت أعمال الناس لاختلاف قلوبهم وما انطوت عليه، ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأَحْزَاب: ٤] وما جعل لرجلين قلباً واحداً!

ومن العجيب أن اختلاف السعي ليس محصوراً في اختلاف مساعي الناس فيما بينهم، بل منه اختلاف حال المرء في نفسه وتشتت سعيه مع مرور الأيام، وتصرُّم الأعوام!

وفي هذه الآية من الإشارات: أن الإنسان عند الله بسعيه، وأن من سعى في الصالحات يُسِّر لليسرى، ومن سعى في السيئات يُسِّر للعسرى، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النَّجْم: ٣٩].

وفيها؛ أن أصل الفلاح وأساسه صلاح القلب وإعماره، فما سعي الإنسان إلا بأمر قلبه النافذ.

وفيها؛ أن أحوال الناس في الخلوة مختلفة كأحوالهم في الجلوة، وهي في الخلوات أكثر اختلافاً، وأعظم تبايناً، فقد يتفق في ساعة رجلان وبينهما حجاب، وكلاهما في عزلة من الناس، ولا يدري أحد عن صاحبه، فهذا فرح بخلوته، مستلذ بمناجاة الله، مسرور بما يقيم عليه، قد نال رضى الله، وذاك فرح بخلوته، مستلذ بمعصية الله، مسرور بما يقيم عليه، قد باء بسخط من الله!

وصدق الله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس السابع والخمسون
شكر النعم في سورتي (الضحى) و(الشرح)[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن شكر الْمُنْعِم على نِعَمِهِ مِنْ أَجَلِّ العُبُودِيَّاتِ وَأَفضَلِ القُرُبَاتِ، وهو أبرز هدايات سورتي (الضحى) و(الشرح)، فقد ذكر الله فيهما عدداً من النعم التي أكرم الله بها رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبيَّن له فيهما وجوب شكر النعم تفصيلاً وإجمالاً على النعم الحسية والمعنوية.

أما النعم المذكورة في سورة الضحى فهي ست:

الأولى: أنَّ الله جلَّ في علاه ما تَرَكَ محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما قلاه، أي: ما أبغضه، وحاشاه عليه الصلاة والسلام، وقد أقسم الله على ذلك بقسمين؛ أولهما الضحى، والثاني الليل إذا سجى، أي غطى الكون بظلامه وسكن.

والثانية: أن الآخرة خيرٌ له من الأولى.

والثالثة: أن الله سوف يعطيه من واسع فضله حتى يرضى، وقد أكَّد الله هذين الوعدين الكريمين بالقسم.

والرابعة: أن الله تعالى آواه حين كان يتيماً، بأن سخَّر له جدَّه عبد المطلب وعمَّه أبا طالب فأحبَّاه وقرباه وأكرماه.

---

(١) للدكتور محمد بن عبد العزيز الخضري.

والخامسة: أن الله تعالى أنزل عليه هذا الوحي ونوَّر قلبه به ولم يكن به عالما فقال ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضُّحَى: ٧].

والسادسة: أن الله تعالى أغناه من فقره، فملأ نفسه غنىً، وجعل الدنيا بين يديه فلم يأخذ منها عليه الصلاة والسلام إلا قدر الكفاف.

وأما النعم المذكورة في سورة الشرح فهي أربع:

الأولى: نعمة شرح الصدر واتساعه لكل خير، وتحمله لكل مقدور، ورضاء بالمصائب، وحبه للمؤمنين، وسلامة صدره مع الخلق أجمعين.

الثانية: نعمة غفران ذُنُوبِهِ ووضع أوزاره حتى لم يبقِ الله من ذنوبه شيئاً متقدماً ولا متأخراً إلا عفا عنه.

والثالثة: نعمة رفع الذكر وعلوِّ الشأن ولسان الصدق بين العالمين، حتى صار ذكر اسمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقروناً باسم الله في كثير من الأحيان، وصار اسمه يجلجل في الآفاق لا ينقطع على مدى الأزمان.

والرابعة: نعمة اليُسر بعد العسر، فما يقع في كربةٍ ولا مشقة إلا جعل الله بعدها اليسر والرحمة واللطف والفضل كرماً منه سبحانه على عبده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل وعلى سائر عباده.

هذه هي جملة من النعم المذكورة في السورتين الكريمتين، وقد فصَّل فيهما وعددهما سبحانه ليبين وجوب شكره في كل نعمة تفصيلاً، وعلى عموم النعم إجمالا.

وقد جاءت السورتان ببيان ذلك على سبيل التفصيل في النعم المحسوسة، فأرشده الله إلى إكرام الأيتام فقال: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ [الضُّحَى: ٩] جزاء على نعمة إيوائه عندما كان يتيماً، وأرشده إلى تعليم الجاهلين وإجابة السائلين برفقٍ ولينٍ فقال: ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضُّحَى: ١٠] جزاء على النعمة المذكورة في قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضُّحَى: ٧]، وأرشده إلى إطعام الفقراء والمساكين وإكرام السائلين بلا أذى ولا نَهَر فقال: وأما السائل فلا تنهر جزاء على النعمة المذكورة في قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضُّحَى: ٨] هذا كله على وجه التفصيل.

وأما الإجمال فقال: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضُّحَى: ١١] أي حدث نفسك بهذا لتزداد تعلقاً بربك، واعترافاً بفضله، وحدِّث الناسَ بِمَا صَنَعَ اللهُ بِكَ ليكون ذلك عنوان شكرك لربك، فإنَّ الشكر كما يكون بالقلب يكون باللسان والجوارح.

ولما ذكر النعم في سورة الشرح قال: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشَّرْح: ٧ - ٨] أي: إذا فرغت من شغلك وما بيدك فانصب في عبادة ربك وارغب إليه، واجعل طمعك فيهما عنده؛ فإن الخير كله بيده، شاكراً لله على ما أولاك من النعم، وما غمرك به من الفضائل؛ فإنَّ شكر النعم هو الذي يُقرها بيدك ويزيدها كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٧].

وبهذا يتبين أن لكل نعمةٍ شكراً عاماً بالحديث عنها والاعتراف بها وتسخيرها في طاعة الله، وشكراً خاصاً يكون من جنسها إذا أمكن ذلك، فإذا أطعمك الله فأطعِم، وإذا علمك فعلِّم، ولا تَبْخَلْ، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الثامن والخمسون
أركان تربية القرآن[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

أنزل الله عز وجل في كتابه المجيد أربع سور من تأمَّلها وقف على أركان تربية القرآن لأهل الإيمان، وجميع هذه السور من أوائل ما نزل باتفاق المفسرين وهي: (اقرأ) فـ(المدثر) ثم (المزمِّل) ثم (القلم)، كما دلَّ على ذلك الترتيب المشهور للسور عن جابر بن زيد تلميذ ابن عباس رضوان الله عليهم.

وهذه الأركان الأربعة هي:

١ - العلم في سورة (اقرأ).

٢- الدعوة في سورة (المدثر).

٣-العبادة الخفية في (المزمل).

٤- الخلق الجميل في (القلم).

وجْه كون العلم هو الركن الأول أن من عادة القرآن ألا يقدم عليه غيره، فأول أمر في القرآن إنما هو بالعلم (اقرأ)، وأول قَسَم في القرآن جاء بأداة العلم والقلم، وحين أُمر بالعلم والعمل معاً قُدِّم العلم ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [مُحَمَّد: ١٩].

(١) د. عصام بن صالح العويد.

ورأس هذا العلم هو العلم بالله ثم بموعوده ثم بأحكامه، ولله در ابن القيم حين قال:

والعلـم أقسـام ثـلاث مـا لهـا ... مـن رابـع والحـق ذو تبيان
علـمٌ بأوصـاف الإلـه وفعلـه ... وكذلـك الأسـماء للرحمـن
والأمـر والنهـي الـذي هـو دينه ... وجـزاؤه يـوم المعـاد الثاني

وقد بدأت السورة بالعلم بقدرة الله ﴿ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العَلَق: ١]، ثم ثنَّت بالعلم بموعوده: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ [العَلَق: ٨]، ثم ثلثت بأمره ونهيه: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ [العَلَق: ٩ - ١٠] إلى قوله: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ [العَلَق: ١٩]، وهذا كله مما ينبه على عظيم العلاقة بين العلم والصلاة.

فإن قلت: ما الوسيلة إلى تحقيق هذا العلم في النفوس؟

فالجواب: أن السورة نبَّهت إلى الوسيلة العظمى لمعرفة العبد الصغير بربه العظيم سبحانه وهي (القراءة)، وكررت الأمر أقرأ مرتين، منبهةً إلى نوعين من القراءة:

أما الأول: فهو قراءة وحيه الذي خصَّه به. وهذه القراءة لن تنفع صاحبها نفعاً تاماً حتى تكون ملتصقة بـ(اسم الله) مستمدة العون منه، ومستحضرة نعمة (الرب الأكرم) الذي علمها هذا العلم الأعظم.

وأما الثاني: فهو قراءة كونه الذي دلَّ عليه، وهذا نبهت السورة عليه من مطلعها وكررت التذكير به ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العَلَق: ٢] وأيضاً ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ [العَلَق: ٤]. فمن أراد معرفة الله فلا غنى له عن الولوج من هذين البابين العظيمين.

وأما العوائق والعوالق التي تحول دون بلوغه: فقد نبَّهت السورة على أشدها نكالاً، وهما جنسان من الجهل:

أحدهما: جهل الإنسان بحقيقة نفسه، فلا يعرف قدرها ويجهل فقرها، مع وضوح دلائله ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العَلَق: ٦ - ٧]. وهذا الجهل بالنفس لا يكون عادة في طرفي الحياة وإنما في حال الفتوة والقوة، فذكره الله بحال البدء وهو الخلق من العلق، والانتهاء الذي تصير إليه الرجعى.

ثانيهما: جاهلٌ يريد أن يصدَّ الإنسان عن العلم الذي فيه نجاته، أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى، والصلاة رأس العمل الذي يُورثه أزكى العلم. وكل إعراضٍ من هذا الإنسان إنما سببه نقص العلم بالله وصفاته.

- وأما قياس: هل حققنا هذا الركن في حياتنا أم لا؟

فقد قال الله عز وجل في ختامها ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ ﴾ [العَلَق: ١٩] أي لا تطع هذا الجاهل، واسجد واقترب فمن أراد أمارة العلم النافع فهي في زيادة المعرفة بالله التي تورث التذلل بين يديه بالسجود وأسجد، ومحبة القرب منه وأقترب. فمن لم يورثه العلم ذلك فليس بعالم، ولذا روى أبو نعيم في (الحلية) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية[1]. فأخذها منه مجاهد والنخعي والحسن والثوري والفضيل وأحمد وغيرهم فقالوا: إنما العلم الخشية، بل عقد الدارمي في سننه باباً أسماه: باب من قال: العلم الخشية[2].

رزقنا الله جميعاً العلم الحق باطناً وظاهراً، وجعل هذه السور العظام حجة لنا لا علينا.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) حلية الأولياء: ١/ ١٣١.

(٢) سنن الدارمي: ١/ ٣٣٣.

المجلس التاسع والخمسون

من هدايات قوله تعالى:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزَّلْزَلَة: ٧ - ٨]، هكذا تأتي هاتان الآيتان لتقرران قاعدة قرآنية، وكلمة جامعة، تمثل أصلاً من أصول العدل، والجزاء والحساب[2].

وهاتان الآيتان ختمت بهما سورة الزلزلة التي تتحدث عن شيءٍ من أهوال ذلك اليوم الذي تشيب لهوله الولدان، فقال: ليروا أَعْمَلَهُمْ) ثم فرَّع على ذلك فقال: فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يره ليتيقن المحسنون بكمال رحمته، والمسيئون بكمال عدله سبحانه وتعالى!

وعلى هذا الفهم سار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في فهمهم الذي تعلموه من النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن ذلك:

أن عائشة جاءها سائلٌ فسأل، فأمرتْ له بتمرة، فقال لها قائلٌ: يا أم المؤمنين إنكم لتصدقون بالتمرة؟! قالت نعم والله، إن الخلق كثير ولا يشبعه إلا الله، أوليس فيها مثاقيل ذرٍّ كثيرة؟!

---

(١) د. عمر بن عبد الله المقبل.

(٢) ينظر: القواعد الحسان للسعدي: ١٤١، التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٣٦، حيث قال: وهذه الآية معدودة من جوامع الكلم.

وروي أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أتاه مسكين -وفي يده عنقود من عنب- فناوله منه حبة وقال: فيه مثاقيل ذرٍّ كثيرة[1].

وإذا كان هذا المعنى في باب احتساب النفقة، فثمَّة معنىً آخر يتفطن له أرباب القلوب الحية، وهو الخوف من تبعة السيئات، كما قال الحارث بن سويد لما قرأ: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ [الزَّلْزَلَة: ١] حتى بلغ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ [الزَّلْزَلَة: ٧] قال: إن هذا الإحصاء شديد[2].

وفي السنة الصحيحة ما يبين بجلاء معنى هذه القاعدة العظيمة: فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يره ومن ذلك:

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بينما كلب يطيف بركيَّة -بئر- قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها -خفها- فاستقت له به، فسقته إياه فغفر لها به**»[3]، وأخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -في الحديث المتفق عليه- عن امرأة دخلت النار في هرة، ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت هزلاً[4].

علَّق الإمام الزهري -بعد روايته لحديث الهرة- فقال: (ذلك لئلا يتَّكل رجل، ولا ييأس رجل)[5]، فتلك المرأة التي لم يذكرها النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنها عابدة! أو صائمة بل لم يذكرها إلا بالبغاء، ومع هذا فقد نفعها هذا العمل! وأي عمل هو؟ إنه سقي حيوان من أنجس الحيوانات (الكلب)! ولكن الرب الرحيم الكريم لا تضيع عنده حسنة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النِّسَاء: ٤٠].

---

(١) ينظر في هذه الآثار: الدر المنثور: ١٥/ ٥٩٣.

(٢) الدر المنثور: ١٥/ ٥٩١.

(٣) مسلم (٢٢٤٥).

(٤) البخاري (٣١٤٠)، مسلم (٢٦١٩) واللفظ له.

(٥) شرح النووي على مسلم: ١٧/ ٧٢.

وفي الحديث الثاني: لم يذكر النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبباً لأدخلها النار غير حبسها لحيوان صغير لا يؤبه له!

كل هذا ليتحقق المؤمن معنى هذه القاعدة المحكمة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزَّلْزَلَة: ٧ - ٨].

ومن توفيق الله لعبده أن لا يحقرن صغيرة من الذنوب مهما كانت صغيرة في عينه؛ لأن الذي عُصي هو الله سبحانه وتعالى، قال بلال بن سعد: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر من عصيت[1]. فمن كان قلبه حياً تأثَّر بأيِّ معصيةٍ كالثوب الأبيض الذي يؤثر فيه أيُّ دنسٍ، وإلا فإن العبد إذا لم يجد للذنوب أثراً -وإن كانت من الصغائر- فليتفقد قلبه، فإنه على شفا خطر!

وأما عدم زهد المؤمن في أي عملٍ صالح -وإن ظنه صغيراً- فلأنه لا يدري ما العمل الذي يدخله الجنة؟! ولهذا لما سأل أبو برزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا نبي الله علمني شيئاً أنتفع به! قال: «**اعزل الأذى عن طريق المسلمين**»[2]، وفي الصحيح: «**أن رجلاً مرَّ بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأنحينَّ هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة**»[3].

فتأمل كم يحتقر كثير من الناس أمثال هذه الأعمال اليسيرة!

كم نمرُّ في يومنا بغصن؟ أو بحجر؟ أو زجاجة منكسرة؟ فربما تكاسلنا عن إزالتها كسلاً في أمثال هذه الأعمال التي هي من أسباب دخول الجنة، وأرشد إليها بعض أصحابه، اللهم ضاعف حسناتنا، وتجاوز عن سيئاتنا.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) الزهد للإمام أحمد: ٣٣٤.

(٢) مسلم (٢٦١٨).

(٣) مسلم (١٩١٤).

المجلس الستون
موعظة من سورة التكاثر[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ... ﴾ [التَّكَاثُر: ١ - ٢]، الآيات.

أيها الإخوة كم مرة قرأنا سورة التكاثر، بل منذ متى ونحن نحفظها؟ هذه السورة التي تحكي حالنا مع أنفسنا ودنيانا.. نتكاثر في كل شيء في الأولاد.. في الزوجات.. في الأرصدة.. في العقارات.. في المتابعين في مواقع التواصل الاجتماعي.. إلى غير ذلك من صور التكاثر.

والتكاثر في ذاته لا يذم من حيث هو، إلا إذا أدى إلى ما حذَّرت منه سورة التكاثر.. فهل وقعنا في المحذور؟ الجواب لا يحتاج إلى كلفة في البحث عنه، فأدنى تأمُّل في واقع الناس يكشف عن الجواب.

لكن ماذا عن أثر نسيان المصير الذي سنقدم عليه؟

يجيب عن هذا الإمام القرطبي: فيقول:

قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه، أن يكثر من ذكر هاذم اللذات ومفرِّق الجماعات، ومُوتِمِ البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين.

(١) تفسير القرطبي – سورة التكاثر: ٢٠/ ١١٧.

فهذه ثلاثة أمور، ينبغي لمن قسا قلبه، ولزمه ذنبه، أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه، فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت، وانجلت به قساوة قلبه فذاك، وإن عظم عليه رانُ قلبِه، واستحكمت فيه دواعي الذنب، فإن مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين، تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول؛ لأن ذكر الموت إخبارٌ للقلب بها إليه المصير، وقائمٌ له مقام التخويف والتحذير.

وفي مشاهدة من احتضر، وزيارة قبر من مات من المسلمين معاينةٌ ومشاهدة، فلذلك كان أبلغ من الأول....

فأما الاعتبار بحال المحتضرين، فغير ممكن في كل الأوقات، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات.

وأما زيارة القبور فوجودها أسرع، والانتفاع بها أليق وأجدر.

فينبغي لمن عزم على الزيارة، أن يتأدَّب بآدابها، ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظُّه منها التطواف على الأجداث فقط، فإن هذه حاله تشاركه فيها بهيمة -ونعوذ بالله من ذلك- بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى، وإصلاح فساد قلبه، أو نفع الميت....

ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر، فجاءه الموت في وقتٍ لم يحتسبه، وهولٍ لم يرتقبه.

فليتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه، ودرج من أقرانه الذين بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال، كيف انقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم، ومحا التراب محاسن وجوههم، وافترقت في القبور أجزاؤهم، وترمَّل من بعدهم نساؤهم، وشمل ذلُّ اليتم أولادهم، واقتسم غيرُهم طريفَهم وتِلادَهم.

وليتذكَّر تردُّدهم في المآرب، وحرصهم على نيل المطالب، وانخداعهم لمواتاة الأسباب، وركونهم إلى الصحة والشباب.

وليعلم أن ميله إلى اللَّهو واللعب كميلهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع، والهلاك السريع، كغفلتهم، وأنه لا بدَّ صائرٌ إلى مصيرهم، وليحضر بقلبه ذكرَ من كان متردداً في أغراضه، وكيف تهدَّمت رجلاه، وكان يتلذذ بالنظر إلى ما خوِّلَه وقد سالت عيناه، ويصول ببلاغة نطقه وقد أكل الدود لسانه، ويضحك لمواتاة دهره وقد أبلى التراب أسنانه، وليتحقق أن حاله كحاله، ومآله كمآله.

وعند هذا التذكُّر والاعتبار تزول عنه جميع الأغيار الدنيوية، ويقبل على الأعمال الأخروية، فيزهد في دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخشع جوارحه". انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الاستعداد للقائه، وأن يجعل خير أعمارنا خواتمها، وخير أيامنا يوم نلقاه فيه.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الحادي والستون
آية الكمال
﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[1]

في هذا المجلس المبارك نتدارس آيةً عظيمة في كتاب الله تعالى، جمعت معاني ومقاصد القرآن كله، وهي قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، ولذلك تسمى آية الكمال، وفي ذلك يقول الشاعر:

فاسجد لهيبة الجلالِ عند التَّدَانِي ... وَلْتَقْرَأَ آيَةَ الكَمالِ سَبْعَ المَثَانِي

ومن تأمل هذه الآية، وجدها عماد السورة، وإليها يرجع مضمونُها كلُّها؛ إذ إنها واردةٌ لغرضٍ عظيم، وهو تقرير استحقاقه تعالى واختصاصه بالعبودية والاستعانة، وقد تواترت أقوال العلماء في فضلها، من ذلك:

قول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: (﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾: هاتان الكلمتان تجمعان معاني الكتب المنزلة من السماء)[2].

وقال ابن كثير: (قال بعض السلف: الفاتحة سرُّ القرآن، وسرُّها هذه الكلمة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾)[3].

وقال ابن القيم: (وسرُّ الخلق والأمر والكتب والشرائع والثواب والعقاب انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد)[4].

---

(١) كتبه: د. محمد بن عبد الله الربيعة.

(٢) دقائق التفسير: ١/ ٢١٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ١/ ١٣٤.

(٤) مدارج السالكين: ١/ ٩٥.

وهذه الآية هي موضوع الرقية وسرُّها في الفاتحة كما قال ابن القيم: (وقد قيل: إن موضع الرقية منها ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، ولا ريب أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء؛ فإن فيهما من عموم التفويض والتوكل والالتجاء والاستعانة والافتقار والطلب، والجمع بين أعلى الغايات، وهي عبادة الرب وحده، وأشرف الوسائل وهي الاستعانة به على عبادته ما ليس في غيرها، ولقد مرَّ بي وقتٌ بمكة سَقِمْتُ فيه وفقدت الطبيب والدواء، فكنت أتعالج بها، آخذ شربةً من ماء زمزم وأقرؤها عليها مراراً، ثم أشربه فوجدت بذلك البُرء التامَّ، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثيرٍ من الأوجاع، فأنتفع بها غاية الانتفاع)[1].

ومن هدايات هذه الآية العظيمة:

أنها جاءت بعد ذكر اتصافه تعالى بصفات الجلال والكمال في الآيات الثلاث الأولى؛ فكان ذلك موجباً لاستحقاقه واختصاصه بالعبادة والاستعانة، وفي ذلك إشارةٌ إلى أن طريق تحقيق كمال عبوديته هو تحقيق معرفته تعالى ومعرفة وجوه كماله؛ وذلك لأنه من كان بالله أعرف كان له أخوف وأتقى.

وقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ولم يقل (نعبدك)؛ (للدلالة على الحصر والاختصاص، وهو أن العبادة لا تكون إلا لله فكأنه قال: لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك)[2].

تخصيص العبادة دون غيرها في السورة في غاية المناسبة؛ وذلك أن السورة جامعةٌ لمعاني ومقاصد القرآن كله، فجاء بلفظ العبودية الجامعة لأنواع العبادة كلها، فتضمَّنت هذه الكلمة جِماع الدين كله.

---

(١) زاد المعاد: ٤/ ١٦٤.

(٢) بدائع التفسير: ١/ ١٧٩.

ذَكَر الاستعانة مع أنها نوعٌ من أنواع العبادة، للدلالة على أنه لا سبيل للعبد لتحقيق عبودية الله إلا بعونه، كما في الحديث: «**اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[1]، وأيضاً فإن تحقيق العبادة سببٌ لكمال المعونة قال ابن القيم: (كلما كان العبد أتمَّ عبودية، كانت الإعانة من الله له أعظم)[2].

جاء ذكر العبادة والاستعانة بلفظ الجماعة (نعبد ونَسْتَعِينُ) ليكون أكمل في الاعتراف وأبلغ في الثناء وأرجى للقَبول والبركة والإجابة.

هذا فيضٌ من غيضٍ من معاني وهدايات هذه الآية العظيمة، نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن تمثَّلها وحقَّق معانيها وكمَّل حقوقها.

(١) أبو داود (١٥٢٢)، أحمد (٢٢١١٩)، النسائي (٩٨٥٧)، الحاكم (٥١٩٤).

(٢) بدائع التفسير: ١/ ١٧٨.

المجلس الثاني والستون
علوم سورة البقرة[1]

إن سورة البقرة من أعظم سور القرآن، وقد ورد في فضلها أحاديث صحيحة، فهلَّا تأملنا في شيء من أسرار تفضيلها؟

لنستمع لكلام إمامٍ تدبَّرها، ولخَّص أبرز موضوعاتها، وهو شيخ الإسلام ابن تيميَّة إذ يقول: "قد اشتملت سورة البقرة على تقرير أصول العلم وقواعد الدين؛ فقد افتتحها الله تعالى بذكر كتابه الهادي للمتقين، فوصف حال أهل الهدى، ثم الكافرين ثم المنافقين، فهذه (جمل خبرية).

ثم ذكر الجمل الطلبية فدعا الناس إلى عبادته وحده.

ثم ذكر الدلائل على ذلك من فرش الأرض، وبناء السماء، وإنزال الماء، وإخراج الثمار رزقاً للعباد، ثم قرر (الرسالة)، وذكر (الوعد والوعيد).

ثم ذكر مبدأ (النبوة والهدى) وما بثَّه في العالم من الخلق والأمر.

ثم ذكر تعليم آدم الأسماء، وإسجاد الملائكة له؛ لما شرفه من العلم.

ثم انتقل إلى خطاب بني إسرائيل وقصة موسى معهم، وضمَّن ذلك تقرير نبوته -إذ هو قرين محمد- فذكر آدم الذي هو أول، وموسى الذي هو نظيره.

وكان في قصة موسى ردٌّ على أهل الكتاب بما تضمَّنه ذلك من الأمر بالإيمان بما جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتقرير نبوته، وذِكْر حال من عدل عن النبوة إلى السِّحر، وذِكْر النَّسخ، والنصارى، وأن الأمَّتين -اليهودية والنصرانية- لن يرضوا عنه حتى يتَّبع ملَّتهم.

---

(١) ملخصاً من كلام شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله، ينظر: مجموع الفتاوى: ١٤/ ٤١-٥٠.

كل هذا في تقرير أصول الدين من الوحدانية والرسالة.

ثم أخذ سبحانه في بيان شرائع الإسلام التي على ملة إبراهيم:

فذكر إبراهيمَ الذي هو إمامٌ، وبناء البيت الذي بتعظيمه يتميز أهل الإسلام عما سواهم، وذكر استقباله وقرر ذلك؛ فإنه شعار الملَّة بين أهلها وغيرهم.

وذكر من المناسك ما يختص بالمكان؛ وذلك أن الحج له مكان وزمان، والعمرة لها مكان فقط، والعكوفَ والركوعَ والسجود شُرِعَ في المسجد الحرام، ولا يتقيد به ولا بمكان ولا بزمان؛ لكن الصلاة تتقيد باستقباله، فذكر سبحانه هذه الأنواع الخمسة من العكوف والصلاة والطواف والعمرة والحج، والطواف يختصُّ بالمكان فقط.

وذكر الصَّبر على المشروع والمقدور، وبيَّن ما أنعم به على هذه الأمة من البشرى للصابرين، فإنها أعطيت ما لم تعط الأمم قبلها، فكان ذلك من خصائصها وشعائرها.

ثم ذكر الحلال والحرام، وأطلق الأمر في المطاعم؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعِثَ بالحنيفية وشعارها وهو البيت، وذكر سماحتها في الأحوال المباحة، وفي الدماء بما شرعه من القصاص، ومن أخذ الدية.

ثم ذكر العبادات المتعلقة بالزمان فذكر الوصية المتعلقة بالموت، ثم الصيام المتعلق برمضان، وما يتصل به من الاعتكاف، ذكره في عبادات المكان وعبادات الزمان، ووسَّطه أولاً بين الطواف والصلاة؛ لأن الطواف يختصُّ بالمسجد الحرام، والصلاة تشرع في جميع الأرض والعكوف بينهما.

ثم أتبع ذلك بالنهي عن أكل الأموال بالباطل، وأخبر أن المحرَّم نوعان: نوعٌ لعينه كالميتة، ونوع لكسبه: كالربا والمغصوب.

ثم ذكر في أثناء عبادات الزمان المنتقلِ الحرام المنتقلَ؛ ولهذا أتبعه بقوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ﴾ [البَقَرَة: ١٨٩] وهي أعلام العبادات الزمنيَّة، وأخبر أنه جعلها مواقيت للناس في أمر دينهم ودنياهم وللحج.

فتدبَّر تناسب القرآن وارتباط بعضه ببعض، وكيف ذكر أحكام الحج فيها في موضعين، مع ذكر بيته وما يتعلق بمكانه، وموضعٌ ذكر فيه الأهلَّة، فذكر ما يتعلق بزمانه.

وذكر أيضاً القتال في المسجد الحرام والمقاصَّة في الشهر الحرام؛ لأن ذلك مما يتعلق بالزمان المتعلق بالمكان؛ ولهذا قرن سبحانه ذكر كون الأهلَّة مواقيت للناس والحج.

ثم ذكر بعد ذلك ما يتعلق بأحكام النكاح والوالدات، وما يتعلق بالأموال والصدقات والربا والديون وغير ذلك، ثم ختمها بالدعاء العظيم المتضمن وضع الآصار والأغلال والعفو والمغفرة والرحمة، وطلب النَّصر على القوم الكافرين الذين هم أعداء ما شرعه من الدين في كتابه المبين.

المجلس الثالث والستون

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾[1]

الصلاة فريضةٌ عظيمةٌ كبيرةٌ كما وصفها الله في قوله: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البَقَرَة: ٤٥]، ولما كانت الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وجب على المسلم أن يعيد حساباته كلها مع هذه الفريضة من الآن، وأن يعيد لها اعتبارها، وأولويتها في حياته كلها.

ونحن اليوم نشهد تهاوناً في أداء الصلاة مع الجماعة؛ مما يستدعي من المربِّين والدعاة الصادقين تكثيف الدعوة والتحذير من التَّهاون في فريضة الصلاة.

إن الصلاة هي أوجب الواجبات بعد الإيمان، وهي أفضل الأعمال وآكدها، وهي أكثر العبادات تكرراً في حياة المسلم، وملازمةً له في اليوم خمس مرات؛ ولذلك جُعلت مقياساً للإيمان، وهي أساس أركان الإسلام؛ ولذلك يمكننا القول: إن من لا صلاة له فلا دين له.

ومما يؤكد مكانة الصلاة في الإسلام أن الكفار وهم يعذَّبون في نار جهنم -والعياذ بالله- عندما سئلوا عن سبب دخولهم النار؟ أجابوا بأنهم لم يكونوا من المصلين، مع كونهم لم يكونوا مسلمين في أصلهم، قال تعالى: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المُدَّثِّر: ٤٢ - ٤٣] وفي هذا إشارة منهم إلى أنه وإن كان الشرك بالله والكفر به هو أعظم الكبائر، فقد تأخر ذكره في الآيات، وقُدِّمَ تضييع الأعمال الصالحة في الدنيا،

(١) كتبه: د. عبد الرحمن بن معاضة الشهري.

وعلى رأسها الصلاة، ولذلك قال هؤلاء الكفار المعذَّبون قولتهم هذه؛ وكأنهم وجدوا أن الذين نجاهم الله من العذاب إنما نَجَوا بسبب صبرهم على الصلاة، وبما تتطلبه من الأعمال، ثم وجدوا أن طائفة من عصاة المسلمين وفجَّارهم قد ألقي بهم معهم في قعر جهنم وعذابها بسبب تهاونهم وتركهم للصلاة، فلم ينجهم إيمان بلا عمل من عذاب الله.

ومما يؤكد أهمية المحافظة على الصلاة: أن الله سبحانه وتعالى لما ذم الإنسان وتوعَّده بما فيه من هلعٍ استثنى طائفةً من الناس جعلهم بمنجاةٍ من عذاب الله، وأوضح العلة التي تسبَّبت في نجاتهم، وهي أنهم كانوا من المصلين المحافظين على صلاتهم والخاشعين فيها، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ٢٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٣٠ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٣١ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٣٢ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المَعَارِج: ١٩ - ٣٤].

إن هذه الأوصاف كلها إنما هي نابعةٌ من كونهم مؤمنين مصلين، فتأمَّل هذا أيها المسلم، وتفكَّر في هذه الصفات التي وصف الله بها عباده المؤمنين؛ حيث إن الصلاة هي التي تصنع فيهم كل هذه الصفات الحميدة ثم تحفظها وتنمِّيها.

والعجيب أن أول وصف وُصفوا به هو أنهم ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴾، وآخر وصف وصفوا به هو ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾، وذلك -والله أعلم- لجعل الأعمال الصالحة كلها مراقبة بميزان الصلاة، وذلك هو الذي يضمن لها البقاء والثبات، فلا صلاح للإنسان بغير صلاة ابتداءً وانتهاءً، وقد قرر الله أن إقامة الدين في الأرض، وما تتطلبه من دعوة وجهاد إنما غايته الأساسية هي إقامة الصلاة، وما يلحقها من أعمال الإسلام. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الحج: ٤١] ووصف أمةَ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكونها صاحبة الشهادة على الناس، وجعل مناط تلك الشهاد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فقال تعالى: ﴿ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨].

ولو شئتُ أن أتلوَ الآيات التي تحدثتْ عن الصلاة في القرآن الكريم لأتيت لكم بالقرآن كله، فماذا بقي للإنسان من دينه إذا هو ضيَّع الصلاة؟

المجلس الرابع والستون

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾[1]

إنها كلمةٌ عظيمة ومن أجلِّ الأذكار التي تقال عند المصائب، ويبشر الله أهلها بالثناء عليهم منه سبحانه وبالرحمة، وحصول الهداية لهم، وذلك بعد ذكره سبحانه لحتمية البلاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البَقَرَة: ١٥٥ - ١٥٧].

فالإنسان حين تقع المصيبة ويشعر بلظى البلاء في قلبه، ربما تساءل: لماذا أصابني البلاء دون غيري؟

فيأتي هذا الذكر القرآني العظيم مبتدأً بهذه الكلمة "إنا"، يردِّده المؤمن فيتقَّن أنه مملوكٌ لله ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾، كما يفيد هذا التقديم حصر الملك له سبحانه؛ بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى الملكية المطلقة.

والإنسان بفطرته لا يلوم صاحب الملك إذا تصرف في ملكه؛ لأنه أولى به وأعلم بشأنه وأحكم في تدبير شؤونه، وهكذا المسلم الصابر حين يردد ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾، يقع في نفسه تفويض أمره إلى ربه ومالكه وخالقه؛ فيستحي أن ينازع الله في ملكه، فيصبر بل ويرضى فيترقي في أعلى مقامات أعمال القلوب (الرضا بالقضاء).

(١) كتبه: سلمان بن عمر السنيدي، مؤلف كتاب: تدبر القرآن.

وكذلك يستشعر المسلم أن سلطانه وجاهه وكل ما يفتخر به، تحت قهر الله وسلطانه وتدبيره، فهو حين يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ بحق تسكن نفسه ببرد الرضا بالقضاء، ويحول بينها وبين التسخُّط عند نزول المصائب، ويمنع عنها الجَزَع عند زوال النعم.

فإذا كنا لله ملكاً وتدبيراً، فليس لنا اعتراضٌ على قدر الله وتدبيره، فهو سبحانه ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عِمْرَان: ٢٦] ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥].

ومن ثمرات تذكر المسلم كونه مُلكاً لله أن يكون طائعاً له سبحانه ملتزماً بأمره، في الشِّدة والرَّخاء، والأمن والخوف، متوجِّهاً لما يحب الله، معرضاً عما يكرهه؛ رجاء ما عنده، وخوف عقابه يوم لقائه.

ومما يؤكد هذا المعنى: ما جاء في آخر هذا الذكر المبارك في قوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾. وعند وقوع المصيبة وحلول البلاء يردد المؤمن أنه راجعٌ إلى الله، فيزداد تعلقه بالله وانقياده له ويتيقن أنه عائدٌ إلى ربه؛ فيخاف من تقصيره ومعاصيه، ويطمع فيما عند الله من ثوابه وعفوه وإحسانه، وما أعدَّه الله للصابرين، ويرجو من الله أن ما فقده، سيعود عليه أجراً وثواباً وتكفيراً وطهوراً -إن صبر واحتسب-، فتنقلب المحنة في حقه منحة.

إن رجوع المؤمن إلى الله في الدار الآخرة فوزٌ وراحة من عناء الدنيا ونكدها، كما ورد أن رسول الله ﷺ مرَّ عليه بجنازة، فقال: «**مستريح ومستراح منه، قالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه؟ فقال: العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا...**»[1].؛ وذلك لما يرى من الروح والريحان والنعيم في الجنان ولقاء الرحمن، ولما يحمله هذا الذكر من المعاني العظيمة؛ كان له فضلٌ عظيم جاء ذكره في الأحاديث التالية:

(١) مسلم (٩٥٠).

عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله:** ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾، **اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها**»، قالت: فلما مات أبو سلمة، قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله، ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد**»[2].

(١) مسلم (٩١٨).

(٢) الترمذي (١٠٢١).

المجلس الخامس والستون
من فقه الأمثال القرآنية[1]

دعا الله تعالى عباده لتدبر الأمثال القرآنية، وأخبر أن من فَقِهَهَا فهو من أهل العلم، فقال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العَنكَبُوت: ٤٣].

من الأمثال القرآنية العجيبة التي توقف عندها العلماء كثيراً قوله تعالى:

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البَقَرَة: ٢٦١].

يقول ابن القيم: مبيِّناً معنى هذا المثل:

فشبه سبحانه نفقة المنفق في سبيله، سواء كان المراد به الجهاد، أو جميع سبل الخير من كل بِرٍّ، بمن بذر بذراً، فأنبتت كل حبة سبع سنابل، اشتملت كل سنبلة على مائة حبة، والله يضاعف بحسب حال المنفق، وإيمانه وإخلاصه، وإحسانه ونفع نفقته، وقدرها ووقوعها موقعها.

فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص، والتثبُّت عند النفقة، وهو إخراج المال بقلبٍ ثابت، قد انشرح صدره بإخراجه، وسمحت به نفسه، وخرج من قلبه قبل خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه غير جَزِعٍ ولا هَلِعٍ، ولا متبعه نفسه ترجف يده وفؤاده.

ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومصارفه بمواقعه.

---

(١) ملخصاً من كلام ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين: ١/ ١٤١.

ويتفاوت بحسب طيب المنفَق وزكائه.

وتحت هذا المثل من الفقه: أنه سبحانه شبه الإنفاق بالبذر، فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره، باذر ماله في أرضٍ زكيَّة، فمَغَلُّه بحسب بذره، وطيب أرضه، وتعاهد البذر بالسقي، ونفي الدغل والنبات الغريب عنه.

فإذا اجتمعت هذه الأمور، ولم تحرق الزرع نارٌ ولا لحقته جائحةٌ؛ جاء أمثال الجبال، وكان مَثَله كمثل حبة بربوة -وهي المكان المرتفع الذي تكون الجنة فيه نصب الشمس والرياح- فتربى الأشجار هناك أتم تربية، فنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر، متتابع، فرواها ونمَّاها، فآتت أُكُلها ضعفي ما يؤتيه غيرها؛ بسبب ذلك الوابل، فإن لم يصبها وابل فطل -وهو مطر صغير القطر- يكفيها لكرم منبتها، يزكو على الظل وينمي عليه، مع أن في ذكر نوعي الوابل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل.

فمن الناس من يكون إنفاقه وابلاً، ومنهم من يكون إتفاقه طلَّاً، والله لا يضيع مثقال ذرة.

فإن عرض لهذا العامل ما يغرق أعماله، ويبطل حسناته، كان بمنزلة رجل له جنة من نخيل وأعناب، تجري من تحتها الأنهار، له فيها من كل الثمرات، وأصابه الكِبَر وله ذريةٌ ضعفاء، فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت، فإذا كان يوم استيفاء الأعمال، وإحراز الأجور، وجد هذا العامل عمله قد أصابه ما أصاب صاحب هذه الجنة، فحَسْرته حينئذٍ أشد من حسرة هذا على جنَّته!

فهذا مَثَلٌ ضربه الله سبحانه في الحسرة لسلب النعمة عند شدة الحاجة إليها، مع عظم قدرها ومنفعتها، والذي ذهبت عنه قد أصابه الكبر والضعف فهو أحوج ما كان إلى نعمته، ومع هذا فله ذرية ضعفاء لا يقدرون على نفعه والقيام بمصالحه، بل هم في عياله، فحاجته إلى نعمته حينئذ أشد ما كانت لضعفه وضعف ذريته، فكيف يكون حال هذا إذا كان له بستان عظيم، فيه من جميع الفواكه والثمر، وسلطانُ ثمره أجلُّ الفواكه وأنفعها، وهو ثمر النخيل والأعناب، فمُغَلَّهُ يقوم بكفايته وكفاية ذريته، فأصبح يوماً وقد وجده محترقاً كله كالصَّريم! فأيُّ حسرةٍ أعظم من حسرته؟ قال ابن عباس: هذا مثل الذي يختم له بالفساد في آخر عمره.

وقال مجاهد: (هذا مثل المفرط في طاعة الله حتى يموت)، وقال السدِّي: (هذا مثل المرائي في نفقته الذي ينفق لغير الله، ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليه).

وسأل عمر بن الخطاب الصحابة يوماً عن هذه الآية، فقالوا: الله أعلم، فغضب عمر، وقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين قال: قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك، قال: ضرب مثلاً لعمل قال: لأي عمل؟ لرجل غني يعمل بالحسنات ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها.

قال الحسن: (هذا مثلٌ قلَّ والله من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا).

المجلس السادس والستون

﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾[1]

من بدائع النَّظم القرآني ورود بعض الجمل القصيرة، والتي يدخل تحتها معان كثيرة جداً.

ومن تلكم الجمل، والقواعد القرآنية العظيمة: قوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ [آل عِمْرَان: ٣٦].

وهذه الآية جاءت في سياق قصة امرأة عمران التي قالت: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عِمْرَان: ٣٥ - ٣٦].

في هذه الآية الكريمة بيان لحكم الله القدري، والذي تفرَّع عنه أحكام شرعية، هي عين الحكمة والرحمة.

فقد راعت الشريعة في هذا الاختلاف طبيعة المرأة من حيث خِلقتها، وتركيبها العقلي والنفسي، وغير ذلك من صور الاختلاف التي لا ينكرها العقلاء والمنصفون من أي دين.

والمتأمل يجد شيئاً من حِكَمِ الله تعالى في التفريق بين الذكر والأنثى في بعض الأحكام الشرعية، ومن ذلك:

---

(١) كتبه: د. عمر بن عبد الله المقبل.

١- **التفريق في الميراث**: فقد اقتضت سنة الله تعالى أن الرجل هو الذي يكدح ويتعب في تحصيل الرزق، ويُطلب منه دفع الميراث، والمشاركة في دفع الدية؛ لذا كان من الحكمة أن يكون ميراثه أكثر، لأن الذكر مترقِّب دوماً للنقص من ماله، بعكس الأنثى فهي دوماً تترقب الزيادة في مالها، فهي التي يُدفع لها المهر، ويُنفق عليها من قبل وليِّها.

٢- **التفريق في الشهادة كما نصَّت عليه آية الدين**؛ لأن المرأة ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها، فلذلك تكون ذاكرتها فيها ضعيفة، بخلاف الأمور المنزلية -التي هي شغلها- فإنها فيها أقوى ذاكرة من الرجل.

ولا ينافي ذلك اشتغال بعض النساء الأجانب في هذا العصر بالأعمال المالية، فإنه قليلٌ لا يعول عليه، والأحكام العامة إنما تناط بالأكثر في الأشياء وبالأصل فيها[1]...

وليس في هذا انتقاص لقدرها، بل هو تنزيه لها عن ترك مهمتها الأساسية في التربية والقرار في البيت، إلى مهمة أقلِّ شأناً وسموَّاً بالنسبة لها، وهي ممارسة التجارة والمعاملات المالية!

كما أن هذا التفريق بين الذكر والأنثى ليس كله للرجل، بل جاءت أحكام تفرق بينهما تفريقاً لصالح المرأة، ومن ذلك: أن الجهاد لا يجب على النساء لطبيعة أجسادهن، فسبحان العليم الحكيم الخبير، الذي حكم بأن الذكر ليس كالأنثى.

(١) ينظر: تفسير المنار: ٣/ ١٠٤.

وبالجملة، فعلى المؤمن أن يحذر من كلمةٍ راجت على ألسنة كثير من الكتَّاب والمثقفين في حديثهم عن قضايا المرأة، فيطلقون كلمة (المساواة) التي لم ترد في القرآن بهذا المعنى الذي يورده أولئك الكتَّاب، والصواب أن يعبَّر عن ذلك بالعدل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النَّحل: ٩٠]، ولم يقل: يأمر بالمساواة، لأن في كلمة المساواة إجمالاً ولبساً بخلاف العدل، فإنها كلمة واضحة بينة صريحة في أن المراد أن يعطى كل ذي حقٍّ حقَّه.

فكلمة (العدل) تقتضي أن يتولى الرجل ما يناسبه من أعمال، وأن تتولى المرأة ما يناسبها من أعمال، بينما كلمة (مساواة) تعني أن يعمل كل من الجنسين في أعمال الآخر!

ومدلول كلمة العدل: أن تعمل المرأة عدداً من الساعات يناسب بدنها وتكوينها الجسمي والنفسي، بينما مقتضى المساواة: أن تعمل المرأة نفس ساعات الرجل، مهما اختلفت طبيعتهما، وهذا كله عين المضادَّة للفطرة التي فطر الله عليها كلًّا من الرجل والمرأة!

ولهذا لما أصرَّت بعض المجتمعات الغربية على هذه المصادمة للفطرة وبدأت تساوي المرأة بالرجل في كل شيء ذاقت ويلاتها ونتائجها المرة، فصرخ عقلاؤهم محذِّرين مجتمعاتهم من الاستمرار في هذه المصادمة، التي يرددها -وللأسف- بعض المنتسبين للإسلام من غير وعيٍ بخطورتها.

المجلس السابع والستون

﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[1]

من الآيات الكريمة التي كانت سبباً في إسلام بعض النصارى المعاصرين قوله تعالى: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٣].

وليتضح وقْع هذه الآية ومعناها؛ فيَحْسُن ذكر الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٢ - ١٦٣]، والمعنى: (أنهم مختلفو المنازل عند الله، فلِمن اتبع رضوان الله الكرامة والثواب الجزيل، ولمن باء بسخطٍ من الله، المهانة والعقاب الأليم)[2].

حدَّثت أخت أمريكية أن سبب إسلامها؛ هو قراءتها لترجمة معنى هذه الآية، فتقول: عرضت نفسي وواقعي على هذه الآية، فوجدت أن حالي وأعمالي لا تستحق إلا سخط الله! فقادني فهم هذا المعنى إلى الإسلام، الذي اطلعت في كتابه المقدس -القرآن الكريم- كيف حثَّ على كل فضيلةٍ، ونهى عن كل رذيلةٍ.

إن في هذه الآية من المعاني التي إذا تدبَّرها القارئ؛ كانت سبباً لتحفيزه إلى المعالي، ومن ذلك:

---

(١) كتبه: د. عمر بن عبد الله المقبل.

(٢) تفسير الطبري: ٧/ ٣٦٧.

أولاً: تمَّ عَرْضُ هذه القضية الكبرى -نيل الرضوان، والتعرض لسخط الله- بصيغة الاستفهام، وما ذاك إلا لغرضٍ بلاغيٍّ، يراد منَّا أن نعيه جيداً؛ وهو أن الاستفهام يستنطق أهل القرآن بالجواب القاطع، وهو وإن لم يُذكر صراحةً، لكنه أشار إليه بقوله: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

ثانياً: دل قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ على أن رضوانه تعالى لا ينال بالتشهِّي، بل لا بد من الاجتهاد في تلمُّس أسبابه؛ فإنه تعالى قال: أَفَمَنِ اتَّبع، وإلا لو كانت المطالب العالية تنال بالأماني، لوصلها كل الخلق، ولكن هيهات هيهات.

(فالمتبعون لرضوان الله يسعَون في نَيل الدرجات العاليات، فيعطيهم الله من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمتبعون لمساخط الله يسعون في النزول في الدركات إلى أسفل سافلين، كل على حسب عمله)[1].

ثالثاً: جاء التعبير بالفعل (باء) في قوله تعالى: ﴿ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾؛ لتمثيل حال صاحب المعاصي بالذي خرج يطلب ما ينفعه فرجع بما يضره، أو رجع بالخيبة والخسران[2].، والعياذ بالله!

ومن تأمل القرآن أدرك أسباب نيل الرضوان، وأسباب التعرض لسخط الجبار، فحريٌّ بالمؤمن أن يتتبعها، وينظر أين موقعه من تلك الأعمال؟ ومنزلته من منازل الرضوان؟

رابعاً: جرت عادة القرآن على أن ما كان من الثواب والرحمة، فإن الله يضيفه إلى نفسه، وما كان من العقاب لا يضيفه إلى نفسه، وهو هنا كذلك، فقد قال تعالى: ﴿ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾، بينما في السخط قال: ﴿ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[3].

---

(١) تفسير السعدي: ١٥٥.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٤/ ١٥٧.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: ٩/ ٤١٦.

خامساً: ما أعظم الإغراء في قوله تعالى: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فقال: عند الله تنويهاً بشرف منازلهم، فيكفي أنها عند الله.

فابحث -يا عبد الله- عن منزلتك عند الله، وابك على ما يقطعك عن هذه الدرجات، أو يؤخرك عن صعودها من المعاصي والبدع.

أما الخلق، فهم كما قال مالك بن دينار: (منذ عرفت الناس لم أفرح بمدحتهم ولم أكره مذمَّتهم قيل: ولم ذاك؟ قال: لأن حامدهم مفرط وذامهم مفرط)[1].

وسبحان من أرى عباده اجتماع هذا المعنى الذي دلت عليه الآية في أسرة واحدة، الزوج عدوٌّ لله، باء بسخط من الله وغضب، وأما الزوجة فقد اتبعت رضوان الله، فارتفعت عند الله درجات.

سادساً: ما أجمل ختم الآية الثانية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾!

فكم تسكب هذه الآية الطمأنينة في قلوب الخلق! لعلمهم بكمال اطلاعه تعالى، فلا تضيع عنده حسنة، ولا تهدر عنده سيئة بدرت منهم.

وفي اختيار الفعل (يعمل) دون (يفعل)، أو (يقول) سرٌّ بديع؛ لأنه يشمل القول والفعل، فالقلب عمله النية، واللسان عمله القول، والأذن عملها الاستماع، والعين عملها النظر، ولا يمكن أن يأتي فعل أنسب -في هذا السياق- من كلمة (يعملون).

(١) ينظر: الزهد الكبير للبيهقي: ص١٠١.

المجلس الثامن والستون

﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾[1]

يقول الله تبارك وتعالى في تعقيبه على قصة غزوة أحد وما تلاها من أحداث بين المسلمين وأعدائهم من الكفار: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ [آل عِمْرَان: ١٧٨] أي: الكفار ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عِمْرَان: ١٧٨].

وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن من أعظم ما يصدُّ عن الهدى، ويقود إلى مهاوي الردى الاغترار بإمهال الله للمسيئين، فمن الناس من يسرف على نفسه بالمعاصي، فإذا نصح عنها، وحذِّر من عاقبتها، قال: ما بالنا نرى أقواماً قد امتلأت فجاج الأرض بمفاسدهم، ومباذلهم، وظلمهم، وقتلهم الأنفس بغير الحق، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وأكلهم الربا وقد نهوا عنه، ومع ذلك نراهم وقد دُرَّت عليهم الأرزاق، وأُنسئت لهم الأجال، وهم يعيشون في رغدٍ ونعيمٍ بعيد المنال؟ ولا ريب أن هذا القول لا يصدر إلا من جاهل بالله، وبسننه سبحانه وتعالى.

ويقال لهذا وأمثاله: رويدك رويدك؛ فالله سبحانه وتعالى يعطي الدنيا من يحب، ومن لا يحب، وهؤلاء المذكورون متبرٌ ما هم فيه، وباطلٌ ما كانوا يعملون، فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم؛ فما الذي هم فيه من النعيم إلا استدراجٌ وإمهال، وإملاءٌ من الله حتى إذا أخذهم أخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر[2].

---

(١) كتبه: د. محمد بن إبراهيم الحمد.

(٢) ينظر: أثر الذنوب في هدم الأمم والشعوب للصواف: ص٤٥-٤٧.

قال النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ قوله تعالى:** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هُود: ١٠٢]»[(١)].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا قوله:** ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأَنْعَام: ٤٤ - ٤٥]»[(٢)].

قال ابن الجوزي: (فكل ظالم معاقب في العاجل على ظلمه قبل الآجل، وكذلك كل مذنب ذنباً، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النِّسَاء: ١٢٣]، وربما رأى العاصي سلامة بدنه؛ فظن أن لا عقوبة، وغفلته عما عوقب به عقوبة.

وقد قال بعض الحكماء: المعصية بعد المعصية عقاب المعصية، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة، وربما كان العقاب العاجل معنوياً، كما قال بعض أحبار بني إسرائيل: يا رب! كم أعصيك، ولا تعاقبني! فقيل له: كم أعاقبك وأنت لا تدري؟! أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي؟)[(٣)].

قال ابن الجوزي: (الواجب على العاقل أن يحذر مغبة المعاصي؛ فإن نارها تحت الرماد، وربما تأخرت العقوبة، وربما جاءت مستعجلة)[(٤)].

وقال: (قد تُبغِتُ العقوبات، وقد يؤخِّرها الحلم، والعاقل من إذا فعل خطيئة بادرها بالتوبة، فكم مغرور بإمهال العصاة لم يمهل.

---

(١) البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

(٢) أحمد (١٤٥)، وابن أبي الدنيا في الشكر: ص٣٢، بسند رجاله ثقات.

(٣) صيد الخاطر: ص١٠٤.

(٤) صيد الخاطر: ص٣٣٩.

وأسرع المعاصي عقوبة ما خلا عن لذة تنسي النُّهى، فتكون كالمعاندة والمبارزة، فإن كانت توجب اعتراضاً على الخالق، أو منازعةً له في عظمته فتلك التي لا تتلافى، خصوصاً إذا وقعت من عارف بالله؛ فإنه يندر إهماله)[1].

وقال: (فالحذر الحذر من عواقب الخطايا، والبدار البدار إلى محوها بالإنابة؛ فإن لها تأثيرات قبيحة إن أَسْرَعَتْ، وإلا اجتمعت وجاءت)[2].

يا من غـــدا في الغي والتيه وغـــرَّه طـــول تمـــاديه
أمـــلى لـــك الله فبارزته ولم تخف غِـــبَّ معاصيه[3].

(١) صيد الخاطر: ص٥٠٠.
(٢) صيد الخاطر: ٥٠٢.
(٣) بحر الدموع: ص٣٦.

المجلس التاسع والستون

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾[1]

من الآيات التي وعظ الله بها عباده: قوله سبحانه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٨٥].

وعبَّر هنا بالذوق في قوله: ذَائِقَةُ الموتِ؛ لأنه أبلغ في الحصول؛ لأن الذوق يحصل به حق اليقين.

ودخل في قوله: كل نفس: بنو آدم، والجن، والملائكة، والحيوانات، وكل نفس، كما قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الزُّمَر: ٦٨]، ويستثنى من خُلقوا للبقاء كالولدان والحور الذين في الجنة؛ فإنهم خُلقوا للبقاء فلا يموتون.

وقوله: ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ هذه حصر، يعني: لا توفون أجوركم إلا يوم القيامة، والمراد بالتوفية هنا: توفية الكمال، وإلا فإن الإنسان قد يوفى أجره في الدنيا، ويدَّخر له أيضاً زيادة على ذلك، والكافر أيضاً يوفى أجره في الدنيا، مثل ما عمل من خير فإنه يطعم به في الدنيا، لكن في الآخرة ليس له خلاق.

قوله تعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾، ومعنى زحزح: أي دفع ببطء؛ وذلك لأن النار -أعاذنا الله منها- محفوفةٌ بالشهوات، والشهوات تميل إليها النفوس، فلا يكاد الإنسان ينصرف عن هذه الشهوات إلا بزحزحة؛ لأنه يُقبل عليها

(١) للعلامة ابن عثيمين، ملخصاً من تفسيره للآية في سورة آل عمران: ٢/ ٥١١.

بقوة، لهذا قال: ﴿زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ أي: دفع عنها بمشقة وشدة، ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾؛ لأنه نجا من المرهوب وحصل على المطلوب.

وقد أفادت الآية الكريمة أن الفوز لا يكمل إلا بأمرين: أن يزحزح الإنسان عن النار، وأن يدخل الجنة، ومعلوم أن من زُحزح عن النار فلا بد أن يُدخل الجنة؛ لأنه ليس في الآخرة إلا داران فقط: إما النار وإما الجنة.

وقد بيَّن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح ما يحصل به هذا الثواب العظيم من الزحزحة عن النار وإدخال الجنة، فقال: «**من أحبَّ أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيَّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه**»[1]..، فذَكَر حقَّ الله وحقَّ العباد، فمن وجد من نفسه هذين الوصفين: الإيمان بالله واليوم الآخر، وأنه يأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه؛ فليبشر بهذا.

وقد وصفت الدنيا بهذا لوجهين: الأول: لدنوِّها زمناً، والوجه الثاني: لدنوِّها قدراً. أما دنوها زمناً فظاهرٌ؛ لأنها قبل الآخرة، وأما دنوها قدراً فقد قال النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[2]... وموضع السوط لعله يقارب المتر! «**خير من الدنيا وما فيها**» ليست دنياك التي أنت فيها، وليست دنياك الخاصة بك أنت، بل الدنيا من أولها إلى آخرها.

وقوله: ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ أي: إلا متعة تغر صاحبها وتخدعه، وكم من أناس زُيِّنت لهم الدنيا فانخدعوا بها، وكان مآلهم إلى وادٍ سحيق -والعياذ بالله-.

---

(١) مسلم (١٨٤٤).

(٢) البخاري (٢٨٩٢).

فعلى العبد الحذر من مغبتها وغرورها، ولهذا ثبت عن النَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسها مَن قبلكم، فتهلككم كما أهلكتهم**»[1].، وصدق الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فإن هذا هو الخوف، وانظروا الآن لما فتحت الدنيا على الناس حصل الهلاك، بل حتى الذين لم تفتح عليهم إذا سمعوا من فتحت عليهم هلكوا.

وعلى المؤمن أيضاً أن يبادر للعمل الصالح؛ لأنه إذا كان ميتاً -ولا محالة- وهو لا يدري متى يموت؛ فإن العقل كالشرع يقتضي أن يبادر ولا سيما في قضاء الواجبات والتخلي عن المظالم، فلا تُهْمِل ولا تُؤَخِّر، فإن التأخير له آفات، كثيراً ما يقول الإنسان: أنا سأفعل هذا غداً ولكن يتهاون، ثم يأتي غد وما بعده، ويضيع عليه الوقت.

(١) البخاري (٤٠١٥).

المجلس السبعون
جنات وظلال لأهل الإيمان(١)

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴾ [النِّسَاء: ٥٧].

هذه الآية الكريمة جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ [النِّسَاء: ٥٦] وهذه طريقة القرآن؛ فإنه مثاني: تثنَّى فيه المعاني، فإذا ذُكر فيه أهل النار ذُكِرَ فيه أهل الجنة، وإذا ذكر الحق ذُكِرَ الباطل، وهكذا.

وقدَّم الله الإيمان على العمل الصالح في قوله: وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصلحت ؛ لأن العمل الصالح مبنيٌّ على الإيمان، فعملٌ بلا إيمان لا فائدة منه، فالمنافقون يعملون، ويذكرون الله، ويصلون، ويتصدقون، ولكن ليس عندهم إيمان فلا ينفعهم.

والأعمال الصالحة هي التي جمعت الإخلاص لله والمتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله: سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّتٍ بينما قال في أهل النار -في الآية التي قبلها-: سوف نصليهم فما الحكمة من ذلك؟

والجواب: أن أهل النار يفسح لهم لعلهم يتوبون إلى الله فيرجعون، وحينئذ لا يكونون من أهل النار، أما أهل الجنة فإنهم يدخلون الجنة، ولكن ليس المقصود جنة الآخرة فحسب، لكن يدخلون جنة الدنيا قبل جنة الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ ﴾ [النَّحل: ٩٧].

(١) كتبه العلامة ابن عثيمين رحمه الله، ملخصاً من تفسير لهذه الآية في سورة النساء.

والمراد بالجنات في قوله: ﴿ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ ﴾: ما أعده الله في الدار الآخرة لهؤلاء المؤمنين، ولا يحسن هنا أن نقول: الجنات: جمع جنة وهي البستان الكثير الأشجار؛ لأن هذا ينقص من شأن الجنة، إذ لا ينصرف إلا إلى بساتيننا في الدنيا، وهي مرة تيبس، ومرة تخضرُّ، ومرة تصيبها الرياح، ومرة تستقيم، لكن إذا قلت: الجنات جمع جنة: وهي الدار التي أعدها الله سبحانه للمتقين، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ حينئذ يبتهج القلب ويسرُّ.

وقوله: تجري من تحتها الأنهر أي تحت أشجارها وقصورها، أنهار مطردة تحت الأشجار وتحت القصور، فهي من تحتها، وهذه الأنهار جاءت مفسَّرة في قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ ﴾ [مُحَمَّد: ١٥].

قوله: خالدين فيها فهو خلود أبديٌّ لا منتهى له.

قوله: لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ أي: للذين آمنوا وعملوا الصالحات أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ أزواج: جمع زوج، وهي الأنثى، وقد دلت السنة على أن الواحد له أزواج متعددة، سواء من أهل الدنيا أو ممن خلق الله في الجنة وهنَّ الحور.

وقوله: مُطَهَّرَةٌ طهارة حسية من البول والغائط، والحيض، والعرق، والرائحة المنتنة وغير ذلك من كل ما يستحب إزالته والتنزه عنه فهي مطهرة منه.

ومطهرة أيضاً طهارة معنوية، فهي خاليةٌ من كل خُلُق سيء، لا غضب ولا تكرُّب للزوج، ولا عصيان، ولا اكفهرار في وجهه.

ولو اعترضت النساء وقلن: الرجال لهم أزواج مطهرة فما بالنا نحن؟ فنقول لهن: أنتن لكن أزواج مطهرون، فالله طيب لا يقبل إلا طيباً، ولا يكون جاره إلا الطيِّب، وأنتن في الآخرة كل واحدة منكنَّ لا تريد إلا زوجها، كما قال: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ ﴾ [الرَّحۡمَٰن: ٥٦]، ولكن لما كان الزوج هو الطالب غالباً صار هو الذي يقال له: لك زوجة فيها كذا وفيها كذا، أما الزوجة فلا تكون طالبة إلا نادراً.

قوله تعالى: وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلاً الظل: هو ما لم تحلُّه الشمس، سواء كان فيئاً أم ظلاً من أول النهار، وأما الظليل فهو الذي تحصل به فائدة الاستظلال؛ لأن من الظل ما ليس بظليل، فلو جلست تحت ظل جدار في أيام الصيف فأنت في ظل، لكنه ليس بظليل؛ لأن لفح الحر يأتيك، لكن الجنة ظلٌّ ظليل.

وجملة الآية فيها الحث على الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله سبحانه إنما ساق بيان نعيمهم حثاً على أن نعمل العمل الموصل إلى ذلك، نسأل الله بمنِّه وكرمه أن يوفقنا لعمل الصالحات، والتوبة قبل الممات.

المجلس الحادي والسبعون

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[1]

هل سألنا أنفسنا -أثناء عباداتنا- عن مدى فهمنا لحقيقة العبادة وهل صدرت عن محبةٍ لله تعالى؟

والأهم من ذلك هل الله رضي منا هذه العبادة وأحبنا؟ وما السبيل لمعرفة ذلك؟

إن عبادة الله سبحانه وتعالى مبنيةٌ على محبته، وعبادة بلا محبة كجسد بلا روح؛ ولهذا نجد المشركين حين أحبوا آلهتهم أوصلتهم هذه المحبة إلى أن عبدوها من دون الله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥] قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن اتخاذ أندادٍ من الخلق يحبهم كحبِّ الله، ويقدِّم طاعتهم على طاعة الله، ويلهج بذكرهم ودعائهم، هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله)[2].

قال ابن تيميَّة: (فالعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته، وكمال الذل ونهايته، فالمحبوب الذي لا يعظَّم ولا يُذلُّ له لا يكون معبوداً، والمعظَّم الذي لا يُحَبُّ لا يكون معبوداً)[3].

وحقيقة ذلك أن يقوم في القلب من محبة الله، وتعظيمه والذلِّ له، ما يقتضي الامتثال لأمره، وكمال طاعته، وإيثاره على غيره.

---

(١) كتبه: د. أسماء بنت راشد الرويشد.

(٢) القول السديد: ص١١٧.

(٣) الجواب الكافي: ص٢١١.

فإذا أراد العبد أن يحصِّل تلك المحبة، ويترقَّى في درجاتها؛ فعليه بالدليل على صدق محبته من خلال العمل بطاعة الله، وذاك هو الطريق الموصل إلى منزلة محبة الله له، إذ لا يمكن للعبد أن يصل إلى منزلة محبوبية الله تعالى، حتى يؤدي براهين محبته لربه، ويقدم دلائل طاعته.

ولكل من المنزلتين -نعني المحبة والمحبوبية- درجات وعلامات تكون بحسب قيام العبد بحق ربه، وصدقه، واجتهاده.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المَائِدَة: ٥٤].

يحبهم ويحبونه: خبرٌ تهشُّ له نفس المؤمن ويشتاق له قلب التقي.

وليس العجيب أن يحب العبدُ ربه وهو الذي أوجده وتفضل عليه، ولكن العجيب هو أن يحب اللهُ عبده الفقير إليه!

وما أجمل المقابلة يحبهم وَيُحِبُّونَه، فهل حبٌّ بحبٍّ أزكى من حبِّ الربِّ للعبد؟!

إنها لأشرف المنازل وأسنى المطالب فيها يتنافس المتنافسون، ولأجلها يعمل العاملون.

والمحب الصادق، محبوباته كلها تبعاً لما يحبُّ ربه، فهو لا يحب إلا له وفيه، ولا تستقيم المحبة إلا بذلك؛ ولهذا كان رأس الإيمان الحبُّ في الله والبغض في الله، وكما جاء في الحديث فإن: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[1].

(١) سنن أبي داود (٤٦٨١)، الترمذي (٨٥)، والحاكم (١٦٤).

وهناك دلائل يجدها المحبُّ في قلبه وعمله، يقول الربيع بن أنس: (علامة حب الله كثرة ذكره، فإنك لا تحب شيئاً إلا إذا أكثرت من ذكره)[١].

ويقول ابن مسعود: (لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله)[٢].

وأما الميزان الذي يُعرَف به المحبُّ الصادق من المدعي، هو ما جاء في (آية الامتحان): ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عِمْرَان: ٣١].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: (هذه الآية حاكمةٌ على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية؛ فإنه كاذبٌ في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمديَّ والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله)[٣].

وعلى ذلك فمن دلائل حب العبد لربه تقديم ما يحبُّه الله ورسوله على ما تحبُّه نفسه، ويتبين ذلك عند تعارض محابِّ النفس والهوى مع أمر الله ونهيه، فإن كان الحب قوياً صادقاً، فلن يتردد في مخالفة هواه تبعاً لمرضاة الله.

(١) المخلاة، بهاء الدين العاملي: ص٤٥.

(٢) المعجم الكبير للطبراني (٨٦٥٨)، ومجمع الزوائد للهيثمي (١٦٨).

(٣) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٧٧.

المجلس الثاني والسبعون

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[1]

قال ابن كثير: (الآية عظيمة العموم والشمول)[2].

رحمة الله العامة تغمر كل الخلائق، كل العوالم، كل الأشياء.. آثار رحمة الله في كل الوجوه، والأجناس، والأعراق.. تفحَّص آثار هذه الرحمة في كل مخلوق تراه، وكل بشر تشاهده.

راقب الرحمة في إشراق الشمس، وبزوغ القمر، وتدفُّق النهر، ونمو الحبَّة، وتفتُّح الزهرة، في إقبال الليل، في رحيل الظلام.

تحسَّس الرحمة في كل نبضةٍ تخفق في قلبك، وكل قطرة دمٍ تمشي في شراييناك، وفي كل خليةٍ من مليارات الخلايا تعمل في جسدك.

استنشق الإيمان بهذه الرحمة مع الهواء اللطيف يسري في رئتيك، ومع قطرات الماء البارد في فمك، تحسَّسها مع خطو القدم، تحسسها في أرضٍ تحملك، وسماءٍ تظلُّك، وطريق يهديك، تحسسها في بسمتك وفي دمعتك وفي فرحتك وفي ألمك.

استقبلها في ركضة طفل، وحضن أم، وعناق أب.

الرحمة معك تلفُّ حياتك، تحيط بك، وتغمرك، تستوعبك، وتذهب في كل تفاصيل جسدك، وومضات حياتك.

---

(١) كتبه: د. عبد الله بن بلقاسم.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٨١.

اقرأ رحمة الله بك في وجوهٍ تبسَّمت لك، ونفوسٍ أحبتك، وخَلْقٍ ساعدوك.

تذوَّقها مع لقمةٍ سيقت إليك، وثوبٍ نسج من أجلك، ومركبٍ عبر البحار إليك.

دقِّق في آثارها في يديك وجلدك، انظر إليها في أناملك، انظر في عينك بعينك، بل اقرأها في وجعك، وفقرك، وتعبك، وغربتك، وعجزك، ستجدها معك تلاحقك، تختلط مع دموعك، وتمتزج بحزنك.

فتِّش صفحات حياتك، اقرأ سطور الرحمة التي كتبت بها تفاصيل سيرتك، اقرأ قصتك في أحشاء أمك، في ظلام حزنك، استمع لصوتٍ يواسيك في داخلك، يهتف بك في أعماقك، يخفِّض وجعك.

ولا تنس في زحام الرحمات وذكرياتها، أن تلتفت بكل مشاعرك وعقلك وحسِّك نحو الرحمة العظمى، التي أعطاك ربك وهداك لها: (القرآن العظيم) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يُونُس: ٥٧]، ثم ارحل في الرحمات مع آياته.

اهتف في داخلك بقول ربك: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأَعْرَاف: ١٥٦].

تلذذ بها في حياتك، اعبر بها مآسيك وذكرياتك، املأ بها قلبك، بدِّد بها مخاوفك، امض بها إلى مستقبلك، اصطحب اليقين بها في كل حياتك.

وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَى، كل شيء، في كل وقت، كل لحظة حزن، كل ومضة ألم، كل خاطرة خوف، وسعتْه، أحاطتْ به، غمرتْه، لفَّته، تخلَّلته.

وسعتك أنت، وسعت أطفالك وأحباءك، وسعت ماضيك، وحاضرك ومستقبلك، وسعتك في بيتك وعملك، وسفرك، وحضرك، وحربك، وسِلمك، ورزقك، ومرضك.

تحسسها في دموعك عند فراق الأحبة، تحسسها في خفق قلبك عندما يشتكي ابنك، تحسسها في لوعتك بحزن أمك، تأملها في الطير يضع الحبة في جوف صغاره، وفي أم الغزال تستبسل في وجه الأسد تحميه.

كل هذا من رحمة واحدة مخلوقة من مائة رحمة، من آثار الرحمة الكبرى التي هي صفته جلَّ جلاله.

فيا ليت شعري كيف يقنط القانطون، وينقطع اليائسون؟ وربهم يقول لهم: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾...

في كل وقت وحين، أيقظ بهذه الآية التوبة في قلبك، وحرِّك بها محبة الله في جنانك، غيِّر بها حياتك.

اشعر بهذه الرحمة الواسعة تحفُّك وتحويك، تعرَّض لها في مواطن الرحمة.

اقترب من الرحمة الخاصة التي جعلها الله للمحسنين ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

المجلس الثالث والسبعون

﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ﴾[1]

يقول الله تعالى في قصة نبيه شعيب عليه السلام: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هُود: ٩١].

فبيَّن تعالى في هذه الآية أن نبيه شعيباً -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- منعه الله من الكفار، وأعز جانبه بسبب العواطف العصبية، والأواصر النَّسَبية من قومه الذين هم كفار، وهو دليل على أن المتمسك بدينه قد يعينه الله، ويعزه بنصرة قريبه الكافر، كما بينه تعالى في مواضع آخر، كقوله تعالى: في صالح وقومه: ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [النَّمل: ٤٩].

ففي الآية دليل على أنهم لا قدرة لهم على أن يفعلوا السوء بصالح -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- إلا في حال الخفاء، وأنهم لو فعلوا به ذلك خفاء وسرقة لكانوا يحلفون لأوليائه -الذين هم عُصبته- أنهم ما فعلوا به سوءاً، ولا شهدوا ذلك ولا حضروه خوفاً من عُصْبَتِهِ، فهو عزيز الجانب بسبب عصبته الكفار.

وقد قال تعالى: لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ [الضُّحَى: ٦]، أي: آواك بأن ضمَّك إلى عمك أبي طالب؛ وذلك بسبب العواطف العصبية والأواصر النَّسَبية، ولا صلة له بالدين البتة، فكونه يمتنُّ على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإيواء أبي طالب له؛ دليل على أن الله قد ينعم على المتمسك بدينه بنصرة قريبه الكافر.

---

(١) كتبه: العلامة الشنقيطي رحمه الله، ينظر: أضواء البيان: ٢/ ١٩٨-٢٠٠. ملخصاً.

ولهذا لما كان نبي الله لوط -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- ليس له عصبة في قومه الذين أرسل إليهم؛ ظهر فيه أثر عدم العصبة، بدليل قوله تعالى: عنه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هُود: ٨٠].

ولما ناصر بنو المطلب بن عبد مناف بني هاشم، ولم يناصرهم بنو عبد شمس بن عبد مناف، وبنو نوفل بن عبد مناف عرف النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبني المطلب تلك المناصرة التي هي عصبية نَسَبية لا صلة لها بالدين، فأعطاهم من خمس الغنيمة مع بني هاشم، وقال: «**إنا وبني المطلب لم نفترق في جاهلية ولا إسلام**»(١)، ومنع بني عبد شمس، وبني نوفل من خمس الغنيمة، مع أن الجميع أولاد عبد مناف بن قصي.

فهذه الآيات القرآنية تدل على أن الله قد يعين المؤمن بالكافر لتعصبه له، وربما كان لذلك أثرٌ حسنٌ على الإسلام والمسلمين، وقد يكون من منن الله على بعض أنبيائه المرسلين -صلوات الله وسلامه عليهم-، وفي الصحيح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»(٢)، وفي المثل: (اجتنِ الثمار وألقِ الخشبة في النار).

فإذا عرفت دلالة القرآن على أن المسلم قد ينتفع برابطة نسب وعصبية من كافر، فاعلم أن النداء بالروابط العصبية لا يجوز؛ لإجماع المسلمين على أن المسلم لا يجوز له الدعاء بـ (يا لبني فلان) ونحوها..

وقد ثبت في البخاري من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في تلك الدعوة: «**دعوها فإنها منتنة**»(٣)، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دعوها**» يدل على وجوب تركها، ويؤكد ذلك تعليله الأمر بتركها بأنها منتنة.

---

(١) سنن أبي داود (٢٩٨٠)، النسائي (٤١٣٧)، وأصله في البخاري (٣١٤٠) بلفظ: (إنما بنو المطلب، وبنو هاشم شيء واحد).

(٢) البخاري (٣٠٦٢)، مسلم (١١١).

(٣) البخاري (٤٩٠٥)، مسلم (٢٥٤٨).

وما صرح النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأمر بتركه وأنه منتنٌ لا يجوز لأحد تعاطيه، وإنما الواجب على المسلمين النداء برابطة الإسلام التي هي من شدة قوتها تجعل المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد إنسانٍ واحدٍ، فهي تربطك بأخيك المسلم كربط أعضائك بعضها ببعض، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[1].

وإذا تأملت قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المُجَادلَة: ٢٢] تحققتَ أن الروابط النسبية تتلاشى مع الروابط الإسلامية، ولا يخفى أن أسلافنا معاشر المسلمين إنما فتحوا البلاد ومصَّروا الأمصار بالرابطة الإسلامية، لا بروابط عصبية، ولا بأواصر نسبية.

❁ ❁ ❁

(١) البخاري (٦٠١١)، مسلم (٢٥٨٦).

المجلس الرابع والسبعون

﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا ﴾[1]

غالباً ما نسمع عن حوادث تقع لأناس، وكل المؤشرات تدل على هلاكهم، لكن الله سبحانه وتعالى يحفظهم وينجِّيهم منها، لماذا؟

دعونا نتأمل قول الله تعالى: ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يُوسُف: ٦٤]، وهي آية كريمة قالها يعقوب عليه السلام، عندما طلب منه أبناؤه أن يرسل معهم أخاهم بنيامين، لعلهم يظفرون ببغيتهم من الطعام لدى عزيز مصر.

ونلحظ هنا ختم هذه الآية بقوله: ﴿ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فهي تشير إلى أن حالة الضعف التي تكتنف قلب العبد عند الدعاء، لها أثر في استجابة العبد؛ فإن يعقوب عليه السلام أشار بهذا، فكأنه يقول: (هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يردَّه علي، ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين)[2].

وهذا كله يؤكد في نفوسنا معنى اسمه تعالى: الحافظ، وكذلك الحفيظ، فهما دالان على أن الله يحفظ عباده، وفي ضمن هذا حق للمؤمنين على المزيد من العناية والرعاية.

ولما كانت الملائكة من جند الله وعباده الذين لا يعصونه، فقد جعل سبحانه أحد مهامهم حفظ عباده المؤمنين مما يكدرهم، بدنيًّا أو روحياً: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرَّعْد: ١١].

لكن ما الطريق للوصول إلى هذا الحفظ؟

---

(١) كتبه: د. محمد بن مصطفى السيد.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٩٩.

إن من أهم الطرق الموصلة إلى حفظ الله أن تحفظ الله، كما في وصية النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس قيل: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك...** »[1]. وحفظك لله يعني: حفظ حقوقه وحدوده، وهناك حفظ خاص، منه قراءة آية الكرسي وخواتيم البقرة، فقد ورد فيها فضائل تتحدث عن دورها في حماية الإنسان وحفظه.

فمنها قصة أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع الشيطان حين علَّمه كلمات حيث قال له الشيطان: دعني أعلمك كلمات ينفع الله بها، قلت (أي: أبو هريرة): ما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]، حتى تختم الآية، فإنه لا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح... فقال النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما إنه صدقك وهو كذوب**»[2]. والشاهد من الكلام قوله: فإنه لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فأيُّ شيء نريده بعد ذلك إذا حفظنا الله عند نومنا، وأبعد عنا الشياطين؟

ولا يتوقف أمر الحفظ عند النوم، بل يتجاوزه إلى الحفظ سائر اليوم، ففي الصحيح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**»[3]. وهذا يشمل كل ما يسعى المرء في الاكتفاء به، أو أنها تكفيه ما أهمَّه أو كدر خاطره وأفسد عليه حياته.

كما لا يتوقف الحفظ عند الدنيا، بل يتجاوزه إلى الآخرة، ففي صحيح مسلم عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران؛ فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنها غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجَّان عن أصحابهما**»[4].

---

(١) الترمذي (٢٥١٦)، أحمد (٢٧٦٣).

(٢) البخاري (٢٣١١).

(٣) البخاري (٥٠٥١)، مسلم (٨٠٨)، أبو داود (١٣٩٧)، ابن ماجه (١٣٦٩).

(٤) مسلم (٨٠٤)، أحمد (٢٢١٤٦).

وإذا كان لآية الكرسي وخواتيم البقرة -وهي مفتتح القرآن- تلكم المنزلة، ففي ختامه كذلك، ويتمثل الحفظ في المعوذتين، فهما دواء لكل داء حسي أو معنوي بإذن الله تعالى، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها**»[1].

إن هذه السور والآيات المباركة التي نقرأ بعضها أدبار الصلوات، وبعضها آناء الليل وأطراف النهار في أوراد المسلم اليومية، وبعضها حين نأوي إلى فراشنا، هي محطات قرآنية تنثر السعادة في بيوتنا وقت الفرح والحزن، ووقت الصحة والمرض، ننال بفضلها بركة القرآن، ونعوِّد أنفسنا وأولادنا على افتتاح أعمالنا كلها بالقرآن، ونجعله في الموضع اللائق به، ونجعل حياتنا تسير كلها بحفظ الله تعالى.

(١) البخاري (٥٠١٦)، مسلم (٢١٩٢)، أبو داود (٣٩٠٢)، مالك (٣٤٧١)، أحمد (٢٤٨٣١)، النسائي (٧٤٨٨).

المجلس الخامس والسبعون

﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ ﴾[1]

إذا دخل أهل الإيمان جنات عدن، وذاقوا لذات السعادة والراحة والأمن، وخلَّدوا في الجنان في بيوتهم وقصورهم، وغرفهم وخيامهم، مع من صلح من آبائهم وأزواجهم وذريَّاتهم، فلبسوا ثياب الحرير والسندس والإستبرق، وتحلَّوا بأساور اللؤلؤ والفضة والذهب، واتكؤوا على أرائكها في جلسات المؤانسة، وسقاهم ربهم شراباً طهوراً، فإنهم حينئذٍ في حالة من المتعة واللذة، والفرح والسرور، والسعادة والحبور لا يمكن لعقلٍ أن يتصور تجلِّيات تلك الحياة على الحقيقة، ولا لقلبٍ أن يخطر عليه هذا المشهد كما سيكون!

تخيَّل ما شئت من نعيم الجنة، وعش فيها بقلبك ما تعلمه من وصفها في القرآن والسنة، لكن أعرني انتباهك لحظةً واحدةً في موقف من مواقف نعيم الجنة المتكرر، البهي ببهجته وحفاوته.

تخيل معي حين تكون في الجنة مع الأهل والأزواج والذرية في جلسات أنسٍ وبهجة، ثم ترى الملائكة تدخل عليكم من كل باب لتقول لكم: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ ﴾ [الرَّعْد: ٢٤] فأي حفاوة ستجده حينها منهم؟!

وتفكر معي كذلك فيما تقوله الملائكة بعد السلام، إنها تقول: ﴿ بِمَا صَبَرۡتُمۡ ﴾:

سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُم، فثبتم على الإيمان والتوحيد حتى الممات.

﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ ﴾ على طاعة الله ابتغاء وجهه، فأقمتم الصلاة، ونهضتم

(١) كتبه: الشيخ مهند بن حسين المعتبي.

من فرشكم الوثيرة للقيام بين يدي الله، وأخرجتم من أموالكم صدقة وزكاة الله رغم تعلقكم بالمال، وصمتم شهر رمضان، وتحملتم الظمأ والجوع والعطش، وقطعتم المسافات لحج بيت الله، وجاهدتم في سبيل الله وهو كره لكم، وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، واستقمتم على طاعة الله.

﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ ﴾ عن معصية الله ابتغاء وجهه، فهجرتم كل ما زينت لكم أنفسكم مما يغضب ربكم، وآثرتم رضاه على أهوائكم.

﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ ﴾ على ما أصابكم من أقدار الله ابتغاء وجهه، فصبرتم على فقد أحبابكم، وضياع أموالكم، وآلام أمراضكم، وكل ما تكرهون مما أصابكم.

إنه الصبر.. المفتاح العظيم لدخول الجنة بعد التوحيد....

إنه الزاد الذي يغذي السائر حتى يصل...

إنه الوقود العظيم الذي لا يقطع بالمسافر أبداً...

والصبر في القرآن في أكثر من تسعين موضعاً! بل الإيمان نصفان؛ نصفٌ صبر، ونصفٌ شكر كما قاله بعض السلف، وقرره ابن القيم وابن تيميَّة عليهما رحمة الله، وقد قرن الله بينهما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ [إبراهيم: ٥].

فبالصبر تحقِّق الفلاح: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عِمْرَان: ٢٠٠].

وبالصبر تظفر بمعية الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البَقَرَة: ١٥٣].

وبالصبر تنال البشارة الإلهية، والصلوات الربانية، والرحمة القدسية: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ

بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البَقَرَة: ١٥٥ - ١٥٧].

وبالصبر توفى أجرك بغير حساب: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [الزُّمَر: ١٠].

وبالصبر تفوز بمحبة الله ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٤٦].

وبالصبر تحظى بالمغفرة والأجر الكبير ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾ [هُود: ١١].

وفضائل الصبر كثيرة، بل أكثر الصفات الحميدة ترجع إلى الصبر، كالعِفَّة؛ فهي صبرٌ عن شهوة الفرج، وكالحِلم فهو صبرٌ عن إجابة داعي الغضب، وكالزهد؛ فهو صبرٌ عن فضول العيش، وكالجود؛ فهو صبرٌ عن إجابة داعي الإمساك والبخل.

وإن أردت كتاباً لتستعين به على تدبر القرآن في آيات الصبر؛ فمتع ناظريك بكتاب (عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين) لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

المجلس السادس والسبعون

﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾[1]

مما جبل الله تعالى عليه النفوس: التعلُّق بمتع الدنيا وملذاتها، كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٤].

والملاحظ أن هذه المتع الدنيوية سريعة الفناء كثيرة العناء، وهي مما تتعلق به قلوب الناس وتميل إليه نفوسهم، فمن صرف قصده إليها صارت شقاءً عليه ووبالاً في دنياه وأخراه، ومن عرف حقيقتها فاستعملها فيما يقربه لربه وعمل صالحاً سَعِد في دنياه وأخراه، وتلك هي السعادة الحقيقية، وما منا أحدٌ إلا وهو يبحث عن السعادة ويطلبها في مظانها، وقد بينها القرآن كأحسن ما يكون البيان، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته، فقال تعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [النَّحۡل: ٩٧]، وقد فُسِّرت الحياة الطيبة بالقناعة والرضى، والرزق الحسن وغير ذلك، والصواب أنها حياة القلب ونعيمه وبهجته، وسروره بالإيمان ومعرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه؛ فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة)[2].

---

(١) كتبه: د. عبد الله بن منصور الغفيلي.

(٢) مدارج السالكين: ٣/ ٢٤٣.

وإنك لن تجد دليلاً للسعادة ولا مرشداً لها كما هو القرآن، فهو كلام من خلق الخلق سبحانه، وهو أعرف بهم، فهو يهديهم ويسعدهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسْرَاء: ٩] فكل حياةٍ تعرِض عنه فهي معوجةٌ وضنك، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]؛ ولذلك جمع القرآن ما لم يجمع غيره من أوصاف السعادة كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يُونُس: ٥٧] فليس من مؤمن إلا وهو يبحث عن تلك الأوصاف الأربع، فهي إكسير الحياة الطيبة، وهي الموجبة للفرح والسرور لا غيرها كما قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يُونُس: ٥٨] فبها تكون الغبطة والسعادة لا بدُنيا زائلة ومتع فانية.

وإن العبد كلما كان عظيم العناية بالقرآن تلاوةً، وحفظاً، ومذاكرةً وتدبراً، وعملاً وتطبيقاً، نال من السعادة والطمأنينة، وراحة الصدر، وزوال الهمِّ والغمِّ والحزن بحسب ذلك؛ ولهذا كان من دعائه عليه السلام: «**أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي**»[(١)].

قال ابن القيم: (في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسدَّ تلك الفاقة أبداً)[(٢)].

(١) أحمد (٢٤٧)، ابن أبي شيبة (٣٢٩).

(٢) مدارج السالكين: ٣/ ١٥٦.

ولست أرى السعادة جمع مالٍ ولكن التقـــيَّ هو الســـعيد
وتقوى الله خير الـــزاد ذخراً وعنـــد الله للأتقـــى مزيـــد

فافتح قلبك لكتاب ربك وتدبر كلامه؛ فثم الجنة في الدنيا والآخرة، وحذار من أن يكون القرآن سبباً في خسارتك بإعراضك عن العمل به كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسْرَاء: ٨٢].

فيا لخيبة المحرومين من الأنس بكلام رب العالمين! ويا لظلام المستنيرين بغير النور المبين والصراط المستقيم، فأسعد بتلك النعمة التي حرمها الكثيرون، وقد اختصك الله بها، ولولا فضله سبحانه لكنا في شقاء: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنْعَام: ١٢٢] ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشُّورَى: ٥٢]. اللهم اجعلنا منهم.

المجلس السابع والسبعون
المبادرات في القرآن الكريم[1]

المتدبر للقرآن الكريم والسنة النبوية يلحظ العناية الكبرى في إعداد الأمة وتربيتها على خُلُق المبادرة، فبالمبادرة للخير يتحقق رضا الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه: ٨٤]، وبالمبادرة تفتح لك أبواب الجنان: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٣٣].

ونجد أن القرآن يحث على المبادرة، ويبين الفرق العظيم بين من بادر وبين من سوَّف وأجَّل، لا يستوى منكر ﴿ مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ﴾ [الحَدِيد: ١٠]، بل إن من صفات المنافقين التسويف والتثاقل وعدم المبادرة ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾ [النِّسَاء: ١٤٢] والسنة مليئة بالنصوص التي تحث على المبادرة والمسارعة إلى فعل الخير.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا**»[2].

بل إن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلمنا كيف نتقي الفتن، وذلك كما في صحيح مسلم قال: «**بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا**»[3].

---

(١) كتبه: أ.د. ناصر بن سليمان العمر.

(٢) البخاري (٦١٥).

(٣) مسلم (١١٨).

وعند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لايزال قوم يتأخَّرون حتى يؤخِّرهم الله في النار**»[1].

ويربينا على التبكير في الأعمال عامة، ديناً ودنيا، وذلك بالدعاء لكل مبكِّر ومبادر، كما عند أبي داود من حديث صخر الغامدي قال: «**اللهم بارك لأمتي في بكورها**»[2].

ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قِبَل الصوت فتلقاهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت[3].

ومبادرات الأنبياء -عليهم السلام- الذين أمر الله بالاقتداء بهم مسطرة بالكتاب والسنة ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ومن أعظم مبادرات الأنبياء مبادرة خليل الرحمن بتحطيم الأصنام، ومن مبادراته هجرته إلى ربه وذبحه لإسماعيل وإكرام الضيوف.

إلى مبادرات عظيمة في قصة موسى عليه السلام كما في القرآن، حيث ذكر الله عدداً من المبادرات، ومنها سقيه الغنم للفتاتين، وما فتح الله عليه بسبب ذلك من خير عظيم.

أما مبادرات الصحابة فيصعب حصرها هنا، وأكتفي بقدوتين:

فمبادرات أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سارت بها الركبان كما في حديث: «**من أصبح منكم اليوم صائماً**»[4].

---

(١) مسلم (٤٣٨).

(٢) أبو داود (٢٦٠٨).

(٣) البخاري (٦٠٣٣)، مسلم (٢٣٠٧).

(٤) مسلم (١٠٢٨)، النسائي (٨٠٥٣).

ومبادرات عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كثيرة جداً، فهو أول من كتب تاريخ الهجرة، وأول من جمع الناس على التراويح، وأول من دوَّن الدواوين.

ومبادرات النساء مسطورة مشهورة، كما بادرت أم كلثوم بنت عقبة بن معيط رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الهجرة إلى المدينة، ومبادرة أم حرام في غزوها مع زوجها وخوض غمار البحر، وقد قال لها النَّبيِّ: «**أنت من الأولين**»[1].

ومن أعظم ما يربي النفس على المبادرة مراعاة هذه الصفات:

الصدق والإخلاص، فهو يبث في الروح قوة ويقيناً.

تدبر القرآن والوقوف مع آياته في المبادرة والمسارعة.

الاقتداء بسير الأنبياء والمرسلين وخير القرون.

العمل الجماعي والتعاون على البر والتقوى.

أخذ الأمور بجدية وقوة.

اليقين بحسن جزاء المبادرين.

التفاؤل وعدم اليأس مهما طال الزمن.

الصبر والتحمُّل والبعد عن العجلة قبل أوان الأمر ونضوجه.

الدعاء والاستغفار واللجوء إلى الله.

وبعد:

فأمتنا تنتظر منا أن نكون من المبادرين في أمور الدين والدنيا لنحميها من عدوها، ونجعل لها المهابة والقوة كما كان سلفنا الصالح، وأن نستغني عن أعدائنا.

(١) البخاري (٢٧٨٨)، مسلم (١٩١٢)، أبو داود (٢٤٩٠)، الترمذي (١٦٤٥)، النسائي (٣١٧١)، ابن ماجه (٢٧٧٦).

المجلس الثامن والسبعون

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾[1]

سنتحدث في هذا المجلس عن بعض مواضع العبرة والعظة في قوله تعالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القَصَص: ٢٤].

إن هذه الآية تكشف لنا عن خُلُقين عظيمين تخلَّق بهما الأنبياء الكرام، ومنهم موسى عليه السلام ألا وهما: نفع الناس والتواضع، ومن جمع هذين الخلقين، فقد بلغ في محاسن الأخلاق شيئاً عظيماً.

يظهر الخلق الأول في قوله تعالى: فسقى لهما، حيث بادر موسى عليه السلام إلى فعل الخير يوم لاح له، رغم ما أصابه من تعبٍ ونصبٍ وخوف، فبمجرد رؤية المرأتين تنتظران حتى انصراف الرعاء؛ سقى لهما، دون معرفة سابقة ولم يطلب مقابلاً؛ ولذا عتب عليه الخضر -على ما ذكر- يوم قال في شأن القرية التي استطعمها أهلها: ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الكَهْف: ٧٧]؛ تذكيراً له عليه السلام بفعل الخير دون مقابل وهو ما اعتاد فعله من قبل.

ثم تولى إلى الظل بعد فعل المعروف تنحَّى بعيداً؛ لأنه لا ينتظر جزاء ولا شكوراً من أحد، وحتى لا يحرج من بذل له المعروف ابتعد عنه، كما أن ذلك يدل على تعبه ونصبه من رحلة المطاردة والخوف، ولبذل المعروف في مثل هذه الظروف شأن مختلف، فقد يعجب الإنسان فيها بنفسه وبفعله، ولكن موسى عليه السلام ناجى ربه في تلك اللحظة فقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾، وهنا يظهر التواضع لصاحب الفضل وهو رب العالمين، فلم يحمله هذا العمل -وهو مساعدة المرأتين والقوة التي أعطاه الله إياها- على أن يتفاخر بنفسه ولا أن يعجب بها، بل أقر بفضل الله عليه وفقره إلى خالقه جلت قدرته.

---

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

ونلحظ الاستكانة والخضوع في المناداة: ﴿ رَبِّ ﴾ ولم تذكر معها (يا)؛ للإشارة إلى قرب المنادى جلت قدرته، وللإشعار بإسرار ذلك الدعاء، وذكر اسم الرب هنا لأن الموقف موقف إعانة ورعاية، وقدَّم ﴿ لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ ﴾ على ﴿ فَقِيرٌ ﴾ دون أن يقال: إني فقير لما أنزلت إلي؛ لاهتمامه بما أنزل عليه من خير أكثر من اهتمامه بفقره، ودخول من على خير للإشعار بأن أي جزء من الخير منه سبحانه وتعالى فهو عظيم عنده عليه السلام..

والتعبير بالفقر عن حاجته للخير من ربه ﴿ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ دون أن يقول مثلا: إني محتاج؛ لأن الفقر أعظم صور الحاجة، وفيه إشارة إلى أن الفقر لا يكون في المال فحسب، بل يكون في غيره أيضاً، وأن منه ما هو ممدوح، وهو كل فقر إلى الله في أي صورةٍ كان.

يقول البقاعي: (وفي القصة ترغيبٌ في الخير، وحثٌّ على المعاونة على البر، وبعثٌ على بذل المعروف مع الجهد)[1].

إن تقديم المعروف وخدمة الناس ونفعهم لا يعرف ظروفاً تثني العزائم، بل يعرف قلوباً تواقة إلى الثواب، لقد لحق النصب والتعب والخوف به عليه السلام.

لكنه نسي نفسه في تلك اللحظة وقدم العون لمن يحتاجه، يا لها من نفوس! وما أعظمها من قلوب!

لقد فعل عليه السلام الخير، وطلب من الله الخير، وهكذا من أراد فضل الله فليطلبه في نفع الناس؛ فالله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

(١) نظم الدرر للبقاعي: ٦/ ١٧٢.

المجلس التاسع والسبعون

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾[1]

عندما تدرك المرأة المسلمة المؤمنة بالله وبرسوله ﷺ سرَّ تميزها تستعلي بدينها وبإيمانها على كل شيء، وتشعر بالفخر والاعتزاز أنها مؤمنة، ولذلك خاطب الله نساء النَّبيِّ ﷺ بخطاب يوقظ في نفوسهن سرَّ التميز الحقيقي، وهو إيمانهن، وكونهن زوجات النَّبيِّ ﷺ فقال: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وهذا التميز الذي اختصَّ الله به نساء النَّبيِّ ﷺ، ولم يشاركهن فيه غيرُهُنَّ من المؤمنات، إلا أنهن يشاركنهن في الإيمان بذلك الزوج العظيم والنَّبيِّ الكريم، كما يشاركنهن في الاهتداء بهديه والاقتداء به.

إن الله في هذه الآية التي وردت في سياق عدة آيات عظيمة في سورة الأحزاب (من الآية الثامنة والعشرين حتى الخامسة والثلاثين) يؤكد فيها على أن أمهات المؤمنين وزوجات النَّبيِّ ﷺ هنَّ الأسوة الحسنة للمؤمنات، وقد جاء في مناسبة نزول الآيات عموماً[2]، ونزول أولها خصوصاً[3]. ما يفهم منها أن النَّبيِّ ﷺ بعد أن نصره الله في غزوة الأحزاب، ويهود بني قريظة، وأصبحت راية الإسلام هي الأولى في جزيرة العرب، رغِب زوجات النَّبيِّ ﷺ أن يكون لهنَّ حظهن من الدنيا على غرار بنات كسرى وقيصر اللاتي كنَّ في الحُلي والحُلَل والخَدَم، ولم يكن في بيوت النَّبيِّ ﷺ شيء من حطام الدنيا، ولم يكن عليه السلام يدَّخر شيئاً.

---

(١) كتبه: د. عبد الرحمن بن معاضة الشهري.

(٢) ينظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان: ٧/ ٢٢٧.

(٣) ينظر: فتح الباري لابن حجر: ٨/ ٥١٩-٥٢٠، ح (٤٧٨٥)، (٤٧٨٦).

وروي أن أزواجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كن قد تغايرن عليه فهجرهنَّ شهراً[1]. أو تسعاً وعشرين يوماً[2]، ثم نزل التخيير لهن من الله تعالى، فاخترن الله تعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والدار الآخرة، وتركن الحياة الدنيا وزينتها رضي الله تعالى عنهن وأرضاهن.

إن قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب: ٣٢] رسالة عظيمة للمسلمة يجب أن تتأملها وتتدبرها، فإنها وإن كانت موجهة لنساء النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خصوصاً، فإن نساء المؤمنين مخاطبات أيضاً بهذه الآية، وينبغي على المؤمنة أن تعلم أنها ليست كأي امرأة في العالم، بل هي متميزة بإيمانها ودينها وعقيدتها وقدواتها وأهدافها وأخلاقها وطموحاتها، وينبغي لها أن تتخذ من أمهات المؤمنين -الصادقات المخلصات المصدقات الخاضعات لأحكام الشريعة، المختارات لله ولرسوله ولدينه ولأوامره على أي أمرٍ غيرها، والمقدِّمات لأوامر الشريعة على حظوظ أنفسهنَّ- قدوةً تقتدي بهنَّ وبسيرتهن وبصبرهنَّ.

وفي هذه الآية خصوصاً ينبه الله نساء النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حرمة التكسُّر في الكلام أثناء مخاطبة الرجال الأجانب، حتى لا يطمع من في قلبه مرض، وهذا تعظيم للعفاف في القول والخطاب، ولا شك أن نساء المؤمنين أولى بهذا الخطاب من نساء النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما في نساء النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التقوى والقرب من بيت النبوة، ولكنه منهج القرآن في التربية، والحث على الفضائل، فعندما يوجه الخطاب لأصحاب الكمالات الأخلاقية من الأنبياء وأزواجهم، فإنه يخاطب بذلك أيضاً أتباع هؤلاء الأنبياء من المؤمنين والمؤمنات.

(١) ينظر: تفسير الطبري: ٢١/ ١٠٠.
(٢) ينظر: تفسير القرطبي: ١٧/ ١٣٩.

إن المسلمات اليوم أحوج للعودة إلى القرآن، وتأمل خطاب الله للمؤمنات خصوصاً في الآداب والأخلاق التي تخصهنَّ من أي وقت مضى؛ حتى يقدرن على التصدِّي لطوفان الغزو الفكري والمادي الرهيب الموجه للمرأة المسلمة بكل وسائل الإعلام المتاحة، وهذا يلقي بالمسئولية على المرأة أولاً، وعلى أولياء الأمور ثانياً: أن يتقين الله تعالى في المحافظة على النساء المؤمنات من هذا الغزو، ويصبر الجميع على أوامر الله ونواهيه في المحافظة على المجتمع المسلم بالتربية على القرآن وأوامره وهداياته، وانتهاز المواسم القرآنية كرمضان وغيره للعيش مع القرآن، وربط النساء بالقرآن، وتربيتهن على حفظه والعمل به، والتخلُّق بأخلاقه، والتركيز على هداياته، لعل الله أن يحفظ أسرنا وبناتنا من كيد الكائدين، ومن أصحاب الشهوات الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

المجلس الثمانون

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾[1]

الدعوة إلى الله تعالى من أشرف المقامات التي يوفق الله لها من شاء من عباده؛ فالداعية متقلِّد لوظيفة الأنبياء، ومتشبِّه بهم وتابع لهم، قال تعالى: عن نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً**»[2].

ومن النماذج الرائعة في الدعوة إلى الله تعالى: ما قصَّه الله تعالى في سورة (يس)، تلك القصة التي عرفت عند المفسرين بقصة حبيب النجار، وهي قصة تستحق التوقف عندها وأخذ العبر منها.

وملخص القصة:

أن الله تعالى بعث إلى مدينة أنطاكية رسولين، فكذبهم قومهم فأيدهم الله بثالث، وحصلت بينهم محاورات كثيرة لدعوتهم فكانوا لا يزدادون إلا عناداً واستكباراً، وهنا جاء دور صاحبنا حبيب، حيث قام بعدة أمور مهمة:

١ - المبادرة بالدعوة والمشاركة بنفسه، فلم يقل حبيب: إن هذه المدينة فيها ثلاثة رسل فهي لا تحتاجني، بل بادر.

ومن هنا ينبغي لكل مسلم المشاركة في الدعوة بحسب قدرته، ولا يقصِّر بحجة وجود

(١) كتبه: د. عبد المحسن بن زبن المطيري.
(٢) مسلم (٢٦٧٤).

العلماء، فيترك الدعوة، فلو كان هذا عذراً لأحد لكان حبيبٌ أولى الناس به.

٢- حبيب وظيفته النِّجارة، فهو لا مال له ولا جاه، ومع هذا لم يمنعه ذلك من الدعوة، فلا تقل: من أنا حتى أدعو، وكن كحبيب.

٣- حبيب مشغول بالنِّجارة وليس بطلب العلم، والمدينة فيها علماء بل رسل، ومع هذا شارك في الدعوة.

٤- منزل حبيب في أقصى المدينة، كما في الآية الكريمة: وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا المدينة والعادة أنه لا يسكن في الأطراف إلا الفقراء؛ لعجزهم عن شراء عقار في منتصف المدنية، فلم يمنع حبيباً فقره، ولا بُعد مكانه من المشاركة في الدعوة إلى الله تعالى.

٥- لنتأمل في قوله تعالى: رجل فلم يذكر الله اسمه لكنه ذكر قوله وفعله، فليس المهم من أنت، إنما المهم ماذا قدمت؟

٦- وصف الله مبادرته بقوله: يسعى أي: يجري، فهو يخشى أن يفوته الأجر، وفعل ذلك حرصاً على هداية الناس؛ فكل تأخير قد يكون فيها تمكينٌ للباطل وبعدٌ عن الحق، فاحرص على المبادرة عند رؤية المنكرات حتى لا تكون واقعاً يصعب اقتلاعه.

٧- ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ﴾ [يس: ٢٠] فنسبهم لنفسه لتحبيبهم والتلطف معهم، وكأنه يقول: أنا منكم وأحبُّ لكم ما أحبُّ لنفسي.

٨- ﴿ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [يس: ٢٠] طلب منهم اتباع من يستحق المتابعة، ولم يدعهم لنفسه ولمكاسب شخصية.

٩- ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [يس: ٢١] فبدأ يذكر لهم أدلة كونهم مرسلين وأنهم صادقون.

فالدليل الأول: أنهم لا يريدون مصلحة دنيوية من هذه الدعوة، والدليل الثاني: أنهم

مهتدون صالحون، فأفعالهم تدل على أقوالهم، وصلاحهم يدل على هدايتهم ونصحهم، فهم يقولون ما يفعلون، وصالحون يوفقون للحق.

١٠- ﴿ وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ [يس: ٢٢ - ٢٣] فهو بعد أن ذكر أدلة صدق الرسل، بدأ بذكر أدلة صدق رسالتهم في الدعوة للتوحيد:

فالدليل الأول: أن الخالق هو المستحق للعبادة.

الثاني: أننا سنرجع إليه فكيف سنعصيه.

الدليل الثالث: أن من يعبد من دون الله لا يستطيع أن يرد ما يقدره الرحمن.

١١- ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾ [يس: ٢٥] أي: أنا أولكم التزاماً بما أدعو إليه، فاسمعوا لي واستجيبوا.

١٢- فكانت نتيجة هذا الحوار والشفقة والدعوة أن قتلوه حتى خرجت أمعاؤه، ولكن كانت مكافأته عظيمة ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ [يس: ٢٦].

١٣- ومن شفقة هذا الداعية الناصح أنه حتى بعد موته لا زال يحمل همَّ أمته ﴿ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ [يس: ٢٦ - ٢٧]، ونستفيد من هذا أن الدعوة سبب لدخول الجنة، وسبب للمغفرة والكرامة.

١٤- ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ [يس: ٢٨] من عجيب هذه الآية أن الله تعالى نسب القوم له، ولم ينسبهم للرسل الثلاثة، وكأن الآية تشير أن الانتقام من هؤلاء كان نصرةً لهذا الداعية النَّاصح.

المجلس الحادي والثمانون

﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾[1]

نتفيأ في هذا المجلس بعض ظلال قوله تعالى: ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ [الصَّافَّات: ٦١].

فإن في هذه الآية إشارة إلى نعيم الجنة، ومفهومه أن لا ينشغل الناس بالدنيا، ومن تأمل واقع كثير من الناس، وجدهم وكأنهم لا يعملون إلا للدنيا، والله تعالى يريدهم أن يعملوا للجنة..

ومتاع الدنيا واقع مشهود، ونعيم الجنة غيب موعود، والناس يتأثرون بما يرون ويشاهدون، ويثقل على قلوبهم ترك ما بين أيديهم إلى شيء ينالونه في الزمن الآتي، فكيف إذا كان الموعود لا يُنال إلا بغبِّ الموت؛ من أجل ذلك قارن الله -تبارك وتعالى- بين متاع الدنيا ونعيم الجنة، وبيَّن أن نعيم الجنة خيرٌ من الدنيا وأفضل، وأطال في ذمِّ الدنيا وبيان فضل الآخرة؛ وما ذلك إلا ليجتهد العباد في طلب الآخرة ونيل نعيمها.

ولو ذهبنا نبحث في سر أفضلية نعيم الآخرة على متاع الدنيا، لوجدنا ذلك من وجوه متعددة:

الأول: متاع الدنيا قليل جداً بالنسبة للآخرة، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [النِّسَاء: ٧٧]، وقد صوَّر لنا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلة متاع الدنيا بالنسبة إلى نعيم الآخرة بمثال ضربه فقال: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه -وأشار** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بالسبابة- في اليم فلينظر بم ترجع**»[2]، ما الذي تأخذه الإصبع إذا غُمست في البحر الخضم؟ إنها لا تأخذ منه قطرة، هذا هو نسبة الدنيا إلى الآخرة.

---

(١) كتبه: د. عبد المحسن بن زبن المطيري.

(٢) مسلم (٢٨٥٨).

الثاني: هو أفضل من حيث النوع، فثياب أهل الجنة وطعامهم وشرابهم وحُليُّهم وقصورهم أفضل مما في الدنيا ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠]، بل لا وجه للمقارنة، فإن موضع سوط في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها، فعن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»(١)، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لقاب قوس في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب**». وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لغدوة أو روحة في سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب**»(٢).

الثالث: الجنة خاليةٌ من شوائب الدنيا وكدرها، فطعام أهل الدنيا وشرابهم يلزم منه البول والغائط، والروائح الكريهة، وإذا شرب المرء خمر الدنيا فقد عقله، ونساء الدنيا يحضن ويلدن، والحيض أذى، والجنة خالية من ذلك كله، فأهلها لا يبولون ولا يتغوَّطون، ولا يبصقون ولا يتفلون، وخمر الجنة كما وصفها خالقها ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٤٦ - ٤٧] وماء الجنة لا يأسن، ولبنها لا يتغير طعمه، ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ﴾ [مُحَمَّد: ١٥] ونساء أهل الجنة مطهرات من الحيض والنفاس وكل قاذورات نساء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٥].

الرابع: نعيم الدنيا زائل، ونعيم الآخرة باقٍ دائم ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العَنكَبُوت: ٦٤]؛ ولذلك سمى الله تبارك وتعالى ما زُيِّن للناس من زهرة الدنيا متاعاً؛ لأنه يتمتع به ثم يزول، أما نعيم الآخرة فهو

(١) البخاري (٣٠٧٨).
(٢) البخاري (٢٦٤٠).

باقٍ، ليس له نفاد ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النَّحل: ٩٦]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤] ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرَّعْد: ٣٥] ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الحِجْر: ٤٨].

الخامس: العمل لمتاع الدنيا ونسيان الآخرة، يعقبه الحسرة والندامة ودخول النيران، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عِمْرَان: ١٨٥]، وأما العمل للآخرة فلا يعقبه إلا الفوز بها[1].

(١) ينظر: الجنة والنار، الأشقر: ص٢٢٣.

المجلس الثاني والثمانون

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1]

حين يكون الحديث عن خليل الرحمن ومن خلال القرآن، فإنه حديث يأخذ بالألباب، ومجلسٌ كهذا لا يراد منه الإحاطة بحديث القرآن عنه، ولكن هي إشارة إلى آية واحدة فقط، جاءت ضمن تزكية الله له بقوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصَّافَّات: ٨٤]، وهنا ينبغي لقارئ القرآن أن يطرح السؤال التالي: ما القلب السليم الذي أثنى الله به على خليله إبراهيم؟

وأقرب ما قيل في ذلك ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال: (هو الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسَلِمَ من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله، في خوفه ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق)[2].

وإبراهيم عليه السلام الذي جعله الله إماماً كان نقي السريرة، سليم القلب، شهد الله له بذلك: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصَّافَّات: ٨٤]، ولا شكَّ أن إبراهيم عليه السلام الذي رأينا بعض صفاته وأفعاله وبلائه، لا شك أنه يحمل قلباً سليماً خيِّراً.

لم ينقل عنه أنه دعا على أحد من أعدائه، برغم الأذى الذي ناله، بل المنقول دعاؤه لهم: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٣٦]، أما دعاؤه للمؤمنين فما أكثره في القرآن والسنة، ودعاؤه لأهل مكة بالبركة مشهورٌ معروف، حتى إننا نرى أثره اليوم.

---

(١) كتبه: أ.د. ناصر بن سليمان العمر.

(٢) إغاثة اللهفان: ص٧.

ومما يُظهر سلامة قلبه عليه السلام دعاؤه لأبيه حتى تبين له أنه عدوٌّ الله، فلما تبين أنه عدو الله تبرأ منه.

ومن تأمل سيرته وجد سلامة قلبه عليه السلام في حواراته ومناقشاته وبُعده عن حظ النفس، فقد كان يدرك عليه السلام ما لسلامة القلب من الأثر، بل كان ذلك همه؛ ولهذا لما دعا قال: ﴿ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ۝٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٧ - ٨٩]، وكلنا نحتاج إلى ذلك يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم.

فيا معاشر الدعاة والمربين ربوا الأجيال على طهارة القلوب وسلامتها من أدوائها، من الغلِّ والحسد والبغي حتى على الخصوم. وأقول: بعض المنتسبين إلى الدعوة والعلم -هداهم الله- يربون أجيالاً على الحقد والبغض، يلوِّثون قلوب الناشئة ببغض علمائهم ودعاة الإسلام الذين بين أظهرهم، فليتهم يسيرون مع إخوانهم من المسلمين بسيرة إبراهيم مع أعدائه، لم يؤثَر عنه عليه السلام أنه دعا على أحدٍ من قومه، بل تجد منه الدعاء بالهداية، والرغبة في استقامتهم، تجد عفَّة اللسان، تجد الحكمة.

فانظر إلى قلبك أخا الإسلام فأنت وحدك دون الناس من يبصره! قد ينظر الناس إلى هيئتك، إلى عملك، إلى تصرفاتك، إلى سلوكك، لكنهم لا يرون ما انطوى عليه قلبك، فانظر أنت إلى قلبك وفتِّشه، هل فيه غشٌّ؟ هل فيه حقد؟ هل فيه مرض؟ قبل أن يجيء العرض على ربك الذي لا تخفى عليه خافية ﴿ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطَّارِق: ٩]، ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [العَادِيَات: ١٠].

واعلم أن سلامة القلب غُنْمٌ لك في العاجل والآجل، ولقد رأيتُ عدداً من الناس ممن عُرفوا بمسامحة الناس وسلامة الصدر، رأيتهم يعيشون في راحة بالٍ وسعادة وهناء.

والمقصود فتِّش قلبك وانظر حالك، وحذار حذار من أن تنطوي نفسك على الحقد والغل والحسد وأمراض القلب وأدوائها، فإنها قد تقضي على صاحبها في الدنيا، فما بالك في الآخرة؟ ولن ينجو في الآخرة إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم.

المجلس الثالث والثمانون

من ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ إلى ﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ ﴾ إلى ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾[1]

حين يصدر الحديث عن أثر تدبر القرآن في إصلاح أحوال الأمة، عن عالمٍ عاصر ألواناً من التقلُّبات التي مرَّت بها، والمحن التي ألمت بها؛ فإنه سيكون حديثاً مؤثراً، وهكذا كان حديث العلامة الشيخ البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفى سنة (١٣٨٥هـ)، وهو أحد كبار المصلحين المعاصرين، حيث يقول:

(إن حقوق القرآن علينا من التدبر والاتباع، هي التي يعروها ما يعروها من الإهمال والضياع والتفريط والغفلة، فهي التي يجب التنبيه لها والتذكير بها دائماً، والدلالة على مواقعها من آيات الكتاب العزيز، وهي التي يجب على العالم القرآني أن يختار للتذكير بها أصرح الآيات في معناها، وأظهر الجمل في الدلالة عليها وأقرب الألفاظ لأذهان الناس).

وإذا قارنا بين ﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٥٢] وبين ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩] وجدنا بينهما فرقاً جلياً لا يستهان به في مقام التذكير والإبلاغ في التأثير، فالإنذار -وإن كان معناه الإعلام بالشيء مع التخويف من عواقبه- فإنه لا يستلزم التدبُّر، الذي هو انفعال داخلي ذاتي يفضي إلى النظر في إدبار الشيء وغاياته على وجهٍ من إعمال الذهن والفكر في ذلك، وهذا ما يدل عليه بناء الفعل (تفعَّل)، أما أثر الإنذار فهو تأثيرٌ خارجي، والإنذار لا يُشعر النفس ما يشعرها التدبر من العهد المسؤول والأمانة الثقيلة.

---

(١) كتبه: العلامة البشير الإبراهيمي، ضمن مجموع مؤلفاته وآثاره، بتصرف: ١/ ٣٢١.

أما الإتباع، فهو ثمرة التدبر، وهو الذي لا تتحقق الغايات التي يرمي إليها القرآن إلا به، وقد تكرر ذكره في القرآن في مناسباتٍ شتى؛ تدل مستعرضَها على أنه هو سرُّ التدين والتأله، وأنه المحقق للكمال، وأنه العاصم من الضلال والهلاك، فليتدبر القارئ جملة من الآيات القرآنية في هذا المعنى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ [الأَعۡرَاف: ٣]، ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ [الأَنۡعَام: ١٥٣]، ﴿ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عِمۡرَان: ٣١]، ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لُقۡمَان: ١٥]، ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ [يس: ٢١]، ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

ويا للعجب من بيان القرآن وبيِّناته وإعجازه بفنون إنجازه، فالاتباع نوعٌ من قَفْو أثر الغير، وترسُّم خطاه والانقياد له، ولهذا تجد القرآن يأمرك بالتدبر، واستعمال الحواس الظاهرة والباطنة قبل أن يأمرك بالاتباع، حتى تطمئن إلى أنك إنما تتبع فيما فيه حق وخير ورحمة، ثم إذا أمرك بالإتباع؛ فإنما ذاك فيما يتعالى على فكرك إدراكه، أو يصعب عليك تمييزه، أو يخاف فيه غلبة الأهواء عليك.

وبعد الأمر بالتدبر ينهى عن اتباع الهوى المضل عن سبيل الحق، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦]، وينهى عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وعن اتباع خطوات الشيطان، وعن اتباع أولياء من دون الله، وعن اتباع السبل المتفرقة، توكيداً للمعنى الإيجابي وإيضاحاً للحق الذي يجب أن يُتَّبع.

إن المتدبر للقرآن حقاً سيخرج بعد هذا بحقيقة كبرى، وهي: أن الإتباع الذي يدعو إليه القرآن هو عين الاستقلال التام للفكر والإرادة، والعقل والوجدان؛ لأنه يحميها من شرور الأهواء، ويؤويها إلى حمى الحق وحده، والاحتماء بالحق الذي قامت به السموات والأرض، واستقر عليه تدبير الكون ونظامه، استقلال ما وراءه استقلال،

وصدق الله: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [المُؤمِنُون: ٧١].

إنه لم يمض على المسلمين في تاريخهم الطويل عصرٌ هم فيه أبعد عن القرآن منهم في هذا العصر، ولم يمض على الدعاة إلى الحق وقت عظمت فيه العهدة واستغلظ الميثاق مثل هذا الوقت، وإنه لا مخرج لهم من هذه العهدة ولا تحلُّل من هذا الميثاق إلا بالدعوة إلى القرآن، فلا عجب -ونحن نشعر بثقل هذه الأمانة- من أن ترتفع أصواتنا بالدعوة إليه، وإنما العجب الذي لا عجب بعده أن نسكت أو نقصِّر، وإن من أحكم الوسائل لجذب الأمة إلى القرآن وصف القرآن، وتشويق الناس إلى الإقبال عليه وتدبره وفهمه.

المجلس الرابع والثمانون

من فوائد قصَّة داود وسليمان عليهما السلام في سورة ص[1]

إن في قصص القرآن عبراً وعظات، خاصةً تلك التي قصَّها الله عن أنبيائه ورسله عليهم السلام، ومن ذلك قصة داود وسليمان في سورة (ص)، فإن فيها فوائد كثيرة، منها:

١- أن من أكبر نعم الله على عبده أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحُكم والفصل بين الناس، كما امتن الله به على عبده داود عليه السلام.

٢- ومنها: اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان عليهما السلام.

٣- ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام -أي القضاة وغيرهم-؛ فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالةٍ غير معتادةٍ ومن غير الباب المعهود، فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

٤- ومنها: أنه لا يَمنع الحاكم من الحكم بالحق سوءُ أدب الخصم، وفعله ما لا ينبغي.

٥- ومنها: كمال حلم داود عليه السلام، فإنه ما غضب عليهما حين جاءاه بغير استئذان، وهو المِلك، ولا انتهرهما، ولا وبَّخهما.

٦- ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه (أنت ظلمتني) أو (يا ظالم) ونحو ذلك أو باغٍ علي؛ لقولهما: ﴿ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [ص: ٢٢].

---

(١) كتبه: العلامة السعدي رحمه الله، ملخصة من تفسيره ص٧١٣.

٧- ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر، جليل العلم، إذا نصحه أحد، أو وعظه، لا يغضب، ولا يشمئز، بل يبادره بالقَبول والشكر، فإن الخصمين نصحا داود فلم يشمئز ولم يغضب ولم يثنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصِّرف.

٨- ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلُّقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادي بينهم، وبغي بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور، بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

٩- ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصاً الصلاة، من مكفرات الذنوب؛ فإن الله رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

١٠- ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان بالقرب منه، وحسن الثواب وأن لا يظن أن ما جرى لهما منقصٌ لدرجتهما عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في قلوب الخلق؛ فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم، وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هذه الآثار، وما ذاك بعزيز على الكريم الغفار.

١١- ومنها: أن الحكم بين الناس مرتبة دينية، تولَّاها رسل الله وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضي العلمَ بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحلُّ له الإقدام عليه.

١٢- ومنها: أنه ينبغي للقاضي أن يحذر الهوى، ويجعله منه على بال؛ فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقت الحكم كل محبةٍ أو بغضٍ لأحد الخصمين.

١٣- ومنها: أن كل ما أشغل العبد عن الله، فإنه مشؤوم مذموم، فَلْيُفارقه وليُقبل على ما هو أنفع له، وهذا ظاهر في قصة سليمان مع الخيل.

١٤- ومنها: القاعدة المشهورة: (من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه)، فسليمان عليه السلام عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس؛ تقديماً لمحبة الله فعوضه الله خيراً من ذلك، بأن سخَّر له الريح الرُّخاء اللينة، التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد، غدوها شهر ورواحها شهر، وسخر له الشياطين أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدر عليها الآدميُّون.

المجلس الخامس والثمانون

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ﴾[1]

(ما شيء أجده في قلبي ألذُّ عندي من قيام الليل)[2]. ما كان للتابعي الجليل ثابت البُنَانيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يقول هذا إلا بعدما زكت نفسه، وصلح قلبه، وطابت حياته، بعدما تعرض لنفحات الله في أسحار الليالي، وذاق لذة مناجاته في الأوقات الخوالي، فسبحان من تفضل على عباده بهذا النعيم قبل لقائه، وبصَّرهم بطريق السعادة، ورزقهم لذة هذه العبادة، فهم بليلهم ألذ من أهل اللهو بلهوهم، ولولا الليل ما أحبوا البقاء بالدنيا[3].

وإن الناظر في النصوص الشرعية عن حقيقة هذه العبادة تتجلى له مقاصدها في عدة إشراقات قرآنية تظهر في كتاب الله سبحانه وتعالى بكون التهجد هو الصلة الدائمة بالله المؤدية للمقام المحمود الذي وعده محمداً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما أحوج الآخرين من أمته للاقتداء به لينالوا علو المقام ورفعة الدرجات، ففي سورة الإسراء ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]!

وفي آيات أخرى تبرز عدة أوامر إلهية لرسولنا الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقيام بهذه العبادة الجليلة، ففي سورة المزمل نداءٌ للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بترك التزمُّل (وهو التغطي بالليل والنهوض إلى القيام بالليل والعبادة)[4]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المُزَّمِّل: ١ - ٤] فكان خير مثال في ذلك، بأبي هو وأمي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) كتبه: الشيخ عبد اللطيف بن عبد الله التويجري.

(٢) صفة الصفوة: ٢/ ١٥٥.

(٣) قاله أبو سليمان الداراني كما في حلية الأولياء: ٩/ ٢٧٥.

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير: ٤/ ٥٥٧.

وفي آية المزمل الأخرى بينت أن القيام بالليل أجمع للخاطر وأجدر لفقه القرآن: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا﴾ [المُزَّمِّل: ٦] كما قاله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)].

وفي سورة الشرح خطاب له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدم القيام إلا بعد الفراغ من أمور الدنيا وأشغالها، لكي يكون نشيطاً فارغ البال مخلصاً الرغبة والنية لله[(٢)]. ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ [الشَّرْح ٧ - ٨].

وفي سورة آل عمران ورد الثناء على طائفة من أهل الكتاب بسبب هذا الفعل: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ١١٣]، وفي سورة الذاريات يبرز في سمات عباد الله المتقين: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ۝١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذَّارِيَات: ١٥ - ١٨].

وفي إشراقة أخرى في سورة الزمر يأتي تفضيل القانت الخاشع على غيره: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ [الزُّمَر: ٩].

ويتضح الأمر أيضاً في الأحاديث النبوية؛ حيث جاء الحث عليها في صورة بهية وجزاء وافر في عدة أحاديث كريمة من الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تارة في الشفاعة لصاحب هذه العبادة: «**فيقول القرآن: منعته النوم بالليل**»[(٣)].

ومرة في حث وتربية شباب الأمة على ذلك: «**نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل**»[(٤)].

---

(١) أبو داود (١٣٠٦).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: ٤/ ٦٨٠.

(٣) أحمد (٦٦٢٦).

(٤) قال ذلك لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال سالم: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً. البخاري (١١٢٢).

وفي حديث آخر بيَّن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه به تكون الغبطة الحقيقية: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**»[1].

وفي حث آخر يبين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه اقتداءٌ وقربة ومنهاة عن الإثم، كما في حديث أبي أمامة مرفوعاً: «**عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة للإثم**»[2].

وأخيراً -أيها المبارك- جاهد نفسك على التهجد ففيه خيراتٌ عظيمة، وهو معين جداً على التدبر، فلا يثبت القرآن في الصدر ولا يسهِّل حفظه وييسِّر فهمه، إلا القيام به في جوف الليل، كما يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي[3]، كما أن التعرض لنفحات الله سبحانه وتعالى في هذا الوقت وقراءة كتابه بتدبر وخشوع ودعاء، زادٌ مضمونٌ يعين على جميع مشاقِّ الحياة وأتعابها.

(١) مسلم (٨١٥).

(٢) الترمذي (٣٥٤٩).

(٣) مقدمة أضواء البيان: ص٤.

المجلس السادس والثمانون

﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ ﴾[1]

إن الانتفاع بالقرآن الكريم مرتبط بحضور القلب كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧] والمرء إذا كان لقلبه أجمع، وعن الشواغل أبعد، كان أقرب إلى تدبر ما يتلو من كتاب الله؛ إذ إن القلب محل تدبر القرآن قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩٢ - ١٩٤].

فتأمَّل أخي المبارك كيف خُصَّ القلب بإنزال القرآن عليه، حيث كان قلبه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ محلاً للقرآن، وكذلك الحال لمن أراد تدبر القرآن والانتفاع به يجب أن يكون قلبه محلاً للقرآن كذلك.

وبيان ذلك: أن الانتفاع بالقرآن متحقق لأصحاب القلوب الحية، قال ابن القيم في قوله: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ ﴾ فهذا هو المحل القابل والمراد به:

(القلب الحي الذي يعقل عن الله كما قال تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٧٠][2]. فعبر عن النفس الحية بالقلب؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها)[3].

وقد جمع الله تعالى ذلك في قوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ [مُحَمَّد: ٢٤] فعلق فهم القرآن وتدبره على انفتاح القلب وحضوره، كما دل عليه المفهوم،

---

(١) كتبه: الشيخ عبد اللطيف عبد الله التويجري.

(٢) الفوائد: ص٣.

(٣) تفسير القرطبي: ١٧/ ٢٣.

وعلق الانصراف عن فهم القرآن وعن تدبره على انغلاق القلب، كما دل عليه منطوق قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أي: (أم أقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعبر)[1].

ولما كان سلفنا الصالح أصحاب قلوب حية وأفئدة نقية؛ انتفعوا بالقرآن وتدبروه حق تدبره، فظهرت آثار ذلك عليهم من وجل القلوب وقشعريرة الجلد ودمع العين، كما جاء بيان وصفهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] وقال عن تأثُّرهم: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: ٢٣].

وقد كانوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على دراية بأثر طهار القلب في إقباله على كتاب الله، فكان لهم باب السبق في هذا الميدان قولاً وعملاً، فقد روي عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام الله)[2]. وهذه قولة[3]. بليغة جامعة منه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد حقق ذلك عملاً من خلال تدبره لكتاب الله، حتى خرق مصحفه من كثرة ما يديم النظر فيه، ورثاه شاعر الرسول حسان بن ثابت بقوله:

ضحوا بأشمطَ عنوانُ السجود به يقطِّع الليل تسبيحاً وقرآنا[4].

(١) جامع البيان: ٢٦/ ٥٧.

(٢) الزهد للإمام أحمد: ص١٨٨.

(٣) جاء في مختار الصحاح ما نصه: (ق ول: قال يقول قولاً وقولةً ومقالاً).

(٤) ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه: ص٢٣٠. ومطلع القصيدة:.

من سره الموت صرفاً لا مزاج له فليأت مأسدة في دار عثمانا.

ونعتته زوجه فقالت: (فو الله لقد كان يحيي الليل بالقرآن في ركعة)[1].

فينبغي لتالي القرآن أن يطهِّر قلبه من الشهوات والشبهات؛ لأنها مانعة وحاجبة عن تدبر كتاب الله، وبالمقابل فتطهير القلب منهما دافع مؤثر في فهم القرآن وتدبره، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إن هذه القلوب أوعية فأشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره)[2].

ولقد قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقِعَة: ٧٩] فإذا كان ورقه لا يمسه إلا المطهرون؛ فمعانيه لا يهتدي بها إلا أصحاب القلوب الطاهرة[3].

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ٧/ ٢١٤.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم: ١/ ١٣١.

(٣) شرح حديث النزول لابن تيميَّة: ص٤٢٨، والمستدرك على فتاوى ابن تيميَّة: ١/ ١٦٩.

المجلس السابع والثمانون

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾[1]

قال تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [اللَّيل: ١٧ - ٢١].

هذه الآية أحد مناقب أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهي تثبت له صفة التقوى، وتثني عليه بفضيلة الإنفاق.

يقول ابن كثير: (وقد ذكر غيرُ واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها فإن لفظها لفظ العموم...، ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة؛ فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذَّالاً لأمواله في طاعة مولاه ونصرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده منَّة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل)[2]. انتهى كلامه.

ولنَعُد إلى تأمل هذه الآيات الكريمة، وما فيها من البيان العجيب، يقول سبحانه وتعالى بعد الحديث عن النار: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾، ولم يقل: ويتجنبها، كما قال بعد ذكر الجنة: ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴾ [الأعلى: ١١]؛ للدلالة على أن الله هو الذي جنبه تلك النار، وذلك فضل من الله ومنَّة.

---

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

(٢) تفسير ابن كثير: ١٤/ ٣٧٩.

وجاء وصف ﴿ ٱلْأَتْقَى ﴾ بهذه الصيغة؛ لبيان عظم اتصافه بهذه الصفة، وللإشعار بأن سبب تجنيبه النار هو التقوى، ثم بينت الآيات الصفة المميزة له، الدالة على التقوى ومقدارها ألا وهي الإنفاق ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾، والإنفاق من أهم سمات المتقين، قال تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٣٣ - ١٣٤].

وجاءت كلمة ﴿ يَتَزَكَّىٰ ﴾ لبيان أن إنفاق المال تزكية له ولصاحبه، وجاء الفعل بصيغة المضارع ﴿ يَتَزَكَّىٰ ﴾؛ للدلالة على تجدد التزكية كلما حصل الإنفاق، (وجملة يتزكى حال في ضمير ﴿ يُؤْتِى ﴾، وفائدة الحال التنبيه على أنه يؤتي ماله لقصد النفع والزيادة من الثواب؛ تعريضاً بالمشركين الذي يؤتون المال للفخر والرياء والمفاسد والفجور)[1].

وبينت الآيات أنه يفعل طلباً للثواب، ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴾، والإخلاص في الإنفاق ليس أمراً هيِّناً، إلا عند من وفَّقه الله من الأتقياء الأنقياء، وجاء النفي وما لأحد للإشارة إلى عظم هذه المنقبة فيه.

والأصل في ﴿ عِندَهُۥ ﴾ أنه ظرف مكان يعبر به عن الحسيات، ودل هنا على تمكن المعنى كتمكن الكائن في المكان القريب[2].

وقد أثبت الإخلاص له بطريقين: الأول: نفي أن يكون ذلك لرد معروف، والثاني: إثبات كونه فعل ذلك لوجه الله، ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾.

والمعنى: لا يُؤتي ماله إلا ابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة[3].

---

(١) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٩٥.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٩٦.

(٣) تفسير أبي السعود: ٧/ ٢٤.

والابتغاء: الطلب بجد لأنه أبلغ من البغي[1]. يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: طمعاً في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات"[2].

وجاء ذكر اسم الله الأعلى هنا؛ لأن الإنسان جُبِلَ على طلب الرفعة بماله والثناء عليه به، والمؤمن يعمل ذلك العمل ابتغاء مرضات الله الأعلى، فالعلو منه وإليه سبحانه، والنتيجة إن فعل ذلك: وَلَسَوْفَ يَرْضَى، والرضا نعمة قلَّ من ينعم بها؛ وهي نتيجة للتقوى وإنفاق المال لوجه الله، وقد تشير (سوف) إلى أن الرضى المقصود يكون في الآخرة؛ وذلك بالأجر العظيم الذي يرضي صاحبه، وجاء تأكيد وقوع ذلك الرضى باللام في ﴿ وَلَسَوْفَ ﴾، وهذه الجملة من جوامع الكلم؛ لأنها يندرج تحتها كل ما يرغب فيه الراغبون[3].

(١) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٦٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ٨/ ٤٢٢.

(٣) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٩٦.

المجلس الثامن والثمانون

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾[1]

هذا السؤال الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، طالما قرأناه، وكثيراً ما تلوناه، فهل أدركنا شيئاً من أثره في نفوس المتدبِّرين؟

إن المؤمن كلما تأمَّل في أفعال الله بالأمم الماضية، وتأمل في الحياة، وكيف قدَّر الله الأقدار؛ امتلأ قلبه إجلالاً وتعظيماً لحكمه في تصريف شؤون الخلق، وعلم أن ما يخفى من الحِكَم أعظم مما يظهر للناس، وكلما استشعر قلبه تلك الحكم والمقاصد اطمأنَّ وزاد يقينه بربه.

ومن ذلك ما يقدره الله تعالى بحلول المصائب والنكبات، فإن لها حِكَماً جليلة، منها: ظهور كمال علم الله وقدرته وعجز الإنسان وفقره وضعفه، وذلك حين يعجز الإنسان عن دفع الضر عن نفسه، وهو يظن أنه استكمل أسباب الوقاية والحذر، وحين لا يدفع حيٌّ عن نفسه موتاً، وحين لا يدفع غنيٌّ عن نفسه مرضاً، وحين تقع الزلازل والبراكين في ثوانٍ معدودة تهزُّ الأرض ومن عليها ثم تغير معالمها، وتقف أمامها قوى المخلوقين مشدوهة قاصرة، فسبحان من لا تخفى عليه خافيةٌ في السماء ولا في الأرض.

ومنها: تمكين الكافرين وتسلطهم على المؤمنين، ففي ذلك ابتلاء تظهر فيه عبادات كثيرة منها: شعيرة الجهاد بالنفس والمال، والصبر على الأذى في سبيل الله ومصابرة الأعداء، وصدق التوكل على الله، وحقيقة الإخلاص له في الدعاء، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [مُحَمَّد: ٤]، وقال

(١) كتبه: سلمان بن عمر السنيدي، مؤلف كتاب تدبر القرآن.

تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البَقَرَة: ٢١٤].

ومنها: ما يصيب المجتمع المسلم من فتن ومصائب، ففي ذلك تمحيصٌ للمجتمع المسلم، وتمييز للصادق من المنافق؛ فإنَّ حال الرخاء لا يظهر فيها الصادق من الكاذب، ولا يُعرف المؤمن من المنافق، فاقتضت حكمة الله أن تتغير بعض الأحوال ليعرف المؤمنون أحوالهم، وتتمايز صفوفهم؛ وليكون جزاء المنافق على ما كسب من قول وعمل، قال الله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عِمْرَان: ١٥٤].

ومنها: أن في المصائب تطهيراً لأهل الإيمان وتكفيراً لسيئاتهم، التي تكون سبباً لدخولهم الجنة أو رفعة لمنازلهم فيها، قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عِمْرَان: ١٩٥].

وفي الصحيح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**ما يصيب المسلم من نَصَب ولا وصب ولا همٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذى ولا غمٍّ حتى الشَّوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه**»[(١)].؛ ولهذا المعنى قال إبراهيم المقرئ لما رفسته بغلته فكسرت رجله: (لولا مصائب الدنيا قدمنا على الله مفاليس)[(٢)].

ومن حكم الله في تغيير الأحوال وحدوث المصائب والنكبات: أن فيها عبرة للمتكبرين،

(١) البخاري (٥٦٤١).

(٢) شعب الإيمان: ١٢/ ٣٥١.

وإنذار للمعرضين لعلهم يرجعوا إلى ربهم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الأَحْقَاف: ٢٧].

ومن الحكم في الأقدار المؤلمة والمصائب: أنها عقوبةٌ معجلة على بعض معاصي الناس، كما قال الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الرُّوم: ٤١].

وهذه الحكم العظيمة لا يحيط بها إلا الله، فكم في حجب الغيب من فتح وفرج ونصر ورحمة!

ومن رحمة الله بعباده أن أطلعهم على شيء من حكمته البالغة؛ ليزيد المؤمن إيماناً بربه، فكما هو حكيم في خلقه وتقديره، هو حكيم في شرعه وأمره، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

المجلس التاسع والثمانون

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴾[1]

هذا خبر من العليم الخبير، فيه بيانٌ لحقيقة هذا الإنسان، الذي خلقه الله من علق، وعلَّمه ما لم يكن يعلم، فمع ما أنعم الله به عليه من النعم التي من أجلِّها ما ذكر من نعمة الخلق والتعليم، إلا أنه يقابل هذه النعم بالكفر والجحود، ويتجاوز حده فيطغى ويتكبر ويعاند ويتمرد، خاصةً عندما يرى نفسه مستغنياً غير محتاجٍ لأحد.

إن القارئ المتدبر لهذا الخبر المؤكد يتعامل مع ما دلت عليه هذه الآية من جهتين:

الأولى: قلبية: بأن يصدِّق بما أخبره الله به تصديقاً جازماً، يزداد به إيمانه، ويقوى به يقينه.

وهذا هو المنهج التدبري الذي ينبغي التعامل به مع كل ما أخبر الله به في كتابه: أنْ يقابل بالتصديق الجازم، ومن سلك هذا المسلك، واستحضره بقلبه عند كل خبرٍ من أخبار الله تعالى؛ فإنه ينال نصيباً وافراً من منزلة الصديقية، فلا يزال يصدق ويصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقاً. ويا لها من منزلةٍ رفيعة شريفة!

الجهة الثانية: سلوكية عملية، وذلك بأن يحذر من الطغيان الذي ذمَّ الله به الإنسان، ويتجنب أسبابه، ويجتهد في القيام بما يقضي على هذا المرض الخطير إن وُجدت علاماته وأعراضه.

والمتدبر لهذا الخبر في سياقه الذي ورد فيه سيجد أن أسباب هذا الطغيان ترجع إلى أصلٍ واحدٍ، وهو شعور الإنسان بالاستغناء، وهذا ما صرحت به الآية الكريمة التي تلت هذا الخبر مباشرة: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ [العَلَق: ٦ - ٧].

---

(١) كتبه: محمد بن عبد الله بن جابر القحطاني.

والاستغناء هو شدة الغنى، وهو الحال الذي يرى فيه الإنسان نفسه غير محتاج لأحد، وهي حالةٌ نفسية خطيرة، تؤدي إلى التكبر والتساهل في ظلم الآخرين والاستخفاف بهم والتعدي على حقوقهم.

وجميل ومهم ما أورده العلامة القاسمي في تفسيره تعليقاً على هذه الآية، حيث قال ما مختصره: (دلت الآية على قاعدة عظيمة في باب التموُّل المحمود، قررها الحكماء المصلحون، وهي أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير. قالوا: لأن إفراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة في الإنسان، كما نطقت به الآية الكريمة.

قال بعض الحكماء: التمول لأجل الحاجات محمود بثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يكون إحراز المال بوجهٍ مشروع حلال.

والشرط الثاني: أن لا يكون في التمول تضييق على حاجات الغير، كاحتكار الضروريات، أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء، أو التغلب على المباحات.

الشرط الثالث: هو أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير، وإلا فسدت الأخلاق؛ ولذلك حرمت الشرائع السماوية كلها والحكمة السياسية والأخلاقية والعمرانية أكل الربا، وذلك لقصد حفظ التساوي والتقارب بين الناس في القوة المالية؛ لأن الربا كسب بدون مقابل مادي، ففيه معنى الغصب وبدون عمل؛ ففيه الألفة على البطالة المفسدة للأخلاق، وبدون تعرض لخسائر طبيعية كالتجارة والزراعة والأملاك، دع أن بالربا تربو الثروات، فيختل التساوي بين الناس... انتهى)[1].

وأما الأمور التي يحصل بها علاج هذا المرض فيمكن حصرها في ثلاثة دلت عليها

(١) محاسن التأويل: ٩/ ٥١١-٥١٢.

آيات سورة العلق:

الأول: الإيمان بالآخرة وتذكر الرجوع إلى الله، وهذا ما أفاده ودلّ عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العَلَق: ٨]، فكلما قوي الإيمان بالآخرة، وزاد اليقين بالرجوع إلى الله؛ قلَّ الطغيان واضمحل.

الثاني: العلم الجازم برؤية الله لعبده وقدرته عليه، فالله يرى هذا الإنسان، وهو قادر على إهلاكه وأخذه. وهذا ما أشارت إليه الآيات الكريمة في نفس السياق، حيث قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العَلَق: ١٤ - ١٨].

الثالث: العلم النافع الذي يثمر الذل والخضوع لله تعالى، وهذا مستنبطٌ من الآيات التي افتتحت بها سورة العلق، والآية التي اختتمت بها، ففي مطلع هذه السورة قال الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العَلَق: ١ - ٥]، وفي آخرها قال سبحانه: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العَلَق: ١٩]. والسجود لله والاقتراب منه لا يجتمعان مع الطغيان أبداً.

المجلس التسعون

﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾[1]

نعيش في هذا المجلس في رحلةٍ تدبرية مع آيةٍ كريمة أنزلها الله تعالى في أول سورة نزلت من كتابه وهي سورة العلق، آية هي محطُّ رحل العبد في مسيره لربه، هي قوله تعالى: ﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ﴾ [العَلَق: ١٩].

ولنا مع هذه الآية وقفات تدبرية نقتبس من أنوارها وننهل من معينها؛ عسى أن تمسَّ شغافَ قلوبنا أنوارُها.

الوقفة الأولى: مع معاني الآية ودلالاتها

هذه الآية نزلت في أمر النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ حين هدَّده أبو جهل بقوله: لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن عنقه، فقال الله ﴿ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ﴾ [العَلَق: ١٩][2]. ومعنى الآية: لا تلتفت إلى نهيه لك عن عبادة ربك، واسجد لربك بصلاتك له، واقترب إليه بسجودك وبالطاعة.

هذه الآية الكريمة جاءت في آخر سورة العلق التي افتتحت بـ أقرأ، فتأمَّل كيف افتتحت السورة بالعلم واختتمت بالعمل؛ ليدل على أن العلم الصحيح هو ما تبعه العمل.

تأمل تخصيص السجود دون الصلاة في السورة؛ ذلك أنه سرُّ الصلاة والركن الأعظم فيها، ولكونه محط رحل المصلي بين يدي ربه.

---

(١) كتبه: د. محمد بن عبد الله الربيعة.

(٢) ينظر: تفسير ابن جرير: ٢٤/ ٥٢٧.

في قوله واقترب عناية من الله لنبيه ولكل مؤمن وأي عناية، إنها نداءٌ بالقرب منه والتقرب إليه، إنها كلمة وأي كلمة تختصر المسافات الطويلة بينك وبين الله لتصلك به مباشرة.

تضمنت هذه الكلمة معنيين: معنى التقرب إلى الله بالطاعات، ومعنى القرب من الله منزلة وفضلاً، وهما متلازمان، فالتقرب إلى الله تعالى سبيل للقرب منه منزلة وفضلاً.

في قوله واقترب دلالةٌ على أن الاقتراب إلى الله يستلزم ابتعاداً عن كل ما ينافي التقرب إليه وما يصرف القلب عنه، فهل استشعرت ذلك وحققته؟

الوقفة الثانية في ظلال الآية:

في حقيقة السجود: قال البهوتي: (والسجود غاية التواضع؛ لما فيه من وضع الجبهة، وهي أشرف الأعضاء على مواطئ الأقدام؛ ولهذا كان أفضل من الركوع)[1].

في فضائل السجود:

ورد في فضل السجود أحاديث منها قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء**»[2].

في سجود القلب:

قال ابن القيم: (قيل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟ قال: نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء، فهذا سجود القلب، فقلبٌ لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه، إذا سجد القلب لله هذه السجدة العظمى سجدت معه جميع الجوارح،

(١) شرح منتهى الإرادات: ١/ ١٩٥.
(٢) مسلم (٤٨٢).

وعنا الوجه حينئذ للحيِّ القيوم، وخشع الصوت والجوارح كلها وذل العبد وخضع واستكان ووضع خدَّه على عتبة العبودية ناظراً بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم...)[1].

الوقفة الثالثة: أثر الآية في حياتنا:

في زمن الطغيان والفتن وأذية الطغاة للمؤمنين ينبغي أن ينشغل المؤمنون بالإقبال على عبادة ربهم والإعراض عن الجاهلين، وتأمَّل كيف أمر الله نبيه في مواجهة تهديد أبي جهل بقوله كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب.

في زماننا ترى في المسلمين ضعفاً في عبوديتهم وبعداً وابتعاداً عن ربهم، ترى مظاهر من توسُّلهم بغير ربهم وتعلُّقهم بالمخلوقين، فأين هم من السجود بين يدي ربهم؟

في زماننا كثرت الهموم وتعقدت المشاكل، ولا سبيل لحلِّها وكشفها إلا بتوجُّه القلب إلى الله تعالى واتصاله به والسجود هو مفتاح الاتصال الحقيقي.

الوقفة الأخيرة ختامه مسك... همسةٌ في آذان الساجدين

لحظات السجود لحظات صفاءٍ وصلة ولذة لا تساويها لذة ولا يعادلها صفاء، إنها جنة الدنيا. فهل تذوقتها أيها المسلم في سجودك؟ قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: (إن في الدنيا جنة من لم يذقها، لم يذق جنة الآخرة)[2].

(١) مدارج السالكين: ص٤٢٩.

(٢) المستدرك على مجموع الفتاوى: ١/ ١٥٣.

المجلس الحادي والتسعون

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1]

هل تساءلت -أخي المسلم القارئ- يوماً عن سرِّ تخصيص المتقين بهداية القرآن في قوله تعالى: هدى للمتقين؟ وهل سألت نفسك وأنت تقرأ هذه الآية: ما المراد بالمتقين هنا؟ وكيف أحقق هذا الوصف المتعلق بهداية القرآن؟

قال تعالى: في أول سورة البقرة ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البَقَرَة: ٢] تأمل كيف وصف الله تعالى كتابه بأربع صفاتٍ دالةٍ على كماله وهي كمال علوِّه بقوله: ذلك، وكمال مضمونه بقوله: الكتب وهو دلالةٌ على استغراقه وتضمنه للكتب السماوية كلها، وكمال سلامته من النقص والخطأ والشك؛ ولذلك قال: لا ريب فيه ما أكمل هذا الكتاب العظيم الذي جعله الله هدى للمتقين.

هذا القرآن لعظمه وعلوِّ مكانته وكماله لا يناله إلا من كمَّل نفسه بالتخلي عن موانع الانتفاع والاهتداء بالقرآن، وتحلَّى بأسباب الانتفاع والاهتداء.

أما موانع الانتفاع: فمنها الكفر والشك والنفاق والرياء والغفلة والشهوة والشبهة والانصراف والتولي والإعراض عن القرآن، والكبر والمعاصي بأنواعها، فحذار حذار أخي المسلم من هذه الموانع التي هي أقفال على القلب تمنع من التدبر والاهتداء، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [مُحَمَّد: ٢٤].

(١) كتبه: د. محمد بن عبد الله الربيعة.

أما أسباب الانتفاع: فمنها الإيمان والإخلاص والتصديق والتعظيم والإقبال وصفاء القلب بالتوحيد واليقين مع الإتيان بالأسباب الحسية، كالتطهر والاستعداد والاستماع والإصغاء والتدبر وغير ذلك.

فالتقوى المقصودة هنا الانتفاء من موانع الانتفاع والاهتداء، والتحلي بأسباب الانتفاع والاهتداء.

قال ابن القيم في كلامٍ جامع نفيسٍ حول أسباب الانتفاع بالقرآن وموانعه: (إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلَّم به سبحانه منه إليه، فإنه خطابٌ منه لك على لسان رسوله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧])[1].

(١) الفوائد: ص٣.

المجلس الثاني والتسعون

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِ ﴾[1]

قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [البَقَرَة: ١٨٩]، إذا تأمَّل المتدبرُ هذه الآية الكريمة، وتفكَّر فيها؛ فإنه سيظهر له أنها قد تضمنت ثلاثة أقسام مهمة:

(الأول: سؤالٌ وجواب. الثاني: نفيٌ وإثبات، والثالث: أمرٌ وتعليل).

وسأقتصر في هذا المجلس على بيان بعض الفوائد المهمة التي اشتمل عليها القسم الأول فقط، وهو قول الله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ ﴾.

أخبر جلَّ وعلا أنه وُجِّه للنبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سؤالٌ من طائفة لم يرد في الآية ما يدل على تحديدها، وكان السؤال عن الأهلَّة: ما فائدتها؟ وما الحكمة من اختلاف أحوالها؟

وبعد هذا الخبر جاء الأمر للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يجيب عن هذا السؤال، وأن يخبرهم بأن هذه الأهلة جعلها الله مواقيت للناس والحج، (فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم، ولمناسكهم وحجِّهم، ولعدة نسائهم ومحل دينهم في أشياء، والله أعلم بما يُصلح خلقه)[2]. كما قال قتادة.

فباختلاف أحوال الهلال تعرف الأوقات التي يحتاجها الناس لأمور دينهم ومعاشهم.

---

(١) كتبه: د. محمد عبد الله القحطاني.

(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٣/ ٢٨٠.

وفي هذا فوائد مهمة:

أولها: أهمية السؤال، وأن من حق الناس أن يسألوا عما يهمهم ويَشْغَلُ تفكيرهم، مع الحرص على اختيار المسؤول المناسب، وألا يوجه السؤال إلا إلى عالمٍ ناصحٍ ثقة.

الثانية: ضرورة الإجابة عن أسئلة الناس، وأن ذلك من مهمَّات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعلى ورثته من بعده أن يقوموا بهذا الواجب؛ حتى يكونوا من أتباعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقاً.

الثالثة: في الإجابة عن السؤال عن الأهلة بهذا الجواب الحكيم الذي يتعلق بما يحتاجه الناس عملياً، وترك الخوض في التفاصيل العلمية الفلكية التي لا يحتاجها الناس إشارةٌ صريحةٌ إلى هدف القرآن الكريم ومقصوده الأعظم، وهو هداية الناس وإصلاح عقولهم، وتزكية نفوسهم، فلا ينبغي أن تحمَّل آيات الكتاب الحكيم ما لا تحتمله من المعاني والتفسيرات العلمية الحادثة، ولا حاجة للتكلُّف في تنزيل آياته على نظرياتٍ علمية ظنيةٍ تصيب وتخطئ؛ فالقرآن أجلُّ وأرفع وأعظم من هذه العلوم والنظريات.

الرابعة: أن الله تعالى قد جعل الأهلَّة علامة لمعرفة المواقيت الشرعية والدنيوية للمسلمين، وهذه العلامة متوافقة مع طبيعة هذا الدين الكامل، الذي هو دين الفطرة التي فطر الناس كلهم عليها، فعلى المسلم أن يعتز بدينه، وأن يحافظ على الطريقة التي ارتضاها الله له في معرفة التاريخ والمواقيت.

المجلس الثالث والتسعون

﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد،

فقد ذكر الله عزَّ وجلَّ وَعْد الشيطان بالفقر وأَمْرَه بالفحشاء، ووعْد الله بالمغفرة والفضل، ثم قال: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٩]، وفي هذا الترتيب إشارة إلى أن من فضل الله الواسع العليم، إيتاؤه الحكمة، فمن وفِّق إليها فقد وفِّق لخيري الدنيا والآخرة، وأسباب السعادة فيهما، وقد فُسِّرت الحكمة في الآية بتفسيراتٍ منها النبوة، ومنها علم القرآن، ومنها الفقه فيه، ومنها العلم بالدين، ومنها ما جاء به النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنها الورع، ومنها الخشية، ومنها الفهم والفطنة، ومنها الإصابة في القول والعمل، ومنها وضع الشيء في موضعه.

والصحيح أن الحكمة تجمع ذلك كله، ومن قال هي إصابة الحق بالعلم والعمل ينتظم قوله جميع ما تقدم، وهو في معنى قول من قال: هي العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها، وهذا أشمل من القول بأنها فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي.

فهذا حدٌّ جامعٌ للحكمة في الأفعال، وأصل الحكمة المنع من الانقياد لداعي الجهل والهوى، فأهلها على نور من ربهم في اعتقاداتهم، وأعمالهم وأقوالهم، ثم هم في هذا الخير مراتب ودرجات، في أعلاها الأنبياء والصديقون، وقد نوَّه الله ببعضهم حيث قال: فقد ﴿ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [النِّسَاء: ٥٤]،

(١) كتبه: أ. د. ناصر بن سليمان العمر.

وقال عن داوود ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ [البَقَرَة: ٢٥١] ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠]، ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الزُّخْرُف: ٦٣] وقال عن العبد الصالح لقمان: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ [لُقْمَان: ١٢].

والحكمة منها ما هو محض موهبةٍ وفضلٍ من الله، ومنها ما يوفَّق له المكتسب بالطلب إذا صدق وجدَّ في طلبها من الله، فاجهدْ في أسباب تحصيلها، بالعلم النافع، المقتضي للعمل الصالح، وادأبْ على سؤال الحكيم العليم سبحانه أن يعلِّمك الحكمة، إنه سميعٌ مجيب.

المجلس الرابع والتسعون

﴿ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده، وبعد:

فإن مقام الدعوة إلى الله من أجل المقامات، وأعلى المناقب، ولا أدل على مكانته الشريفة، ورتبته المنيفة إلا أنه الغاية من إرسال الرسل، فالداعية بالمقام الأول وارثٌ حظاً كبيراً من ميراث النبوة.

والداعون إلى الخير هم صفوة الخلق، ووظيفتهم على الوجه الصحيح اصطفاء من الله، فما كل أحدٍ يستطيع القيام بهذه المهمة بأعبائها إلا من علم الله صلاحيته لذلك، كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ولو لم يكن من شرف الدعوة إلى الله إلا قوله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [فُصِّلَت: ٣٣] أي: فلا أحد أحسن قولاً من هؤلاء.

وهي كذلك سبيل النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ [يُوسُف: ١٠٨] وقد اصطفى الله سبحانه وتعالى من أتباع الأنبياء أناساً ما هم بأنبياء، ولكنهم يقومون بوظائف الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٠٤] تأمل في جمال قوله تعالى: يدعون إلى الخير إلى التوحيد، إلى المكارم، إلى الفضائل، يغرسون في عقول الناس القيم الصحيحة، ويزرعون في نفوسهم الأخلاق الحميدة، ويرغِّبونهم في الفضائل، ويقبِّحون لهم الرذائل.

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

وتأمل كيف قدَّم (الدعوة إلى الخير) على (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)؛ فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يرجعان إلى الدعوة إلى الخير؛ فكل أمرٍ بمعروفٍ فهو دعوة إلى الخير، وكل نهيٍ عن منكرٍ فهو متضمن للدعوة إلى الخير كذلك.. فهذه الآية فذَّة جامعة لكل ما يقرب من الله، ويبعد عن سخطه.

فهنيئاً لمن شرَّفهم الله بهذا المقام الجليل.

اللهم اجعلنا من الدعاة إليك على هدى وبصيرة.. وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الخامس والتسعون

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده، وبعد:

فمن الالتفاتات المدهشة في القرآن أن الله جلَّ جلاله لما ذكر أحكاماً في سورة النساء تتعلق بالمحرمات في النكاح، وبعض أحكام العقد والمهور، وأن هذا جاء إرادةً من الله لبيان العلم للناس، وهدايةً لهم، قال بعد ذلك متفضلاً على عباده وممتناً ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [النِّسَاء: ٢٧]، وذلك أنهم كانوا في جاهليتهم يستحلون نكاح حلائل الآباء والأبناء، فلما حرم عليهم ذلك أخبرهم أنه يريد أن يتوب عليهم، ويعفو عما سلف من آثامهم، وما مضى من جاهليتهم، وأنه بذلك يخرجهم من طريق الغواية والضلال إلى سبيل الهداية والرشاد... وفي هذه الآية لطفٌ بالغ، وعنايةٌ عظيمة، ورحمةٌ كبيرة من الرحيم الرحمن.

ومن تدبر هذه الآية، وقلَّب فيها نظره، وأجال فيه فكره، وجد أن الله سبحانه وتعالى في أحكامه الشرعية يذكر أنه يريد بذلك رحمةَ خلقه، والإحسانَ إليهم، والتوبة عليهم.

وأي شيءٍ أعظمُ من أن تكون إرادة الله بنا أن يتوب علينا، فيمحو زلاتنا، ويغفر ذنوبنا، ويقيل عثراتنا، ويعفو عن سيئاتنا؟! وأعظم من ذلك كله أنه يفرح بتوبة التائبين، وهو عنهم غنيٌّ!

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

وهكذا.. لو تفكَّر كل مسلمٍ فيما حرَّم الله عليه، لوجد أن الله ما أراد به إلا خيراً حين نهاه، وأن العطبَ كلَّ العطبِ في تقحُّم أسوار الخطايا والآثام، وأن هذه هي محض إرادة أصحاب الشهوات، فشتان بين إرادة الله لعباده، وإرادة أصحاب الشهوات للخلق.

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ﴾ [النِّسَاء: ٢٧].

اللهم أصلح قلوبنا، واغفر ذنوبنا، وتُب علينا، واهدنا سبل السلام، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس السادس والتسعون

﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[1]

هذه الآية الكريمة واردةٌ في سياق قصة ابنَي آدم عليه السلام في سورة المائدة، حينما قرَّبا قرباناً فتُقُبِّل من أحدهما ولم يُتقبَّل من الآخر، فقتل الثاني أخاه الذي تقبل الله قربانه حسداً له وظلماً، وكان أول من سنَّ القتل.

يقول الله تعالى بعد ذكر هذه القصة: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ [المَائِدَة: ٣٢].

ففي هذه الآية الكريمة يبين الله عز وجل أن من قتل نفساً معصومةً بغير حق، فهو كمن قتل الناس جميعاً؛ لأن من استباح نفساً معصومة غير مستحقة للقتل، فهو حريٌّ بالاستهانة بغيرها.

وهكذا من أحيا نفساً بأن امتنع عن إزهاقها ظلماً وعدواناً أو استنقذها من القتل والهلاك بغير حق، فهو كمن أحيا الناس جميعاً؛ لأنه بلا شك حريصٌ على حفظ غيرها من النفوس.

وقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة في التأكيد على حفظ الدماء المعصومة: وهي دماء المسلمين وأهل الذمة والمستأمنين، إلا إذا وجد مسوغٌ شرعيٌّ لقتلها كالقصاص والحدود.

---

(١) كتبه: أ. د. إبراهيم بن صالح الحميضي.

بل إن الإسلام جعل قتل النفس بغير حق أعظم الذنوب بعد الشرك بالله تعالى، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ [الفُرْقَان: ٦٨].

فهذه الذنوب الكبائر المذكورة في الآية هي أعظم الذنوب على الإطلاق، وأولها الشرك بالله، وثانيها قتل النفس بغير حق، وثالثها الزنا، وقد دلت السنة على ذلك كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خَلَقَكَ. قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَمَ معك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تُزاني حَلِيلَة جارك ثم قرأ هذه الآية**»(١).

وهذا ردٌّ على أعداء الإسلام الذين يتهمون الشريعة الإسلامية بالعنف والدعوة لسفك الدماء.

(١) البخاري (٦٠٠١)، مسلم (٨٦).

المجلس السابع والتسعون

﴿ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده؛ وبعد:

فإنَّ الله خلق الموت والحياة؛ ليبلو عباده أيُّهم أحسن عملاً ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [المُلك: ٢] فالحياة ابتلاءٌ واختبار؛ ليعلم الله الذين جاهدوا فيه ويعلم الصابرين.

وإن من أعظم مواطن الامتحان؛ أن يُبتلى الإنسان بشيء يحبه ويهواه في الخلوات، وهو مما حرمه الله عليه، ولنتأمل قول الله تعالى في هذه الآية الكريمة في سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المَائِدَة: ٩٤] ولنتخيَّلْ كيف أن الله أخبر المؤمنين السابقين أنه سيبلوهم ويختبرهم بشيءٍ مما يحبونه؛ وهو الصيد، وهو حلالٌ في أصله، لكنه حرامٌ على المحْرِم، ثم يخبرهم أن هذا الصيد سيكون في متناول أيديهم، أو مما تناله رماحهم، فهو قريبٌ منهم جداً، ونفوسهم تدعوهم لصيده والاستمتاع بلحمه اللذيذ مع التعب والسفر، ثم يخبر سبحانه أن سبب هذا الابتلاء ليعلمَ من يخافه بالغيب ممن لا يخافه بالغيب، فيا لله! يلتفت غاية اليمين فلا يرى أحداً، ويلتفت غاية الشمال فلا يرى أحداً، وينظر خلفه وأمامه فلا يرى أحداً، ثم يرى الحيوانات البرية اللذيذة تتمشى بين يديه.

فهل ينجح في هذا الامتحان إلا من راقب الله وخافه بالغيب؟!

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

وهل يكون تحقيق صدق الخشية إلا في الخَلَوات؟!

ولنتدبر هذه الآية، ولننظر ما الذي تناله أيدينا في زمن الانفتاح، وما الذي نقدر على فعله في الخلوات، وما الذي تزيِّنه لنا نفوسنا من الشهوات، ولا يرانا من البشر أحد أبداً.. ثم لنعرض أنفسنا على هذا الامتحان.

فمن يراقب الله ويخافه بالغيب؛ توقَّف عند حدوده مستشعراً نظر الله إليه، ومن يراقب الناس فإنه لا ينتظر إلا غفلته ليفعل بعد ذلك ما يشاء!

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، واملأ قلوبنا خوفاً منك ورجاء فيك، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الثامن والتسعون

﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده؛ وبعد:

فإن من بلاغة القرآن وعظمته؛ أنك تجد فيه كلاماً قليل الحروف والمباني، كثير الأحكام والمعاني، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ [الأنعام: ١٢٠] فإنَّ هذه الآية الفذة شاملةٌ للنهي عن كافة أنواع الذنوب والمعاصي والسيئات، ومن تدبَّرها وعمل بها، كان من الصديقين الذين يخشون الله في السر والعلن، حتى قال الإمام القرطبي في تفسيره عند هذه الآية: (وهذه المرتبة لا يبلغها إلا من اتقى وأحسن)[2].

فهذا نهيٌ عظيم من الله سبحانه وتعالى لعباده أن يذروا ظاهر الإثم وباطنه، فإن للإثم ظاهراً: وهي ذنوب البدن والجوارح عامة، أو ما يجاهر به صاحبه.... وباطناً: وهي ذنوب القلب، كالحسد والغلِّ وسوء الظن ونحوها، أو ما يخفيه العبد من الذنوب في السر والخلَوات.

فمن ترك ظاهر الإثم وباطنه، كان صدِّيقاً، مراقباً لله، متقياً له حيثما كان، وينال بذلك الفوز العظيم، والأجر الكبير.

وأكثر ذنوب الناس إنما هي في (باطن الإثم) لا في ظاهره؛ فإنَّ خَلْقاً كثيراً يتنزهون عن (ظاهر الإثم) لكن تقل مراقبتهم لله في الغيب والخلوات؛ ولذلك أثنى الله على من يخافه في خلوته، ووعده بالأجر بالكبير، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٧٤.

مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [المُلْك: ١٢]؛ وذلك أن الخلوات هي محكُّ الخشية الحقيقي، فمن خشي ربه في الغيب، خَشِيه في الشهادة من باب أولى، ومن راقب نظرات الناس فقط، ضعفت مراقبته لله في الخلوة.

ومما ينبغي التفطُّن إليه؛ أن من أعظم الإثم الباطن هو الإصرار على المعاصي، وذلك أن المصر على المعصية قد عقد قلبه على مخالفة مولاه، وهذا إثمٌ باطن، ولو لم يذنب الذنب الذي يُصرُّ عليه.

وعليه فلن يكون العبد سالماً من ظاهر الإثم وباطنه حتى يكون قلبه عازماً على عدم مقارفة الذنوب إلا ما يقع فيه بجهالة.

اللهم إنا نعوذ بك من مقارفة الآثام ظاهرةً وباطنة يا قريب يا مجيب، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس التاسع والتسعون

﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾[1]

هذه الآية الكريمة وردت في سورة الأعراف المكيَّة تضمنت عدة مدلولات عظيمة؛ وفيها تعريض بالذين أُخِذَ عليهم ميثاق الكتاب من أهل الكتاب ودرسوا ما فيه، ثم هم لا يتمسَّكون بالكتاب الذي درسوه، ولا يعملون به.

لكن هذه الآية تبقى عامةً تعطي مدلولها كاملاً لكل جيل، ولكل حالة على مرِّ العصور.

فهي تصور مدلولاً واضحاً يكاد يُرى مدلولاً يوحي بوضوح أهمية التمسك بالكتاب بقوة؛ ولهذا نجد أن قراءة الجمهور لـ (يمسِّكون) بالتشديد فيها صبغة لفظية خاصة، توحي بمعنى التكرير والتكثير للتمسك بكتاب الله تعالى وبدينه، وهذا التمسك كما تفيد هذه القراءة يحتاج إلى الملازمة والتكرير لفعل ذلك، وهذا من أسباب الثناء عليهم[2].

و الجد والقوة في التمسك بكتاب الله لا تنافي اليُسر والسُّهولة، ولكنها تنافي التميُّع والتساهل، ولا تنافي سعة الأفق ولكنها تنافي الاستهتار، ولا تنافي مراعاة الواقع، ولكنها تنافي أن يكون (الواقع) هو الحَكَم في شريعة الله، وتأمل في وصية الله لأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم وقومهم أن يأخذوا ما أوتوا بقوَّة في آياتٍ كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مَرْيَم: ١٢] وقوله لبني إسرائيل: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [البَقَرَة: ٩٣] وقوله لموسى: ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأَعْرَاف: ١٤٥].

---

(١) كتبه: الشيخ عبد اللطيف بن عبد الله التويجري.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٧/ ٣١٣.

والتمسك بالكتاب في جدٍّ وقوةٍ مع إقامة الصلاة -أي شعائر العبادة- هما طرفا المنهج الرباني لصلاح الحياة، وخص الله الصلاة هنا بالذكر بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الأَعْرَاف: ١٧٠] لفضلها، وشرفها، وكونها ميزان الإيمان، وإقامتها داعيةٌ لإقامة غيرها من العبادات[١].

والثناء على المصلحين الذين وردوا في الآية يشير إلى هذه الحقيقة؛ حقيقة أن الاستمساك بقوة بالكتاب عملاً، وإقامة شعائر العبادة؛ هما أداة الإصلاح الذي لا يضيع الله أجره على المصلحين؛ لأنهم إذا قاموا بذلك أصبحوا لزاماً مصلحين لأنفسهم ولغيرهم.

والحياة لا تفسد إلا بترك طرفي هذا المنهج الرباني: ترك الاستمساك الجاد بالكتاب، وترك العبادة التي تصلح القلوب.

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي: ص٣٠٧.

المجلس المئة

﴿ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ ﴾[1]

تمرُّ على الإنسان فرصٌ كثيرةٌ: يتعلق بعضها بالطاعات، كما يتعلق بعضها بالعلم والتعلم، إضافة إلى فرص مختلفة في الحياة.

يتعامل الناس مع هذه الفرص بطرائق مختلفة، فمن مبادرٍ مستعدٍّ لها، ومن مضيِّعٍ غير مكترثٍ بها، فتفوت عليه مغانمها، وربما وقع في مغارمها، وقسم ثالث لم يأخذ الأمر بقوة، فأدرك منه نصيباً، لكنه كان قادراً على تعظيم أرباحه منه بَيْدَ أنه لم يفعل.

إن التأمل في النصوص يجد أنها تدعونا لأخذ زمام المبادرة دائماً، والاستعداد المبكر، تأملوا معي قول الله تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ ﴾ [التَّوْبَة: ٤٦] تأتي هذه الآية تعقيباً على المنافقين الذين تخلَّفوا عن الجهاد مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، مظهرةً أن سبب التخلف عدم استعدادهم للخروج، مما يعني عدم اكتراثهم بالأمر الشرعي؛ لأنهم لو أرادوا الخروج لأعدُّوا له عدة.

هذه الآية تؤسس لمنهجٍ راقٍ في التخطيط للأعمال والخروج من دائرة الارتجال والفوضى التي تنخر في كيان الفرد والمجتمع وتصيبه بعوامل الضعف والانكسار في الأعمال والمشاريع حال حدوثها.

والاستعداد الذي تحدثت عنه الآية يشمل أمرين:

أحدهما: النية الصالحة، بأن ينوي المرء في عمله رضا الله سبحانه.

(١) كتبه: د. محمد بن مصطفى السيد.

والثاني: الاستعداد المادي، ويكون هذا الاستعداد لكل شيء بحسبه، تأمَّلوا حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**»[1]. وحين يعظم الهدف، يعظم الاستعداد له.

ومن الاستعداد المعرفة التامة بالأمر الذي تنويه والتركيز فيه، فإن لم يكن لديك تلك المعرفة، فالجأ إلى استشارة من تتوسَّم فيهم معرفة، تدلُّك على الطريق الصحيح من الراسخين في العلم والتجربة، ثم تُتْبِع الاستشارة الاستخارة؛ ليختار لك الله ما فيه خيرك وصلاحك في أمر دينك ودنياك.

إن أحد أهم سلبيات عدم الاستعداد التردُّد والاضطراب في أداء العمل؛ ولذلك جاءت الآية السابقة لتؤكد هذا المعنى ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٤٥]، ونتيجة لذلك ربما فشل العمل أو لم يحقق تمام المقصود به.

❁ ❁ ❁

(١) الترمذي (٢٤٥٠)، الحاكم (٧٨٥١).

المجلس المئة وواحد

﴿ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ ﴾[1]

الحمد لله وليِّ الصالحين، والصلاة والسلام على إمام الصابرين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فمائة آية بل أكثر لم تكن لتنزل في غير أمرٍ جليل وشأنٍ عظيم؛ فلا نجاح ولا نصر في الدنيا، ولا فلاح ولا فوز في الآخرة إلا بالصبر، ومنزلته من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له، كما قال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والحديث عن الصبر وفضله وأنواعه لا يتسع له مقام كهذا، فيكفي الصابر أن الله معه ويحبه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البَقَرَة: ١٥٣]، ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٤٦]، ومن أجلِّ ما يكون الصبر فضلاً وأعظم ما يكون أثراً: إذا اتصف به الداعية إلى الله، فيما يلاقيه من منكرات وفتن ومعوِّقات تثنيه عن سبيله؛ ولذا فإن الله لما أمر نبيه بالاتباع، أتبعه بالصبر على ذلك؛ لأنه سيلاقي المعرضين والمعترضين، كما قال: ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ [يُونُس: ١٠٩].

قال ابن كثير: (أي تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس حَتَّى يَحكم الله أي: يفتح بينك وبينهم، وَهُوَ خير الحاكِمِينَ، أي: خير الفاتحين بعدله وحكمته)[2].

---

(١) كتبه: د. عبد الله بن منصور الغفيلي.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٣٠١.

قال السعدي: (وَاتَّبع أيها الرسول مَا يُوحَى إِلَيْكَ علماً، وعملاً وحالاً ودعوةً إليه، واصبر على ذلك، فإن هذا أعلى أنواع الصبر، وإنَّ عاقبته حميدة، فلا تكسل، ولا تضجر، بل دُمْ على ذلك، واثبت حتى يحكم الله بينك وبين من كذَّبك، وَهُوَ خَيْرُ الْحَكِمِينَ، فإن حكمه مشتملٌ على العدل التام، والقسط الذي يحمد عليه)[1].

فجاءت الآية بالأمر باتباع الوحي واليقين بموعود الله، وحسن الظن به، وهذا يغرس الصبر المأمور به في قلب المؤمن، ومتى كان ذلك كان الثبات على الحق والنصر، وكل من اتبع الوحي ابتلي بما ينبغي الصبر عليه، فمن صبر انتصر، ومن سخط خسر في دنياه وأخراه!

ولذا تكرر الأمر به وتثنى في غير ما آية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عِمْرَان: ٢٠٠].

فاللهم أوزعنا شكراً، وألهمنا ذكراً، واجعلنا من الصابرين.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي: ١/ ٣٧٥.

المجلس المئة واثنان

﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده؛ وبعد:

فإن سورة هود من أعظم سور القرآن التي نزلت على النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وفيها ذكرٌ لأخبار الأنبياء قبله وما لاقَوْه من أقوامهم، وعانَوْه من أممهم؛ جاءت تسليةً له، وتثبيتاً لقلبه، وموعظةً وذكرى للمؤمنين، كما قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [هُود: ١٢٠].

ومن أعظم الإرشادات والأوامر التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة بعد الانتهاء من قصص الأنبياء قوله تعالى: لنبيه الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾ [هُود: ١١٢]، فتعالَوا إلى ظلِّ هذه الآية نتدبر بعضاً من مواعظها وأسرارها.

فالآية تضمنت أمراً بالاستقامة، وهي إقامة النفس على الصراط المستقيم؛ وهو الإسلام بشرائعه وأحكامه، والمستقيم: هو المتمسك بشرائع الإسلام ظاهراً وباطناً.

وقد جاء ذكر الاستقامة في القرآن في قوله تعالى: في موضعين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾ [فُصِّلَت: ٣٠] وذكر لهم بشائرَ ومغانم.

ثم ذكر في هذه الآية التي أمر فيها بالاستقامة قيداً آخر؛ وهو أن الاستقامة لها ميزانٌ ثابت، وصراطٌ مستقيم لا اعوجاج فيه، فلا يكون المستقيم مستقيماً حقاً على شريعة الله إلا إذا كانت استقامته كما أمر لا كما أراد، فلذلك قال له: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾ [هُود: ١١٢]

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

ولم يقل له: (فاستقم كما أردت أو أحببت أو اشتهيت) فالاستقامة دينٌ متبوعٌ لم تضبط بالأذواق، ولا بالتشهِّي، ولا بالطبائع، بل فيها ما يوافق الهوى، وفيها ما تكرهه النفوس وتستثقله، فتتم عبودية المؤمن بإخراج نفسه من حرية الشهوات إلى رقِّ العبودية الحقة لله جل جلاله.

وهذه الآية أصلٌ في التزام الشرع والاتباع، ونبذ الأهواء والابتداع، فليكن نصب عين المؤمن الذي يروم طريق الاستقامة أن يتعرف على طريق الله المستقيم؛ ليعبد ربه على بصيرة، لا أن يتخبط في ظلمات الأذواق والأهواء، فيضل عن سواء السبيل.

اللهم اهدنا صراطك المستقيم، واجعلنا من ورثة جنة النعيم، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وثلاثة

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده؛ وبعد:

فإنَّ القرآن كله ذكر، والذكر من أيسر العبادات وأشرفها، فهو أيسر العبادات من جهة كونه لا يكلف الإنسان شيئاً إلا تحريك شفتيه، وأشرفها من جهة كونه إشغالاً للقلب واللسان بأعظم مذكور وهو الله جلَّ جلاله.

ولذلك فإن الذاكرين الله كثيراً والذاكرات هم أقرب العباد إلى ربهم ومولاهم.

ولو تدبرنا القرآن، لوجدنا أن الله عزَّ وجلَّ كثيراً ما يذكر الذِّكر في كتابه: أمراً به، وحثاً عليه، وثناءً على أهله، وبياناً لمنزلته وآثاره وفوائده الجليلة...

وقد ذكر الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب) أكثر من مائة فائدة من فوائد الذكر.

ووقفتنا في هذا المجلس التدبري مع آية من آيات الذكر، بين الله فيها فائدة عظيمة من فوائد الذكر، تصبو له كل نفس، ويتطلبها كل قلب؛ ألا وهي طمأنينة القلب.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرَّعْد: ٢٨].

ذكر سبحانه في هذه الآية أن المهتدين هم الذين آمنوا به، واطمأنت قلوبهم بذكره، ثم بيّن أن القلوب إنما تطمئن بذكر الله، فلا تطمئن بغيره!

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

وفي هذه الآية معنىً لطيفٌ يلامس شغاف القلب، وهو أنَّ اللسان قناةٌ إلى القلب، وقد تزول هذه القناة لأي سببٍ أو علةٍ ويبقى الإنسان حيّاً، لكن الذكر الذي يُورث الطمأنينة هو ما كان ناشئاً من القلب أولاً، فلا يعجز عنه حيٌّ أبداً إلا من كان محروماً، فإذا امتلأ القلب تعظيماً لله وإجلالاً؛ انبعث مع اللسان في الذكر، فحصلت الطمأنينة التامة.

اللهم اجعلنا ممن يذكرك ذكراً كثيراً، ويُسبِّحُك بكرةً وأصيلاً، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وأربعة

﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ ﴾[1]

سلامة الصَّدر نعمةٌ لا يُدركها إلا قلائل الناس، وهي في الوقت ذاته صورةٌ من صور النعيم التي يزهد فيها كثير من الخلق، ومن عجيب أمرها أن التنعم بها تخطَّى حدود الدنيا ليكون أحد صور النعيم في جنات الخلد، قال تعالى: ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ ﴾ [الحِجْر: ٤٧]، وهذه الجملة المصوِّرة لهذه النعمة تأتي واسطة العقد لمجموعة من صور النعيم التي أعدها الله للمتقين يوم يلقونه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٧ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴾ [الحِجْر: ٤٥ - ٤٨] هذه عشرة أنواع من النعيم للمتقين: الجنات، والعيون، والسلام، والأمن وسلامة الصدر، والأخوة، والتنعُّم بالسرر، والتقابل والسلامة من التعب، وعدم الخروج من ذلك النعيم.

وهذا الحشد من صور التنعم والراحة، توسطه قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ ﴾ لأن سلامة الصدر ونقاءه هو أسُّ السعادة وأصل الهناء، وتأمَّل أيضاً إلى فعل ونزعنا حيث إن المتحدث هو رب العالمين، فهو المتفضل بهذه النعمة على عباده المتقين، فمهما صفّى الإنسان قلبه، ونظَّف صدره؛ فلا بد أن يبقى شيءٌ يتناسب مع حال الدنيا بما فيها من الكدر والأذى، بينما في الجنة التي هي غاية النعيم بما فيها من صور التنعُّم لا يناسبها إلا النظافة الكاملة، وهنا يأتي النزع الذي يُشعر بإخراج الشيء من جذوره، بحيث لا يبقى له أثر، وهذا ما يعجز عنه البشر، ويتفضل به رب البشر على من يشاء من عباده في دار النعيم.

---

(١) كتبه. أ. د. عويض بن حمود العطوي.

والتعبير بـ (ما) في ﴿ مَا فِي صُدُورِهِم ﴾ تشير إلى كل شيء يمكن أن ينغِّص عليهم نعيمهم، ولما كان الصدر هو الموضع الذي يشعر فيه الإنسان بالهمِّ، فتجده أحياناً يزفر زفراتٍ لينفس عن ما في نفسه، قال تعالى: مَا فِي صُدُورِهِم.

ثم خصص بعد العموم فقال: من غل وذلك لأن الغل وهو الحقد، هو أعظم ما يجلب للإنسان التعاسة والبؤس وضيق الصدر، وما أعجب حال الناس يحملون في صدروهم ما يجلب لهم الأذى، ولو أنهم تسامحوا ونظفوا صدورهم، لسعدوا في الدنيا قبل الأخرى، ذلك لأن أقل الغل يمنع النعيم الكامل؛ لذا قال سبحانه في شأن الجنة: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ أَي: أيُّ جزءٍ من الغل.

واعلم يا مؤمن؛ إن أُنسك بالأصحاب والإخوان لا يكتمل إلا بهذه الصفة (سلامة الصدر)؛ لأن الله قال بعدها: ﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ فلم يذكر الأخوة والتقابل إلا بعد ذكر سلامة الصدر ونظافته.

فما أنت قائلٌ بعد هذا؟!

المجلس المئة وخمسة

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده؛ وبعد:

فإن حديث القرآن عن الآخرة، وفضلها، وعظيم منزلتها، وكونها أحق بالإيثار من الدنيا، حديث كثير الذكر، كثير الورود، بل إن (سورة الأعلى) من السور التي يُسن قراءتها في مواضع من الصلوات كصلاة الجمعة، وركعتي الشفع قبل الوتر، فيها تأكيد لهذه الحقيقة العظيمة، وهو أن حال أكثر الناس أنهم يؤثرون دنياهم مع زوالها على أخراهم مع خيريتها وبقائها، فيقول الحق ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأَعْلَى: ١٦ - ١٧].

وقفتنا في هذا المجلس مع إحدى هذه الآيات، التي تذكر المقارنات بين الناس في اختلاف المقاصد والنيات، فيقول الحق بعد أن ذكر حال من كان يريد العاجلة -وهي الدنيا- وأنه ليس له منها إلا ما كُتِبَ له، ذكر حالَ من يقابلهم وهم روَّاد الآخرة، فقال: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإِسْرَاء: ١٩] وإنَّك إن تأملت هذه الآية، لوجدت عجباً عجاباً في حسن سَبْكها، وجمال وَقْعها، واستكمالها لشروط العمل الصالح ففي أولها: و﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ فهذا ذكرٌ لنية القلب، وإخلاص القصد فيها، وَسَعَى لها فلا يكون المريد للآخرة صادقاً في إرادته حتى يُتْبِعَ إرادته بالسعي والعمل، وإلا كان ذلك مجرد ادِّعاء.

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

ثم لم تنته الآية هنا، بل قال الحق جلَّ جلاله: سعيها فأضاف السعي للآخرة، وهذا يحقِّقُ بعد شرط الإخلاص -لأن سعي الآخرة يكون خالياً من الرياء والتسميع- شرطَ المتابعة وعدم الابتداع، فليس كل سعيٍ يكون مقبولاً إلا سعيَ الآخرة، وهو صراط الله المستقيم، ثم قال: ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أي: بالله والدار الآخرة، مصدقٌ بوعد الله للمؤمنين، لا يشكُّ ولا يرتاب، فَأُولَئِكَ كَانَ سَعِيهُم مشكُوراً مقبولاً عند الله.

فتأمَّل.. كم في هذه الآية من العظة والتذكير والترغيب والترهيب.

اللهم اشرح صدورنا بتدبر كتابك، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وستة

﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده؛ وبعد:

هل لنا -معاشر الأكارم- أن نتخيل رجلاً قويم البدن، قسيم الوجه، طلع البهيَّة، إن مرَّ بطريق الناس، التفتوا إليه، وإن تحدث في مجلسهم، أصغَوْا إليه، وإن جاء في محفلهم، ابتهجوا به وقدَّموه... ثم يأتي يوم القيامة؛ هُوَ هُوَ لا يَزِنُ عند الله جناح بعوضة فيا للهوان ويا للذِّلة.

في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة... اقرءوا إن شئتم: فَلَا نُقِيمُ هُمْ يَوْمَ الْقِيَّمَةِ وَزْنَا**»[2].

نعم؛ هذه هي الآية التي سيدور عليها تدبرنا في هذا المجلس، فإنهم أناس يأتون يوم القيامة لا وزن لهم؛ فليس لهم حسنات ترفعهم، بل هم الأخسرون أعمالاً، ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٤] وسبب هذا الهوان يوم القيامة كما ذكره الله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴾ [الكهف: ١٠٥ - ١٠٦] فقد كفروا بآيات الله، وكفروا بلقائه في الآخرة، واتخذوا آيات الله ورسوله محل استهزاءٍ وتندُّرٍ، فيا الله، أين ذهبت منزلتهم في الدنيا؟! وأين ذهبت أبَّهاتهم؟! وأين صَولاتهم وجَولاتهم؟ وأين عِنادُهم وتحدِّيهم وكِبْرهم؟! كل ذلك زال واندثر، وأصبحوا لا يزنون جناح بعوضة.

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

(٢) البخاري (٤٧٢٩)، مسلم (٢٧٨٥).

فهل بعد هذا يغترُّ مسلمٌ بأبَّهة كافرٍ معاند؟! فأين أبو جهل الذي ملأ مكة سطوةً وعتوًّا؟! وأين فرعون الذي قال: أنا ربكم الأعلى؟ وأين عاد وثمود؟! وأين قارون والنمرود؟ وأين الملك الذي أحرق أصحاب الأخدود؟! سيأتون جميعاً يوم القيامة لا وزن لهم!

اللهم ثبِّتنا على دينك القويم، وصراطك المستقيم، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وسبعة

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده؛ وبعد:

فإن أول شيءٍ قد يلفت نظرك وأنت تقرأ هذه الآية، أن الله بعد أن ذكر في مطلع سورة الأنبياء -التي يسميها بعض العلماء سورة العبادة- أن حساب الناس قد اقترب، وأنهم في غفلةٍ معرضون، ذكر اللَّهو، وأضاف هذا اللهو إلى القلوب، ونحن لا يكاد يتبادر إلى أذهاننا عند سماع (اللهو) إلا لهو الجوارح، كأن تكون العين لاهيةً بالنظر إلى المحرمات وفضول المباحات، وأن تكون الأذن لاهيةً باستماع ما لا يحلُّ استماعه، أو مشغولةً بتتبُّع الأخبار المفضولة، والحكايات المرذولة، أو أن يكون اللسان لاهياً بالأحاديث المحرمة: من غيبةٍ ونميمةٍ ونحوها، أو بالكلام المفضول الذي قد يضرُّ ولا ينفع، أو أن يكون لاهياً بالتنقل من ملهىً إلى ملهىً، ومن مكانٍ لآخر بلا أهدافٍ دينية ولا دنيوية تعود عليه بالنفع في الدنيا أو الآخرة، بل لمجرد اللهو والعبث وإحراق الأوقات.. وهكذا في سائر لهو الأعضاء والجوارح.

هذا ما يتبادر في أذهان كثير منا عندما نسمع كلمة (لهو)، لكن الله سبحانه وتعالى أضاف اللهو للقلوب لا للجوارح، لسرٍّ بديع، وحكمةٍ لطيفة.

وذلك أن القلب ملك الأعضاء، ومركز التحكم، فإذا كان القلب لاهياً، ضعيف الحياة، بارد الإحساس، منطفئ النور، انشغلت الجوارح باللهو، وإذا كان القلب متعلقاً بالله، متوقِّد الإحساس عظيم النور، أثَّر ذلك على انضباط الجوارح،

---

(١) كتبه: الشيخ مهند بن حسين المعتبي.

فكانت الجوارح منقادة للقلب الحي، لا تتجاسر على معصية، ولا تتعمد ترك واجب؛ لأن القلب هو الذي يأمرها وينهاها.. ويؤيد هذا قول النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إلا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب**»[1].

فحريٌّ بنا أن نتعاهد قلوبنا، وأن ننفض عنها غبار الغفلة، وأن نصلح ما فسد منها؛ فالقلب محلُّ نظر الرب، وهو سبحانه وتعالى لا ينظر إلى صورنا ولا إلى أجسامنا، ولكن ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا.

اللهم أصلح قلوبنا، واجعلها حيةً بذكرك، منشغلة بطاعتك، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) البخاري (٥٢)، مسلم (١٥٩٩)، ابن ماجه (٣٩٨٤)، أحمد (١٨٣٧٤).

المجلس المئة وثمانية

﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده؛ وبعد:

فإن من أعظم غايات الإنسان في حياته مسلماً كان أو غير مسلم: أن يكون له هدفٌ يسعى لتحقيقه، فإذا تحقق ذلك سمي ذلك (نجاحاً)، وهو ناجح، فالنجاح في أمرٍ ما يُعدُّ هدفاً للإنسان في أي مجال يريده.

إلا أن هناك كلمةً هي ألطف لفظاً، وأعمق معنىً، وأوسع أثراً وهي كلمة (الفلاح)

أتدري ما الفلاح؟! وهل خطر ببالك يوماً وأنت تسمع المؤذن يرفع صوته منادياً للصلاة: (حي على الصلاة، حي على الفلاح)؟! وهل فكرت مَلِيّاً في سرِّ الجمع بين الصلاة والفلاح؟

إن الفلاح -كما يقرره العلماء- هو الفوز بإدراك المطالب، بل قال جمعٌ من العلماء: وليس في كلام العرب كلمة أجمع للخير من لفظة (الفلاح).

وفي هذا المجلس نقف وقفة عند قول الحق في مطلع (سورة المؤمنون): ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [المُؤمِنُون: ١]، وهي سورة ترسم خارطة الطريق للفلاح الأبدي، وتبين عوائق هذا الطريق؛ ولذلك افتتحت بذكر فلاح المؤمنين، واختتمت بذكر عدم فلاح الكافرين، ومما يذكره أهل البلاغة؛ أنَّ الحرف (قد) إذا دخل على الفعل الماضي أفاد تحقق معناه، فالفلاح للمؤمنين حق لا شك فيه ولا تردُّد، وهو وإن كان جزاؤهم في الآخرة إلا أنه متحققٌ بلا ريب...

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

وقد جاء هذا في القرآن في ثلاثة مواضع: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [المُؤمِنُون: ١]، ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأَعۡلَى: ١٤]، ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشَّمۡس: ٩].

ثم بعدما ذكر هذه الحقيقة -وهي فلاح المؤمنين- لم يترك تفصيل أحوالهم، فلا يقول قائل: ومن هؤلاء المفلحون؟ بل بيَّن لهم أعظم البيان أوصافهم، وفصَّل أحوالهم، وذكر من أعظم خصالهم ثمانية أعمال من أعمالهم الجليلة، التي من امتثلها فقد خالطت بشاشة الإيمان قلبه، وهي: الخشوع في الصلاة، والإعراض عن اللغو، وإيتاء الزكاة، وحفظ الفروج من الحرام، ومراعاة الأمانة والعهد، والمحافظة الدائمة على الصلاة.

ولذلك فإن الفلاح الأبدي من أعظم ما يتنافس فيه المتنافسون.

اللهم اجعلنا من عبادك المؤمنين، وأوليائك المفلحين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وتسعة

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده؛ وبعد:

فإن من أعظم المشاريع الشخصية الأخروية، التي يكون العمل فيها في الدنيا، والجزاء عليها في الآخرة، هو أن يأتي الإنسان ربه يوم القيامة بقلبٍ سليم.

سليمٌ من الشرك معمورٌ بالتوحيد، سليمٌ من الشكوك معمورٌ باليقين.

سليمٌ من الشبهات التي تعارض خبر الله، ومن الشهوات التي تعارض أمر الله ونهيَه. وذلك أنه من أعظم موازين النجاة يوم القيامة.

ومجلسنا التدبري هنا حول قول الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٨ - ٨٩].

ومن اللطائف أن هذه الآية جاءت في الثناء على إمام الموحدين إبراهيم، وقد ذُكِرَ القلب السليم في القرآن مرتين، كلا الموضعين جاء مع ذكر إبراهيم عليه السلام، هذه الآية في الشعراء، وقوله تعالى: في سورة الصافات: وإذ جاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، وجاء ذكر القلب كذلك عن إبراهيم في قوله تعالى: له لما طلب من ربه أن يُريه كيف يحيي الموتى: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠].

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

إن آية سورة الصافات في الثناء على إبراهيم ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصَّافَّات: ٨٤] مع هذه الآية في سورة الشعراء؛ لتقرر بجلاء حقيقةً قرآنية: أن مدار الصلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة على صلاح القلب وسلامته، وأن القلب من أعظم ما ينبغي أن يُعتنى به تزكيةً وتربيةً وإصلاحاً وتهذيباً؛ ليأتي العبد ربه يوم القيامة سليم القلب، فيُكرمه ربه بالجنة.

فالله الله في الاعتناء بالقلوب لننجوَ في يوم تتقلب فيه الأبصار والقلوب.

اللهم أصلح قلوبنا، وزكِّ أعمالنا، واهدنا سبل الرشاد، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وعشرة

﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾[1]

هذه جزء مما قاله والد الفتاتين اللتين سقى لهما موسى عليه السلام حين ورد ماء مدين، ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [القصص: ٢٧].

وفيه من الفوائد:

١- السماحة في العقود واللِّين فيها، ولو كانت عقود معاوضة، كما قال النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رحم الله عبداً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى**»[2].

٢- أنه يجوز للإنسان أن يثني على نفسه ما يعلم فيها من الخير إذا اقتضت المصلحة ذلك حيث قال: وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ.

٣- من هدايات الآية أن يكون غرض الإنسان من عقود المعاوضة كالإجارة هو المصلحة المترتبة عليها لا المشقة على العامل.

٤- أثر النية الصالحة في تمام العقود وكمالها، فقد كان الجزاء من جنس العمل، حين أتم موسى الأجل، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإن صدقا وبيَّنا، بورك لهما في بيعهما**»[3].

---

(١) كتبه: د. عبد الله بن بلقاسم بن عبد الله.

(٢) البخاري (٢٠٧٦)، ابن ماجه (٢٢٠٣)، ابن حبان (٤٩٠٣).

(٣) البخاري (٢٠٧٩)، مسلم (٢٠٧٩)، أبو داود (٣٤٥٩)، الترمذي (١٢٤٦)، النسائي (٤٤٥٧).

٥- فيه أثر الإعلان عن نية الإنسان الطيبة تجاه الآخرين، وأثرها في توطيد العلاقة؛ ولذا أرشد النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ذلك بقوله: «**إذا أحبَّ أحدكم أخاه، فليعلمه أنه يحبه**»(١).

٦- أن في عقود المعاوضة من المماكسة والتفاوض ما قد يوغر الصدور؛ لذا ينبغي على المتعاقدين أن يطيبا الكلام.

٧- أن من خرج في سبيل الله، فإن الله يلطف به ويرحمه ويقيِّض له من يرأف به ويحسن إليه.

٨- مهما كانت المودة بين الصالحين، فلا يمنع من التعاقد والتشارط، وأن ذلك أبعد من حصول الاختلاف والتنازع.

٩- فيه الرحمة بالعمَّال والأُجَراء ففي قوله: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ [القَصَص: ٢٧]، إشارة إلى عدم الاستقصاء والاستيفاء منهم.

١٠- فيه حفظ الجميل فإن الرجل الصالح وإن شارط موسى عليه السلام، لكنه حرص على التلطف به في الكلام؛ رعايةً لسابق جميله.

(١) أبو داود (٥١٢٤)، أحمد (١٧١٧١).

المجلس المئة وأحد عشر

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده؛ وبعد:

فإن من أجلِّ العبادات، وأزكى القربات التي جاء في القرآن الحث عليها، والثناء على أهلها، والتأكيد على علو شأنها: قيام الليل.

فإن القيام في ظلمات الليل بين يدي رب العالمين دأب الصالحين، وشرف المؤمنين، وهو عبادةٌ لا حظَّ للنفس فيها؛ ولذلك يتمحض فيه الإخلاص، فإنه عبادةٌ خفيَّةٌ، وفي وقت هجوعٍ وراحة، والنفس داعية إلى الفراش، ولا يقوم إلا من له عزمٌ وجدٌّ.

لو قلَّبت الآيات الواردة في ذلك؛ لوجدت كلام المولى في ذلك متفرقاً في السور: كقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلٗا ﴾ [الإنسَان: ٢٦]، وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإِسۡرَاء: ٧٩]، وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الطُّور: ٤٩]، وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ [ق: ٤٠]، وقوله: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴾ [الذَّارِيَات: ١٧] وغيرها آيات كثيرة، والأحاديث في ذلك أكثر، فأي شرفٍ لصاحب قيام الليل كهذا الشرف؟!

ومجلسنا هذا حول آية من هذه الآيات التي فيها الثناء على أهل الليل، جاءت بلفظٍ عجيب، وأسلوبٍ عظيم.. فلما ذكر الحقُّ أنه لا يؤمن بآياته حق الإيمان إلا من إذا ذكر بها خرَّ ساجداً، وسبَّح بحمده من غير استكبار، قال بعد ذلك في وصفهم: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [السَّجۡدَة: ١٦].

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

فتأمل كيف أسند التجافي عن مواضع النوم إلى الجنوب، والجنوب ما هي إلا جوارح تابعة للقلب، والقلب محل النشاط والكسل، لكنه لما كان القلب متيقظاً مستعداً للعبادة، فكأنما الفراشُ والجَنْبُ متباغضان، فالجَنْبُ ينفرُ ويتجافى عن مضجعه؛ رغبةً في القيام بين يدي الله.

فهنيئاً لمن شرَّفه الله بالقيام بين يديه في ظلمات الليل، فهذه الآية في قيام الليل عند جمهور المفسرين، وقد قال بعضهم بأن من صلى العشاء والفجر في جماعة أخذ من هذه الآية بنصيب.

اللهم اجعلنا من أهلك وخاصَّتك، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة واثنا عشر

﴿ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده؛ وبعد:

فحديث هذا المجلس التدبري سيكون عبقاً ذا رائحةٍ أزكى من الطِّيب بلا شك؛ لأنه حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأَحْزَاب: ٥٦] إننا لا نكاد نستطيع أن نتخيل الحجمَ الحقيقيَّ لمحبة النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قلوب أصحابه، وكيف لا تكون محبتهم له عظيمة، وبه أخرجهم الله من الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، ومن الغواية إلى الرشاد؟

تأمَّل كيف حَرَصوا بعد نزول هذه الآية على تعلم الصفة الكاملة للصلاة عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولا تتعجب أن تعلم أن صحابياً ككعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما تعلم صفة الصلاة على النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى أن تعليم ذلك لإخوانه من الهدايا، ففي الصحيحين من حديث ابن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عُجْرَةَ فقال: ألا أُهْدِي لك هدية؟! خرج علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلنا: قد عرفنا كيف نسلّم عليك، فكيف نصلي عليك؟! قال: **«قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»**[2].

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

(٢) البخاري (٣٣٧٠)، مسلم (٤٠٦)، أبو داود (٩٧٦)، النسائي (١٢٨٩)، ابن ماجه (٩٠٤).

إنك حينما تصلي وتُسلّم على رسولك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنما تسأل الله تعالى أن يثني عليه في الملأ الأعلى، وأن يزيده تشريفاً ورفعةً، وذلك مما يحبُّه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذلك كان من جزاء من يصلي عليه مرةً؛ أن يُصلّي الله عليه عشراً.

والصلاة على النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أداءٌ لأقلِّ القليل من حقِّه، وشكرٌ له على إحسانه إلينا.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه القيم: (جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام) أكثر من أربعين ثمرة من ثمار الصلاة والسلام عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو كتابٌ مفيد جداً.

اللهم اجز نبينا محمداً عنَّا بأفضل ما جزيت نبيّاً عن أمَّته، وأدم الصلاة والسلام عليه أبداً يا رب العالمين.

المجلس المئة وثلاثة عشر

﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده؛ وبعد:

فإن الله تبارك وتعالى يغدق على عباده مِنَناً عظيمة، ويُسبغ عليهم نِعَماً جسيمة، ظاهرة وباطنة، حسية ومعنوية، وقد جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة لعلهم يشكرون.

ولكن ليس من نعم الله نعمة أجلَّ ولا أعظم من أن يصفيَك من بين عباده، وأن يجتبيك من سائر خلقه؛ لتكون من أهله وخاصَّته، بالعلم النافع والعمل الصالح.

وهذا ما امتنَّ الله به على أنبيائه، ومنهم إبراهيم وابنه إسحاق وحفيده يعقوب فقال تبارك وتعالى في الثناء عليهم: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥] فهم أولوا العمل الصالح: وهو القوة الجسدية المشار إليها بالأيدي، وأولوا العلم النافع: وهي القوة العلمية المشار إليها بالأبصار، (فهم أهل القوة في العبادة والبصيرة النافذة) كما قاله ابن كثير[2].

وأعظم الفضل في ذلك كله أن الله أمدَّهم بأعظم المدد، وأقوى العدد؛ وهي ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم؛ فقلوبهم حيةٌ أبداً بذكر الآخرة، فمنها يستمدون قوة أبدانهم على الطاعة، وقوة أبصارهم في الحق، ويدعون الناس إلى ذكر الآخرة؛ فهي دار المقرِّ بعد دار الممر، وفيها الحياة الأبدية الخالدة.

فيقول الله عن هذه الخصيصة ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص: ٤٦].

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٧/ ٧٦.

قال القرطبي: (إنا أخلصناهم بأن يذكروا الدار الآخرة، ويتأهبوا لها، ويرغبوا فيها، ويُرغِّبوا الناس فيها)[1].

ولذلك، فإن قوة العبد في بدنه على طاعة الله، وقوة بصيرته في الحق والعلم ناتجٌ عن حياة قلبه، وامتلائه بذكر الآخرة، فإذا كان القلب بذكر الدنيا معموراً، وعن ذكر الآخرة محسوراً، ثقل بدنه في العبادة والطاعات، وضعُفَت بصيرته في الحق والمشتبهات، وسار إلى الله سيراً ضعيفاً لا قوة فيه ولا عزيمة.

فالشأن كل الشأن في إعمار القلوب بذكر الآخرة، فلا يريدها صادق إلا سعى لها سعيها الحثيث.. ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسْرَاء: ١٩].

اللهم أصلح قلوبنا، واجعلها حيةً بذكرك، منشغلةً بطاعتك، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٢١٨.

المجلس المئة وأربعة عشر

﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده، وبعد:

فإن المؤمن يسير إلى ربه على طائر؛ جناحاه الخوف والرجاء، ورأسه المحبة، وبهذا يثبت سيره، ويستقيم دربه، فلو غلَّب الخوف على الرجاء، فلربما قنط من رحمة الله، ولو غلَّب الرجاء على الخوف، لربما أمن مكر الله، ولو عبد الله بلا محبة، لكانت عبادته جافةً لا روح فيها؟

وكلما ازداد المؤمن معرفة بالله وتقرباً إليه، عظمت خشيته، وعظم خوفه وازداد رجاؤه، ولذلك فإنك لن تعجب إن علمت أن الآية التي سنقف معها في هذا المجلس، وهي قوله تعالى: في سورة الزمر: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزُّمَر: ٤٧] جاءت في سياق ذكر حسرة الظالمين -وهم الكافرون- وأنه لن ينفعهم شيءٌ يوم القيامة يفتدون به ولو أن لهم الأرض كلها، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزُّمَر: ٤٧] بل وسيظهر لهم في ذلك اليوم من صنوف العذاب، ودقة الحساب، وعدل الميزان وسجل الأعمال، ما لهم يكونوا يتوقَّعونه أبداً!

ولكن لما كان أصل ظلم النفس في جنب الله لا يكاد يسلم منه إنسان، وأن الله قد قال -وقوله الحق- في سورة الزلزلة: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزَّلزَلَة: ٨]، خاف كثيرٌ من السلف من هذه الآية خوفاً عظيماً، حتى قال بعضهم: إنها أخوف آية في كتاب الله[2].

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

(٢) الدر المنثور: ٢/ ٧.

وذلك أن الإنسان قد يعمل أعمالاً هي من سخط الله، ولا يلقي لها بالاً، فيتفاجأ بها يوم القيامة في ميزان سيئاته.

وحقاً إنها آيةٌ مخيفة جداً، ترتعد لها فرائص المؤمن؛ خوفاً من هذا المشهد، وكان الإمام سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا قرأ هذه الآية قال: ويلٌ لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء[1].

اللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) تفسير النسفي: ٣/ ١٨٥.

المجلس المئة وخمسة عشر

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده، وبعد:

فإن هذا القرآن عظيمُ الشأن، جليلُ المنزلة، مناقبه جسيمة، وفضائله عظيمة، تكلَّم به رب العالمين، ونزل به الروح الأمين، على خير المرسلين، بلسانٍ عربيٍّ مبين.

فتعالوا نتدبر آية من آي الكتاب تدل على فضله، وفضل ليلة نزوله، قال الحق جل جلاله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدُّخَان: ٣] فالقرآن إذن نزل من عند الله، من السماء إلى الأرض، ونزوله كان في ليلة لا كالليالي، فقد نزل في ليلة كثيرة البركة، عظيمة الشأن، في ليلة هي خيرٌ من ألف شهر، كما قال الله عنها: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القَدْر: ١ - ٣] فهذه الليلة ليلة القرآن، فلن تكون كسائر الليالي أبداً.. فهي مباركةٌ في نفسها، مباركةٌ بتشريف الله لها، مباركةٌ بتفضيلها على سائر الليالي، مباركةٌ بخيريتها وحدَها على أعوام تتجاوز ثمانين عاماً، مباركةٌ ببركة القرآن الذي نزل فيها.

هذه الليلة المباركة كان النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحييها صلاة وقرآناً وذكراً ودعاء وتضرعاً، وكان يحثُّ أمته على إحيائها، ومما جاء في فضلها قوله في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين: «**من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدَّم من ذنبه**»[2].

فهل سيفرِّط العاقل في هذه الليلة وفيها من المغانم ما لا يحصيه إلا الله؟!

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

(٢) البخاري (١٩٠١)، مسلم (٧٦٠)، أبو داود (١٣٧٢)، الترمذي (٦٨٣)، النسائي (٢١٩٣)، أحمد (١٠١١٧).

وهل سيحييها بغير القرآن والصلاة والدعاء والقيام والبر والإحسان؟

وهل ستكون هي وسائر أيام العام سواء؟!

هنا يتفرَّق الناس، ويتبين العقلاء، ويظهر للمرء فقهه وحرصه وأولوياته... وليتذكر دائماً كلما لاح له فضل هذه الليلة، أنها ليلة مباركة: إِنَّا أنزلته في ليلة مباركة

اللهم وفِّقنا لقيام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، وتقبَّل منا يا ذا الجلال والإكرام.

المجلس المئة وستة عشر

﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[1]

إن كلمة التوحيد -لا إله إلا الله- هي أساس الدين، وحصنه الحصين، وطريقه القويم، وصراطه المستقيم.

ولهذه الكلمة المكانة العظمى في دين الإسلام؛ فهي أول ركن من أركان الإسلام، وأعلى شعبة من شعب الإيمان، وهي أول واجبٍ على المكلَّف، وآخر واجب عليه، وقَبول الأعمال متوقفٌ على النطق بها، والعمل بمقتضاها.

أما معناها الحق الذي لا ينبغي العدول عنه فهو: لا معبود بحقٍّ إلا الله.

وللشهادة ركنان:

نفيٌ في قوله (لا إله) أي: نفي الألوهية عن كل ما سوى الله.

إثباتٌ في قوله (إلا الله) أي: إثبات الألوهية لله وحده لا شريك له.

وهذا الأسلوب يعرف بأسلوب النفي والقصر، وهو من أقوى الأساليب التي يؤتى بها لتمكين الكلام وتقريره في الذهن؛ لدفع ما فيه من إنكارٍ أو شك.

وطريق القصر في كلمة التوحيد: النفي والاستثناء.

وقد ذكر العلماء لها شروطاً سبعة، لا تصح إلا إذا اجتمعت، واستكملها العبد، والتزمها بدون مناقضةٍ لشيء منها.

---

(١) كتبه: د. محمد بن إبراهيم الحمد.

وليس المراد من ذلك عدَّ ألفاظها وحفظها؛ فكم من عاميٍّ اجتمعت فيه، والتزمها ولو قيل له: عددها لم يحسن ذلك.

وكم من حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها.

وهذه الشروط مأخوذةٌ بالتتبع والاستقراء، وقد نظمها الشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله:

العلـــمُ واليـــقينُ والقَبـــولُ والانقيـــادُ فَـــادْرِ مـــا أقول

والصدقُ والإخلاصُ والمحبةْ وفَّـقـــك الله لـمـــا أحـبَّـه

وأضاف بعضهم شرطاً ثامناً ونظمه بقوله:

وزيد ثامنها الكفران منك بما سوى الإله من الأوثان قد ألَّها

وهذا الشرط مأخوذ من قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله، حرم ماله ودمه**»[1].

هذه هي الشروط السبعة مع زيادة الشرط الثامن على وجه الإجمال.

نسأل الله أن يرزقنا حبَّه وحبَّ من يحبه، والعمل الذي يقربنا إلى حبِّه، إنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير.

(١) مسلم (٢٣).

المجلس المئة وسبعة عشر

﴿ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده؛ وبعد:

فإن الإنسان في حياته يرى أناساً لا يحصي عددهم إلا الله، يخالط ويعاشر ويحدث ويقابل خلقاً تختلف لغاتهم، وبلدانهم، وأشكالهم، وصورهم، وأحوالهم، وأهدافهم... وقد يخيل إليه بادي الرأي أن هذا ضالٌّ، وذاك مهتدٍ بناء على قرائن يستند إليها.

إلا أن هذا قد يكون صواباً، وقد يكون خطأً، وقد يكون محتملاً، لكن الحقيقة المطلقة؛ أن من يعلم حقائق الناس وبواطنهم، هو الله وحده العليم الخبير.

هذا هو موضوع هذا المجلس التدبري حول قول الله تعالى في سورة النجم: ﴿ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ [النَّجم: ٣٠] إن الإنسان مهما أظهر من خيرٍ أو شرٍّ، ومهما أتقن دور التمثيل على خشبة مسرح الحياة، ومهما أخفى ومهما أسر، فإن الناس لن يعلموا ذلك على وجه الحقيقة والقطع، وإنما يعلم ذلك حقاً الله وحده تبارك وتعالى.

فأي شرٍّ لرجل يظنه الناس من أهل الخير والصلاح والهداية، وهو عند الله ليس كذلك، فهو أعلم بمن اهتدى؟ وأي خيرٍ لرجل لا يأبه به الخلق ولا يرونه شيئاً، وهو عند الله من الأخيار المهتدين؟!

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

فتدبُّر هذه الآية، والتفكُّر فيها يحيى النفس من الأدواء، ويوقظ القلب من الغفلة، فيصبح غاية تفكير الإنسان في إصلاح قلبه، وتزكية نفسه، تصحيح قصده، ومراقبة سيره؛ لأنه يعلم أن الله هو العالم حقاً بحقيقة المهتدي وغير المهتدي، وأنه يستوي عنده العلم ببواطن الأمور وظواهرها، كما قال عز وجل: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الرَّعْد: ١٠]، وأن أنظار الناس وتقييمهم وميزانهم لا يرفع عند الله وضيعاً، ولا يضع عنده رفيعاً.

اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين، غير ضالِّين ولا مضلِّين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وثمانية عشر

﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[1]

حينما يقلِّب أحدنا محرِّكاً من محركات البحث على الشبكة العالمية للبحث عن معلومةٍ ما، فإنه يفاجأ بكمٍّ هائلٍ من النتائج التي ظهرت، والتي تذكر متى حفظ هذا المقطع أو تلك المقالة والتغريدة باليوم والساعة بل والدقيقة.

هنا... يُصاب بعضنا بالدهشة والذُّهول من كثرة النتائج ودقتها، وحقَّ له ذلك!

فكيف إذا علم أن هذه النتائج إنما هي فقط منذ بدأ عمل محركات البحث هذه وأنها لا تحفظ ولا تسجل سوى ما نشر على الشبكة العالمية فكم غاب عنها من أعمال السنين والقرون الماضية؟ وكم خفي عليها مما لم يُنشر على شبكة المعلومات؟ وكم غاب عنها من أعمال القلوب التي لا يحصيها ولا يعلمها إلا الله، هنا يقع قوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المُجَادلَة: ٦] موقعه من القلب، هيبة وإجلالاً.

أما الهيبة: فتمثر خوف كل واحدٍ منا من هذا الإحصاء الدقيق الذي لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها، سواء من عمل القلوب أم من عمل الجوارح.

وأما الإجلال: فإن هذا الحال يورث العبد تذكر سعة علم الله، الذي لا يعزب عنه مثقال ذرةٍ في السماوات ولا في الأرض، فيورثه ذلك الحياء من الله أن يراه على حال لا يحبها ولا يرضاها، وأن يحاسب نفسه عند التقصير والزلل.

(١) كتبه: د. عمر بن عبد الله المقبل.

وقف بعض الصالحين مع نفسه محاسباً لها، وقد بلغ الستين من العمر، فعد أيامه فإذا هي واحدٌ وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتي ألقى الله بواحد وعشرين ألف ذنب لو كنت لم أذنب إلا ذنباً واحداً في كل يوم؟ فكيف وهي ذنوب متتابعة؟!

فهكذا ينبغي أن يحاسب الإنسان نفسه على الأنفاس، وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة، ولو رمى العبد بكل معصية حجراً في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة قريبة من عمره، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه ذلك: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المُجَادلَة: ٦][1].

اللهم ارزقنا خشيتك في الغيب والشهادة، واجعلنا ممن يعبدك كأنه يراك.

(١) إحياء علوم الدين: ٤/ ٤٠٦.

المجلس المئة وتسعة عشر

﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[1]

نودي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مطلع سورة المزمل، وهي من أوائل القرآن نزولاً بهذا النداء اللطيف: يا أيها المزمل أي: يا أيها المتلفِّف خوفاً مما نزل عليك، لا تلجأ إلى الفراش طلباً للاستئناس واستعادة الطمأنينة إلى قلبك وإسكان وجيف فؤادك، بل عليك بقيام الليل حيث السكينة والهدوء والرحمة، والتلذذ بمناجاة مولاك، واستمداد القوة واستنزال العون من الله الرحيم المعين سبحانه، وفي أعطاف النداء فائدتان كريمتان:

أولاهما: التلطف في المخاطبة والمعاتبة خصوصاً للخائف المرتاب، فإن العرب دأبت على معاتبة الحبيب باسم مشتق من حالته، كقول النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما رآه نائماً في المسجد على التراب: «**قم أبا تراب**»[2].

والثانية: التنبيه لكل متزملٍ راقدٍ ليله أن يأخذ حظَّه من الليل ويتزوَّد من مناجاة باريه.

عندما جاء الحث على قيام الليل جاء مباشراً مع مراعاة حاجته إلى النوم والسكن؛ لأن حاجة الإنسان إلى الزاد الروحي أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب والنوم.

ثم بين الله له ما الذي يفعله في قيامه بقوله: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾ [المُزَّمِّل: ٤] أي: اقرأ القرآن أثناء قيامك في الليل قراءة تثبُّت وتؤدة وتمهُّل، تسمعها الأذن، ويرتاح لها القلب، ويسبِّح في حناياها الفكر، حاذراً أن تكون قراءة هَذْيٍ وهَذْرمة أو ترديد ألفاظ بلا فهمٍ أو تدبُّر.

---

(١) كتبه: محمد بن عبد العزيز الخضيري.

(٢) البخاري (٤٤١)، مسلم (٢٤٠٩)، السنن الكبرى (٨٤٨٥)، ابن حبان (٦٩٢٥).

وجاء الأمر بالترتيل مقروناً ببيان عظمة القرآن وأنه قولٌ ثقيلٌ، مليءٌ بالأحكام والحِكَم والدروس والعظات بعيد الغور كثير المعاني واسع العطاء، فلا يليق به سرعة التلاوة، ولا مجرد مرور الألفاظ على الألسن والقلوب.

ولكون القرآن بهذه الفخامة والسعة والعمق، فإن اللائق به هو الوقت الذي تكون الأصوات قد هدأت، والأحياء قد سكنت، والنفس قد ارتاحت وأقبلت؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا﴾ [المُزَّمِّل: ٦] يقول: إن ناشئة الليل أي: ساعاته وأوقاته أو هي القيام بعد النوم هي أشد في موافقة القلب والسمع لما يتلى من كلام الله، وأبين قولاً.

ثم بيَّن له أن أشغاله الأخرى وحاجات نفسه قد جعل الله لها النهار كله، ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ [المُزَّمِّل: ٧] أي: تصرُّفاً وتقلُّباً في أشغالك وأعمالك وحاجات بدنك وأهلك، ولن تجد شيئاً أعون عليها أفضل من أن تخصص وقتاً من ليلك لمناجاة ربك.

وقد جرب العارفون ما لقيام الليل من أثر على قوة قلب القائم وصبره وشدة تحمُّله، وسعة أخلاقه، وسكون نفسه ورضاه بمقادير ربه، والبركة في الوقت والجهد.

المجلس المئة وعشرون

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[1]

سورة الشرح من السور العظيمة التي جمع الله تعالى فيها أصول أسباب السعادة وانشراح الصدر، ولذلك سميت باسم (الشرح)، فكلمة الشرح في كل أسمائها.

وقد جاءت هذه السورة بعد سورة الضحى، التي ذكر الله تعالى فيها النعم الحسية للنبي ﷺ، ثم جاءت هذه السورة بذكر النعم المعنوية بشرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر.

خاطب الله تعالى نبيه في هذه السورة بذكر مننه وأنعامه عليه من شرح الصدر حسًّاً ومعنىً، ورفع ذكره، وبيان أن العسر معه يسره، وكيف يشكرها ويقوم بحقِّها من الإقبال بالطاعة على الله عز وجل وإخلاص الرغبة إليه.

هذا ملخص تفسير الآية، وبالتأمل نجد أن الله سبحانه ذكر في ذلك عشرة أصول للسعادة وانشراح الصدر، وهي على النحو التالي:

١- أن السعادة بيد الله وحده سبحانه، من قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشَّرح: ١]، فهو سبحانه الذي يشرح لا غيره.

٢- السعادة تكون في القلب وليس العقل، من قوله لك صدرك، فالصَّدر يكنى به عن القلب كما قال تعالى: وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ...

(١) كتبه: د. عبد المحسن بن زين المطيري.

٣- مغفرة الذنوب من قوله تعالى: وَوَضَعْنَا عَنكَ وزرك، فكلما كان الإنسان متخفِّفاً من الذنوب، كان أقرب إلى السعادة.

٤- رفع الذكر الحَسَن من قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشَّرح: ٤]، فالذكر الحسن يستجلب دعاء الناس، ويستنطق الألسنة بالثناء.

٥- ما خلق الله عسراً بلا يسر، من قوله: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشَّرح: ٥]، وعندما يعرف المرء ذلك، فإنَّ هذا يذهِب عنه أكثر الهمِّ، فهو يوقن أن هناك حلاً، ولكن المطلوب منه هو البحث عنه فقط.

٦- اليسر ينزل في لحظة نزول العسر، من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشَّرح: ٦] ولم يقل بعد العسر يسراً، فمنذ حصول العسر والمشكلة والهمِّ يبدأ لطف الله ويسره وتنفيسه.

٧- كل عسرٍ معه يسران؛ لتكرار النكرة (يسرا) الذي يدل على التعدد، ولذلك قال كثير من السلف: والله لا يغلب عُسر يسرين.

٨- استثمار الفراغ من أصول السعادة، من قوله: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾ [الشَّرح: ٧] فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يكون له فراغ.

٩- العبادة، من قوله تعالى: فانصب، أي: أقبل على الطاعة والعبادة، والعبادة هي بوابة السعادة الكبرى، ومن مشهور كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من أراد السعادة الأبدية، فليلزم عتبة العبودية)[1].

١٠- الإخلاص في صرف وجوه الرغبات لله عزَّ وجلَّ وحده لا لسواه، من قوله: وإلى ربك فارغب، وتحقيق هذا المعنى العظيم هو مسك الختام.

اللهم ارزقنا سعادة وانشراحاً وفرحاً وسروراً يا رب العالمين.

(١) مدارج السالكين: ١/ ٤٢٩.

المجلس المئة وواحد وعشرون

﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ ﴾

جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن بني إسرائيل؛ حيث أخذ الله عليهم الميثاق بواسطة سيدنا موسى عليه السلام أن يعملوا بكتاب الله، فلم يعملوا بما فيه، ونبدوه وراء ظهورهم، فقال الله لهم: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ ﴾ [البَقَرَة: ٦٣]، ومعنى بقوة: أي بعزمٍ ونشاط وجِدٍّ(١).

ومعنى الآية: قلنا لبني إسرائيل: خذوا الكتاب -وهو التوراة- بجدٍّ وعزيمة، ومواظبة على العمل بما فيه، وتدارسوه ولا تنسَوا تدبُّر معانيه، واعملوا بما فيه من الأحكام، فإن العمل هو الذي يجعل العلم راسخاً في النفس مستقراً عندها، لا يُلابس نفوسكم فيه ضعف، ولا يصحبها وَهَنٌ ولا وهْم(٢).

فأحكام الله والعمل بها منهج حياة، منهجٌ يستقر في القلب تصوراً وشعوراً، ويستقر في الحياة وضعاً ونظاماً، ويستقر في السلوك أدباً وخلقاً.

وقد ذكر الله هذا التوجيه لبني إسرائيل في مواضع؛ منها: قوله تعالى: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْ ﴾ [البَقَرَة: ٩٣]، وقوله تعالى: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [الأَعۡرَاف: ١٧١].

ولكن بني إسرائيل نقضوا الميثاق، ونسوا الله، ووقعوا في المعصية، حتى استحقوا غضب الله ولعنته، وهم كذلك في كل وقت وحين؛ فلنحذر من مواثيقهم وعهودهم؛ لأنهم لم يفوا بعهد الله عز وجل وميثاقه، فكيف بعهودهم مع غيره؟

---

(١) المحرر الوجيز: ١/ ١٨٠.

(٢) تفسير المراغي: ١/ ١٣٦.

وإذا كان الأمر بأخذ الكتاب بقوةٍ لبني إسرائيل، فهو بالأجدر أمرٌ لكل مؤمنٍ غيورٍ على دينه؛ أن يأخذ ما آتاه الله من تكاليف الشريعة بالعزيمة والثبات على العمل بها، ودعوة الأمة إلى اتباعها؛ لينال في الدنيا رضا الله فيحظى بالسعادة، ويرتقي في سلم الحضارة، وينال في الآخرة الرضوان الدائم، والنعيم المقيم، فهل من مشمِّر لتلبية أمر الله تعالى؟!

المجلس المئة واثنان وعشرون

﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾[1]

هاهنا وقفات تدبرية مع هذه الآية ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ [البَقَرَة: ١٤٨] لعلها تبعث في نفوسنا التنافس في سبيل طاعة الله تعالى والتقرب إليه سبحانه.

الوقفة الأولى: وردت الآية في سياق الحديث عن القِبلة، حثاً لأمة الإسلام على المسابقة فيما فضلهم الله تعالى به من شريعته الغراء، والتوجُّه إلى بيته الحرام فقال تعالى: ﴿ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ [البَقَرَة: ١٤٨] فالمقصود المبالغة في الأمر بالتمسُّك بالشريعة والقيام بحقها، وهو العمل والطاعة، وأعظم ذلك الصلاة التي يتوجَّهون فيها إلى القبلة التي اختارها الله تعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الوقفة الثانية: الاستباق فيه زيادة على المسارعة؛ لأن في الاستباق محاولة لسبق الآخرين، ومجاهدة للنفس في ذلك؛ ولما فيه من الحث على إحراز قصب السبق في طاعة الله، قال وهيب بن الورد: (إن استطعت ألا يَسْبِقَكَ إلى الله أحدٌ فافعل).

الوقفة الثالثة: التعبير بـ ﴿ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ دون (الوجهات)، دالٌّ على أن ما نحن عليه -أمة الإسلام- هو الخير كله، وهو سبب لحصول الخيرات كلها.

الوقفة الرابعة: التعبير بـ ﴿ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ بصيغة الجمع يُشعر بكثرة طرق الخير وتعددها، وأن الطريق إلى الله تعالى ملأى بالخيرات؛ فإذا وصلتَ إلى خيرٍ فسابِقْ في خيرٍ آخر، فأنت تسابق إلى الله تعالى.

---

(١) كتبه: د. محمد بن عبد الله الربيعة.

الوقفة الخامسة: (استباق الخيرات) قدرٌ زائد على فعل الخيرات، فالاستباق إليها يعني أن تكون من أول الفاعلين لها المحافظين عليها، كإدراك الصف الأول، وتكبيرة الإحرام، ومواساة الفقراء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك.

الوقفة السادسة: مما يعين على المسابقة للخيرات والفوز فيها: الاستعداد للطاعات قبل وقتها، وتدريب النفس عليها؛ كأن تلزم نفسك بالمسابقة في طاعةٍ ما، حتى تعتادها وتكون فيها من السابقين، ثم في طاعةٍ أخرى؛ وهكذا.

الوقفة السابعة: قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (السابقون في الدنيا إلى الخيرات، هم السابقون يوم القيامة إلى الجنات)، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الوَاقِعَة: ١٠ - ١٢].

الوقفة الأخيرة: تذكُّر الموت والآخرة من أعظم ما يعين على المسابقة إلى الخيرات؛ ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ [البَقَرَة: ١٤٨].

فحريٌّ بالمؤمن أن يغتنم حياته بالمسابقة إلى ربه لينال بذلك قصب السبق في جَنَّاتِهِ.

جعلنا الله تعالى من المسابقين إلى الخيرات والسابقين المقربين في الجنات.

المجلس المئة وثلاثة وعشرون

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾

لعلك أخي الكريم تسأل: ما معنى ولاية الله للمؤمنين؟ وبم استحقَّها المؤمنون؛ حتى أقتدي بهم؟

ودونك الجواب:

الولي الحليف[(١)].، وهو الذي ينصر مولاه، فالله يحب عباده فيهديهم، ويزيدهم هدىً على هداهم، ويتولى أمورهم، فيُقدِّر لهم ما فيه نفعهم ومصالحهم، وينصرهم على أعدائهم، ويُعينهم فلا يكِلُهم إلى غيره.

ومظاهر ولاية الله تعالى لعباده المؤمنين متعددة؛ منها ما يأتي:

أنه سبحانه يذبُّ عنهم الشبهات حتى يكون تمسكهم بالعروة الوثقى مستمراً، ويأمنوا انفصامها[(٢)].، ويُخرجهم من الشُّبَه في الدين -إن وقعت لهم- بما يهديهم ويُوفقهم إلى حلِّها، حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين[(٣)]. وينصرهم على أعدائهم، ويُخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل، إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وينجِّيهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة، ويدخلهم جناته حيث النعيم المقيم، والراحة والفسحة والسرور.

---

(١) التحرير والتنوير: ٣/ ٣٠.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٣٠.

(٣) تفسير الكشاف: ١/ ٣٠٤.

وأما بم استحقوا ولاية الله تعالى؟

فالجواب: أنهم تولوا ربهم، فلم يبغوا عنه بدلاً، ولم يُشركوا به أحداً، وأنهم اتخذوه حبيباً، فأنِسُوا به، وأنهم والَوا أولياءه، وعادَوا أعداءه[1].

وعند تدبر الآية في سياقها تجد أن الولاية بحسب الإيمان، فإذا زاد إيمان العبد زادت ولاية الله له، وزاد توفيق الله له في حياته الدينية والدنيوية.

هذه ولاية الله، وهؤلاء أهلها، فلنحرص عليها، ولنعضَّ عليها بالنواجذ حتى يتحقق الفوز بالمطلوب، والنَّجاة من المرهوب.

ولعلك أخي الكريم تسأل: وهل من دعاء دعا به النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنيل ولاية الله؟

والجواب: ردِّد في تأملٍ وخشوع هذا الدعاء النبوي؛ لتتحقق لك ولاية الله بعد الأخذ بأسبابها: «**اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِي مَنْ هَدَيتْ، وَعَافِنَا فِي مَنْ عَافَيتْ، وَتَوَلَّنَا فِي مَنْ تَوَلَّيتُ، وَبَارِك لَنَا فِي مَا أَعْطَيتُ، وَقِنَا شَرَّ مَا قَضَيْتْ إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَن واليت، تباركت وتعاليت**»[2].

(١) تفسير السعدي: ص١١١، بتصرف يسير.

(٢) صحيح ابن حبان (٧٢٢)، قال الألباني: صحيح، انظر: المشكاة (٢٧٧٣).

المجلس المئة وأربعة وعشرون

﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ ﴾[1]

يقول الله تبارك وتعالى مشجعاً عباده المؤمنين، ومقوياً عزائمهم، ومنهضاً هِمَمَهُمْ ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٣٩]؛ أي: ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم، عندما أُصبتُم بهذه المصيبة، وابتُليتم بهذه البلوى؛ فإن الحزن في القلوب، والوهَنَ على الأبدان: زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوِّكم عليكم، بل شجِّعوا قلوبكم وصبِّروها، وادفعوا عنها الحزن وتصلَّبوا على قتال عدوكم.

وذكر الله تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهَنُ والحزن -وهم الأعلون في الإيمان- رجاء نصر الله وثوابه، فالمؤمن المتيقن بما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي، لا ينبغي له ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٣٩].

ثم سلَّاهم بما حصل للمشركين من الهزيمة، وبيَّن الحِكَم العظيمة المترتبة على ذلك، فقال: ﴿ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥ ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٤٠]، فأنتم وإيَّاهم قد تساويتم في الفرح، ولكنَّكُمْ تَرْجُونَ مِنَ الله ما لا يرجون؛ كما قال تعالى: ﴿ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ ﴾ [النِّسَاء: ١٠٤].

ومن الحِكَم في ذلك أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وأن الله تعالى يداول الأيام بين الناس، يومٌ لهذه الطائفة، ويومٌ للطائفة الأخرى؛ لأن هذه الدار الدنيا منقضيةٌ فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة؛ فإنها خالصة للذين آمنوا.

---

(١) تفسير السعدي: ١٤٩-١٥٠.

ومن الحِكَم أيضاً أن يختبر الله عباده بالهزيمة والابتلاء؛ ليتبين المؤمن من المنافق؛ لأنه لو استمرَّ النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في الإسلام من لا يريده، فإذا حصل في بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء، تبين المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام في الضراء والسراء، واليُسر والعُسر، ممن ليس كذلك، قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عِمْرَان: ١٤٠].

وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهداء، وهذا أيضاً من الحِكَم؛ لأن الشهادة عند الله من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها؛ فهذا من رحمته بعباده المؤمنين: أن قيَّض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس؛ لينالوا ما يحبون من المنازل العالية والنعيم المقيم.

المجلس المئة وخمسة وعشرون

﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾[1]

إن للمواعظ الصادقة تأثيراً مباشِراً في القلوب الحيَّة بالإيمان، فتجد الوعظ -وهو الأمر والنهي والتذكير المقترن بالترغيب أو الترهيب- باباً من أبواب الحثِّ على العمل، ومجافاة الكسل، ومجانبة المعاصي والزلل.

وإذا كان كثيرٌ من مواعظ الصالحين العاملين من سلف الأمة من الصحابة ومن بعدهم بهذه الدرجة من التأثير، فكيف شأن الوعظ إذا كان من الله تعالى وتقدَّس؟!

يعظ الله عباده، وهو خير من يعظ، ومن لم يجد لوعظ الله في قلبه أثراً فلن تدوم له آثار مواعظ غيره؛ قال تعالى: مذكِّراً: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٣١]، وقال أيضاً محذِّراً أكل الربا فمن جاء موعظة من ربه فانتهى الله، ﴿مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٥] بل وصف كتابه بأنه موعظةٌ منه؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يُونُس: ٥٧]، وقال لنبيه نوحٍ عليه السلام محذِّراً: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هُود: ٤٦]، وقال محذِّراً عباده من إطلاق الألسنة في الأعراض: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النُّور: ١٧]، فكل هذه الآيات يُبين الله فيها أنه يعظ عباده، ويدلُّهم على ما فيه صلاحهم.

وأما آية هذا المجلس، فإنها عجيبةٌ، فإن الله سبحانه لما ذكر في سورة النساء الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل، فقال:

---

(١) كتبه: الشيخ مهند بن حسين المعتبي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النِّسَاء: ٥٨]. -وهذه أوامر إلهية لتحقيق الأمانة والعدل- أردف ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النِّسَاء: ٥٨] فجعل -سبحانه- وعظه لنا نِعم الشيء هو، وهذه كلمة ثناء، وجملة مدحٍ عالي، فنعم الوعظ وعظ الله؛ فبه صلاح القلوب، وحياة الأرواح، وانضباط الجوارح.

وإنما يتحقق نفع الوعظ إذا عمل به، ففي السورة نفسها قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾ [النِّسَاء: ٦٦] إلى آخر الثمرات...

فلنحي قلوبنا بمواعظ ربنا، فثم الفلاح...

المجلس المئة وستة وعشرون

﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾[1]

إن من أوتي العدلَ ملك نفسه، ومن ملَكَها نجا.

وقد ندب الله إلى العدل فِعلاً وقولاً وخُلُقاً؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ [النَّحل: ٩٠]، وقال جلَّ وعلا: ﴿ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ [المَائِدَة: ٤٢]، والآيات في ذلك وفي ذم الجور والوعيد عليه أشهر من أنْ تُحصى؛ قال الله تعالى: ﴿ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هُود: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجِن: ١٥]، وقال تقدَّست أسماؤه: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٤٢]، وفي هذا تعزيةٌ للمظلوم، ووعيدٌ للظالم.

والناظر في الشريعة يجد نصوصها قد حثت على العدل بجميع جوانبه:

فهي تأمر بالعدل مع البعيد البغيض؛ يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المَائِدَة: ٨].

وتأمر النَّبيِّ الكريم داود بالعدل؛ يقول الحق: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦] بل أمر الله تعالى به خاتم الأنبياء والرسل محمداً: ﴿ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ﴾ [الشُّورَى: ١٥]،

(١) كتبه: أ. د. ناصر بن سليمان العمر.

وقال تعالى: في بعثة سائر الرسل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحَدِيد: ٢٥].

بل إن الشريعة الغراء تأمر بالعدل مع الكافر: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المُمْتَحنَة: ٨].

فإذا قام العدل في البلاد عمرت، وإذا ارتفع عن الديار دمِّرت، وإن الدول لتدوم مع الكفر ما دامت عادلة، ولا يقوم مع الظلم حقٌّ، ولا يدوم به حكمٌ، ولو كانت مسلمة.

وفي أجواء العدل يكون الناس في الحق سواء، لا تمايز بينهم ولا تفاضل، وبالعدل يشتد أَزْرُ الضعيف، ويقوى رجاؤه، وبالعدل يهون أمر القوي وينقطع طمعه.

كتب أحد الولاة إلى عمر بن عبد العزيز: إن مدينتنا قد خَرِبَت ونريد ما يعمرها، فقال: (اعمرها بالعدل، ونظف طرقها من الظلم).

فاتقوا الله لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ

المجلس المئة وسبعة وعشرون

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾[1]

هذه قاعدةٌ قرآنية عظيمة، يحتاج إليها الإنسان في مقام التمييز بين الأقوال والأفعال، والمقالات والسلوكيَّات.

والخبيث والطيب يشملان الأمور الحسية والمعنوية من الأقوال والأفعال والمعتقدات والأخلاق، والأموال والأماكن، والمآكل والمشارب؛ فلا يستوي إيمانٌ وكفر، ولا طاعةٌ ومعصية، ولا جنةٌ ونار.

ولا ريب أن الغرض من الآية ليس مجرد الإخبار بأن الخبيث لا يستوي مع الطيب، فذلك أمرٌ معروفٌ ومستقرٌّ في الفِطَر، بل الغرض: الترغيب في كل طيب، والتنفير من كل خبيثٍ، قولاً واعتقاداً، عملاً ومكسباً.

ولما كان في بعض النفوس ميل إلى بعض الأقوال أو الأفعال أو المكاسب الخبيثة، وكان كثير من الناس يؤثر العاجل على الآجل، والفاني على الباقي، جاء التحذير من الخبيث بأسلوب عجيب يقطع الطريق على من قد يحتج بكثرة الآخذين به فقال: ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ [المَائِدَة: ١٠٠].

وذلك أن في بعض الخبائث والمحرمات شيئاً من اللذة الحسية أو المعنوية كالمال الكثير المحرم، أو الوصول إلى اللذة الجسدية عن طريق الزنى، أو الخمر، أو غيرهما من الملذات المحرمة؛ فهذه قد تغري الإنسان وتعجبه.

---

(١) كتبه: أ. د. عمر بن عبد الله المقبل.

ولعظيم موقع هذه القاعدة وما دلت عليه؛ فقد كَثُرَ تأكيد القرآن إياها في صورٍ شتى؛ منها:

١- تأكيد ضرورة العناية بالمكاسب الطيبة؛ قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾ [البَقَرَة: ١٦٨]، وتتأكد الوصية بهذا في عصرنا الذي فُتِحَت فيه على الناس ألوان المكاسب المحرمة والشبهات.

٢- لا يصح بحالٍ من الأحوال أن نجعل الكثرة مقياساً لطيب شيءٍ ما وصحته وسلامته من المحاذير الشرعية، وهذا أمرٌ يصدق على الأقوال والأفعال والمعتقدات، بل يجب أن نحكُم على الأشياء بمدى موافقتها للشرع المطهر.

تأمل مثلاً في قلة أتباع الرسل وكثرة أعدائهم: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأَنْعَام: ١١٦].

وختاماً؛ فلتتيقن -أيها المؤمن- أنه ما في الخبيث من لذةٍ إلا وفي الطيب مثلها وأحسن، مع أمنٍ من سوء العاقبة في الدنيا والآخرة.

وتيقن أيضاً أن من طابت حياته وأقواله وأفعاله ومعتقده، طاب منقلبه إلى الله.

اللهم اجعلنا ممن تتوفاهم الملائكة طيبين، يا رب العالمين.

المجلس المئة وثمانية وعشرون

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا ﴾

هذا مَثَلٌ ضربه الله للذي هداه بعد الضلالة، ومنحه التوفيق لليقين الذي يميِّز به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، بمن كان ميتاً فأحياه الله، وجعل له نوراً يمشي به في الناس مستضيئاً به.

ولقد جاء التشبيه بديعاً؛ إذ جعل العبدَ قبل إسلامه، ودخولِ نور الإيمان في قلبه، كحال من كان عديم الخير، عديم الإفادة؛ كالميت، وقد تبين بهذا التشبيه تفضيل أهل استقامة العقول على أضدادهم.

والنور هو: القرآن، وقيل: الإسلام، وكلاهما صحيح[1].

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأَنْعَام: ١٢٢].

يتضمن أموراً:

أحدها: أنه يمشي في الناس بالنور، وهم في الظُّلمة، فمثَلَه ومثلهم كمثل قومٍ أظلم عليهم الليل، فضلُّوا ولم يهتدوا للطريق، وآخر معه نورٌ يمشي به في الطريق ويراها، ويرى ما يحذرُهُ فيها.

وثانيها: أنه يمشي بنوره، فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلى النور.

وثالثها: أنه يمشي بنوره يوم القيامة على الصراط، إذا بقي أهلُ الشرك والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم[2].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٣٠.

(٢) تفسير القيم لابن القيم: ص٣٠١.

وإن الإيمان يُنشئ في القلب حياةً بعد الموت، ويُطلق فيه نوراً بعد الظلمات، تلك الحياة التي يستطيع بها معرفة حقائق الأشياء وتقديرها وتصورها بحسٍّ آخرَ لم يكن يعرفه قبل هذه الحياة.

ونورا يبدو كل شيء تحت أشعته وفي مجاله جديداً، كما لم يبدُ من قبل لهذا القلب الذي نوَّره الإيمان.

ويجد المؤمن تفسير الأحداث والتاريخ في نفسه وعقله، وفي الواقع من حوله، كأنه يقرأ من كتاب[1].

«اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُوراً، وَفِي سَمْعِي نُوراً، وَفِي بَصَرِي نُوراً، وَعَنْ يَمِينِي نُوراً، وَعَنْ شِمَالِي نُوراً، وَأَمَامِي نُوراً، وَخَلْفِي نُوراً، وَفَوْقِي نُوراً، وَتَحْتِي نُوراً، وَاجْعَلْ لِي نُوراً»[2].

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٢٠١.

(٢) مسلم (١٨٢٤).

المجلس المئة وتسعة وعشرون

﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾

لما تجرأ قوم موسى عليه السلام على الله جرأةً كبيرة، وأساؤوا معه الأدب، بقولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [النِّسَاء: ١٥٣]، أخذتهم الرجفة، فصعقوا وهلكوا، فتضرَّع موسى عليه السلام إلى ربه بقوله: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأَعْرَاف: ١٥٥] والمقصود من الاستفهام في الآية: الاستعطاف والتضرع من موسى إلى الله تعالى؛ لأن المتجرئين على الله ليس لهم عقولٌ كاملة تردعهم عما قالوا وفعلوا، فالسفاهة: خِفَّة العقل واضطرابه(١).

فخشي موسى عليه السلام أن يشمل عذاب الله من كان مع القوم المتجرئين وإن لم يشاركهم في سبب العذاب كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ [الأَنفَال: ٢٥]، وما رواه البخاري بسنده، عن زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل عليها فزعاً يقولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبُ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذَا، وحلَّق بإصبعه الإبهام والتي تليها، فقالت زينب فقلت: يا رسول الله، أنهْلِك وفينا الصالحون؟ قال: نَعَمْ؛ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ**»(٢).

ومما يستفاد من هذه الآية: أنه على المؤمن أن يلتزم الأدب مع الله، وألا يسلك مسلك العناد.

وعلى الدعاة والمصلحين أن يتضرعوا إلى الله أن يصرف عن أقوامهم عذابه، بعد قيامهم قيام عزم وتصميم بواجبهم الدعوي نحوهم.

---

(١) التحرير والتنوير: ١/ ٧٢٥.

(٢) البخاري (٣٣٣١).

المجلس المئة وثلاثون

﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا ﴾

هذه معاتبةٌ من الله تعالى لفريق المؤمنين الذين أشاروا بأخذ الفداء يوم بدر؛ إذ أسروا المشركين، وأبقوهم لأجل الفداء.

والإرادة هنا بمعنى المحبة، وعرض الدُّنْيا هو المال[1].، وإنما سمي عرضاً؛ لأنه لا ثبات له ولا دوام، فكأنه يعرض ثم يزول[2].

فكل عَرَضٍ من أعراض الدنيا ليس فيه حظٌّ من نفع الآخرة، فهو غير محبوبٍ لله تعالى، وكل عرَض من الدنيا فيه نفعٌ من الآخرة ففيه محبةٌ مِنَ اللهِ تعالى؛ فلذلك عاتب الله المؤمنين على أخذهم الفداء؛ لينبِّههم على أنه حقيقٌ عليهم ألا ينسوا في سائر أحوالهم وآرائهم الالتفات إلى إعزاز دينه، وقمع أعدائه، ونصر أوليائه، وجعل كلمتهم عاليةً فوق غيرهم.

إن عرض الحياة الدنيا لا يجوز أن يدخل للمؤمنين في حساب إذا خرجوا يجاهدون في سبيل الله، أو في حال خروجهم للقيام بالدعوة إلى الله، فإنه ليس الدافع إلى الجهاد في سبيل الله، وليس الدافع إلى الدعوة إلى الله ولا الباعث عليهما؛ روى الإمام أبو داود بسنده عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «**أن رجلاً قال: يا رسول الله، رَجُلٌ يُرِيدُ الجهاد في سَبِيلِ اللهِ عز وجل، وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا؟ فقالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا أَجْرَ لَهُ، فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ، فَقَالُوا للرجل: عد إلى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَعَلَّكَ لَمْ تُفْهِمْهُ،**

(١) التحرير والتنوير: ١٠/ ٧٧.

(٢) تفسير الرازي: ١٥/ ٥١١.

فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللهِ رجل يُريدُ الجهاد في سبيل الله وَهُوَ يَبْتَغِي مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **لا أَجْرَ لَهُ، فَأَعْظَمَ ذلك النَّاسُ، فَقَالُوا لِلرَّجُل عُدْ إِلَى رَسُولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فقال له الثالثة: رجلٌ يُرِيدُ الجهاد في سبيل الله، وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضَ الدُّنْيَا؟ قَالَ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **لا أَجْرَ لَهُ»**[1].

فعلى المؤمن أن يُرَبِّي نفسه في كل عمل على ابتغاء مرضاة الله، وأن يحملها على ذلك مهما تحمَّل في سبيل ذلك من المشاق، فالسلعة غاليةٌ.

(١) أبو داود (٢٥١٦)، قال الألباني: حسن.

المجلس المئة وواحد وثلاثون

﴿ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾[1]

لما كان سلفنا الصالح أصحاب قلوب حية، وأفئدة نقية، انتفعوا بالقرآن وتدبَّروه حقَّ تدبُّره، فظهرت آثار ذلك عليهم من وَجَل القلوب، واقشِعرار الجلود، ودمع العيون؛ كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال عن تأثُّرهم بالقرآن الكريم أيضاً: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزُّمَر: ٢٣].

وقد تحقق لهم أيضاً العمل الصالح مع الرسوخ في علوم الشريعة، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله بعقله وتدبَّره بقلبه، وجد فيه من الفهم والحلاوة والهدى وشفاء القلوب والبركة والمنفعة، ما لا يجده في شيءٍ من الكلام لا منظومِهِ ولا منثورِهِ)[2].

ولا ريب أن هذه الأمور إنما تحصل من خلال طهارة قلب العبد، وخاصةً فيما يتعلق بتعامله مع كتاب ربه تعالى، ولقد حاز سلفنا الصالح قصَبَ السَّبْق في هذا الميدان قولاً وعملاً، فقد رُوي عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام الله)[3].

---

(١) كتبه: الشيخ عبد اللطيف بن عبد الله التويجري.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ص٣٨٤.

(٣) الزهد للإمام أحمد: ص١٨٨.

وهذه قولةٌ بليغةٌ جامعةٌ منه، وقد حقق ذلك عملاً من خلال قراءته وتدبره لكتاب الله تعالى حتى خُرِقَ مصحفه من كثرة إدامة النظر فيه، ورثاه شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت بقوله:

ضَحَوْا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحاً وَقُرْآنَا[1].

ونعتته زوجه فقالت: (فوالله لقد كان يحيي القرآن في ركعة)[2].

فينبغي لتالي القرآن أن يُطهِّر قلبه من الشَّهوات والشُّبهات؛ لأنها مانعةٌ حاجبةٌ عن تدبر كتاب الله، وتطهير القلب منها دافعٌ مؤثرٌ في فهم القرآن وتدبره؛ قال ابن مسعود رضي الله عنه: (إن هذه القلوب أوعية، فأشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره)[3].

ولقد قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩]، فإذا كانَ وَرَقُهُ لا يمسُّه إلا المطهرون، فمعانيه لا يهتدي بها إلا أصحاب القلوب الطاهرة[4].

(١) ديوانه: ص٢٣٠. ومطلع القصيدة:.

من سره الموت صرفاً لا مزاج له فليأت مأسدة في دار عثمانا.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير: ٧/ ٢١٤.

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم: ١/ ١٣١.

(٤) شرح حديث النزول لابن تيميَّة: ص٤٢٨، والمستدرك على فتاوى ابن تيميَّة: ١٦٩.

المجلس المئة واثنان وثلاثون

﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا ﴾

بعد أن أمر نوح عليه السلام أهله والمؤمنين بركوب السفينة؛ لينجو بهم من العذاب ويسيروا بها في رعاية الله وحفظه، في هذه اللحظة الرهيبة الحاسمة ينظر نوح عليه السلام، فإذا أحد أبنائه في معزِلٍ عنهم وليس معهم، وتستيقظ في كيانه الأبوَّة الملهوفة، ويروح يهتف بالولد الشارد ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا ﴾ [هُود: ٤٢] ولكن البنوَّة العاقَّة لم تحفل بالأبوة الملهوفة، والفتوة المغرورة لم تقدر مدى الهول الشامل.

والأبوة الصالحة تحب الذرية الصالحة، والنَّسل الطيب، وترجو من الله أن يجعل صفوة الخلق ومشاعل الهداية من نسلها؛ لأنها منقبةٌ عظيمة، وكرامةٌ جسيمة، لا يُدرك لها نظير.

وقول نوحٍ عليه السلام لابنه اركب معنا كنايةٌ عن دعوته إلى الإيمان بطريقة العرض والتحذير، وقد زاد ابنه -دلالة على عدم تصديقه بالطوفان- قوله متهكماً: ﴿ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ ﴾ [هُود: ٤٣] ظناً منه أنه ماءُ سيلٍ عادي، يمكن النجاة منه بالتحصُّن في مكانٍ عالٍ، أو جبلٍ شامخ، فقال الوالد الملهوف ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴾ [هُود: ٤٣].

وهكذا يفرق الضلال بين الابن وأبيه، حتى ليأبى الولد وهو بين يدي هذا البلاء المحيط به، أن يستجيب لأبيه، وأن يستمع له، فيخرج عن أمره، وهو يدعوه إلى ما فيه سلامته ونجاته، وهكذا يوفَّى كل من الأب والابن جزاء ما كسب، فينجو الأب بإيمانه، ويهلك الابن الكافر بكفره.

فالإيمان ينجي، والكفر يُهلك ويُردي، وعقوق الوالدين كثيراً ما يُسبب الهلاك في الدنيا.

ويبنى تصغير ابنٍ، وتصغيره هنا تصغير شفقةٍ، بحيث يُجْعَل كالصغير في كونه محلَّ الرحمةِ والشفقة[1].

فما أعظم الأبوة الصالحة في رحمتها وشفقتها، وعلوِّ همتها ومطالبها.

(١) التحرير والتنوير: ١٢/ ٧٦.

المجلس المئة وثلاثة وثلاثون

﴿ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا ﴾[1]

هكذا دعا يوسف عليه السلام ودعا الصالحون في الأمم قبله وبعده، كما قالت تلك النخبة لفرعون: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقد شرع لنا نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جملة ما شرع من الدعاء هذا السؤال كما في دعاء الجنائز المأثور: «**ومن توفَّيته منا فتوفَّه على الإسلام**»، وروي في الدعاء الطويل قوله: «**اللهم توفَّنا مسلمين، وأحْينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين**»، وهذا قريب من دعاء يوسف عليه السلام: ﴿ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يُوسُف: ١٠١]، وكان ذلك منهُ بعد أن تمَّت له النعمة، وحاز الملك، واجتمع له الإخوة مع الأبوين، قال بعضهم: ضاقت به الدنيا عليه السلام، فلم يقل: توفني، ألقي في الجب، فلم يقل: توفني، وأقيم للبيع في سوق من يزيد -وهو الكريم ابن الكرام- فلم يقل: توفني، واتُّهم في عرضه ولم يقل: توفني، وحُبس في السجن بضع سنين فلم يقل: توفني، ثم لما تمَّ له الملك، واستقام له الأمر، ولقي الإخوة نادمين، والأبوين راغبين وطابت له الحياة قال عليه السلام: توفني مسلماً، فعُلِمَ أن حبَّه للقاء الله كان عنده أجلَّ من الدنيا التي تمكن منها!

ولله حبُّ الأنبياء ما أنبلَه، وإيمانهم ما أعظمَه، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥].

وقد استنبط بعض أهل العلم من هذا جواز تمنِّي الموت لا لضرٍّ نزل وقال: من أمارات صدق الحبِّ تمني ورود الموت على حالٍ حسنة، لا لضرٍّ نزل أو بأسٍ أصاب، بل شوقاً إلى لقاء الحبيب.

---

(١) كتبه: الشيخ إبراهيم بن عبد الله الأزرق.

والذي عليه أهل التحقيق أن ذلك لم يكن تمنِّياً للموت، ولا سؤالاً له منجزاً، لكنه سؤال للثبات على الإسلام، إلى حين تمام الأجل، وانقضاء العمر؛ كما يقول الداعي لغيره: أماتك الله على الإسلام.

قال ابن عقيل: «لم يتمنَّ يوسف الموت، وإنما سأل الله أن يموت على صفة، والمعنى: توفني إذا توفيتني مسلماً، قال القرطبي: وهذا قول الجمهور».

فاللهم ثبتنا على الدين، وتوفَّنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين.

المجلس المئة وأربعة وثلاثون

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[1]

الشكر منزلةٌ عاليةٌ لا يُوفَّق لها إلا الخلَّص من الناس، كما قال الله تعالى: وقليل من عِبَادِي الشكور اسباً، وهي عبادةٌ تثمر السعادة والزيادة؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٧]، ولقد دأب القرآن الكريم على تذكير العباد بنعم الرب تبارك وتعالى ليبلغوا بتدبرها منزلة الشكر العالية، حتى سُمِّيت سورة النحل بسورة النعم التي قال الله فيها: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النَّحل: ٧٨]

ومن هنا كانت هذه الوقفة التدبرية مع هذه الآية: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النَّحل: ٥٣].

فمن أعظم أسباب الشكر: تذكر النِّعم الربانية، الدينية والدنيوية، الظاهرة والباطنة، الجليَّة والخفيَّة عند حصول منفعةٍ، ودفع مضرةٍ، وإن تعدُّوا نِعْمَتَ الله لا تحصوها، فهو الذي خلقك جنيناً في رحم أمك، وغذَّاك وعدَّلك وسوَّاك، وأعظمُ من ذلك أن للإسلام هداك، ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحُجُرَات: ١٧]، فالحمد لله رب العالمين.

نقولها في كل حينٍ وآن، ونحن نتقلَّب في نعم الرحمن؛ ولذا أمرنا الله مراراً بذكرها في مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [المَائِدَة: ٧]، فَذِكْرُها من شكرها، فتذكر دوماً: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النَّحل: ٥٣]، فهي تحريرٌ للقلب من عبودية غير الله، ومانعةٌ له من التقرب للمخلوقين.

---

(١) كتبه: د. عبد الله بن منصور الغفيلي.

وإذا رُمْتَ النعمة فاطلبها من مُسْديها، وتواضع لمعطيها، ولا تكن كالمتكبر الذي قال: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القَصَص: ٧٨]، بل كن متواضعاً، واذكر فضل ربك ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾ [النَّمْل: ٤٠] وكذلك مقالة العبد الصالح ذي القرنين: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ [الكَهْف: ٩٨].

ويظل المؤمن يذكر ربه شاكراً نعمه، فالذِّكر مغرافُ القلب؛ فَمَنْ كان قلبه شاكراً، كان لسانه ذاكراً؛ وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢].

فردِّد صباحاً ومساءً: «**اللهم ما أصبح بي من نعمةٍ أو بأحدٍ من خلقك، فمنك وحدك لا شريك لك**»، واستعن على شكرك لربك بذكرك له: «**اللهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

المجلس المئة وخمسة وثلاثون

﴿ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[1]

قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الإسْرَاء: ٨٢] من المعلوم أن جِماع أمراض القلب هي أمراض الشُّبهات والشَّهوات.

والقرآن الكريم شفاء للنَّوعين:

ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث ترى الأشياء على ما هي عليه.

وليس تحت أديم السماء كتابٌ متضمنٌ للبراهين والآيات على المطالب العالية من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوات، ورد النِّحل الباطلة، والآراء الفاسدة، مثل القرآن الكريم؛ فإنه كفيلٌ بذلك كله، متضمن له على أتمِّ الوجوه وأحسنها، وأقربها إلى العقول وأفصحها.

فالقرآن هو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشُّبَه والشكوك، ولكنَّ ذلك موقوفٌ على فهمه ومعرفة المراد منه؛ فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عياناً بقلبه، كما يرى الليل والنهار، وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم إنما هي علومٌ لا ثقة بها، بل هي آراء وتقاليد، أو ظنونٌ كاذبةٌ لا تغني من الحق شيئاً، أو أمورٌ صحيحةٌ لا منفعة للقلب فيها، أو علومٌ صحيحة قد صعب الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها، مع قلة نفعها، فهي: (لحمُ جَمَلٍ غَثٍّ، عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ وَعْرٍ، لَا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى، ولا سمِينٌ فَيُنتقل).

---

(١) إغاثة اللهفان: ١/ ٤٤-٦٤.

وأما شفاؤه لمرض الشَّهوات: فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، والأمثالِ والقَصص التي فيها أنواع العِبر والاستبصار، فَيَرْغَبُ القلبُ السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده، ويَرْغَبُ عما يضرُّه، فيصير القلب محباً للرشد، مبغضاً للغَيِّ.

فالقرآن مزيلٌ للأمراض الموجهة للإرادات الفاسدة، فيصلح به القلب فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطره الله عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبيَّة، كما يعود البدن بصحته وصلاحه إلى الحال الطبيعي، فيصير لا يقبل إلا الحق، كما أن الرضيع لا يقبل إلا اللَّبن.

المجلس المئة وستة وثلاثون

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾[1]

أخبر الله سبحانه وتعالى أنَّ أول ما تكلم بِهِ المَسِيحُ عيسى بن مريم عليه السلام أن قال: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مَرْيَم: ٣٠ - ٣١]، (والبركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء)[2]. والمبارك: الذي تُقَارِنُ البركة أحوالَه وأعمالَه؛ ذلك أنَّ الله تعالى أرسل عيسى بن مريم عليه السلام رحمةً لبني إسرائيل؛ ليُحِلَّ لهم بعض الذي حُرِّمَ عليهم، وليدعوهم إلى مكارم الأخلاق بعد أن قست قلوبهم وغيَّرُوا من دينهم، فهذه أعظم بركة تقارنه.

ومن بركته عليه السلام أن جعل الله حلولَه في المكان سبباً لخيرِ أهل تلك البقعة؛ حيث زيادةُ المنافع وكثرتها، واهتداءُ أهلها، وتوفيقُهم إلى الخير؛ ولذلك كان إذا لَقِيَهُ الجَهَلَةُ والمفسدون انقلبوا صالحين، وانفتحت قلوبهم للإيمان والحكمة[3].

ومن أعماله عليه السلام أنه كان نافعاً لغيره، معلِّماً الخير، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، قضَّاء للحوائج، مُرشِداً للضَّال، ناصِراً للمظلوم، مُغِيثاً للملهوف، وغير ذلك من الأعمال الصالحة المرضيَّة لله عزَّ وجلَّ.

والتعميم في قوله تعالى: ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مَرْيَم: ٣١] تعميم للأمكنة، فهو حيثما حَلَّ تحلُّ معه البركة، وعبر تعالى عن هذه الصفات بصيغة الماضي؛ إشارة إلى تحقُّقها وحدوثها فعلاً في المستقبل.

---

(١) كتبه: د. توفيق بن علي زبادي.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن للراغب: ص١١٩.

(٣) التحرير والتنوير: ١٦/ ٩٩.

فبركات الأنبياء وورثتهم مِنَ الدُّعاة باعتبار نفعهم للخلق بدعائهم إلى طاعة الله، وبما يُنزل الله من الرحمة على أقوامهم، ويدفع عنهم العذاب بسببهم.

والدعاء بالبركة من سنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكان من دعاء نوحٍ عليه السلام الذي لقَّنَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ له وعَلَّمَهُ إيَّاهُ: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَطْعَمَهُ اللَّهُ طَعَاماً فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَأَطْعِمْنَا خَيْراً مِنْهُ، وَمَنْ سَقَاهُ اللَّهُ لَبَناً فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَزِدْنَا مِنْهُ**»[1].

فلنقتد بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أحوالهم وأعمالهم ودعائهم؛ حتى نكون مباركين أينما كنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

(١) الترمذي (٣٤٥٥)، قال الألباني: حسن.

المجلس المئة وسبعة وثلاثون

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[1]

يتقلَّب الإنسان في رحلة حياته الدنيوية بين بلاءين واختبارين؛ مصداقَ قول الحق سبحانه: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. ولعل الله قدَّم ذكر الشرِّ في الآية لظهور الابتلاء به ووضوح معناه، وأخَّر ذكر الخير لخفاء الابتلاء به وغموض فحواه؛ إذ أوَّل ما يتبادر إلى الأذهان حين يُذكر الابتلاء ما ظاهره شرٌّ وغُرم، على حين يَغفل المرء غالباً عن البلاء المستتر في طيَّات ما ظاهره خيرٌ وغُنم؛ ومن هنا أُتِيَ كثيرون!

أما مظاهر الابتلاء بالشر فكثيرةٌ معروفة، ومن أول ما يستحضره المرء منها قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البَقَرَة: ١٥٥]. فهذه المصائب الظاهرة تصيب العبد امتحاناً لإرادته وصدق يقينه، فمَن صَبَر على تجرُّع مُرِّها راضياً محتسباً، كانت سبب خيرٍ كبيرٍ له في الدنيا والآخرة. ومن هنا قال بعض السلف: (لو علمنا كم نغرف من الأجر بعد المحن لما تمنينا سرعة الفرج).

وأما الابتلاء بالخير فهو عامٌّ في كل خير؛ من مالٍ وجاهٍ وسلطان، ومن قوةٍ وصحةٍ وهمة، ومن علمٍ وعقلٍ وفهم... فإنَّ هذه النعم إن لم يُقابلها العبد بالشكر، والاعتراف بفضل الله المنعم، وتسخيرها في طاعته ورضوانه، انقلبت وبالاً عليه.

فكم من عالمٍ اغترَّ بعلمه فباهى به العلماء، وماری به السفهاء.

وكم من داعيةٍ أعجبته نفسه؛ لإقبال الناس عليه، وازدحامهم بين يديه.

---

(١) كتبه: الأستاذ أيمن بن أحمد ذو الغنى.

وكم من ثريٍّ أطغاه ماله؛ ففي سخط الله بدَّده، وفي المنكرات والشهوات بذَّره.

وكم من صاحب جاهٍ ضنَّ بجاهه كبراً وغروراً.

وكم من ذي سلطان أعمت عينيه قوته فبطش وظلم!

والسعيد من وفَّقه الله لالتزام الصبر في العسر، والشكر له تعالى في اليسر، ليكون فيمن أخبر النَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عنهم بقوله: «**عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليس ذاك لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاء صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَه**»[1].

اللهم جمِّلنا بالإيمان، وكمِّلنا بالإحسان، وأعذنا من شرور أنفسنا، يا كريم يا رحمان.

(١) مسلم.

المجلس المئة وثمانية وثلاثون

﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾

افتتاحٌ بديع من جوامع الكَلِم؛ لسورة المؤمنون التي موضوعها الإيمان بكل قضاياه ودلائلِهِ وصفاته.

والفلاح: الظَّفر بالمطلوب، والبقاء في الخير.

فأخبر تعالى بفلاح المؤمنين، وإحرازهم البقاء الدائم، وأكَّده بـ قد التي تفيد التحقيق لدخولها على الماضي.. والسؤال: مَنِ المؤمنون الذين كتب الله لهم هذه الوثيقة، ووعدهم هذا الوعد؟

والجواب: أن الله سبحانه حكم بحصول الفلاح لمن استجمع صفات سبعاً هي:

﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾ [المُؤمِنُون: ٢] والخشوع حضور قلب المصلي، واستحضاره قُرْبَ الله تعالى، وسكون قلبه، واطمئنان نفسه، فتسكن حركاته، ويقلُّ التفاته.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴾ [المُؤمِنُون: ٣] واللَّغْو: الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ [المُؤمِنُون: ٤] أي: هم مؤدون لزكاة أموالهم، على اختلاف أجناسها، مُزَكُّونَ لأنفسهم من الأخلاق والأعمال السيئة التي تزكو النفس بتركها.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴾ [المُؤمِنُون: ٥] عَنِ الزَّنى، وما يدعو إليه؛ كالنَّظَرِ واللمس ونحوهما.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾ [المُؤمِنُون: ٨] أي: هم ضابطون لها حريصون على القيام بها، والمراد جميع الأمانات من حقوقٍ لله وحقوقٍ للعباد.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ [المُؤمِنُون: ٩] أي: يداومون عليها في أوقاتها، بشروطها وأركانها.

فمدحهم تعالى في أول الآيات بالخشوع في الصلاة، وفي آخرها بالمحافظة عليها؛ لأنه لا بدَّ منهما معاً؛ فالمداومة عليها من غير خشوع، والخشوع من دون محافظة؛ كلاهما مذمومٌ ناقص[1].

أُولَئِكَ: الموصُوفُونَ بتلك الصفاتِ: ﴿ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ ﴾ [المُؤمِنُون: ١٠ - ١١]، والفردوس أعلى الجنة ووسطها وأفضلها؛ أو هو جميع الجنَّةِ؛ لِيَدْخُل بذلك عموم المؤمنين على درجاتهم ومراتبهم كلٌّ بحسب حاله، ﴿ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المُؤمِنُون: ١١] لا يَظْعَنُونَ عنها، ولا يَبْغُون عنها حِوَلاً؛ لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمِّه بلا مكدِّر ولا منغِّص.

إنه الوعد الصدق، وعد الله؛ لا يُخلف وعده، وإنه الفلاح في الدارين يُحِبُّه المؤمن بقلبه، ويجد مصداقه في واقع حياته. فهل من مُشَمِّر مشتاق لنيل هذا الوعد الذي لا يُخلف؟!

(١) تفسير السعدي: ص٥٤٧.

المجلس المئة وتسعة وثلاثون

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾[1]

هذا منزلٌ من منازل الأتقياء الكمَّل، وغايةٌ في مقامات الجلال والجمال، ونهايةٌ في مراتب الورع والكمال، غايةٌ عزيزةٌ غالية، ولكنها ممكنة، وقد: (كمل من الرجال كثير)، وإنما دونها مجاهداتٌ وطول مسير، ومن التزم جادة الطريق مستهدياً بالله غير متخذٍ سوى القرآن منهاجاً وصل إن شاء الله.

إنها إذن صفةٌ من صفات أهل الله الأولياء الأتقياء، والصديقين النجباء: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ [الفُرْقَان: ٧٢]، إنها البراءة التامة الكاملة من الزور، الزور بمختلف معانيه، من كل صورِ الباطل، وضروب المنكر؛ قولاً وفعلاً، لا شهود له عند هذه الثُّلة المؤمنة، ليس بمعنى أنها لا تقترف شهادة الزور عند استشهادها فحسب، فهذا أمرٌ طبيعيٌّ، بل إنها لا تحضر مواطنه أصلاً، ولا تشهد نواديه وتجمعاته، فالشهادة هنا بمعنى الحضور والشهود والمعاينة والمخالطة؛ كما في قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥].

فشهود الزور هنا: حضورُه ومُلابسةُ مجالسه، ومصاحبة أهله وهم متلبِّسون به، والزور: جامعٌ لكل ضروب الباطل من شركياتٍ وخرافياتٍ وكذبٍ وبهتان، وفسق وفجور، فكل ذلك يُقاطع عباد الرحمن مجالسه مقاطعة تامةً، بَله أن يُشاركوا فيه بشهادةٍ أو قولٍ، فشهادة الزور القضائية من أعظم الموبقات، وقد صحَّ قول النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فيها لأصحابه، مما رواه الشيخان، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه،

(١) مجالس القرآن للدكتور فريد الأنصاري: ص٢٦٤-٢٦٥.

قال: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ قلنا: بلى يا رسولَ اللهِ، قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وكان متكئاً فجلس، فقال: أَلا وَقَوْل الزور، وشهادة الزور، ألا وقول الزور وشهادة الزور**».

وهذا المعنى داخل طبعاً في مقتضى الآية من باب أولى لكن سياق الدلالة قاضٍ بعموم الأول، وهو نفي حضور الزور بإطلاق، وهو الذي رجَّحه ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ بدلالة ما بعده من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾ [الفُرْقَان: ٧٢] أي: وإذا اتفق مرورهم به قدراً كما يمرُّ عابر السبيل، كانوا كراماً حقاً على أعلى ما تكون منازلُ كرمِ النفس والأخلاق؛ فلم يتدنَّسوا منه بشيء؛ لا مشاركةً ولا افتتاناً، ولا وقوفاً، ولا التفاتاً ولا نظراً.

المجلس المئة وأربعون

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾[1]

إن جوارح الأم كلَّها التي ترصدها لطفلها، قد أصبحت أدواتٍ معطلةً لا تعمل، فغدا قلبها -وهو مركز العواطف والمشاعر- كياناً فارغاً، لا يستقبل من الطفل ما يصله بأمِّه، من مشاعرَ وعواطفَ غير تلك العواطف السلبية؛ من قلقٍ وأسىً ولوعة.

وهذا هو السرُّ في هذا التعبير المعجز: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾ [القَصَص: ١٠].

وفي قوله تعالى: ﴿ أُمِّ مُوسَىٰ ﴾: إشارة إلى أن هذا الوليد -وهو في رعاية الله، وفي ضمان وعده بحفظه- قد أصبح ذا وجودٍ معترفٍ به في هذا المحيط الذي ضاعت فيه معالم الأطفال، وأُهدِرت فيه دماؤهم، إنه الآن شخصيةٌ معروفة، وعَلَمٌ ظاهر، يأخذ مكانه في هذه الأحداث، تماماً كما يأخذ فرعون مكانه فيها.

وقوله تعالى: ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ ﴾ [القَصَص: ١٠]؛ أي: إنها -وقد فرغ قلبها من هذا المهد الذي كان لوليدها في سويداء القلب- أوشكت أن تصرخ وتندب هذا الوليد، وتنادي في الناس: إن هذا الطفل الذي وُجِد ملقىً في اليم والذي التقطه آل فرعون؛ هو وليدها، وإنها لتود أن تلقي عليه ولو نظرة واحدة، قبل أن يصير هذا المصير المجهول.

وقوله تعالى: ﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ [القَصَص: ١٠]، أي: أمسكنا على قلبها ما فيه من نوازع تريد الانطلاق إلى الكشف عن وجه الوليد.

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ١٠/ ٣١٥-٣١٦.

وقوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القَصَص: ١٠]، تعليلٌ لهذا الربط الذي ربطه الله سبحانه على قلبها، وهو أنها بعد أن تتكشَّف لها الأمور، ستعلم أن وعد الله حقٌّ، وبهذا يتأكد إيمانها بالله، ويقوى يقينها به، وفي هذا إشارة إلى أن ما يُبتلى به المؤمنون الصابرون من مصائبَ ومحنٍ إنما هو تثبيتٌ لإيمانهم، وترسيخٌ لقواعد هذا الإيمان في قلوبهم، حيث ينكشف لهم وراء كل مصيبةٍ، وعَقِب كل محنةٍ، أن ذلك لم يكن إلا عن تدبير الحكيم العليم، وأنهم لو استقبلوا من أمورهم ما استدبروا، لما أقاموها إلا على هذا الوجه الذي أقامه الله رب العالمين.

المجلس المئة وواحد وأربعون

﴿ ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ ﴾[1]

إن هذه الآية العظيمة من سورة العنكبوت: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [العَنكَبُوت: ٦٠]، تذكِّرنا بحقائق كبرى لطالما نسيناها، أو تدلُّ أفعالنا على أنها تغيب عنا.

فهذه الآية فيها توضيح عدة أمورٍ، منها:

تقديم لفظ الجلالة على الفعل اللهُ يَرْزُقُهَا، يدل على الحصر والاختصاص، وأن الرزاق هو الله تعالى لا غيره، والرزق بيد الله سبحانه.

ومع وضوح هذه الحقيقة لدى المسلمين، نجد أن حرصهم على الأرزاق، وتقاتلَهم عليها، وارتكابَهم المحظورات واقترافَهم المحرمات في سبيل الحصول على المال يدل على غياب هذه الحقيقة عند كثيرٍ من الناس.

كثيرٌ من الكائنات لا تحمل رزقها حقيقة، ولا تحمل هماً له؛ فلا مخازن ولا ثلاجات ولا حافظات، ومع هذا فالله يرزقها، فهي لا تحمل رزقها ولا تحمل همَّه، والله سبحانه يرزقها أينما كانت، أما الإنسان الذي يعرف أنَّ اللهَ يحمل رزقه فهو دائمُ الهمِّ في طلب الرزق، إذا كان الله تعالى يرزق الدواب التي لا تعقِلُ، فكيف يخذل عباده المؤمنين الموحدين؟! كيف يتركُكَ بلا رزق؟! لذلك قال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ ﴾؛ أي: كما رزقها يرزقكم، وكما أطعمها يُطعِمُكُم.

(١) كتبه: د. عبد المحسن بن زين المطيري.

ثم ختم الله تعالى هذه الآية الكريمة باسمين عظيمين من أسمائه الحسنى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ولهما أعظم الأثر على معنى الرزق، فالسميع: يسمع دعاء طالب الرزق، ولا تخفى عليه خافيةٌ، ولا تختلط عليه الأصوات.

والعليم يعلم متى يستجيب لعبده، وما أفضل الأوقات لرزقه، وما أفضل أنواع الرزق التي يعطيها عبده؛ فهناك رزقُ الإيمان، ورزقُ العلم، ورزق الخُلُق، ورزقُ المال، ورزقُ الأولاد، ورزق الحب؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**إِنِّي رُزِقْتُ حُبَّهَا**»[1].

أسأل الله تعالى أن يرزقنا من فضله، ويفتح علينا من أبواب رزقه.

❁ ❁ ❁

(١) مسلم (٢٤٣٥).

المجلس المئة واثنان وأربعون

﴿ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾

في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٥٩] دعوةٌ لنساء النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبناته ونساء المؤمنين عامةً، أَنْ يَحْمِينَ أنفسَهنَّ من ألسنة السوء؛ بأن يدنين عليهنَّ من ثيابهنَّ، وأن يُرسلْنها حتى تكسوَ أجسامهُنَّ إلى مواقع أقدامهن.

وهذا هو لباس المحتشمات، على خلاف ما كان عليه لباس المتبرجات الدَّاعِيَاتِ الرجالَ إلى أنفسهنَّ.

وفي قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ ﴾ إشارةٌ إلى أن هذا الزِّيَّ الساتر الذي تلبسه نساء النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبناتُه ونساءُ المؤمنين هو مَعْلَمٌ من معالم المرأة الحرة العفيفة التي لا مطمع لأحدٍ فيها.

وفي قوله تعالى: ﴿ أَدۡنَىٰٓ ﴾ إشارة إلى أن هذا الزيَّ ليس وحده الذي يقي الحرائر والعفيفات من ألسنة أهل الفجور والفسق، ولكنه -على أي حال- وقاء يُجمِّل الحرة ويُزيِّنُ العفيفة، ويُضفي على طهرها طهراً، وعلى عفَّتها جلالاً وعفةً؛ فهو وإن لم يكن الكمال كلَّه؛ فهو من سمات الكمال، وإن لم يكن العفة كلَّها؛ فهو مظهرٌ من مظاهرها[1].

(والمقصود بالآية التي نزلت بعد استقرار الشريعة: أن يكون الستر المأمور به زائداً على ما يجب من ستر العورة؛ وهو أدبٌ حسنٌ يُبعد المرأة عن مظانِّ التهمة والريبة، ويحميها من أذى الفساق.

(١) تفسير القرآن للقرآن: ١١/ ٧٥١-٧٥٣.

واللباس الشرعي: هو الذي يستر جميع الجسد، ولا يشفُّ ما تحته ولا يَصِفُهُ.

فإن كانت المرأة في بيتها وأمام زوجها فلها أن تلبس ما تشاء.

﴿ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾؛ أي: إنَّ إدناء الجلابيب والتستُّر أقرب إلى أن يُعرفن أنهن حرائر، لسن بإماء ولا عواهِر، فلا يَتَعرض لهن بالأذى أهلُ الفسق والريبة.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ لما سلف منهنَّ من إهمال التستر، ولمن امتثل أمره بعد أن أخلَّ بالتستر خطأً بغير قصد.

رحِيماً واسع الرحمة بعباده؛ إذ راعى مصالحهم وأرشدهم إلى هذا الأدب الحسن)[1].

(١) التفسير المنير للزحيلي: ٢٢/ ١٠٨.

المجلس المئة وثلاثة وأربعون

﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ ﴾

جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن القرية التي أرسل الله تعالى لها المرسلين؛ اعتناءً منه بهم، وإقامةً للحُجَّة عليهم بتوالي الرسل إليهم؛ يأمرونهم بعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، وينهونهم عن الشِّرك والمعاصي، فما كان منهم إلا أن كذَّبوا الرسل، واستهزؤوا بهم.

والحسرة: شدَّة الندم مشوباً بتلهُّفٍ على نفع فائت، والعباد: اسم للبشر، وهو جمع عبد، وجميع الناس عبيد لله تعالى؛ لأنه خالقُهم والمتصرف فيهم[(١)]، والمراد بالعباد هنا: مكذِّبو الرسل والمعنى: يا حسرةً على العباد تعالَيْ واحضري؛ فإن الاستهزاء بالرسل من أعظم الموجبات لحضورك[(٢)].

وهذا التفجُّع على مكذبي الرُّسُلِ استعارةً في معنى التهويل والتعظيم؛ لما فعلوا من استهزائهم بالرسل[(٣)]، فإن المستهزئين بالناصحين الذين كانت بنصائحهم سعادة الدارين، يستحقون أن يتحسَّروا على أنفسهم، ويتحسَّر عليهم المتحسِّرون[(٤)]، فهي حالٌ بائسةٌ مؤسفةٌ تنتهي بأصحابها إلى شرٍّ وخيم، وبلاءٍ عظيم.

يا حسرة على العباد؛ تتاحُ لهم فرصة النجاة فيُعرِضُونَ عنها، وأمامهم مصارع الهالكين قبلهم لا يتدبَّرونها، ولا ينتفعون بها، ويفتح الله لهم أبواب رحمته بإرسال الرسل إليهم

(١) التحرير والتنوير: ٢٣/ ٨.
(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ٦/ ٢٩٥.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: ٢/ ١٨١.
(٤) تفسير أبي السعود: ٧/ ١٦٥.

حيناً بعد حين؛ ولكنهم يتجافون أبواب الرحمة ويسيئون الأدب مع الله[1].

فما أعظم مقام الرُّسُلِ الكرام، وورثتهم من الدعاة الناصحين الذين يدعون من ضَلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويُبَصِّرون بنور الله أهلَ العمى، فكم من قتيلٍ لإبليس قد أحيَوه، وكم من ضالٍّ تائه قد هَدَوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وما أقبح أثر الناس فيهم، وما أقبح شقاء المستهزئين بالرسل الكرام، وورثتهم من الدعاة الناصحين في كل عصرٍ وحين، وما أطول عناءهم، وأشدَّ جهلهم حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة، التي هي سببٌ لكل شقاءٍ وعذابٍ ونكال.

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٩٦٧.

المجلس المئة وأربعة وأربعون

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم ﴾[1]

إنَّ الإنسان مجبولٌ على السعي نحو التفوُّق، والبحث عن الأفضل، فتجدُ التاجرَ يسعى لتنمية تجارته، والموظَّف يسعى للترقي، والطالب يسعى للتفوق، وهو ما أكَّده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴾ [المُلك: ٢]، فقد جعل سرَّ خلقِ الموتِ والحياة، وسببَ التفاضلِ بين الناس: حُسن العمل.

ولذلك أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نَتَّبِعَ أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إلينا من ربنا؛ فقال: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزُّمَر: ٥٥]، قال السعدي: (مما أمركم به من الأعمال الباطنة... ومن الأعمال الظاهرة... وأنواع الإحسان مما أمر الله به؛ وهو أحسن ما أُنزل إلينا من ربنا)[2].

ويقول الآجري: (صفةُ قومٍ إذا سمعوا القرآن تتبعوا من القرآن أحسن ما يتقرَّبُونَ بِهِ إلى الله عزَّ وجلَّ مما دلَّهم عليه مولاهم الكريم؛ يطلبون بذلك رضاه، ويَرْجُونَ رحمته)[3].

ويقول الشنقيطي: (أي: يُقدِّمون الأحسن الذي هو أشدُّ حُسناً، على الأحسن الذي هو دونه في الحسن، ويقدمون الأحسن مطلقاً على الحسن)[4].

---

(١) كتبه: محمد بن مصطفى السيد.

(٢) تفسير السعدي: ص٨٥٩.

(٣) أخلاق حملة القرآن: ص٨.

(٤) أضواء البيان: ٧/ ٤٨.

وأعمال الخير متفاوتة بحسب الزمان والمكان والحال، لكن الآية نظَّمت أولويات عمل الخير، ودعتنا إلى الارتقاء في البحث عن الأفضل، وعدم الاكتفاء بعمل الخير أياً كان، وكلما سعى المرء نحو الأفضل؛ كان عمله أكثر إتقاناً وأجراً، ولا بد من المبادرة في ذلك:

﴿ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الزُّمَر: ٥٥]، حتى ننال البشرى: ﴿ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الزُّمَر: ١٧ - ١٨].

والتعبير بقوله تعالى: يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، يدلُّ على تجدد الاستماع، وتجدد الاتباع، قال ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والمحمُودُونَ الذين أثنى الله عليهم هم المتَّبِعُونَ لذلك استماعاً وتدبراً وإيماناً وعملاً)[1].

فاللهم اجعلنا منهم.

(١) الاستقامة: ١/ ٢٧٧.

المجلس المئة وخمسة وأربعون

﴿ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾[1]

هذا أمرٌ عظيمٌ موجه للنبي ﷺ ولأتباعه من بعده؛ بالاستقامة كما أمر الله تعالى.

فما الاستقامة؟ وما دلالة تقييدها بقوله: كَمَا أُمِرْتَ؟

وهذا السؤال مفتاحٌ مهمٌّ لفهم الآية وتدبرها.

والنظر في سياق الآية، وتأمُّل ما قبلها وما بعدها، ومعرفة ما سيقت لأجله يُعين على فهم المراد منها، ويفتح آفاقاً لتدبرها.

فقد ورد هذا التوجيه الكريم ﴿ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾ [الشُّورَى: ١٥] ضمن جمل عشر، اشتمل عليها قوله تعالى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الشُّورَى: ١٥]؛ وهي آيةٌ عظيمةٌ مباركة، لا نظير لها سوى آية الكرسي؛ كما قال ابن كثير.

وبتأمُّل سياق الآية؛ تتبين الحقائق الآتية:

- أهمية الاستقامة؛ حيث تكرَّر الأمر بها في القرآن، وأُمِرَ بها الرسول ﷺ والمؤمنون، وكلُّ أمرٍ خُوطب به العظماء فهو عظيم.

- الاستقامة كلمة جامعة؛ تعني تحقيق العبودية لله تعالى؛ بفعل الأوامر واجتناب النواهي، وتشمل استقامة القلب والجوارح، وتقتضي المداومةَ على ذلك حتى الممات.

(١) كتبه: د. محمد بن عبد الله القحطاني.

- شرط صحة الاستقامة الإخلاصُ لله تعالى، وموافقةُ شرعه؛ فلا يطلب العبد مرضاة أحدٍ سوى الله، ولا يخرج عما شرعه الله؛ فهي مهمةٌ شاقةٌ، تحتاج إلى علمٍ قبلها، ويقظةٍ في أثنائها، وصبرٍ ومداومةٍ عليها؛ فليس الشأن في امتثال الأمر: وَاسْتَقِمْ، ولكن الشأن كل الشأن في التقيد بـ ﴿ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾

- أكثر الناس حاجةً للاستقامة الدعاة إلى الله، وكل مسلمٍ صادقٍ هو داعية إلى الله حسب قدرته؛ فقد جاء الأمر بالاستقامة بعد الأمر بالدعوة إلى التوحيد، واستقامة الدعاة: قيامهم بما يَدْعون إليه، واستمرارهم عليه بلا فتور.

وفي الأمر بالاستقامة بعد الأمر بالدعوة، إشارةٌ إلى أن كمال الدعوة إلى الحق لا يحصل إلا إذا كان الداعي مستقيماً في نفسه.

- أخطر شيءٍ يصرف العبد عن الاستقامة، ويحول بينها وبينه: اتباع أهواء المبطلين؛ فَمَنِ اتَّبَعَ أهواءهم هوى وخَرَّ من رفعة الاستقامة إلى سحيق الضلالة.

فاللهمَّ وفِّقنا للاستقامة على دينك كما أمرتنا، وثبتنا عليها حتى نلقاك راضياً عنَّا.

المجلس المئة وستة وأربعون

﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾[1]

إن شأن المؤمن إذا ضاقت به الحيل، وانقطعَتْ بِهِ السُّبُلُ، أن يلجأ إلى ربه فيدعوه، وهذا نبيُّ الله نوح عليه السلام، قضى عمره في دعوة قومه: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العَنكَبُوت: ١٤]، دعاهم بكل السبل ليلاً ونهاراً، سرَّاً وجهاراً، فلما تقدَّم به العُمُر، وأعيتْه الحِيل، دعا ربَّهُ ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القَمَر: ١٠].

وفي ذكر الربوبية هنا ربه ما يشير إلى معاني الحفظ والرعاية والحماية، فهو يدعو ربه الذي حفظه ورعاه وسدَّده، ربه الذي يحفظ جميع الخلق ويُدير أمورهم، فكان نصُّ دعائه: ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾؛ أشار إلى نفسه بقوله: أني. ووصفها بما يدل على ضعفها أمام قوة الله وقهره، فقال: ﴿ مَغْلُوبٌ ﴾؛ أي: وقعتْ عليَّ الغلبة من قومي الذين أفنيت عمري في دعوتهم، وهو ما تبينه الآية السابقة لهذه الآية: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ [القَمَر: ٩] وجعل الغلبةَ واقعةً عليه: أني مغلوب، لا على دعوته، فلم يقل: غُلِبَتْ دعوتي، أو غُلِب ديني!

وقوله هذا وصفٌ لضعفه، وقد جعله وسيلةً لطلب نصر الله سبحانه، كما قال زكريا عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مَرْيَم: ٤].

ثم رتب على بيان ضعفه طلب النصر؛ فقال: فانتصر، وهنا لم يذكر نفسه، فلم يقل: فانصرني، بل قال: فانتصر، فالمهم هو انتصار الدعوة، ففي الضعف أظهر نفسه، وفي النصر تناساها.

---

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

وقوله: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾، كلماتٌ موجزةٌ عظيمة الدلالة، اختصرت العمرَ الطويلَ في سبيل الدعوة إلى الله.

وكان الدعاء موجزاً، وجاء النصر مفصلاً: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القَمَر: ١١ - ١٥].

يا لها من آيات تبين قدر ضعف المخلوق أمام عظمة الخالق سبحانه.

المجلس المئة وسبعة وأربعون

﴿ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن يوم الحديبية، حين اضطربت قلوب المؤمنين من قهر الكفار لهم، ودخولِهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس، فبينت الآية عناية الله تعالى بالمؤمنين بإصلاح نفوسهم، وإذهاب خواطر الشيطان عنهم، وإلهامهم الحق في ثبات عزمهم، وقرارة إيمانهم.

والسكينة: الطمأنينة والثبات[1].؛ أي: أنزل الله سبحانه في قلوبهم السكون والطمأنينة بسبب الصلح والأمن؛ ليعرفوا فضل الله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف، والهدنة بعد القتال؛ فيزدادوا يقيناً إلى يقينهم[2].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: لما آمنوا بالتوحيد زادهم العبادات شيئاً شيئاً، فكانوا يَزْدادُونَ إيماناً إلى إيمانهم، حتى قال لهم: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المَائِدَة: ٣] فمنحهم أكمل إيمان أهل السماوات والأرض[3].

فكان في ذلك الحادث خيرٌ عظيم لهم، كما كان فيه خير للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن كان سبباً لتشريفه بالمغفرة العامة، ولإتمام النعمة عليه، ولهدايته صراطاً مستقيماً، ولنصره نصراً عزيزاً.

والسكينة حين يُنزلها الله في قلب، تكون طمأنينةً وراحة، ويقيناً وثقة، ووقاراً وثباتاً، واستسلاماً ورضاً.

---

(١) تفسير المراغي: ٢٦/ ٨٤.

(٢) تفسير الزمخشري: ٤/ ٣٣٤.

(٣) المحرر الوجيز: ٥/ ١٢٧.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كان شيخ الإسلام ابن تيميَّة إذا اشتدَّتْ عليه الأمور: قرأ آيات السكينة[1].، وسمعته يقول في واقعةٍ عظيمةٍ جرت له في مرضه، تعجز العقول عن حملها -من محاربة أرواح شيطانية، ظهرت له إذ ذاك في حال ضعف القوة- قال: فلما اشتد عليَّ الأمر، قلت لأقاربي ومن حولي: اقرؤوا آيات السكينة، قال: ثم أقلع عني ذلك الحال، وجلست وما بي قَلَبَةٌ)[2].

فلنقرأ آيات السكينة بتدبُّر؛ حتى يطمئن القلب، ويرتاحَ البال، وتذهب عنا شدائد الأمور؛ لأن الله تعالى أخبر عن إنزالها على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب.

(١) سورة التوبة، الآيات: ٢٦-٤٠، وسورة الفتح: ٤، ١٨، ٢٦.

(٢) قلبة: ألم وعلة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤/ ٩٨.

المجلس المئة وثمانية وأربعون

﴿ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[1]

إن الحديث ههنا سيتناول هديَ قول الله تعالى: ﴿ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [المُجَادلَة: ١٠].

فأنت إذا تأملت هذه الآية وجدت أن من أعظم مقاصد الشيطان: إدخال الحَزَن على المؤمن، وأدركتَ أن من أعظم مقاصد الشريعة: إسعاد المؤمن، وطرد الحَزَن عنه.

قال الله: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـٔٗا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [المُجَادلَة: ١٠].

وفي هذا إشارة إلى أن الشيطان لا يقف عن محاولة تكدير صفو المؤمن، وإزعاجه في كل حال؛ فتراه يُذكِّره بما يسوءُه، ويُمَنِّيه بالأماني الباطلة التي تجلب له الشقاء، وتراه أيضاً يجلب عليه الذكريات الأليمة والاحتمالات السيئة والخيالات المثبطة عن العمل.

فإذا استجاب الإنسان لذلك؛ فصار يستدعي تلك الخواطر، ويجترُّ تلك المآسي، ويسترسل مع الاحتمالات الرديئة، والظنون السيئة عاش في ألمٍ وضِيقٍ، وصار يأكل بعضه بعضاً، ويعذِّبُ نَفْسَه بنفسه.

أما إذا قطع تلك الواردات، ودرأها عن نفسه ما استطاع، واشتغل بما يعنيه، ونظر إلى الجوانب المشرقة في الحياة، وفي سيرته، واستعاذ من الشيطان ووساوسه كَبُرَتْ نَفْسُه، وعَلَتْ هِمَّتُه، وكثر نشاطه، وزاد إقباله، وانشرح صدره، وعظم إنتاجه.

(١) كتبه: د. محمد بن إبراهيم الحمد.

وهذا مما يفسر لنا سرَّ النجاح عند بعض الناس، وسرَّ الإخفاق عند آخرين؛ فالنجاح يَكْمُنُ في كون الناجحين يتوكلون على الله، ويستحضرون أن كيد الشيطان ضعيف، وأنه ليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله.

والإخفاق يكمن في كون المخفقين يسترسلون مع الأوهام، ويَدَعُونَ كيد الشيطان يستحوذ على أفكارهم، ويأخذ بمجامع قلوبهم، فيقعدهم عن العمل، ويقضي بهم إلى البطالة والكسل.

فالآية الكريمة تشير إلى أنه ينبغي للمؤمن أن يكون مشرق النفس، مبتهجاً بالحياة، مطمئن الخاطر، بعيداً عن كل ما يكدِّر عليه صفوه؛ فذلك مما يبعثه إلى قوة الإقبال على الله، والحرص على ما ينفعه في أمور دينه ودنياه؛ ذلك أن المبتهج بالحياة يزيده ابتهاجه قوةً إلى قوته، فيكون أقدر على الجِدِّ، وحسْنِ الإنتاج.

المجلس المئة وتسعة وأربعون

﴿ قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾[1]

هذا ما أخبر الله تعالى به عن مقالة نفرٍ من الجن حين استمعوا إلى قراءة النَّبيِّ ﷺ، وما وجدوه في أنفسهم من الدهشة والانبهار والاستعظام، وهم يسمعون كلاماً غير مألوفٍ لهم، ولا يجري على ما سمعوه من كلام الخلق، لقد وجدوا كلاماً لا يشبه كلام الناس في لفظه ومعناه، وهم بذلك يعبِّرون عن صوت الفطرة التي انتفضت فيهم، وقد أشرق عليها نور القرآن العظيم.

يصفون دهشةَ أسماعهم وقلوبهم وعقولهم حين غمرتهم أعاجيبُ القرآن في اللفظ والمعنى، وقد جاء هذا الوصفُ في سياق الثناء على النَّفر المؤمنين الذين استقبلوا القرآن بهذه الروحِ المنصفة السَّوية اليَقِظَة الحية التي استشعرت عظمة كتاب الله تعالى.

اختصر الجن تلك المعاني العظيمة في كلمة واحدة: عجبا، اختصروها في إثارته للدهشة في كل لفظةٍ وجملةٍ ومعنىً، إنه وصفٌ دقيق لِمَا يشعر به كل مؤمن وهو يتلقى القرآن دون حُجُبٍ أو أستار، سيجد نفس المشاعر في روحه، ولذة الدهشة في أعماقه، يجدها في سمعه وفي قلبه.

سيجد الدهشة في قَصَصه وأحكامه وأخباره، سيجدها حين تَبْهَره عِظاتُ القرآن وتشريعاته، ووعده ووعيده، وبيِّناته وحُجَجه.

سيجد دهشة القرآن حين يكون معه في فرحه وحزنه، ومرضه وصحَّته، وقوته وضعفه.

---

(١) كتبه: د. عبد الله بن بلقاسم بن عبد الله.

سيجد العَجَبَ في شفاء القرآن لأدواء قلبه، وضِيق صدره، سيبهره القرآن حين يقرؤه في الشدائد والمخاوف والآلام، سيبهره حين تشرق أنوار هداياته في ظلمات الطريق، وتستبين بآياته الدروب في حالكات الظلام.

سيجد شيئاً مختلفاً من آثاره، شيئاً لا يُشبه الأشياء.

سيجد مواساةً لا تشبه مواساة محبِّيه، ونصحاً لا يُماثل نصيحة مقرَّبيه، وعزاءً لم يسمع مثله من أشفَقِهم عليه.

ستتكرر دهشته مع كل لفظٍ يفهمه، ومعنىً يتدبره، سيتعاظم انبهاره وهو يرى نفوذ الوحي في أعماق روحه، وتأثيره العظيم في فطرته.

إنها دهشةٌ متجدِّدةٌ، وانبهارٌ لا ينطفئ، وشعورٌ بالتعظيم لا يتوقَّف.

سيبقى مع كثرة الترددِ عجباً، ومع عُمق التأمُّل مبهراً، ومع مداومة التدبُّر مدهشاً.

المجلس المئة وخمسون

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾

أخبر الله سبحانه وتعالى عن حال الأبرار، الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بأبدانهم بأنهم خير البرية.

والبَرِيَّة: جميع الخلق؛ لأن الله تعالى بَرَأَهُمْ، وَأَوجَدَهم بعدَ العَدَم[1].

وهؤلاء الأبرار استحقوا هذه الخيرية؛ للأسباب الآتية:

- أنهم عبدوا الله وعرفوه.

- أنهم صدَّقوا بما جاء به النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- أنهم عملوا صالح الأعمال، فبذلوا النفس في سبيل الله وجهاد أعدائه، وبذلوا نفيس المال في أعمال البر، وأحسنوا معاملة خلقه.

فكل عبدٍ مؤمنٍ صالح: هو من خير البرية.

وهذه الخيرية التي استحقُّوها حكْمٌ من الله قاطعٌ لا جدال فيه، ولا رادَّ له.

وجزاء هؤلاء الأبرار: جنَّاتُ عَدْنٍ خالدين فيها أبداً.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ بما قاموا به من مراضيه.

(١) المحرر الوجيز: ٥/ ٥٠٨.

روى الإمام مسلم بسنده، عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ لأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لا نَرْضَى يَا رَبِّ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ. فَيَقُولُ: أَلا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً»[1].

ومن بلاغة القرآن تقديم الثناء عليهم في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البَيِّنَة: ٧]، على بشارتهم في قوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [البَيِّنَة: ٨]؛ (ليكون ذكرُ وعدِهم كالشكر لهم على إيمانهم وأعمالهم)[2].، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ [الشُّورَى: ٢٣]، سبحانه وتعالى يغفر الكثير من الزلل، ويشكر القليل من العمل، فيُعطي عزَّ وجلَّ عبده ما يُشكَر عليه، ثم يشكره على إحسانه إلى نفسه لا على إحسانه إليه.

(١) مسلم (٧٣١٨).

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٨٥.

المجلس المئة وواحد وخمسون

حق التلاوة[1]

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾

يقول الحق سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [البَقَرَة: ١٢١].

فما حقُّ التلاوة المذكور هنا؟

لعل في بيان المعنى العام للآية جواباً عن السؤال، وهو:

إن الذين منَّ الله عليهم بالكتاب من المؤمنين يتَّبعونه حقَّ اتباعه؛ فيحلُّون حلاله، ويُحرِّمون حرامه، ويعملون بمُحْكمه، ويؤمنون بمتشابهه، فهؤلاء هم المؤمنون بالكتاب حقَّاً المتَّبعون له صدقاً.

وههنا وقفتان تدبُّريتان:

الوقفة الأولى: وقفةٌ تأسيسيةٌ مهمة، وهي أن التدبر المحمود لا يكون إلا بعد معرفة المعنى الصحيح؛ فمن لم يعرف معنى التلاوة في الآية لن يتمكن من تدبُّرها تدبراً صحيحاً، ولن يكون عملُه بها مستقيماً.

والتلاوة هنا لا تقتصر على القراءة فحسب، بل هي أعمُّ وأشمل، وما أحسن ما قاله الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بيانه للمراد بها إذ قال مقسماً بالله: (والذي نفسي بيده، إن حقَّ تلاوته: أن يحلَّ حلاله، ويُحرِّم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله،

(١) كتبه: د. محمد بن عبد الله القحطاني.

ولا يُحَرِّف الكَلِم عن مواضعه، ولا يتأوَّل منه شيئاً على غير تأويله)[1].

فما أحرانا أن نحرص على فهم معاني القرآن حرصنا على قراءة ألفاظه وتجويد حروفه؛ فإن معرفة المعاني أهمُّ وأولى من ترتيل المباني.

الوقفة الثانية: تقرر الآية حقيقةً شرعيةً كبرى، وهي أن الشأن في تأدية جميع الأعمال التي شرعها الله لنا ليس في القيام بها على أيِّ وجه، وإنما في القيام بها على الوجه المشروع. وهذا مقام الإحسان الذي هو أعلى مقامات العبادة وأخصُّ مراتب الدين، فما أكثرَ العاملين، ولكن ما أقلَّ المحسنين الذين يؤدُّون عملهم على الوجه المشروع، فليس الشأن في ﴿ يَتْلُونَهُۥ ﴾، ولكن في ﴿ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾!

وإذا تقررت هذه الحقيقة؛ فإنه ينبغي لكل حريصٍ على الخير أن يُعنى بتجويد عمله وإتقانه، وأن يعلم أنه لا سبيل إلى ذلك إلا بقوتين: قوةٍ علميَّةٍ سابقة للعمل، تمكِّنه من معرفة أحكام دينه، وقوةٍ عمليةٍ في أثناء القيام بالعمل، تجعله يحرص على إتقانه وإحسانه؛ طلباً لمرضاة الله، واتباعاً لسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...

اللهم وفِّقنا لطاعتك على الوجه الذي يرضيك عنا، واجعلنا ممن يتلو كتابك حق تلاوته، يا أرحم الراحمين.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره: ٢/ ٤٨٩.

المجلس المئة واثنان وخمسون

نعم المكافأة[1]

﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾

بعد أن ذكر الله تعالى في سورة البقرة امتنانه على عباده بعدد من النعم؛ كتحويل القبلة، وبعثة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وغيرها، قال سبحانه: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢]، وهي تربيةٌ قرآنيةٌ للعباد على شكر نعم الله الشرعية؛ كتحويل القبلة والبعثة، والحسية؛ كالأرزاق المعلومة، وإنَّ من أعلى صور الشكر ذكرُه تعالى، حيث جاء التعقيب على آية بعثته بقوله: فاذكروني.

وذكرُه تعالى لا يقتصر على تحريك اللسان بالذكر المعتاد، بل يشمل ما هو أعمُّ من ذلك، وهو تذكُّر عظمته وصفاته تعالى، وما أثنى به على نفسه، وأثنى به عليه رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وما ترتب على ذلك من الأوامر والنواهي.

ويوضِّح هذا المعنى قوله تعالى: في صفة أهل الجنة ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٣٥]، أي: ذكروا أمره ونهيه فاستغفروا مما فعلوا[2].

يا لها من كرامةٍ حين يكون جزاءُ ذكرنا لربنا أن يذكرَنا فيمن عنده، فمن نحن ليذكرنا الربُّ العظيم الجليل في عليائه؟ وأيُّ فضلٍ جاد به الربُّ الرحيم علينا ونحن الذين لا نشكِّل إلا ذرة محدودة في هذه العوالم التي تسبِّح له بكرة وعشياً؟

---

(١) كتبه: أ. د. عمر بن عبد الله المقبل.

(٢) انظر: الفوائد، لابن القيم: ص١٢٨.

وعلى أننا عبيدٌ مثقلون بذنوبنا ومعاصينا؛ نذكره فيذكرنا، مع يقيننا أن ذكره لنا أعظم من ذكرنا له، إنه الفضل الذي لا يُفيضه إلا الله الكريم، الذي لا خازن لخزائنه، ولا حاسب لعطاياه.

ووالله لو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفاً، كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد ثبت في الصحيحين، يقول الله في الحديث القدسي: «**مَن ذَكَرَني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذَكَرتُه في ملأ خيرٍ منه**»[1]. إنه فضلٌ لا يصفه لفظ، ولا يعبِّر عن شكره الحق إلا سجود القلب شكراً لله، تترجمه دموع الفرح بفضل الله وكرمه وجوده.

إنَّ ذكر الله ليس مجرد نطقٍ باللسان والقلبُ غافلٌ، بل هو انفعالُ القلب مع اللسان، والشعورُ بفضل الله وجودِهِ، والتأثُّر بهذا الشعور تأثراً يُفضي إلى الانقياد للطاعة وترك المعصية، وكأن القلبَ يشاهد منَّة الله وفضله، هنا يذوق العبد لذَّة الذِّكر، وطعم العبودية، ويسجد بعدها سجدةً لا يشتهي أن يرفع رأسه منها.

فاللهمَّ اجعلنا من عبادك الذاكرين، وأوليائك الشاكرين، وأعذنا من حال الغافلين والمحرومين.

(١) البخاري (٧٤٠٥)، مسلم (٢٦٧٥).

المجلس المئة وثلاثة وخمسون

وعيدٌ ووعد[1]

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾

قانونٌ إلهيٌّ لا يتخلَّف، يقرره خالق الخلق ومدبِّرُه، وإله الكون ومالكه في قوله: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٦]؛ مبيناً سوء عاقبة الربا في الدنيا بعد أن بيَّن عاقبته في الآخرة، ومبيناً خير عاقبة الصدقة في الدنيا بعد أن بيَّن عظيم أجرها في الآخرة.

إنه العذاب الأدنى قبل العذاب الأكبر لمرتكب كبيرة الربا، والحسنةُ المعجَّلة في الدنيا قبل الحسنة المؤجلة في الآخرة للمنفق المتصدِّق، فهو وعيدٌ ووعدٌ في الدارين.

أما الوعيد فهو محق الرِّبا، أي محوه وإزالته وإبادته، وإتلاف ما حصل منه في الدنيا، (ومنه مُحاق القمر، أي: ذهاب نوره ليلة السِّرار، وهي آخر ليلة من الشهر)[2].

وأما الوعد فهو إرباء الصَّدقات؛ أي: الإخلاف على صاحبها بأضعافٍ مضاعفةٍ في الدنيا قبل الآخرة. ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البَقَرَة: ٢٦١]. وقد صوَّر لنا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه المضاعفة أجمل تصوير إذ قال فيما رواه عنه أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **«مَن تَصَدَّقَ بصَدَقةٍ من كسبٍ طيِّب، ولا يقبلُ الله إلَّا الطيب، كأنَّها إنَّما يضَعُها في كفِّ الرَّحمنِ فيُرَبِّيها كما يُربِّي أحدُكُم فَلُوَّهُ أو فَصِيلَهُ حَتَّى تكون مثل الجبل»**[3].

---

(١) كتبه: د. محمد بن حسان الطيان.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٣/ ٩١.

(٣) السنن الكبرى للنسائي: ٧/ ١٥٥.

إن الربا يمثل أقصى حالات الجشع عند المرابي؛ إذ يبتزُّ أخاه الإنسان مستغلاً حاجته للقرض والمال حين قرضه، ومقتنصاً من قوته وماله ما يستطيع اقتناصه دون شفقةٍ أو رحمةٍ حين استرداده، لذا كان المحقُ فيها عظيماً، والعقاب فيها جسيماً، في الدنيا والآخرة.

والصدقة تمثِّل أرقى ما يمكن أن يصل إليه المرء من كرمٍ وجود وإيثار ونُبْلٍ؛ إذ يُعطي بلا مقابل، ويُنفق دون انتظار سَدادٍ أو شُكرٍ أو عطاء، ولذا كان الإخلاف فيها كبيراً، والثواب فيها جزيلاً، في الدنيا والآخرة.

بقي أن يتأمَّل قارئ الآية هذا الإبداع البلاغي فيما يُسمى جناس الاشتقاق بين الربا ويُربي.

اللهمَّ طهِّر أموالنا من الربا وغُباره، وزكِّها بالصدقات والمبرَّات والخيرات.

المجلس المئة وأربعة وخمسون

محراب العبودية[1]

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾

أيها العبد، إذا عزمت على أمرٍ ذي بالٍ فتوكل على الله تعالى، بعد الاستشارة فيه، إن كان يحتاج إلى استشارة، معتمداً على حول الله وقوَّته، متبرئاً من حولك وقوتك[2].؛ مستحضراً قوله سبحانه: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٥٩].

إن التوكُّل من أعظم أعمال القلوب، وهو علامةٌ على تعظيم العبد ربَّه، ويقينه بأسمائه وصفاته، وإيمانه بقوَّته وقدرته وعلمه وحكمته، ولطفه وبرِّه.

والتوكُّل محراب العبودية العظيم الذي تسجد فيه كل ذرة في العبد لربها، وتستكين لمولاها، وتلقي بأزمَّة الأمور إليه وحده.

وقد جعل الله التوكل أوَّلَ خُطوة بعد العزم والإرادة، بدلالة فاء العطف المفيدة للتعقيب؛ لأنَّ العبد حين يعزمُ على عملٍ ما، تأتيه خواطر الثقة بنفسه وبقدرته، والاعتماد على حوله وقوته، فإذا فوَّض الأمر إلى الله في حال الشُّروع في العمل، دلَّ ذلك على صدق اعتماده على ربه، وتبرُّئه من حَوْل نفسه.

ولو تأمَّلنا في قوله: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ ﴾ لرأيناه سبحانه لم يذكر المعمول؛ للدَّلالة على العموم، فالتوكل قرين أنفاس المؤمنين في كل أحوالهم وشؤونهم، لا يطلبون أمراً دينيَّاً

(١) كتبه د. عبد الله بن بلقاسم بن عبد الله.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص١٥٤.

أو دنيويَّاً إلا كانوا فيه معتمدين على ربهم وحده، فهم متوكِّلون في حال الضَّعف والقوَّة، يستشعرون على الدوام فقرَهم الاضطراريَّ الكليَّ إلى الله، ويشهدون من أنفسهم على حال الضَّعف والفقر إلى مولاهم.

وإن من أعظم بواعث التوكُّل شعور العبد أنَّ الله يحبُّه لتوكُّله، والمحبَّةُ أعظم مقامات العبد عند ربه، فلو ذهبت مقاصد التوكُّل كلُّها ولم يبق له منها إلا تحصيل هذه المنزلة السامية، منزلةُ محبَّة الله إيَّاه لكان جديراً باجتهاد المؤمن بالتوكل على الله، وتربية النَّفس عليه، وبذل الأسباب في امتلاء القلب به.

المتوكِّلون يحبهم الله؛ لأنهم حقَّقوا منازل العبودية الحقَّة بتعظيمهم ربَّهم، ويقينهم بربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، وحصَّلوا أعلى مراتب الدين بيقينهم بقرب ربهم منهم.

كلُّ لحظةِ توكُّلٍ أيها العبد تمنحك حبَّاً من الله وقرباً.

وكل عملٍ تفتتحه بتوكلٍ يُفتح لك به بابٌ إلى محبة الله.

وكلما عظم توكلك على الله نلت من محبَّته بقدر ذلك.

فاللهمَّ اجعلنا من عبادك المتوكلين عليك حقَّ التوكل.

المجلس المئة وخمسة وخمسون

شتَّان ما بين إرادةٍ وإرادة[1]

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ ﴾

يا له من تكريمٍ للإنسان، لا يُدرك مداه إلا من يستشعر حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، فمن تأمَّل قوله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ﴾ [النِّسَاء: ٢٧] يُدرك مدى التلطُّف الكريم من الرب المعبود العظيم جلَّ في علاه بمخلوقه العاجز الضعيف.

فماذا يريد الله بالناس، حين يبيِّن لهم منهجه، ويشرع لهم سنَّته؟

إنه يريد أن يتوب عليهم، يريد أن يهديهم، يريد أن يجنِّبهم المزالق، يريد أن يعينهم على التَّسامي في المرتقى الصاعد إلى القمَّة السَّامقة.

وماذا يريد الذين يتَّبعون الشَّهوات، ويزيِّنون للناس مذاهب لم يأذن بها الله، ولم يشرعها لعباده؟

إنهم يريدون لهم أن يميلوا ميلاً عظيماً عن المنهج الراشد، والمرتقى الصاعد، والطريق المستقيم[2].

ما أعظم حلمَك يا رب، وما أكرمك، وما ألطفك تدعو الإنسان إلى التوبة، وتحثُّه عليها، وتريدها له برحمةٍ وحَدَبٍ ولطف وحنوٍّ وتخفيف، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴾ [النِّسَاء: ٢٨] ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [النِّسَاء: ٢٦].

---

(١) إعداد اللجنة العالمية.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ٢/ ٦٣١.

على حين يدعو أربابُ الشَّهوات والمعاصي الإنسان إلى الانحراف عن منهج الله، والوقوع في العصيان، وإطلاق الغرائز، يريدون له أن يميل ميلاً عظيماً مع ملذَّاته وفساده؛ لأن ذلك يتيح لهم المزيد من التفلُّت، والمزيد من الشَّهوات، والمزيد من الملذَّات.

ومعنى ﴿ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: يتقبَّل توبتكم، إذ آمنتُم ونبذتم ما كان عليه أهل الشرك والأهواء والشهوات والانحراف عن منهج الله، فلا تنقُضُوا ذلك بارتكاب الحرام.

فالآية تحريضٌ على التوبة بطريق الكناية؛ لأن الوعد بقَبولها يستلزم التحريض عليها[1]. مصداق ما ورد في حديث النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ قال: «**ينزل الله عزَّ وجلَّ في كل ليلةٍ إلى السماء الدنيا، فيقول: هل من سائلٍ فأعطيه؟ هل من مستغفرٍ فأغفر له؟ حتى يطلع الفجر**»[2].

جعلنا الله ممن يرتقي لمراده فينصاع لأمره، وعصمنا من الميل مع أهل الأهواء والشهوات.

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٥/ ٢٠.

(٢) أحمد في المسند (١٦٧٤٥)، الرسالة: ٤/ ٨١، الميمنية.

المجلس المئة وستة وخمسون

الفتنة الكبرى[1]

﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا ﴾

قد أحاط ربُّنا بكل شيءٍ علماً، وقهر كل مخلوقٍ عزةً وحُكماً، لا يُخرَج عن سلطانه، ولا يُستغنى عن فضله وإحسانه، أوجد الخلق من العدم، وأمدَّهم بوافر النِّعم، وصبغ الإنسان بفطرة التوحيد والإيمان، وبثَّ من الدلائل على وجوده ووحدانيته ما يأخذ بناصية عبده إليه، ويُلزم قلبه وعقله بالإقبال عليه، ثم أرسل بعد ذلك الرُّسل وأنزل الكتب؛ ليُرشده إلى ما يُصلِح به معاشَه ومعادَه، فلا يضلُّ في دنياه، ولا يشقى في أخراه.

ونَعِمَ البشر بتوحيد ربهم وعبادته وحده لا شريك له قروناً عشرة، ثم دبَّ إليهم الشرك، فاختلفوا وافترقوا، وتعاقبت على ذلك الأمم؛ ﴿ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ [فَاطِر: ٢٤]؛ فموفق مستجيب لداعي الإيمان ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٩٣]، ومفتونٌ مخذولٌ بالكفر والنكران، لم يرفع بهدى الله رأساً، ولم يزدد بآياته إلا بؤساً، حاله كحال الملأ من قوم فرعون الذين جحدوا من بعد ما رأوا الآيات بينةً مُبصرة ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا ﴾ [النَّمۡل: ١٤].

وكحال الذين استحبُّوا العمى على الهدى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [فُصِّلَت: ١٧].

---

(١) كتبه: أ. رامي بن أحمد ذو الغنى.

وكلُّ من استكبر معرضاً عن الهداية؛ أعرض الله عنه، ووَكَلَه إلى نفسه، وصرفه عن الحق، وأركسه في خبثه؛ جزاء وفاقاً، وقضاء عدلاً ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأَنْعَام: ١١٠].

فالأنبياء والمرسلون عليهم هداية الدلالة والإرشاد ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [المَائِدَة: ٩٩]، وعلى الله هداية التوفيق يهدي من يشاء بفضله، ويُضلُّ من يشاء بعدله ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القَصَص: ٥٦].

قد رفعت الأقلام وجفَّت الصُّحف بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، وكلٌّ ميسَّرٌ إلى عمله الذي كتبه الله عليه بسابق علمه ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فَاطِر: ٨].

والتالي للقرآن حقَّ التلاوة إذا ما تدبَّر قول العليم الخبير: ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [المَائِدَة: ٤١] وَجِلَ قلبُهُ، وخشي على نفسه، ولجأ إلى ربه عائذاً به من شرِّ فتن الليل والنهار، فالأمر كلُّه إليه، والعبد فقيرٌ بين يديه، يتقلَّب بين فضله وعدله.

فاللهمَّ عاملنا بفضلك وكرمك، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

المجلس المئة وسبعة وخمسون

لا يستويان[1]

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾

الكثرة تُعجِبُ وتَغُرُّ؛ تأخذ العينَ وتخدع الحسَّ، وإن تمييز الخبيث من الطيب ووزنه بميزان الله والشريعة يحتاج إلى النَّباهة والفطنة، وبُعد النَّظر والحنكة من أصحاب العقول السليمة.

ومن ههنا أرشد القرآن الكريم إلى عدم الاغترار بكثرة الخبيث، والإعجاب به إعجاباً يحمل على إيثاره وتقديمه على القليل الطيب، قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ [المَائِدَة: ١٠٠].

وإن ما نتوهَّمه في الكثرة من الفضل، لا يعدل النُّقصان في الخبيث، وفوات الطيب، وهو عامٌّ في حلال المال وحرامه، وصالح العمل وطالحه[2].

والخبيث: كل ما يُكره رداءةً وخساسة، محسوساً كان أو معقولاً، وذلك يتناول الباطلَ في الاعتقاد، والكذبَ في المقال، والقبيحَ في الفَعال[3].

والنفس حين تتحرَّر من قيود الهوى بملازمة التقوى تختار الطيب على الخبيث، وتؤثر الحقَّ على الباطل، فينتهي أمرها إلى النجاح في الدنيا، والفلاح في الآخرة.

---

(١) إعداد اللجنة العلمية.

(٢) انظر: الكشاف، للزمخشري: ١/ ٦٨٢.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٢٧٢.

والمؤمن الذي يزن الأمور بميزان الحقِّ القويم، عندما يرى أهل الملل الضالَّة منتفشين ظاهرين، وأهل الباطل مصدَّرين مقدَّرين؛ لا تضطرب يدُه، ولا يزوغ بصرُه، ولا يختلُّ ميزانه، ويختار عليهم أهلَ الصِّدق والاستقامة، وإن قلَّ عددهم، وضعف حالهم.

أما الذين يستخفُّون بالطيب لخفوت صوته، أو احتجاب ضوءه، فإنما هم مخدوعون في أبصارهم، مصابون في بصائرهم، لا يرون من الأشياء إلا ظاهرها، ولا يعلمون من الأمور إلا قشورها، أما الصميم فهم في عمىً عنه، وأما اللباب فهم على جهلٍ به ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الرُّوم: ٧].

أجل، إن الآية لتحثُّنا على أن ننظر إلى الأشياء بحقائقها ومعانيها، لا بأشكالها ومبانيها، وأن نستعمل عقولنا في معرفة الحقِّ والخير، والتعامل مع الطيِّب والحسن، ففي ذلك يكون الفوز في الدَّارين.

ولله درُّ الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ يقول: (اسلك طريق الحقِّ ولا يغرَّك قلَّةُ السَّالكين، وإيَّاك وطرق الباطل ولا يغرَّك كثرة الهالكين).

المجلس المئة وثمانية وخمسون

إيَّاك وبُنيَّات الطريق[1]

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾

في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وصيَّةٌ ربانيةٌ تبيِّن للناس الطريق الأسلم، وهو صراط الله جلَّ في علاه، فتأمرهم باتباعه والمسير فيه، وتنهاهم عن سلوك الطرق المتفرِّقة والشِّعاب المختلفة التي تنحرف بهم عن ذلك الطريق المستقيم، ثم تختم ببيان العلَّة والغاية من هذه الوصية وهي التقوى.

وتأتي هذه الوصية بعد سلسلةٍ من الآيات بيَّنت ضروباً من الضلالات والانحرافات لدى المشركين وأهل الكتاب وأهل الزيغ والأهواء؛ كقتل الأولاد، وتحريم أنواعٍ من الأنعام، أو مما حملت الأنعام، وسلسلةٍ أخرى بينت ضروباً من أوامر الله ونواهيه صدِّرت بقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾ [الأنعام: ١٥١] ثم تعطفُ هذه الآية عليها.

ولا ريب أن خير توضيحٍ لهذه الوصية ما جاء في الأثر من «**أن رسول الله** ﷺ **خطَّ خطاً بيده، ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً، قال: ثم خطَّ عن يمينه وشماله، ثم قال: هذه السُّبُل، ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ:** ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾»[2].

---

(١) كتبه: د. محمد بن حسان الطيان.

(٢) أحمد في المسند (٤٤٣٧)، الرسالة: ١/ ٤٦٥، الميمنية، من حديث ابن مسعود، وهو حسن.

والمتأمِّل في هذه الوصية يلحظ أموراً عدة أهمها:

- نسبة الصراط إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصراط الرسول هو صراط الله الذي أمرنا بالتزامه، وندعو الله أن يهدينا إليه[1].

- تقييد الصراط بالحال ﴿ مُسْتَقِيمًا ﴾؛ أي: لا اعوجاج فيه؛ لأن الطريق المستقيم أيسر سلوكاً على السائر.

- إفراد الصراط المستقيم، وجمع السبل المخالفة له؛ لأن الحقَّ واحدٌ لا يتعدد، والباطل كثيرٌ يشمل الأديان الباطلة سواءٌ كانت وضعيةً أو سماويةً محرَّفة أو منسوخة، ويشمل المبادئ الباطلة الهدَّامة التي تستهوي أهل الضلال[2].

حذف التاء من الفعل (تفرَّق) تخفيفاً في اللفظ، وإيحاءً بسرعة الفعل.

فالفائز الفائز من لزم صراط الله، والخاسر الخاسر من تتبَّع السبل وحاد عن سبيل الله.

(١) هذا على قول من نسب الصراط في الآية إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو قول سائغ في العربية، انظر: البحر المحيط، لأبي حيان وغيره.

(٢) قبسٌ من القرآن الكريم، لشيخ قراء الشام محمد كريم راجح: ص١٤٩.

المجلس المئة وتسعة وخمسون

حصن المتقين[1]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ ﴾

إن الحياة الدنيا ساحةُ معركةٍ بين الحقِّ والباطل، وليس بين الشيطان وأهل الإيمان هدنةٌ يكفُّ فيها عن كيده لهم، ومكره بهم، وهذا يوجبُ على المؤمن التمسُّك بالحسِّ الأمنيِّ الإيمانيِّ، والرباط على حصون اليقظة التامَّة، فكم يودُّ الشيطان أن يغفل المؤمن عن سلاحه؛ ليميل عليه ميلةً واحدةً، فإن لم يقتله جرحه وآذاه.

فيا أيُّها المؤمن، إذا بلغت درجة التقوى فلا تظنَّ أنك قد صرت في مأمنٍ من عدوِّ الله إبليس، كلَّا؛ فإنه يتربَّص بك الدَّوائر، وينصب لك الحبائل، فانتبه، فإذا وقعتَ في شركه فأطلق نفسك سريعاً بتذكُّر وعد الله ووعيده، فتلك يد الإنقاذ التي تخلِّصك من أغلال الشيطان، وتعيدك إلى حصن الرحمن، لتُسلكَ في سلك المتقين الذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وفي هذه الآية لفتاتٌ ثريَّةٌ بالفائدة، نتوقَّف عند بعضها:

- افتُتِحت الآية بحرف التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾؛ تنبيهاً على ضرورة الاهتمام بما سيأتي فيها[2]. من وصيةٍ ربَّانيةٍ عظيمة، تكفُل للمتقين الرجوع إلى الحقِّ إن جنحوا عنه قليلاً.

- ورد الفعل ﴿ ٱتَّقَوۡاْ ﴾ بصيغة الماضي؛ دلالةً على تحقق التقوى فيهم، وأن غير المتقين لن يكون مآلُهم مع وسوسة الشيطان كمآل المتقين.

(١) إعداد اللجنة العلمية.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٨/ ٤٠٣.

- في استعمال ﴿إِذَا﴾ إشارةٌ إلى تحقُّق وقوع المتقين في قيود الشياطين، فهم ليسوا معصومين، ولم يأت بـ (إنْ) التي تدل على الشَّك في وقوع الأمر.

- عبَّر بكلمة ﴿طَٰٓئِفٞ﴾ عن الخفاء، والإتيان من غير مقدِّمات، وهي تشمل: الغضبَ، والهمَّ بالذنب، وإصابة الذنب[1].

- قوله: ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ يعني بادَروا وسارَعوا إلى استحضار ما يمنعهم من الاستمرار في الاستجابة لذلك الطائف، ولم يبين ما الذي تذكَّروه فمنعهم؛ من أجل التعميم، ليشمل: وعد الله ووعيده، وثوابه وعقابه، والجنة والنار.

- أما استعمال ﴿إِذَا﴾ الفجائية في قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ فللدلالة على حصول مضمون جملتها دفعةً بلا إبطاء، أي: تذكَّروا تذكُّرَ ذوي عزمٍ فلم تتريَّث نفوسهم أن تبيَّن لها الحقُّ الصارفُ عن العمل بالخواطر الشيطانية[2]. فكأنهم كانوا في ظلامٍ دامسٍ فأضاء التذكُّر لهم طريق الحقِّ ليمضوا فيه.

أحبتي الكرام، فلنحرِص على أن نكون من المتقين، ولنحذر من وسوسة الشياطين، فإذا ما حصلت الوسوسة، فلنسارع إلى تذكُّر الحقِّ المبين، لنستقيم على الطَّريق القويم.

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٣٤. بتصرف.

(٢) انظر: التحرير والتنوير: ٨/ ٤٠٥.

المجلس المئة وستون
عاقبة الشِّقاق والتَّنازع[1]
﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾

المتأمِّل في قول الحق سبحانه: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦] يُدرك أن هذه الآية العظيمة أصلٌ في بيان أهمية توحيد الكلمة، والتحذير من الفُرقة، وبيان خطرها، والسَّبيل إلى علاجها، وفيها عدَّة وَقَفات:

الوقفة الأولى: إنَّ أعظم أسباب اجتناب التنازع هو طاعة الله ورسوله ﷺ، دلَّ عليه المناسبةُ في العطف، حيث أمر سبحانه بطاعة الله ورسوله، وعطف عليه بالنهي عن التنازع، وفي ذلك بيانٌ لأثر الطاعة في منع التنازع.

الوقفة الثانية: إنَّ التنازع مؤذنٌ بالفشل السريع، حيث جاء بفاء السببية العاطفة الدالَّة على الترتيب والتعقيب: وَلَا تَنْزَعُوا فَتَفْشَلُوا، فليس ثَمَّ أمدٌ بين التنازع والفشل، بل هو النتيجة الحتمية المباشرة لكلِّ متنازعَيْن.

الوقفة الثالثة: جاء التعبير القرآنيُّ دقيقاً باختيار كلمة (تنازع)؛ لأنها تعني الاختلاف المفضي إلى تفرُّق القلوب قبل الأجساد. أما الاختلاف الطبيعي فقد يكون ظاهرةً صحيةً لإثراء موضوع النقاش والخلاف، ما دام منضبطاً بضوابط الشرع الحنيف، ولم يتجاوزها إلى الخصومة والشِّقاق والتَّنازع.

---

(١) كتبه: د. عبد المحسن بن زين المطيري.

الوقفة الرابعة: أراد سبحانه بقوله: ﴿ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾؛ أي: قوَّتكم، وقيل: هي ريحٌ حقيقيةٌ ينصر الله بها المؤمنين، ويحرمها المتنازعين منهم.

وعلى هذا يكون المعنى في التنازع ذهاب قوَّتكم الحسِّية وقوتكم المعنويَّة؛ بفقدكم الهيبةَ من قلوب أعدائكم، وفقدكم تأييدَ الله ونصره، فتنقلبوا خاسرين مهزومين.

الوقفة الخامسة: بيَّن سبحانه الخصلة الجامعة التي تعين على طاعة الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وعلى اجتناب التنازع، وهي (الصَّبر)، فإنَّ الصبر على طاعة الله تعالى، والصبر عن معصية الله ومنها التنازع، والصبر على أقدار الله تعالى المؤلمة من الجراحات التي تحصل في المعارك ونحوها؛ كل ذلك موطِّئ للنَّصر ومهيِّئ للتَّمكين؛ لأنه السَّبيل إلى تأييد الله تعالى والفوز بمعيَّته الخاصَّة سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾؛ فهو معهم تأييداً وحفظاً ونصراً.

نسأل الله تعالى أن يجمع كلمة المسلمين على طاعة الله سبحانه، وطاعة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وأن يرزقنا الصَّبر على ما يحبُّ، وآخر دعوانا أن الحمد الله ربِّ العالمين.

المجلس المئة وواحد وستون

الفرحة الحقيقيَّة[1]

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾

يرسم الله تعالى لعباده في قوله: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يُونُس: ٥٨]، المنهاجَ الصحيح للفرح، وذلك أن الناس اختلفت أسباب الفرح لديهم، وتباينت مظاهرُه عندهم؛ أما البعيدون عن الهدى فيفرحون بالمعاصي ولذَّات الجسد، وعرَض الحياة الدُّنيا الفاني، فيظهر عليهم الكِبْر والبَطَر، والصُّدود عن الحق، ويؤول بهم ذلك إلى الحسرة والنَّدم.

وأما أهل الهدى فلا يفرحون بما فرح به أولئك، ولكنهم يفرحون بفضل الله وبرحمته؛ ليقينهم أن ذلك يقربهم إلى الله، ويأتيهم نفعه في دنياهم وأخراهم؛ ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٧٠].

فما فضل الله ورحمته اللَّذان دَعَت الآيةُ إلى الفرح بهما دون سواهما؟

فضل الله ورحمته يشملان أسباب الثواب ونتائجَه؛ من نحو: معرفة الله والإسلام والقرآن، واتباع هدي النبوة، والتوفيق إلى العلم النافع والعمل الصالح، والفوز بجنة الله ورضوانه قال الشوكاني: (المراد بالفضل من الله سبحانه: هو تفضُّله على عباده في الآجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر، والرحمة رحمته لهم.. والأَولى: حمل الفضل والرحمة على العموم)[2].

---

(١) إعداد اللجنة العلمية.

(٢) فتح القدير: ٢/ ٦٥٦.

إخواني الفضلاء، إذا تدبَّرتم هذه الأشياء التي دعت الآية إلى الفرح بها ستجدون أنها معارفُ روحية، ولذَّات معنوية، وليست لذات حسيَّة جسدية، ففي ذلك إشارة إلى أن فرح الروح أعظم من فرح الجسد، وأن سرورها خالصٌ متصلٌ، أما أفراح الجسد فإنها مشوبةٌ بالأكدار في أولها، وفي أثنائها، وفي نهايتها.

وكم هو الفرق بين من يفرح بالله وبما يقرِّب إليه، ومن يفرح بغيره، فمن فرح بالله فقد فرح بأعظم مفروحٍ به، ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه ووضع الفرح في غير موضعه، فإذا استقرَّ في القلب، وتمكَّن فيه العلم بكفايته لعبده، ورحمته له، وحلمه عنده، وبرِّه به وإحسانه إليه على الدوام؛ أوجب له الفرح والسُّرور أعظم من فرح كل محبٍّ بكل محبوبٍ سواه، فلا يزال مترقياً في درجات العلوِّ والارتفاع بحسب رقيِّه في هذه المعارف[1].

فلتجعل سرورك أيها المسلم بالله وثوابه، ولا تصرفه إلى ما يجمع الناس من حطام الدنيا فما عند الله أبقى، ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزُّخرُف: ٣٢].

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيميَّة: ١٦/ ٤٩.

المجلس المئة واثنان وستون

سنة دوام الأمم[1]

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾

يخبر الله تعالى عن سنته في الأمم قديمها وحديثها؛ من أنه لا يُهلك القرى بظلمٍ يقع فيها، وأهلها مصلحون؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾ [هُود: ١١٧].

فإذا كان أهل القرى قائمين بالقسط؛ لا يبخسون الحقوق كقوم شعيب، ولا يرتكبون الفواحش ويقطعون السَّبيل ويأتون في ناديهم المنكر كقوم لوط، ولا يبطشون بالناس بطش الجبَّارين كقوم هود، ولا يَذِلُّون لمتكبرٍ جبَّارٍ يستعبد الضعفاء كقوم فرعون، فقد ضمنوا السلامة في الدنيا ولو كانوا مشركين.

أما الظلم المؤذن بالدَّمار والهلاك فهو الجمع بين الشرك والإفساد في الأعمال والأحكام[2].

أجل، إن الأمم لتبقى مع الكفر، ولا تبقى مع الظلم، وإن دولة الظلم لتزول وإن كانت مسلمة، ودولة العدل تدوم وإن كانت كافرة[3].

والأمة التي يقع فيها الفساد فينهض لدفعه أهل الحق والعدل فيها هي أمةٌ ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير، أما الأمَّة التي يظلم فيها الظالمون، ويُفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في

---

(١) إعداد اللجنة العلمية.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٩/ ١١٤، وفتح القدير للشوكاني: ٢/ ٦٠٥، وتفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ١٢/ ١٥٩.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيميَّة: ٨٢/ ١٤٥-١٤٦.

الواقع الفاسد، فإن سنة الله تحقُّ عليها بالهلاك والدَّمار[1].

وهنا يبرز دور الدُّعاة إلى الله الذين استجابوا لأمره حينما قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٤].

فنهضوا بعزمٍ وتصميمٍ لإقرار ربوبية الله وحده، وتطهير الأرض من الظُّلم والبغي والفساد، إن هؤلاء هم صمَّام الأمان للأمم والشعوب أن يصيبهم عذاب الله، فأعظم به من دورٍ وأثر، وأعظم بهم مكانةً عند الله عزَّ وجلَّ.

ولا يخفى أنَّ الآية تدل على أن إهلاك المصلحين ظلمٌ؛ وحاشاه سبحانه وتعالى أن يظلم أحداً وهو المنزَّه عن كل نقصٍ، وهو القائل على لسان نبيه ﷺ: «**يا عبادي إني حرَّمت الظُّلم على نفسي، وجعلتُهُ بينكم مُحَرَّماً، فلا تظالموا**»[2].

وبقي أن نتأمل معاً ما اختتمت به الآية، فقد قال عزَّ من قائل: وَأَهْلُهَا مصلحون، ولم يقل (صالحون)؛ لأن الصَّلاح المنزوي بعيداً عن واقع المجتمع، لا يبالي بهزيمة الخير وأهله، وليس له أثرٌ حميد!

فاجمع يا أخي بين الصَّلاح والإصلاح، والرُّشد والإرشاد؛ تكن من المفلحين.

(١) انظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ١٤٣٣.

(٢) مسلم (٢٥٧٧).

المجلس المئة وثلاثة وستون

الكلمة الطيبة[1]

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾

لو تدبَّرنا قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٢٤] لوجدناه قد ورد في صورة مَثَلٍ ضربه الله تعالى للكلمة الطيبة، وهي كلمة الإيمان والتوحيد: (لا إله إلا الله)، وهي كذلك كل كلمةٍ خيِّرة حسنة، تقود إلى الحق وتدلُّ عليه.

وقد بدأت الآية بهذا الاستفهام الذي يدعو إلى التدبُّر والتأمُّل: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾؟ أي: تدبَّر لترى شأن الكلمة الطيبة، وعظيم مكانتها، وهي مكانةٌ وضَّحها هذا التشبيه البليغ البيِّن، الذي أحال على ما هو محسوسٌ مشاهد يراه كل إنسانٍ ويعرفه.

شبَّه القرآن الكريم الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، وقيل: إنها النَّخلة ولكنها ليست شجرةً عاديةً كسائر الشجر الطيب، بل هي شجرةٌ فريدة، ضخمةٌ عملاقة، جذورها عميقةٌ راسخةٌ في باطن الأرض، وأغصانها باسقةٌ ممتدةٌ إلى عَنان السماء، وهي دائمة الخير والعطاء، لا ينقطع ثمرها، ولا ينتهي جَناها في كل حين.

وفي هذا المثَل دلالاتٌ كثيرة ينبغي على قارئ القرآن أن يتدبَّرها، منها:

- إن كلمة الإيمان عندما ترسخ في قلب المؤمن يتفرَّع عنها الكثير من العمل الصالح، والخلق الكريم، والكلام النافع القويم. وذلك كلُّه مما يُكتب له به الخير الكثير،

(١) كتبه: أ. د. وليد بن إبراهيم القصاب.

والأجر الجزيل؛ إذ يصعد إلى السماء، ويحظى برضا الله، ويظل صاحبه ينال به الثواب في حياته وبعد مماته.

- وفي تشبيه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة تنبيهٌ على ضرورة المحافظة عليها، والدعوة إليها، والاهتمام بشأنها ورعايتها، أوليس من يملك شجرةً عظيمةً كهذه الشجرة لا يفتأ يسقيها ويشذِّبها، ويحوطُها بكل رعايةٍ واهتمامٍ حتى يبقى خيرها دائماً؟

وقد جاءت هذه الآية منسجمةً مع الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٢٣] فهؤلاء المؤمنون الصالحون هم أصحاب الكلمة الطيبة، وما نالوه من نعيمٍ ما هو إلا ثمرةٌ من ثمراتها.

كما جاءت الآية التي بعدها متناسبةً معها؛ فهي دعوةٌ صريحةٌ إلى التذكر والتدبر في شأن هذه الكلمة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٢٥] أي إنَّ هذا المثل الذي ضُرِبَ ههنا -وكل مثل في القرآن- هو عبرة وموعظة وتوضيح؛ ليتذكر الناس ويتدبَّروا.

وقد توضَّحت عظمة هذه الكلمة الطيِّبة أكثر، وتعمَّقت دلالتها بمقارنتها بنقيضتها؛ وهي الكلمة الخبيثة، إذ شُبِّهت بالشجرة الخبيثة، وإذا كانت هذه الخبيثة ينبغي اجتثاثها من الجذور حتى لا يبقى لها أثرٌ؛ فإن المقابل لها، وهو (الكلمة الطيبة) هو الذي ينبغي أن يبقى ويُرعى ويُسقى.

المجلس المئة وأربعة وستون
طوبي للمحسنين[1]
﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾

إن حياتنا -أيها الإخوة الفضلاء- تعجُّ بالمشكلات، وتحيط بها المنغِّصات والمعضلات، وإننا معشر الخلق مصحوبون بالضعف والعجز، والفقر والجهل ولا مُنجي من هذه الأحوال إلا عون الله تعالى لعباده.

وقد بيَّن سبحانه لنا منهاج السعادة، ومعراج الحياة الطيبة التي يرجوها كل عاقلٍ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النَّحل: ١٢٨]، وفي هذا النص البديع خبرٌ حقٌّ من عند الله بتفضله على عباده المتقين المحسنين بمعيته الخاصة التي تعني: التأييد والنصر والتوفيق، وما أحوجنا إليها!

ومن تدبَّر هذه الآية وجد من هداياتها:

أنها ابتدأت بحرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾، وختمت بجملة خبرها اسم ﴿مُّحۡسِنُونَ﴾ والاسم يدلُّ على الثبوت، ومعنى ذلك أنَّ وعد الله حقٌّ لا بدَّ من وقوعه إذا تحقَّق شرطه، وأن الإحسان الذي ينال صاحبه به معيَّة الله لا بدَّ أن يكون صفةً راسخةً فيه.

ومن هداياتها: استعمال الفعل ﴿ٱتَّقَواْ﴾ دون تصريحٍ بذكر المفعول؛ ليدلَّ على عموم التقوى لكل ما يُخشى، فينبغي أن يتقي المسلم ربه، ويتقي النار، ويتقي المعاصي. وكذلك قوله: ﴿مُّحۡسِنُونَ﴾ ذُكِرَ من غير متعلَّق؛ ليفيد العموم في فعل الإحسان، فالمتقون محسنون في عبادة الله، وإلى عباد الله، محسنون في أقوالهم وأفعالهم، محسنون في حال يُسرهم وعُسرهم، وفي هذا حثٌّ على سلوك طريق الإحسان مع الخلق والخالق في كل حين.

(١) كتبه: أ. عبد الله بن عبده العواضي.

ومن هداياتها: أنها جمعت في حثِّها على التقوى والإحسان بين حقِّ الله الخالق وحقِّ العبد المخلوق، وتمام الإيمان يدعو إلى القيام بالحقَّين كليهما على خير وجه.

إخواني وأحبابي، ما أجمل أن نعمر حياتنا بالاستقامة على شرع الله؛ بلزوم أوامره، واجتناب نواهيه، وهذه هي عين التقوى، مع إحسان عبادته سبحانه على النحو الذي يحبُّ ويرضى، وبذلِ يدِ الإحسان القوليِّ والعمليِّ إلى الخلق جميعاً، فإن فعلنا ذلك نلنا معيَّة الله الخاصة لنا، ألا وإن من أعظم معية الله لعبده: معيَّة الهداية، والحماية من الغواية.

ولنضع نصب أعيننا أنَّ حظَّ المؤمن من معيَّة الله على قدر تقواه وإحسانه، ومن نال معيَّة الله فقد ادَّرَع بِدِرعٍ حصينة.

وقد ورد عن بعض السلف أنه كتب إلى أخ له: (أما بعد، فإن كان الله معك فمن تخاف؟ وإن كان عليك فمن ترجو؟)[1].

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي: ص١٨٨.

المجلس المئة وخمسة وستون

عفَّة اللِّسان[1]

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾

يتفاوت الناس في تعاملهم مع الآخرين؛ فمنهم من تجده راقياً في كلِّ حين، حليماً رزيناً عفيف اللِّسان، ومهما تعرَّض لصعوباتٍ أو مضايقاتٍ لا تسمع منه إلا ما يسرُّ، ومنهم من تجده غليظاً في تعامله، سليطاً في لسانه، وثمَّ قسمٌ ثالثٌ لأناسٍ خلطوا بين القول الحسن والقول القبيح، وعسى الله أن يتوب علينا وعليهم.

ولأن الله سبحانه خلق الموت والحياة ليبلونا أيُّنا أحسن عملاً، وجعل هذه الحياة ميداناً فسيحاً للتنافس في تحسين العمل وتجويده، ولأن القرآن الكريم يهدينا للتي هي أقوم، وإرشاداته تأخذ بنواصينا نحو خير الأعمال وأعدلها، جاء التنبيه إلى الطريقة المثلى في التعامل مع الناس والحديث إليهم في قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴾ [الإسراء: ٥٣].

أمرت الآيةُ بما يفوِّت على الشيطان فرصة إيقاع العداوة بين الناس والفرح بذلك، بأن يقولوا التي هي أحسن؛ حفاظاً على رابطة الأخوة أن تشوبها شائبةٌ.

وهذا يعني أن يقولوا أجودَ الكلام وأفضله، وإذا دار الكلام بين قولٍ حسنٍ وقول أحسن منه، فعليه أن يقول الأحسن، (وهذا أمرٌ بكل كلام يقرِّب إلى الله... وكلامٍ حسنٍ لطيفٍ مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم... والقول الحسن داعٍ لكل خلقٍ جميل وعملٍ صالح، فإن من ملك لسانه ملك جميع أمره)[2].

(١) كتبه: د. محمد بن مصطفى السيد.

(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي: ٤/ ١٤٢.

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾ [البَقَرَة: ٨٣]، فقد أمرنا بمخاطبة الناس -كل الناس- بالحسنى، والبعد عن كل ما يسيء إليهم، بل إن الله سبحانه وصف عباده المؤمنين في الجنَّة بأنهم: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [الحَج: ٢٤]، فقرن سبحانه بين الهداية إلى الطيب من القول والهداية إلى الطريق المستقيم.

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه المسلم مع المخالفين قبل الموافقين؛ يعرض حُجَّته بعيداً عن الإساءة والتجريح، وذلك أدعى إلى التأثير في نفوسهم، وقَبول كلامه وحُجته. وقد روي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: (لولا ثلاث ما أحببت البقاء، وذكر منها: ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقون أطايب الثمر).

نسأل الله أن يهدينا إلى الطيِّب من القول والفعل، وأن يهدينا إلى صراطه المستقيم.

المجلس المئة وستة وستون

تفخيم شأن الصلاة[1]

﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا ﴾

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يوقظ أهله من الليل للصلاة، ويقرأ قوله تعالى: ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ [طه: ١٣٢] فماذا في هذه الآية؟

إنه أمرٌ صريحٌ من الله لخير خلقه، وإمام رسله محمد ﷺ، وللمسلمين من بعده، بتعاهد الصلاة وتعظيم شأنها.

وفي الآية ذكر للصلاة والرزق والتقوى، وهي أمورٌ تتكامل ولا تتنافر.

ذُكرت (الصلاة) بأسلوبٍ يدلُّ على عِظَم مكانتها، فصيغة الأمر (وأمر) تُشعِر بأن الصلاة من أجلِّ المهمات، وأفخم الواجبات التي ينبغي أن يُعنى بها المربِّي.

وقوله سبحانه: (أهلك) فيه إظهارٌ لأهمية قيام الجميع بهذه الشعيرة؛ لأن التعبير بالأهل يشمل الزوجة والأولاد ذكوراً وإناثاً، وكل من تحت يدك.

ثم ذكر المأمور به وهو (الصلاة)، وأرشد معها إلى أمرٍ آخر وهو ضرورة الاصطبار عليها، أي: فعلاً وأمراً، وعبَّر بالاصطبار دون الصبر؛ لأن الصلاة تحتاج إلى صبرٍ مضاعف وطويل، فهي تكليفٌ متكرِّر، وقد تتعارض أحياناً مع رغبات النفس ولذاتها.

ثم ذكر (الرِّزْقُ) في قوله: ﴿ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗا ﴾، فما علاقة الرزق بالصلاة؟ ولِمَ ذكر بعدها؟

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

إن في ذلك إشارة إلى أن طلب الرزق والسعي في حوائج الدنيا قد يلهي عن الصلاة، وهذا ولا شكَّ ليس نهياً عن طلب الرزق، بل فيه إلماحةٌ إلى أن الرزق المقدَّر لن يضيع، فلا تُضِع صلاتك من أجله، بل تيقَّن أن صلاتك من أسباب رزقك، وقد قيل لأحد الصالحين: ارتفعت الأسعار، فقال: لا أبالي، أعبد ربي كما أمرني، وهو يرزقني كما وعدني.

ولتأكيد هذا المعنى ذكر الرزق مرتين لَا نسألُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ، وفي قوله: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ ضمانٌ بالرزق، فالله جلَّ جلاله بما له من العظمة تكفَّل لك بذلك، فلا يشغلك طلبه عن الصلاة، وقد قيل: لا تنشغل بالنعمة عن المنعم.

وختمت الآية بذكر (التقوى) في قوله: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ ولا عجب فالتقوى سببٌ للرزق، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطَّلَاق: ٢ - ٣]، والصلاة من أعظم أسباب التقوى.

ربِّ اجعلنا وذرارينا من المتقين الذين يقيمون الصلاة ويعظِّمون شأنها، وتقبَّل دعاءنا يا مجيب الدُّعاء.

المجلس المئة وسبعة وستون

فلنعظِّم ما عظَّم الله[1]

﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾

إنَّ الله عزَّ وجلَّ جعل لهذا الدين شعائرَ تدلُّ عليه، والشعائر هي: معالم هذا الدين وعلاماته الظاهرة، وقد أمر سبحانه وتعالى بتعظيم هذه الشعائر في قوله: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢]، سواءٌ كانت شعائر مكانيَّةٍ أو زمانيَّةٍ.

ومن الشعائر المكانيَّة: المساجد الثلاثة في مكة والمدينة وبيت المقدس، وكذلك كل مسجدٍ يذكر فيه الله عزَّ وجلَّ، ومنها أيضاً: الصَّفا والمروة ومزدلفة ومِنى.

ومن الشعائر الزمانيَّة: الأشهر الحُرُم (ذو القَعدة، وذو الحِجَّة، والمحرم، ورجب)، وشهر رمضان، ويوم الجمعة.

وتعظيم الشعائر يكون بإجلالها، والقيام بحقِّها، وهذا التعظيم لشعائر الله دليلٌ على صحة إيمان العبد وتقواه، وحقيقة معرفته بخالقه جلَّ جلاله؛ لأن تعظيمها من تعظيم الله وإجلاله فهو الذي أمر بتعظيمها.

وأضاف الله التقوى إلى القلوب خاصة؛ لأن تعظيم الشعائر اعتقادٌ قلبي ينشأ عنه العمل، ولأن القلب هو محلُّ نظر الله إليك، ومحلُّ قياس تعظيمك لشعائر الله، والله سبحانه تعالى لا يريد أن يخضع قوالبنا وأجسادنا فحسب، وإنما يريد أن يخضع قلوبنا أولاً، فما أحرانا أن نعظِّم شعائره بحبٍّ وصدقٍ وإخلاص.

---

(١) إعداد اللجنة العلمية.

والناس تجاه شعائر الله صنفان:

- صنفٌ يُظهر التقوى من نفسه، وقلبه خالٍ منها، فلهذا لا تجده مجدًّا في الطاعات، بل متوانياً في أداء القربات، على ما وصفهم الله بقوله: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [النِّسَاء: ١٤٢] وذلك هو المنافق.

- وصنفٌ تمكَّنت التقوى من قلبه، فتجده ينشط في أداء الطاعات ويسارع دوماً في الخيرات والصالحات، وهو المؤمن حقاً. وقد عبر سيد الخلق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا التعظيم للعبادة والحب للطاعة في مثل قوله: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**».

نسأل الله أن يجعلنا ممن تمكَّنت التقوى في قلوبهم، فأخلصوا لله بتعظيم شعائره كما أمر، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

المجلس المئة وثمانية وستون
السَّعادة في اتِّباع السُّنة[1]
﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾

يا له من تحذيرٍ وتهديدٍ من الله لعباده في قوله سبحانه: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النُّور: ٦٣].

إنه تحذيرٌ ليس لمن خالف جميع أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل لمن خالف أمراً واحداً من أوامره. وأمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو منهاجه وسنته وشريعته، التي أرسله الله عزَّ وجلَّ بها، فبلَّغها على أكمل وجهٍ وأتمِّه، جزاه الله عنَّا خير ما جزى نبياً عن أمَّته.

ألا فليحذر من خالف أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باطناً أو ظاهراً، من أن يُعاقب في الدنيا فيفتن قلبه، فيستمرئ المعاصي ويجد لها لذةً وحلاوة، فيُحجب عن نور الله حتى يصل إلى الكفر المحبط للعمل أو يُعاقب بالفضائح والرَّزايا، ثم يصيبه في الآخرة عذابٌ أليم.

وليحذر المخالفون عن أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تصيبهم فتنةٌ تضطرب فيها المقاييس لديهم، وتختلُّ الموازين، وينتكس النظام، فلا يميزون بين حقٍّ وباطل، ولا بين طيبٍ وخبيث، فتفسد أمور حياتهم، ثم يبوؤون بالخسران يوم الحساب.

إن سعادة الدارين في متابعة السُّنة، وشقاوة المنزلين في مخالفة السنة، ومن أيسر ما يصيب من خالف سنَّته حرمان التَّوفيق، وتعذر المتابعة، وسقوط حِشمة الدارين عن قلبه.

(١) كتبه: أ. عبد الرحمن بن عادل المشد.

والواجب على المؤمن أن يتَّبع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كلِّ ما أمر، وينتهي عن كلِّ ما نهى عنه وزجر، والمؤمن الحقُّ يَزِنُ أعماله وأقواله بما جاء به النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما وافق ذلك قُبِل، وما خالفه فهو مردود، كما جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ**»[1]. وروى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**مثلي ومثلكم كمثل رجلٍ استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللاتي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهنَّ ويغلبْنَه، ويتقحَّمْنَ فيها. قال: فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلمَّ عن النار، فتغلبوني وتقتحِمون فيها**»[2].

اللهمَّ اجعلنا ممَّن يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه، وارزقنا اللهُمَّ حُسن الاتباع، وثبِّتنا على الحقِّ يا أكرم الأكرمين.

(١) متفق عليه، البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨).

(٢) متفق عليه، البخاري (٣٤٢٦)، مسلم (٢٢٨٤).

المجلس المئة وتسعة وستون

طلب المعالي[1]

﴿ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

إن لباس التقوى خير لباس، وزاد التقوى خير زاد، وما أسِّس على التقوى علا وارتفع، وما ليس كذلك هوى ووقع. قال الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾ [الأَعْرَاف: ٢٦]، وقال: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ [البَقَرَة: ١٩٧]، وقال: ﴿ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ ﴾ [التَّوْبَة: ١٠٨ - ١٠٩]، وقال: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [المَائِدَة: ٢٧].

والمتقون عند الله درجاتٌ، مصداقُ قوله سبحانه: ﴿ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٣]، وقوله: ﴿ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٣]، وقوله: ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٩٥ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗ ﴾ [النِّسَاء: ٩٥ - ٩٦].

وقد كان من دعاء الربانيين من عباد الرحمن الذين نوَّه الله بهم وأشاد بفضلهم، قولهم: ﴿ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفُرْقَان: ٧٤]، وقد أثنى عليهم بجملة صفاتٍ فاضلةٍ ختمها بذكر سؤالهم هذا، ثم بيَّن جزاءهم فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾ [الفُرْقَان: ٧٥ - ٧٦]، وهذا يدلك على شرف سؤالهم.

(١) كتبه: أ. د. ناصر بن سليمان العمر.

وتأمَّل، تجدهم لم يطلبوا أن يكونوا من المتقين فحسب، ولكنهم سألوا ربهم أن يجعلهم أئمَّة في الدين، وللمتقين أسوةً وقدوة، تلك هي النفوس الكبيرة لا ترضى إلا بالمعالي، ولا تسأل من المطالب إلا أسماها وأعلاها.

وتجدهم قد سألوا الفضل من أهله؛ علموا أنَّ ما يرغبون فيه لا سبيل إليه إلا بتيسيره سبحانه، فتوجَّهوا إليه وحده بالسؤال والدعاء؛ أن يجعلهم بحيث يُقتدى بهم في الدين، وذلك إنما يكون بإفاضة العلم النافع والتوفيق إلى العمل الصَّالح، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السَّجْدَة: ٢٤].

والإمامة في الدِّين، لا تنال إلا بالصَّبر واليقين.

أما اليقين فهو فَرعُ العلم وإمعان النَّظر في الآيات. وأما الصبر فهو عماد العمل، لا يقوم إلا به، ولا يسلم صاحبه من المعايب والمصائب دونه.

وفَّقني الله وإيَّاكم للعلم والعمل، والصَّبر واليقين، وجعلنا من أئمَّة المتقين. والحمد لله ربِّ العالمين.

المجلس المئة وسبعون

الصَّلاة ميزانٌ[1]

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾

يقول الله تعالى في محكم التَّنزيل: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العَنكَبُوت: ٤٥]، والمتأمِّل في هذه الآية الكريمة يجد فيها أمراً بعبادةٍ مصحوباً بتعليل يتضمن ثمرةً عاجلة من ثمرات هذه العبادة.

أما الأمر فهو الأمر بالصلاة التي هي عماد الدين، وأعظم واجبٍ عمليٍّ أمر الله به المسلمين، فلا حظَّ في الإسلام لمن تركها، ولا نور في الحياة لمن ضيَّعها، فإذا صلحت صلح سائر عمل العبد، وإذا فسدت فسد سائر عمله.

وتأمَّل أخي الحبيب في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ﴾ فقد عبَّر عن الأداء بالإقامة؛ إشارةً إلى أن الصلاة عماد الدين، وفي (المفردات): (إقامة الشيء: توفيةُ حقِّه، وإقامة الصلاة توفية شرائطها، لا الإتيان بهيئتها فقط[2]. وقيل: عبَّر عن الأداء بالإقامة؛ لأن القيام بعض أركانها، كما عبَّر عنه بالقنوت، والقنوت القيام، وبالركوع وبالسجود)[3].

وأما التعليل لفعل العبادة؛ فإن المتتبِّع لنصوص العبادات المأمور بها يجدها على قسمين: قسم تعبُّديٌّ غير معلَّل، وقسم تعبديٌّ معلَّل. فمن القسم الثاني عبادة الصلاة؛ فقد ذكر الله تعالى في كتابه، وذكر رسوله ﷺ في سنته بعض العلل المتضمنة بيان ثمرات الصلاة العاجلة والآجلة،

(١) إعداد اللجنة العلمية.

(٢) روح البيان، للآلوسي: ٧/ ٤٧.

(٣) الكشاف، للزمخشري: ١/ ٨١.

فمن ذلك ما في هذه الآية حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، وإنما كانت الصلاة كذلك لما فيها من الأقوال والأفعال التي إذا تفكر فيها الإنسان وأحضر قلبه معها، وأخلص لله فيها، فإنها ستحبسه عن طرق العصيان، وتسوقه إلى صراط الرحيم الرحمان. وفي الحديث: قيل: يا رسول الله، إن فلاناً يصلي الليل كله، فإذا أصبح سرق قال: «**سينهاه ما تقول**»[1]، ومعناه: لو استمر هذا في صلاته، وتأمَّل فيها وفيما تدعو إليه فإن ذلك سيبعده عن السرقة[2].

فاختبر نفسك أيُّها المسلم، وانظر ما نصيبك من الصلاة، وما تمثِّل الصلاة لك في حياتك؟

وهل أنت من أهلها الذين يقومون بها كما جاءت بها الشريعة؛ وفاءً بشروطها، وعددها، وصفتها، وزمانها، ومكانها الذي أذن الله بأن تكون فيه؟

وهل صلاتك تنهاك عن المعاصي، وتسارع بك إلى الطاعات؟

فإن كان حالك معها على ما يحبُّ الله فأخلص واستمر، وإن كان على خلاف ذلك فراجع صلاتك، وصلِّ فإنك لم تصل!

(١) صحيح ابن حبان (٢٥٦٠).

(٢) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٠/ ١٧٨-١٧٩، وأيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري: ٤/ ١٣٨-١٣٩.

المجلس المئة وواحد وسبعون

الإمامة في الدين[1]

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾

يبين الله سبحانه للمؤمنين في كل عصرٍ وفي كل جيلٍ طريق الإمامة في الدين، بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِئَايَتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السَّجْدَة: ٢٤]، ألا وهو: الصَّبر واليقين.

والمراد بالأمر في الآية يهدون بأمرنا: الوحي والشريعة؛ لأنه أمرٌ بها، ويشمل أيضاً الانتصاب للإرشاد؛ فإن الله أمر العلماء أن يبينوا الكتاب ويرشدوا إليه، فإذا هُدوا فإنما هدوا بأمره وبالعلم الذي أتاهم به أنبياؤهم[2].

والآية تشير إلى ما منَّ الله به على بني إسرائيل؛ إذ جعلهم أئمة، وما نالوا هذه الدرجة العالية إلا بالجدِّ في التعلُّم والتعليم، والدأَب في الدعوة إلى الله، وبالصبر على الأذى في سبيله، مع كفِّ جماح نفوسهم عن المعاصي، واسترسالها في الشهوات.

وقد وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلم التامُّ الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين؛ لأنهم تعلموا تعلُّماً صحيحاً، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين.

وفي الآية تحريضٌ للمؤمنين في كل وقتٍ وحين؛ أن يصبروا كما صبر المختارون من بني إسرائيل، ويوقنوا كما أيقنوا؛ ليكون منهم أئمة للمسلمين، كما كان أولئك أئمةً لبني إسرائيل. وفيها تقريرُ طريق الإمامة والقيادة، وهو الصَّبر واليقين.

---

(١) إعداد اللجنة العلمية.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢١/ ٢٣٧.

إن الدعاة إلى الله تعالى لا تنجح دعوتهم، ويتمُّ لهم أمرهم، إلا بيقينهم بالحق الذي يدعون إليه، وبصيرتهم به، وصبرهم عليه؛ باحتمال المشاق، وكفِّ النفس عمَّا يوهن العزم ويُضعف الإرادة، فمن كان بهذه المنزلة كان من الأئمة الذين يهدون بأمره تعالى.

وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أحقَّ وأولى بهذه المنزلة من أصحاب موسى عليه السلام، فهم أكمل يقيناً، وأعظم صبراً من جميع الأمم، فهم أولى بمنصب هذه الإمامة، وهذا أمرٌ ثابتٌ لا شك فيه، بشهادة الله لهم وثنائه عليهم، وشهادة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم بأنهم خير القرون، وأنهم خيرة الله وصفوته.

فأقبل يا أخي لتكون من أئمة المتقين، فالفرصة مواتية، وإن الأزمات والنكبات التي تمرُّ بها أمتك تناديك فلبِّ النِّداء وكن من المبادرين.

المجلس المئة واثنان وسبعون

الأمَّة المرحومة[1]

﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا ﴾

لما كانت أمة الإسلام أكمل الأمم عقولاً، وأرقُّها قلوباً، وأزكاها نفوساً، اصطفاها الله تعالى واصطفى لها دين الإسلام، وأورثها الكتاب المهيمن على سائر الكتب، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ [فَاطِر: ٣٢].

والمراد بوراثة الكتاب: وراثة علمه وعمله، بدراسة ألفاظه ومعرفة معانيه، وأبناء هذه الأمة على ثلاثة أصناف فمنهم ظالمٌ لنفسه، أي: بالمعاصي التي هي دون الكفر، ومنهم مقتصدٌ، أي: مقتصرٌ على الواجبات، مجتنب للمحرمات، ومنهم سابقٌ بالخيرات أي: مسارعٌ فيها ومجتهد، وهو المؤدي للفرائض، المكثر من النَّوافل التارك للمحرمات، المتحرِّز من المكروهات.

وكل هؤلاء قد اصطفاهم الله تعالى لوراثة كتابه، وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم، ولكلٍّ منهم قسطٌ من وراثته، حتى الظالم لنفسه، فإنَّ ما معه من أصل الإيمان، وعلوم الإسلام، وأعمال الإحسان، من وراثة الكتاب.

وروي عن أبي عثمان النهدي قال: سمعت عمر بن الخطاب يقرأ على المنبر: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا ﴾، فقال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سابقنا سابق، ومقتصدنا ناجٍ، وظالمنا مغفور له**»[2].

---

(١) إعداد اللجنة العلمية.

(٢) أخرجه ابن كثير في مسند الفاروق: ٢/ ٦٠٣، وهو ضعيف.

وقوله: بإذن الله راجعٌ إلى السابق بالخيرات؛ لئلا يغترَّ بعمله وجدِّه، فهو ما سبق إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته، فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه.

ولا شكَّ أن هذا الاصطفاء الذي خصَّ الله به هذه الأمة يوحي بضخامة التبعة الناشئة عنه، ألا وهي الدعوة إلى هذا الدين بالحكمة والموعظة الحسنة وتبليغ رسالة الله، كما قال سبحانه مادحاً هذا الصِّنف من الناس: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأَحْزَاب: ٣٩].

اللهمَّ اجعلنا ممن يخشونك حقَّ الخشية، ووفِّقنا لأن نكون من السابقين بالخيرات بإذنك، واحشرنا مع صفوة خلقك، من الأنبياء والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

المجلس المئة وثلاثة وسبعون
أهل الغلبة والتَّمكين[1]
﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

وَعَد الله عباده الصالحين المتقين، بالغلبة والتَّمكين، وبالعزة والنَّصر المبين، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصَّافَّات: ١٧٣]، وإن هذا الوعد لسنَّةٌ من سنن الله الكونية، سنةٌ ماضيةٌ كما تمضي الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزَّمان، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء، ولكنها مرهونةٌ بتقدير الله، يحققها حين يشاء وكيف يشاء.

وهي بشارةٌ عظيمةٌ لمن قام بأمر الله وصار من حزبه وجنده؛ أنَّ له الغلبة، وإن أُدِيلَ عليه في بعض الأحيان لحكمةٍ يريدها الله تعالى[2]. فقد يُهزم جنود الله في معركةٍ من المعارك، وتدور عليهم الدائرة، ويقسو عليهم الابتلاء؛ لأن الله يعدُّهم للنصر في معركة أكبر، ولأن الله يهيئ الظروف من حولهم ليؤتي النَّصر يومئذٍ ثماره في مجالٍ أوسع، وفي خطٍّ أطول، وفي أثرٍ أدوم[3].

والغلبة قد تكون بقوة الحُجَّة، وقد تكون بالدولة والاستيلاء، وقد تكون بالدوام والثبات، فالمؤمن وإن صار مغلوباً في بعض الأوقات بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب[4]. وتكون الغلبة أيضاً بعلو المؤمنين على عدوهم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ ﴾ [البَقَرَة: ٢١٢].

---

(١) كتبه: د. توفيق بن علي زبادي.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٢٣٦.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٥/ ٣٠٠٢.

(٤) تفسير الرازي: ٢٦/ ٣٦٣.

والتاريخ يُثبت بأحداثه ووقائعه صدق وعد الله سبحانه، فلقد استقرَّت جذور العقيدة في الأرض وقام بناء الإيمان، على الرغم من جميع العوائق، وعلى الرغم من تكذيب المكذبين، وعلى الرغم من التنكيل بالدُّعاة والمصلحين.

ولقد اندثرت عقائد المشركين والكفار، وتلاشت سطوتهم ودولتهم، وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل تسيطر على قلوب الناس وعقولهم، وكل المحاولات التي بُذِلت لمحو العقائد الإلهيَّة قد باءت بالإخفاق، وحقَّت كلمة الله لعباده المرسلين؛ إنهم لهم المنصورون، وإن جنده لهم الغالبون.

ولا يخفى أن في الآية إشارة إلى أن المؤمنين حقَّاً هم جند الله، وأنَّ الله لن يتخلى عن جنده الذين يقاتلون في سبيله، ويُدافعون عن دينه، وما نزل من الحقِّ. وما أحرانا أن نكون منهم؛ لنفوز بنصره في الدنيا، وبجنَّاته في الآخرة.

المجلس المئة وأربعة وسبعون

الله خيرٌ حافظاً[1]

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾

لم يفتأ اليهود والمنافقون يكيدون لنبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حاولوا قتله وإيذاءه بالسِّحر، واستخدموا كل الوسائل الظاهرة والخفيَّة لصدِّه عن دعوته، ولكنَّ الله نجَّاه من كيدهم، ودفع عنه حقدهم، وصرف عنه شرَّهم، قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزُّمَر:٣٦]

وفي وصف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعبودية وإضافته إلى ضمير الجلالة معنىً عظيمٌ من تشريفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبيان أن هذه الكفاية ليست متحققة لأعدائه.

وفيه لفتةٌ مهمةٌ، وإبرازٌ للشرط الذي يضمن الله به الكفاية والحماية لخلقه، ألا وهو تحقيق العبودية الكاملة له سبحانه.

يقول الإمام ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: (فمن قام بحقوق الله عليه؛ فإنَّ الله يتكفَّل له بالقيام بجميع مصالحه في الدنيا والآخرة، ومن أراد أن يتولى الله حفظه ورعايته في أموره كلها؛ فليراع حقوق الله عليه، ومن أراد ألا يصيبه مما يكره؛ فلا يأت شيئاً مما يكرهه الله. وكان بعض السلف يدور على المجالس ويقول: من أحبَّ أن تدوم له العافية؛ فليتق الله)[2].

وفي قراءة أخرى صحيحة للآية: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾[3]. بالجمع لا الإفراد؛ لتشمل جميع رسله وأنبيائه وعباده الصالحين.

---

(١) إعداد اللجنة العلمية.

(٢) تفسير ابن رجب الحنبلي: ٢/ ٢٧٠.

(٣) قرأ بها: حمزة الكسائي، وأبو جعفر وخلف. انظر: التسهيل لقراءات التنزيل، لمحمد فهد خاروف.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾، فإذا كان الله سبحانه معك فلماذا تخشى، وممَّن تخاف؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يصل إليك بسوء؟ فلا تخشى أيها النَّبيِّ أحداً لأنك في أمان الله سبحانه، كيف لا وقد حققْتَ العبودية، وقمتَ بحقِّها خير قيام؟ وهذا متحققٌ أيضاً لكلِّ من قام بعبودية الله سبحانه حقاً وصدقاً.

ثم ختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾، فهو سبحانه يعلم من يستحق الضلالة فيُضله، ويعلم من يستحق الهدى فيهديه، فإذا قضى بقضائه فلا مبدِّل لحكمه.

اللهمَّ اجعلنا من عبادك الصالحين، واهدنا واهد بنا يا أكرم الأكرمين، واكفنا شرَّ خلقك أجمعين.

المجلس المئة وخمسة وسبعون

أجدى الأصحاب[1]

﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾

تتجلَّى الدعوة الصادقة إلى اختيار الأصدقاء، واصطفاء الأخلَّاء في قوله تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزُّخرُف: ٦٧]، فَإِنَّ الإنسان مستأنسٌ بغيره، وصعبٌ عليه أن يعيش بلا صديقٍ يقاسمه مساره ومضارَّه، يتأثَّر به ويؤثِّر فيه.

فإن كان الأمر كذلك فلا بدَّ -أخي الحبيب- أن تختار الصديق الذي تربط معه حبال المودَّة في الرخاء والشِّدة؛ لتنتفع بهذه الصداقة في الدنيا والآخرة.

وفي هذه الآية الكريمة ذَكَر الله تعالى صفة من يصلُح لهذه العلاقة الاجتماعية فقال: ﴿ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾، فمن كان من أهل التقوى؛ عاملاً بأوامر الشرع مجتنباً لنواهيه، فاشدد يديك به؛ فإنه جوهرةٌ ثمينة، خصوصاً في زمن قلَّة المتقين، وكثرة أصدقاء المصالح العاجلة.

إن صديق التقوى -صدقاً لا دعوى- يذكِّرك إذا غفلت، ويعلِّمك إذا جهلت، ويُعينك إذا أطعت، ويعظك إذا عصيت، إذا رأيته ذكَرْت الله، وإن غِبْت عنه بقي لديك نسيمُ خِلاله العذبة يتضوع في أفقك يدعوك إلى اقتفاء أثره، وانتهاج مستقيم سَيْره.

أخي الغالي، جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن بعض أحوال القيامة، فذكرَتْ من ذلك حال الأصحاب المتحابِّين، فبيَّنت أن الأصحاب على قسمين:

الأول: من تنقلب صداقتهم في الآخرة إلى عداوةٍ، تورث القطيعة والكراهية، والمعاتبة وذهاب الانتفاع؛ لأنها قامت في الدنيا على معصية الله.

---

(١) إعداد اللجنة العلمية.

والثاني: من بقيت شجرةُ مودَّتهم قائمة؛ لأنها زُرعت في أرض التقوى، وسُقيت بماء العلم النافع، وحُرست بالعمل الصالح، فأينعت ثمرتها دوام الصلة، واشتداد عمود المحبَّة، وحصول النفع بالشفاعة.

قال الحسن البصري: (استكثروا من الأصدقاء المؤمنين؛ فإن لهم شفاعةً يوم القيامة)[1].

فيا أيُّها المسلم، احذر صديق المعصية؛ فإنه وبالٌ في الدنيا، خسارٌ في الآخرة. واحرص على صديق التقوى؛ فإنه ينفعك في الدنيا بتصحيح طريقك إلى الله، ففي الحديث: «**الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[2]، كما ينفعك في الآخرة بشفاعة حسنة، قال ابن عباس: (الصديق أكثر من الوالدين؛ ألا ترى أن الجهنَّميين لم يستغيثوا بالآباء ولا الأمهات، وإنما قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٠٠ - ١٠١])[3].

(١) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الدمشقي الحنبلي: ١٥/ ٥٣.

(٢) أبو داود (٤٨٣٥)، والترمذي (٢٣٧٨)، من حديث أبي بكر مرفوعاً.

(٣) النكت والعيون، للماوردي: ٤/ ١٢٤.

المجلس المئة وستة وسبعون

عماد التدبُّر[1]

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ ﴾

حثَّ الله عزَّ وجلَّ على تدبُّر مواعظ القرآن، وبيَّن أنه لا عذر في ترك التدبُّر[2]. قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

وإن المتأمِّل في مقصد هذه الدعوة إلى تدبر كتاب الله يجد أن لها شروطاً ينبغي للمتدبِّر أن يحققها؛ ليحصل بها أثرُ التدبُّر وثمرته.

وبالتأمُّل في كتاب الله يظهر أن في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴾ [ق: ٣٧] إشارةً إلى هذه الشروط إجمالاً، ومن أهمِّها وأبرزها: كون المتدبِّر حيَّ القلب.

وهو ظاهرٌ من الآية، وقد نصَّ غير واحدٍ من المفسرين كقتادة، ومقاتل بن سليمان، وغيرهما على أن المراد بالقلب هنا: القلب الحي[3]. فالرجل الحيُّ القلبِ مستعدٌّ، فإذا تليت عليه الآيات أصغى بسمعه، وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهذا هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

---

(١) كتبه: الشيخ عبد اللطيف بن عبد الله التويجري.

(٢) تفسير القرطبي: ١٨/ ٤٤.

(٣) تفسير مقاتل: ٤/ ١١٥، وتفسير الطبري: ٢١/ ٤٦٢.

فإن كان القلب غائباً أو مسافراً في الأماني والشهوات والخيالات، فإنه لا يحصل به الانتفاع[1]. ولذلك نجد القرآن الكريم قد أشار إلى أن أقفال القلوب مانعٌ رئيسٌ من التدبر، فقال تعالى: موبِّخاً المنافقين: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [مُحَمَّد: ٢٤].

قال ابن القيم: (قوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المحلُّ القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩ -٧٠] أي حي القلب)[2].

ومن لوازم هذا الشرط -حياة القلب- أعمالُ القلب الأخرى: كالإيمان بالله، وإخلاص القصد، وصدق اليقين، والإنابة إلى الله، واستشعار عظمة القرآن.

ومن لوازمه أيضاً تطهيره من أقفال التدبر كالشواغل، وأمراض القلب من غلٍّ وحسد ورياء ونفاق.

إن المتدبر إذا حقَّق هذا الشرط وما يلزم منه من اللوازم، أصبح قلبه حياً شاهداً طاهراً، منتفعاً بآيات الله المتلوة والمشهودة، وأثر ذلك عظيم فيه وفي قلبه.

ولله درُّ أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال: (لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام الله عزَّ وجلَّ)[3].

اللهمَّ طهِّر قلوبنا، واغفر ذنوبنا، واجعلنا شاكرين لنعمك، مثنين بها عليك، يا رب العالمين.

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٤٢٢-٤٢٣.

(٢) الفوائد، لابن القيم: ص٣.

(٣) الزهد، للإمام أحمد: ص١٨٨.

المجلس المئة وسبعة وسبعون

هل من متَّعظٍ معتبرٍ؟[1]

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

أخبر الله تعالى في قوله: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القَمَر: ١٧] على سبيل التأكيد بلام القسم و(قد)، أنه قد سهَّل هذا القرآن الكريم، وجعله ميسراً للحفظ والتدبر، والاتعاظ والعمل؛ وذلك بما اشتمل عليه من القَصص والأمثال، وما فيه من التشريع والأحكام، وبما ساق فيه من العبر والأخبار.

وقد تكررت هذه الآية ثلاث مرات في سورة القمر، في الآيات: (٢٢، ٣٢، ٤٠)، وجاءت في كل مرةٍ عقب قصةٍ من قصص الأمم الغابرة.

جاءت أولاً بعد قصة نبي الله نوحٍ عليه السلام، وما كان من أمره مع قومه العاصين الذين أهلكهم الله بالطُّوفان، وأنجى على السفينة نوحاً ومن آمنوا معه.

وجاءت ثانياً بعد قصة نبيِّ الله صالحٍ عليه السلام مع قومه ثمود الذين عصوا واستكبروا، وكذبوا نبيَّهم، وعقروا الناقة التي أرسلها الله إليهم امتحاناً واختباراً، فأهلكهم ربهم بصيحةٍ واحدةٍ تركتهم هشيماً مفتَّتاً.

وجاءت ثالثاً بعد قصة نبِّي الله لوطٍ عليه السلام مع قومه الذين ارتكبوا الفواحش والمنكرات، ولم يستجيبوا لدعوة نبيهم ونُصحه، وبالغوا في المعصية المخالفة للفطرة الإنسانية السوية، فأرسل الله عليهم حجارةً من السماء، وأنجى لوطاً وأتباعه من المؤمنين.

---

(١) كتبه: أ. د. وليد بن إبراهيم القصاب.

وهكذا تكررت هذه الآية في صيغة استفهام فهل من مذكر؟ وقُصد به الأمر؛ أي: ادَّكروا وتذكَّروا، أو قصد به الحثُّ على التذكر؛ إذ إنَّ الله تعالى قد أودع في هذا الكتاب العظيم المعجز من المواعظ والعبر ما يجعله واضحاً ميسراً لمن أراد الاعتبار والتدبر، وهو ميسرٌ كذلك للحفظ في الصدور والعمل بالجوارح.

وكانت الحكمة من تكرير الآية ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ في أعقاب كل قصة من القصص التي أشرنا إليها، وبهذه الصيغة الآمرة الحاثَّة، التنبيه على ضرورة التدبُّر في أنباء الغابرين من الأمم، والاعتبار بمصير العاصين المكذبين منهم؛ لأن التخويف والوعظ متى تكررا كان ذلك تأكيداً يجعل الكلام أوقع في القلوب، وأردع للنفوس، والله تعالى أعلم.

المجلس المئة وثمانية وسبعون

مفتاح الفرج[1]

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾

آيةٌ في كتاب الله تعالى من تدبر معناها، وعمل بمقتضاها، استقامت حياته في سعادة وحبور، وطمأنينة وسرور، إنها التِّرياق الناجع لكل الهموم، ومفتاح الفرج لكل الغموم، هي قوله سبحانه في سورة الطلاق: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ ﴾ [الطَّلَاق: ٢ - ٣].

إنها سنة الله في خلقه، وقانونه المطَّرد في أرضه، فيا من أثقلت كاهلَيْه الأشجان، وقيدت خطواتِه الآلام والأحزان، لا تتلفَّت ههنا أو هناك باحثاً عن مخرج، فإنَّ المخرج ميسَّر أمامك، ولكن شمِّر عن ساعد الجدِّ لتحقيق شرطه، ألا وهو لزوم التقوى.

وقد روي عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: جعل رسول الله يتلو على هذه الآية: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾ [الطَّلَاق: ٢] ثم قال: «**يا أبا ذر، لو أنَّ الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم**»[2].

وتقوى الله أن يجعل العبد بينه وبين ربه وقايةً مما يغضبه، ولا يكون ذلك إلا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، أي أن يراه الله حيث أمره، وأن يفقده حيث نهاه.

---

(١) كتبه: أ. أيمن بن أحمد ذو الغنى.

(٢) أحمد (٢١٥٩١)، الرسالة: ٥/ ١٧٨، الميمنية، وابن ماجه (٤٢٢٠)، والدارمي (٢٧٢٥)، وهو ضعيف الإسناد.

ومن التقوى الفيءُ إلى الحق، والنَّدم على الذنب، وكثرة الاستغفار، وقد روي من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل همٍّ فرجاً، ومن كل ضيقٍ مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب**»[1].

وأخبر سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هُود: ١١٤]، والاستغفار سببٌ للرزق والنعمة، والمعاصي سببٌ للمصائب والنقمة.

أجل، إن الله ليدفع عن المتقي المضرَّة بما يجعله له من المخرج، ويجلب له من المنفعة بما ييسره له من الرزق، والرزق يعمُّ رزق الدنيا والآخرة. ومن هنا أن قالوا: ما افتقر تقيٌّ قط.

وإذن، إن للتقوى فائدتين: أن يجعل الله للمتقي مخرجاً، وأن يرزقه من حيث لا يحتسب.

وإنما يُطلَب الخروج من الضيق والشدة، وهذا هو الفرج والنصر والرزق، فبيَّن سبحانه أن فيها النَّصر والرزق[2].

فاللهمَّ إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا، أن تجعلنا من المتقين حقَّ التقوى، وأن تفرج همومنا وغمومنا، وتجعل لنا من كل ضيقٍ مخرجاً، يا أكرم الأكرمين.

(١) أحمد (٢٢٣٤)، الرسالة: ١/ ٢٤٨، الميمنية، وأبو داود (١٥١٨)، وابن ماجه (٣٨١٩)، وهو ضعيف الإسناد صحيح المعنى.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيميَّة: ١٦/ ٥٢-٥٦.

المجلس المئة وتسعة وسبعون
كان خُلُقه القرآن[1]
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

بُعث النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليتمِّم صالح الأخلاق، وقد كان أحسن الناس خلقاً، فلا تسأل عن صدقه وعدله، ولا عن زهده وتواضعه، ولا عن رحمته وبرِّه، ولا عن شجاعته وصبره، ولا عن سماحته وكرمه، ولا عن عفَّته وحيائه، ولا عن مروءته ونُبله، فقد بلغ الغاية في كل ذلك، وإنه لفضلُ الله يؤتيه من يشاء.

امتثل النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قول ربه في أجمع آيةٍ نزلت في الأخلاق وهي: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فتمكَّن من طيب الأخلاق، واستولى على جميل الصفات. وقد عبَّر الله سبحانه عن ذلك أبلغ تعبير في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، مؤكداً سموَّ المنزلة التي بلغها خاتم أنبيائه في حسن الخلق بثلاثة مؤكدات؛ استعمال حرف التوكيد (إن)، ولام التوكيد المزحلقة في (لعلى)، مع حرف الاستعلاء (على) الدال على تمام التمكُّن من شريف الخلال، ورفيع الشمائل والخصال.

ورُوي أن سعيد بن هشام سأل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن خُلُق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: (ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: فإنَّ خُلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان القرآن)[2].

---

(١) كتبه: د. عبد الله بن منصور الغفيلي.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره: ٢٣/ ١٥١.

ولله در عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد أصاب الـمَفصِلَ في وصف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: (كان أجودَ الناس كفًّاً، وأشرحهم صدراً، وأصدقهم لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهةً هابه، ومن خالطه معرفة أحبَّه، يقول ناعتُه: لم أر قبله ولا بعده مثله)[1].

ولنصغ إلى شهادة خادمه أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: (خدمت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر سنين، والله ما قال لي أفٍّ قط، ولا قال لي لشيء: لم فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا؟)[2].

فيا أيها الداعية، لن تسع الناس بمالك ولا جاهك ولا قدراتك، وإنما بحسن خلقك وطيب قولك، مقتفياً في ذلك سيرة نبيك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن هنا أن قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما من شيءٍ أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق»**[3].

فاللهمَّ ثقِّل ميزاننا بحسن الخلق، واهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت.

(١) الترمذي (٣٦٣٨)، والبيهقي في الشعب: ٢/ ١٤٨.

(٢) متفق عليه، البخاري (٦٠٣٨)، مسلم (٢٣٠٩).

(٣) أبو داود (٤٧٩٩).

المجلس المئة وثمانون

أشنعُ الجرأة[1]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾

بعد أن أورد ربنا سبحانه في سورة الانفطار صوراً عظيمة لأهوال القيامة ومشاهدها، قائلاً: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴾ [الانفِطار: ١ - ٥]، توجَّه بالخطاب إلى الإنسان المكذِّب بالبعث العاصي لربه عزَّ وجلَّ، فقال: يَاأَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الكريم الانفطار:؟

إن هذا الإنسان قد غرَّه جهله بالله تعالى، وإمهالُه له، وغرَّه الشيطان الرجيم، كما غرَّته نفسه الأمَّارة بالسوء، فكذَّب وعصى.

أجل، إن الله ينادي عبده المغرور موبِّخاً له، حيث لم يتأمل آيات الله تعالى في نفسه، ولم ينظر إلى نعمه الظاهرة والباطنة عليه، فيقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفِطار: ٦ - ٨].

أي: أيها الإنسان، أيُّ شيء غرَّك بربك الكريم المنَّان الذي أوجدك من العدم، وسوَّى خلقك في أحسن صورة وأتمِّها، فجعلك معتدلَ القامة، جميلَ الصورة، بديع الخِلقة؟! أما ترى تناسُبَ جوارحك، وعجائب حواسِّك، ووظائف أعضائك، كيف تعمل وَفْق نظامٍ عجيب، وخَلقٍ بديع معجز، يشهد بعظمة الخالق جلَّ جلاله وعظم منَّته عليك، وجميل عنايته بك؟!

---

(١) كتبه: أ. د. إبراهيم بن صالح الحميضي.

فهل يليق بك مع هذا التكريم أن تكذِّب بوعده، وتعصي أمره، وتتجرَّأ على حدوده وحرماته؟!

ووُصف الرب تعالى في ختام الآية بالكريم؛ للتذكير بنعمته على العبد ولطفه به، فإن الكريم حقيقٌ بالشكر والطاعة[1].

وقد روي أن هذه الآية نزلت في بعض مشركي قريش، ولكنَّ الخطاب فيها عامٌّ، فالألف واللام في (الإنسان) للجنس، فتشمل كل منكرٍ للبعث، كما أنها موعظةٌ لكل من غرَّه جهله وشيطانه ونفسه الأمارة بالسوء، فعصى ربه وتعدى حدوده، وتجرأ على حرماته.

وعلى المسلم أن يتدبَّر هذه الآيات الكريمة ويتَّعظ بها، فيعترف بمنَّة الله عليه، وإحسانه إليه، ولطفه به ويحمَدَه على ذلك، ويحذر الغفلة والغرور ويتذكَّر العرض على الله تعالى يوم الدين.

نسأل الله تعالى أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٣/ ١٧٥.

المجلس المئة وواحد وثمانون
تيسير الصوم[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البَقَرَة: ١٨٣].

لا يشك شاكٌّ أن الصيام تكليف شاق، ولذا لما أوجب الله سبحانه وتعالى علينا الصيام جاء ذلك على نظم مختلف، كما في الآية الكريمة المذكورة، ولا عجب في ذلك إذا علمنا أن الصوم قد فرض على هذه الأمة في السنة الثانية من الهجرة، أي قبل فرض الجهاد، ومعلوم ما في الجهاد من المشقة، وبذل النفس والمال، وكأن التكليف بالصوم جاء ليجهِّز النفوس، ويربِّيها على تحمُّل ما هو أشق كالجهاد، وقد اشتملت آية الإيجاب المذكورة وما بعدها على ما يشعر بتيسير هذه الفريضة على الأمة، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: في شأن الصوم: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]، ولبيان هذا اليسر سنذكر هذه اللطائف وهذه الدلالات على النَّحو التالي:

أولاً: البدء بالنداء مع ذكر صفة الإيمان في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فيه فوق التنبيه شحذٌ للهمَّة لتلقي مشقة هذا الفرض، بكل صبرٍ واحتساب وقوة، مثل المناداة في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أهل الشجرة**»، «**يا أهل بيعة الرضوان**»، ففي هذا من استنهاض الهمم، وتقوية العزائم ما لا يخفى.ثانياً: مجيء الإيجاب بفعل الكتابة، مع البناء للمجهول ﴿ كُتِبَ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾،

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

دون (قُضي)، أو (حكم به) مثلاً، لما في مادة الكتابة من دلالة الضبط المناسبة لطبيعة الصيام في وقته، وما يهدف إليه من ضبط السلوك القولي والفعلي، إضافة إلى سلامة (كتب) من ثقل (قُضي) و(حُكم)، وما تُشعِر به من الإلزام العظيم.

ثالثاً: مجيء الفعل مبنياً للمجهول ﴿ كُتِبَ ﴾ مع أنه معلوم فاعله، وهو الله سبحانه وتعالى، وذلك لتخفيف مشقة التكليف، ولذلك ما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾، وذلك لما في لفظ الجلالة (الله) من التعظيم والمهابة.

رابعاً: ذِكر أننا مسبوقون في هذا التكليف، كما في قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [البَقَرَة: ١٨٣]، وجاء ذلك على صورة التشبيه، وكل هذا من أجل التخفيف، لأنه من طبع الإنسان أنه إذا عمل عملاً شاركه فيه غيره سهل عليه، وإذا كلِّف بعملٍ وحده صعب عليه، ويكون الأمر أكثر سهولةً إذا كان الإنسان مسبوقاً بذلك التكليف، وهذا فيه أيضاً تحفيزٌ وتنشيط، فإذا كان الذين من قبلكم قد صاموا، فكونوا مثلهم أو أحسن منهم في تلقي هذا التكليف.

خامساً: ذكر النتيجة المرغوبة في قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ فيه تهوين للتكليف، وتشويق إليها، وذلك أنك إذا كلَّفت إنساناً بعملٍ شاقٍّ، ولكنك قلت له: افعل كذا، أو كذا، لعلك تربح وتنجح، تجده عند ذلك يتشجع ويتقدم، والتقوى أمرٌ يسعى إليه كل مؤمن، لما لها من العواقب الحميدة في الدنيا والآخرة.

سادساً: التعبير عنه بالأيام في أول ذكره، وتأخير ذكر الشهر المشعر بالطُّول، مما يسهِّل صيام هذا الشهر، فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ ﴾ [البَقَرَة: ١٨٤]، إضافة إلى ما في جمع الأيام على أفعال من كونه دالاً على القلة.

سابعاً: وصف الأيام بأنها معدودات ﴿ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ ﴾ يدل أيضاً على التخفيف

والتسهيل، لأن الشيء القليل يُعدُّ، والكثير يحدُّ، أي: يُعرف، فكان هذا الوصف مشعراً بأنها قليلةٌ معدودة، وهذا مما يخفِّف على النفس كلفة الصيام.

ثامناً: التخفيف عن المريض والمسافر في الصيام، مع إيجاد فرصة موسِّعة للقضاء، كما في قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البَقَرَة: ١٨٤]، وهذا من التيسير والتسهيل.

تاسعاً: في وصف أيام القضاء بـ﴿ أُخَرَ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ تسهيل آخر، يتمثل في توسيع مدة القضاء لأنها من اختيار الإنسان.

ولو كان القضاء محدوداً بأيام، أو بأشهر، أو بزمن لا يتعداه؛ لشقَّ ذلك على النفس، يضاف إلى ذلك مجيء الإيجاب على التخيير، مع الترغيب في الصوم في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البَقَرَة: ١٨٤]، كل ذلك يتناسب مع بداية التكليف.

ونلحظ في بيان الفدية كيف كانت بالإفراد ﴿ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾، ولم تكن (مساكين) بالجمع، ثم نلحظ قوة الحض والحث على الصوم بذكر الخيرية (خير) -ثلاث مرات- مع التعليق لحصول ذلك الخير بعلمهم ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ كأنه قيل: لو كنتم تعلمون حجم الخير في الصيام لصمتم.

عاشراً: في قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]، نجد أن شهر القرآن ذُكِرَ هنا بعد تأخُّره بعد ذكر الأيام، أي بعدما تهيَّأت النفوس لتلقي هذا التكليف الشاق، ومع هذا ذُكِرَ معهم ما يخفف ثقل الزمن؛ المتمثل في الشهر، وهو نزول القرآن موصوفاً بصفات الخير ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى

لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]، وبعد هذه التهيئة التي بينا صورها يأتي التكليف بوضوح وقوة في قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]، فهنا ذكرٌ للشهر، وإيجابٌ صريح واضح للأمر ﴿ فَلۡيَصُمۡهُ ﴾، إلا من كان معذوراً، فما زال التيسير سارياً معه كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]، الأمر اختلف هنا، الآن فيه عزيمة للذي يشهد الشهر فعليه أن يصومه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَلۡيَصُمۡهُ ﴾، أما من قبل فكان الأمر مختلفاً كما في اللمحات الماضية.

ونلحظ هنا كلمة (مريض) أو (على سفر)، فما زالت على نفس الأمر، فلم يقل الله عز وجل: (مريضاً) أو (مسافراً)، فما زال التيسير معه جارياً كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥] نجد الأمر هنا قد اختلف، فالعزيمة واضحةٌ في قوله تعالى: ﴿ فَلۡيَصُمۡهُ ﴾، أما ما يخصُّ المريض فما يزال الأمر ميسراً ومسهلاً معه، وهذا دليل على أن العزيمة تعلقت بمن لم يكن مريضاً أو مسافراً أو معذوراً.

وأما من كان مريضاً أو مسافراً أو معذوراً؛ فقد استمر التيسير والتسهيل معه، ومن هنا نلحظ كيف أن هذه التسهيلات التي أشرنا إليها جاءت ملخصة في قوله تعالى: في ختام هذه الآيات: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾.

هذا ما تيسر بيانه في هذه الآية العظيمة، أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينصرنا، وأن يوفقنا، وأن يجعلنا ممن يتأمل في هذا القرآن، ويستفيد من مواعظه، وقوارعه، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه. وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة واثنان وثمانون
تكامل الزوجين[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٧].

سنقف مع جزء من هذه الآية عدة وقفات، لنبيِّن ما فيها من دلالات:

أولاً: جاءت هذه الآية مبدوءة بكلمة ﴿أُحِلَّ﴾، وهي مبنية للمجهول؛ بياناً أن العناية منصرفة إلى فعل الحِلِّ ذاته، لأن الفاعل معروف، لأن هذا الفعل لا يكون لسواه، وهو الله، وذكر مادة (الحل) يدل على الشعور بالمنع والحرمة في القضية المذكورة، وأن الأمر يحتاج إلى حكم من الله عز وجل، وقد ورد أن بعضهم كان إذا جاء إلى زوجته وقد نامت في الليل، لم يقربها، لأنه يظن أنها تحرم عليه إلى اليوم التالي، فشقَّ عليه هذا الأمر فاحتمله بعضهم، وحصل من بعضهم تجاوز، فجاء بعضهم إلى النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبروه، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾.

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

ثانياً: قول الله تعالى: ﴿ لَكُمْ ﴾ فيه عناية بشأنهم، وإيضاح بتخصيصهم في هذا الأمر، وهذا يتناسب مع ما قيل عن منع السابقين قبلنا من قربان نسائهم في الليل.

ثالثاً: في التنصيص على الزمن ﴿ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ﴾: فيه بيان أن الحِلَّ مرتبطٌ بذلك الزمن خصوصاً، وأن الأمر المذكور وهو قربان النساء محرم في غير هذا الوقت مما يخص الصيام، وحتى يكون هذا الحكم مقتصراً على شهر الصوم، أضيف الزمن إلى الصيام فقيل: ﴿ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ﴾.

رابعاً: في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾، إيضاح للأمر المراد ذِكر الحِلِّ فيه، وهو الرفث إلى النساء، وفي ذكر كلمة ﴿ ٱلرَّفَثُ ﴾ من الكناية اللطيفة عمَّا يُستحى من ذِكره ما لا يخفى، والرفث عند أكثر أهل العلم هو الجماع، وإتيان الرجل أهله، وكل ما يفضي إلى ذلك، والرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الإنسان من زوجته، وهي كلمة جامعة -كما نرى- لكل هذه المعاني، والعجيب أننا نجد هذا الفعل ﴿ ٱلرَّفَثُ ﴾ مسموحاً به في ليل رمضان ومنهياً عنه في الحج، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ [البَقَرَة: ١٩٧]، لاختلاف القصد في الفريضتين، فالمنع في رمضان يتعلق بالنهار، أما في الحج فلقلَّة مدته فيتعلق بالليل والنهار.

خامساً: جاءت تعدية الرفث بـ ﴿ فِى ﴾؛ مع أنه يعدَّى في الأصل بـ (الباء)؛ فيقال: رفث بفلانة، ولا يعدى بـ ﴿ إِلَىٰ ﴾ فيقال: رفث إلى فلانة، كما في الآية هنا ﴿ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾. فدل ذلك على أن معنى الرفث هو كل ما يوصل الرجل إلى غايته التي يريدها من زوجته، وهذا يتناسب مع معنى تلك الكلمة التي أشرنا إليها بقولنا: وهي كلمة جامعة، وهذا بخلاف ما ورد في الحج من إطلاق، وذلك لأن ﴿ إِلَىٰ ﴾ تدل على بلوغ الغاية، وقد يكون الأمر متعلقاً بالحِل، فيكون المراد أن الحِلَّ ممتدٌّ إلى نسائكم، لا يتجاوز إلى سواهن.

سادساً: تحليل الرفث في هذا المقام قد يكون من باب الترفُّه بعد المنع، فلما كانوا ممنوعين من أزواجهم في النهار، سمح لهم ذلك في الليل، مكافأة لهم وتمتُّعاً.

وقيل: المراد من ذكر التحليل هو إشعارهم بأنه أمرٌ محظور وقد أُحِلَّ في الليل، مع أن المرغوب فيه هو استمرارية الامتناع، تربية لقوة الإرادة، فيكون في ذكر الحل تسهيل على من ضعفت عزيمته، والامتناع لمن قويت عزيمته.

سابعاً: قوله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ فيه كناية لطيفة أخرى عن

الأمر ذاته، مع اختلاف في الأسلوب، حيث ظهر فيه هنا جانب المرأة أكثر من الرجل، بخلاف ما سبق مع الرفث، وهذا ظاهر في تكرير ضمير الإناث ﴿ هُنَّ ﴾ مرتين، في مبدأ الكناية ونهايتها، في مقابل ذكر ضمير الرجال ﴿ أَنتُمْ ﴾ مرة واحدة.

ثامناً: في البدء بالمرأة مع كناية اللباس، إلماح إلى أثر المرأة في تحصين زوجها، وستر معايبه، والإشعار بأن شأنها في جانب اللباس أظهر من الرجل.

تاسعاً: في تشبيه كل من الزوجين للآخر باللباس، ما يدل على شدة حاجة كل منهما للآخر، وحذف أداة التشبيه من هذا التشبيه، فلم يقل: (هن كاللباس لكم، وأنتم كاللباس لهن)، لبيان شدة التطابق بين المشبَّه والمشبَّه به لدرجة أنه كالشيء الواحد.

عاشراً: ذكر اللباس هنا خصوصاً يحمل دلالات عدة، تظهر من خلالها أوجه التشبيه العديدة، بين اللباس وأحد الزوجين مع الآخر، ويمكننا ذكر أهم تلك الدلالات على النحو التالي:

- أن اللباس صورة من صور الجمال.

- أنه مظهر من مظاهر الستر.

- أنه أحد أسباب الحماية.

- أنه شديد الالتصاق والقرب من الإنسان.

وبهذه الأوجه من الدلالات نعلم شدة الشبه في هذه المشابهة المذكورة في هذه الآية بين أحد الزوجين مع الآخر، وبين اللباس، ونعلم أيضاً حاجة كل من الزوجين للآخر، وأنه يكون معه كما يكون اللباس مع صاحبه.

فهل تأمل أحدنا هذا الأمر، ونظر فيه، وخصوصاً أنه ورد في آيات تخص الصيام؟ لما في الصيام من تربية المهابة من الله سبحانه وتعالى، وتربية المراقبة، ولعل هذا الأمر لا بد أن يكون بين الزوجين، خصوصاً بما يتعلق بالعفة والسِّتر والحماية، فإن هذا الأمر من الضروريات حتى تستمر الزوجية على أحسن حال.

أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يوفقنا لكل خير، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وثلاثة وثمانون
الإنفاق[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

يقول تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥].

هذه الآية تتحدث عن قضيةٍ تتعلق بنوازع النفس نحو جمع المال، ومشقة إنفاقه، لأنه قسيم الروح كما يقال، فلنتأمل كيف جاء الحض على الإنفاق في هذه الآية من صور عدة:

أولاً: بدأت الآية بالسؤال بـ ﴿ مَّن ﴾، المعبَّر به عن العقلاء، والبدء بالسؤال فيه ميزة التنبيه من جهة، وطلب إجابة المسؤول من جهة أخرى، وليس المراد هنا طلب معلومة، بل المراد هو الحث والحض، وشحذ الهمم، كقول القائل يستنفر الناس: من يصدُّ عنا العدو، فليس هناك أحد محدد، بل هو خطاب عام يستنهض كل الهمم، وهذا المعنى هو ما عناه طرفة بن العبد في قوله:

إذا القوم قالوا: من فتىً خلت أنني ... عُنيت فلم أكسل ولم أتبلَّد

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فصدَّر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن معنى الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر، والمعنى هل أحد يبذل هذا القرض، وهذا ولا شك ألطف من لو قيل: (أقرضوا)، لخلوصه من ثقل الطلب).

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

ثانياً: في مجيء ﴿ ذَا ﴾ بعد أداة الاستفهام ﴿ مَّن ﴾ مع عدم وجود مشار إليه محدد، اهتمام بالفعل الواقع في خبر الطلب، وهو هنا الإقراض، ومعرفة فاعله ﴿ مَّن ﴾ يكون لدرجة أنه يراد له أن يبرز حتى يكون ماثلاً للعيان يمكن أن يشار إليه، وفي ذكر اسم الإشارة على هذا المعنى عناية بالإشادة بالمنفق، حتى لكأن هذا المرتقى العظيم لا يصله إلا من يشار إليه بالبنان، فهل أنت من أولئك أيها المؤمن؟

ثالثاً: تعريف المنفق باسم الإشارة أولاً، ثم بالموصول ثانياً: ﴿ ذَا ٱلَّذِى ﴾، فيه إشعار بالتميز من جهة، وعراقته في هذا العمل الجليل من جهة أخرى، حتى لكأن الوصف المميِّز له هو إنفاقه في سبيل الله، فهو عندما يراد أن يعرف ويوصف يقال عنه ﴿ ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾.

رابعاً: التعبير بمادة الإقراض في قوله تعالى: ﴿ يُقْرِضُ ٱللَّهَ ﴾، فيها ملمحٌ لطيف، لو تأمله المؤمن لبسط يده بالإنفاق، وذلك لما تحمل من دلالات الضمان والخير، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وسمى الله ذلك الإنفاق قرضاً حسناً، حثاً للنفوس وبعثاً لها على البذل؛ لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولا بد طوعت له نفسه بذله، وسهل عليه إخراجه).

والملحوظ هنا ما يلقيه لفظ (القرض) في روع الإنسان من ضمان التعويض، ولا يكاد يكون هناك شيء في مقام التعويض والرد كالقرض، إضافة إلى ما فيه من فضيلة العطاء والإنفاق وأحياناً الثناء والشكر، فكل ذلك يحصل للمقرض مع عودة ماله كله إليه، خصوصاً إذا كان القرض على مليء قادر، ومجيء (الإقراض) بالفعل ﴿ يُقْرِضُ ﴾؛ للإشعار بطلب تجدد ذلك، وأن الممدوح في ذلك هو إحداث هذا الفعل الطيب آناً بعد آنٍ.

خامساً: مجيء لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهَ ﴾ في قوله جلَّت قدرته ﴿ يُقۡرِضُ ٱللَّهَ ﴾، فيه غاية الطمأنة للمنفق، وضمان التعويض له، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإن علم (المقرض) أن المستقرض مليٌّ وفيٌّ محسنٌ كان أبلغ في طيب قلبه، وسماحة نفسه (بالإنفاق)).

ولك أن تتفكر أيها المؤمن بربه في حالك وأنت تتعامل مع الله، الذي بيده كل شيء، وهو المتفضل عليك أولاً وآخراً، ومع هذا يطلب منك الإنفاق، ويضمنه له على صورة القرض، فكيف بعد هذا تقبض يدك، ألا تستحي من نفسك، وليس المال مالك، بل هو مال الله، فسبحانه ما أكرمه، وما أجلَّ نعمه علينا.

سادساً: في ذكر المفعول المطلق (قرضاً)، تأكيد لمادة الفعل المطلوبة ﴿ يُقۡرِضُ ﴾، فهو ليس بعطية ولا هبة لا تعود، بل هو قرض، فكان في ذكر المفعول المطلق تكراراً لمادة الإقراض، مما يحمل تأكيداً لها، لما فيهما كما رأينا من شدة الضمان، وتحقق حصول التعويض.

سابعاً: وصف القرض بأنه (حسن) في قوله: ﴿ قَرۡضًا حَسَنٗا ﴾، قيدٌ مهمٌّ في نوع الإقراض المطلوب المقبول عند الله، فليس كل قرض مقبولاً، كما أنه ليس كل إنفاق مقبولاً، يقول ابن القيم: «وحيث جاء هذا القرض في القرآن قيد بكونه ﴿ حَسَنٗا ﴾ وذلك يجمع أموراً ثلاثة:

أحدها: أن يكون من طيب ماله لا من رديئه وخبيثه.

الثاني: أن يخرجه طيِّبةً به نفسه، ثابتةً عند بذله ابتغاء مرضاة الله.

الثالث: ألا يمن به ولا يؤذي، فالأول يتعلق بالمال، والثاني يتعلق بالمنفق بينه وبين الله، والثالث: بينه وبين الآخذ.

ثامناً: قوله تعالى: ﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ ﴾ ربط الجملة بالفاء دليل على حصول المضاعفة المحببة للإنسان بسبب الإنفاق، كما أن فيها إشعار بسرعة حصول الخلف برجوع المال مع المضاعفة، وفي هذا إزالة لكل عوائق الإنفاق عند الإنسان، إذ عاد إليه ماله، وتضاعف أضعافاً كثيرة، ويؤيد جانب الكثرة هذه القراءة الأخرى ﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ ﴾ بالتشديد، لهذا يقول ابن القيم في هذا المعنى: (فإن علم أي (المقرض) أن المستقرض يتجر له بما أقرضه وينمِّيه له ويثمِّره حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح).

تاسعاً: في التنصيص على المعنى بالمضاعفة بذكر حروف الجر اللام في قوله تعالى: ﴿ لَهُۥٓ ﴾، مزيد ضمانٍ وطمأنة، إذ في ذلك إشعار بأن هذه الأضعاف لم تكن للمستقرض بل هي للمقرض، ومردها إليه، كما تشير إلى ذلك دلالة (اللام) التي هي في أصلها للمِلك والحيازة والقصر، فإذا أدرك المنفق أن المضاعِف هو الله، وأنه هو مخصوص بذلك فكيف سيكون نشاطه للنفقة وأنسه بها؟

عاشراً: ﴿ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ ﴾، وهنا ذكر آخر لما تميل إليه نفس صاحب المال بطريق المفعول المطلق ﴿ أَضۡعَافٗا ﴾ والمراد هو تأكيد مادة (المضاعفة) المحببة إلى الإنسان في مقابل تأكيد مادة الإقراض (يقرض قرضاً) المشعرة بالضمان، فإذا اجتمع للإنسان ضمان مع مضاعفة وعطاء فلن يُحجِم عن هذا الخير إلا محروم.

ومما يزيد النفس إقبالاً أن جاءت كلمة ﴿ أَضۡعَافٗا ﴾ مجموعة دون أن تكون مفردة (ضعفاً)؛ ليكون العطاء أكثر، بينما جاءت مادة الإقراض مفردة ﴿ قَرۡضًا ﴾، ولم تكن (قروضاً)، ليكون الإنفاق أسهل على النفس، فما أعظم عطاء الله (قرض) واحد، يجازي به صاحبه ﴿ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ ﴾ فأين المنفقون وأرباب المال، ألا يثقون بوعود الله؟

حادي عشر: في وصف الأضعاف بالكثرة في قوله تعالى: ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ تهييج لحب النفس للمزيد من التعويض مما يحدوه المزيد من الإنفاق، ففوق أن تكرار كلمة ﴿أَضْعَافًا﴾، وكونها مجموعة، تأتي الصفة ﴿كَثِيرَةً﴾ لتؤكد معنى الكثرة المحبوبة عند صاحب المال، وفي هذا عنايةٌ كبيرة بتحفيز المنفق بذكر ما يحبُّ، وهو أسلوب يحسن إتباعه مع الناس فيما يتعلقون به كالمال.

ثاني عشر: في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ تكرير للفظ الجلالة؛ لزيادة ضمان العطاء، فإن ذلك يقتضي أنه إذا كان هو الذي يعطي ويمنع، فإن الأمر كله إليه، فإذا كان سبحانه هو الضامن فممَّ يخاف المنفق، مع ما في تقديم لفظ الجلالة وهو الفاعل المعنوي من التأكيد أو الحصر، أي لا قابض ولا باسط سواه.

ثالث عشر: مجيء القبض والبسط بالفعل ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾، فيه إشعار بتجدد ذلك، وهذا يتناسب مع عطاء الله للمخلوقين، وكثرة احتياجهم وتنوعه.

رابع عشر: تقديم القبض على البسط ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ مع أن الحديث عن الإنفاق فيه تسلية للفقراء، وقليلي المال، وفي هذا شحذ لهممهم للإنفاق ولو من القليل؛ ليتحول فقرهم إلى غنى، وضيق حياتهم إلى سعة، فكأنه قيل: إن البسط والعطاء يعقب القبض، فيكون في هذا بشارة بتغير أوضاع من كان في حيز الحالة الأولى وهي (القبض) إلى الحالة الثانية وهي البسط، وهذا التوجيه يتناسب مع السياق الوارد في مدح الإنفاق والحث عليه، وفيه ملمحٌ آخر وهو: الوعد بالتوسعة لمن أنفق، والوعيد بالتقييد والمنع لمن بخل ومنع.

خامس عشر: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وهنا حثٌّ آخر على الإنفاق بذكر مرد الإنسان، وأنه إلى الله الذي أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته.

كما فيه بيان أن ما أنفقه سيجده أمامه إذا رُدَّ إلى ربه، وهذا لون من النفع تنشط مع ذكره النفوس لفعل الخير، فهو يعلم أن ما أنفقه مهما كثر أو قل فهو عند الله، وأنه مردودٌ إليه، ولهذا جاء تقديم الجار والمجرور ﴿ إِلَيْهِ ﴾ عنايةً بأمر المرد والمرجع لما في ذلك من كمال الضمان وقوته، وبهذا اكتمل الضمان في الدنيا والآخرة بكل أدواته ودلائله.

سادس عشر: جاء في آية أخرى في ختامها ﴿ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحَدِيد: ١١] وهذا أيضاً من محفزات الآخرة، وهو مما يكنز لصاحبه من الخير، وهذا ما توحي به كلمة ﴿ أَجْرٌ ﴾ وفي وصفها بالكرم ﴿ كَرِيمٌ ﴾ ما يزيد رغبة المنفق.

وما ألطف مناسبة هذا الوصف لمعنى الآية ومضمونها، حيث قوبل المطلوب وهو (القرض الحسن)، بالعطاء وهو (الأجر الكريم)، يقول ابن القيم: (فإن علم (المقرض) أنه مع ذلك كله يزيده سبحانه من فضله وعطائه أجراً آخر من غير جنس القرض، وأن ذلك الأجر حظٌّ عظيم وعطاءٌ كريم، فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشح أو عدم الثقة بالضمان، وذلك من ضعف إيمانه، ولهذا كانت الصدقة برهاناً لصاحبها).

وهذا ما فعله الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الإنفاق والعطاء، فقد قيل إن أبا الدحداح لما نزلت هذه الآية في سورة البقرة، قال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أو إن الله يريد منا القرض؟، قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: أرني يدك فناوله يده، فقال: فإني أقرضت الله حائطاً فيه ستمائة نخلة، فقال** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **كم من عذقٍ رداح لأبي الدحداح في الجنة**»[1].

(١) ينظر: تفسير القرطبي: ٣/ ٢٣٧، والمستدرك على الصحيحين (٢١٩٤).

وفي هذا أعظم دعوة لأهل الثراء والمال، ليتعاملوا مع ربهم وليعبدوا خالقهم بما أعطاهم وأغدق عليهم، فما أظن أحداً سيبخل بعد كل هذه الضمانات إلا لسوء في جبلَّته وطبعه من البخل والشح، أو لضعف في دينه ويقينه، وكل منا حسيب نفسه.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وأربعة وثمانون
المحاجَّة[1]

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

هذه الآيات التي لدينا الآن تتحدث عن محاجة إبراهيم عليه السلام للنمرود، في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٨].

هذا الخطاب الذي أمامنا هو خطاب دعوة، وخطاب رد شبهة، يحتاج إلى نمط خاص من أساليب القول، كما يحتاج إلى حجة قوية، وكلمة معبرة، لأنه مذكور في سياق المحاجة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾، فذكر المحاجة؛ وجعلها عَلَماً لهذا المجادل، فعرَّفه بها فقال: ﴿إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ﴾، لما في المحاجة المذكورة من الغرابة؛ وشدة الخروج عن المألوف، ولنا مع هذه المحاجة هذه الوقفات التي نبين فيها بعض مدلول هذه الآيات الكريمات:

أولاً: بدأت الآية الكريمة بهذا الاستفهام التعجبي، الموجَّه إلى نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واشتمل ذلك على ذكر الرؤية، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، دون العلم بأن يقال: ألم تعلم، للإشعار بأنه حدث يستحق أن يُعاين بالعين، كما أنه واضحٌ جليٌّ، كأنما ينتقل فيه من نقل الخبر إلى صورة المعاينة والرؤية، ومع أن المراد هنا هو الكلام والحُجَّة، وهما يُسمعان ولا يُريان،

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

فلم يَرِد: ألم تسمع، بل قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ لما في استحضار الحدث من علاقة بنوعية هذا القول المذكور، فهذا جبارٌ ظالمٌ يحاور إبراهيم عليه السلام في ذات الله سبحانه، هذا المشهد لا بد من استحضاره لحظة عرض الخطاب، لذا جاءت ألم تر، دون: ألم تعلم، أو: ألم تسمع.

وفي عرض القرآن لهذه المجادلة -رغم عدم منطقية الحوار فيها- دليل على ضرورة فتح باب الحوار، وسماع وجهة النظر الأخرى، ثم بعد ذلك يقرر المحاور الاستمرار مع خصمه من عدمه.

ثانياً: جاء النص هنا على موضوع الحوار والخطاب فقال سبحانه وتعالى: في ربه، أي: في رب إبراهيم عليه السلام، وفي ذلك إيماء إلى ضرورة توحيد أرضية الحوار قبل البَدْء في الحوار، وفي التعرض لعنوان الربوبية -خصوصاً في هذا المقام- تشريفٌ لإبراهيم عليه السلام، وإيذان من أول الأمر بنصر الله له، لأن التربية نوع من الولاية.

ثالثاً: قال سبحانه: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾، هذا تعليل لإقدام هذا المجرم على هذا الجرم العظيم، أي أنه لأجل إنعام الله عزَّ وجلَّ عليه بالملك والسلطان، وكونه أول من ملك الأرض، ووضع التاج على رأسه -كما قيل- فإنه تجرأ على هذه المحاجَّة الكفرية.

وفي النص على هذه العلة إشعار بقلة اكتراثه بنعمة الله، إذ هو الذي أعطاه ذلك الملك، وتلك النعمة، ومع ذلك جحدها، بل تجاوز الحد، وجادل في ذات الله.

رابعاً: بعد هذه التهيئة لخطاب إبراهيم عليه السلام، ومحاجته لهذا الطاغية، جاء كلام إبراهيم عليه السلام، ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، وهكذا بدأ إبراهيم عليه السلام بالحوار، وهذا يشعر الخصم بقوته عليه السلام في حجته، فليس هو بالمحجِم عن الكلام؛ بل هو مقدِّم لإيمانه بما يقول.

خامساً: قدَّم إبراهيم عليه السلام في كلامه كلمة ربي، وهي الفاعل المعنوي للفعل يحي، فالمحيي على الحقيقة هو الله عز وجل، وذلك للرد على هذا النمرود الذي ادعى حقاً لله، وجعله حقاً لنفسه، وهو مخلوقٌ ضعيف، فدل هذا التقديم في كلام إبراهيم عليه السلام على الحصر، فكأنه قال عليه الصلاة والسلام: ربي وحده الذي يحيي ويميت، لا أنت ولا غيرك.

وفي ذكر الربوبية هنا ملمحٌ من ملامح الاعتراف بقدر الخالق سبحانه وتعالى، وأنه المدبر، وأنه المعطي، ليستشعر هذا النمرود أنه ضعيف لم يخلق نفسه، بل خلقه العليم الخبير، وفي هذا استنهاض لمكامن الفطرة لديه؛ لعله يرعوي عن غيِّه، كما نلحظ من ذكر الرب دون أسماء الله الحسنى الأخرى؛ أنه عليه السلام مال إلى جانب اللِّين أول الأمر معه؛ علَّه أن يستدرجه إلى جادة الصواب، إذ هو يريد تذكيره بالمنعم عليه، وهو الرب سبحانه وتعالى.

سادساً: قال إبراهيم عليه السلام في حديثه معه ﴿ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ فعرَّف الخالق سبحانه وتعالى بالموصول الذى، وجعل صلة الموصول الفعلين يحي وَيُمِيتُ، وكأنه يشير بهذا عليه السلام إلى أنه سبحانه هو المتفرد بهذين الوصفين، فهما لا يليقان إلا به سبحانه، وإنما ذكر هذين الوصفين خصوصاً؛ لأنهما من القضايا التي تظهر فيها قدرة الخالق وعجز المخلوق، كما أن هذا النمرود قد ادعى ذلك، وعَرَف إبراهيم عليه السلام عنه ذلك مسبقاً، وفي تقديم الإحياء على الإماتة يحي ويُمِيتُ، إما لأنها الحالة الأعظم دلالة على القدرة، وإما لأنه أراد من أول الأمر الرد على منكر البعث، ومنهم هذا الملك؛ لأن من يحيي أول مرة؛ فهو قادرٌ على الإعادة ولا شك.

سابعاً: ردَّ النمرود على كلام إبراهيم عليه السلام بقول: أنا أحيي وأُمِيتُ، فجاء بترتيب الكلمات ذاتها، فبدأ بالفاعل المعنوي (أنا)، ثم ذكر الإحياء والإماتة، لكنه لم يعرِّف نفسه بالموصول، فلم يقل: أنا الذي أحيي وأميت، وذلك لأن هذا لا يكون (أي التعريف بالموصول) إلا لمن عُرِف بهذا، واشتهر بالصفة المذكورة بعد الموصول حتى أصبحت كالعَلَم له، وهذا لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى فيما يخص الإحياء والإماتة، وكل ما فعله هذا النمرود هو الادعاء، ولم يكن له من رصيد الواقع شيء، بل إنه قد بنى كل ذلك على مغالطةٍ سخيفةٍ ينكرها كل عاقل، إذ زعم أنه يعمد إلى من حكم عليه بالموت فيعفو عنه، وإلى بريء فيقتله، وفي تقديم الفاعل المعنوي (أنا) إشعارٌ بإرادته التوكيد على قدرته على المنافسة فيما أورده إبراهيم عليه السلام، وليس المقصود هنا هو الحصر، بل التقوية والتوكيد؛ لأنه أراد إثبات الشراكة، أما أنه الوحيد الذي يحيي ويميت، فهذا ما لا يستطيع ادعاءه ولو فعل، لأنه هو في ذاته مخلوق ضعيف.

ثامناً: قال إبراهيم: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ ﴾، نلحظ هنا أن إبراهيم عليه السلام قد عدل في محاورته لهذا الطاغية؛ عن المضي في نقض حجَّته التي ذكرها، لأن اعتراض ذلك الطاغية في هذه المرة لم يكن مما تقبله العقول، ومصدره إنما هو المكابرة والمعاندة، وليس هناك فائدة في الاستمرار معه، ومن هذا شأنه فلا يحسن الاستمرار معه في جدالٍ عقيم، لأنه لا يقيم لقوانين العقل ولا المنطق وزناً، ومن كان هذا حاله؛ فلا فائدة في جداله، بل الأحسن إفحامه بحجَّةٍ دامغة لا يستطيع ردَّها، ولعل هذا ما جعل إبراهيم عليه السلام يختصر هذه المحاورة، فلم يَطْرق فيها جوانب متعددة، بل رأى أنه من الأحسن هنا أن يذكر حجةً تُسْكت المجادل، فقال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ ﴾، وهنا انتقال مما يمكن لهذا الطاغية أن يجادل فيه، ولو بفهمٍ سقيم، وتأويلٍ مردود، إلى ما لا قدرة له على ادعائه بأيِّ صورة من الصور، لبعد هذه الكواكب عنه، وعدم قدرته على التصرف فيها، أو التأثير فيها، أو حتى الإيهام بذلك كما فعل أولاً.

تاسعاً: جاء لفظ الجلالة الله دون اسم الرب كما مرَّ سابقاً؛ لأن الموقف هنا هو موقف ردٍّ على ادعاءٍ سافرٍ، لم يَقْدُر صاحبه الخالق سبحانه وتعالى حقَّ قدره، كما أن الموقف موقفُ إظهار لقدرة الله، وهنا يكون اسم الجلالة الله أعظم دلالة، وأكثر تربية للمهابة والإعظام، أما في أول المحاجة، فلم يكن هناك ذكرٌ لكلام هذا النمرود؛ لهذا كان عليه السلام ليِّناً معه، لعله أن يثوب إلى رشده.

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ ﴾، أخبر عليه السلام في هذه الآية، وفي هذه الجملة بخبرٍ لا مجال له في دفعه، وهو أن الخالق سبحانه وتعالى يأتي بالشمس من جهة المشرق، فإن استطعت أيها المعاند أن تأت بها من جهة المغرب فافعل، وكان هذا الأمر بالنسبة له كالمفاجأة؛ لأن الموقف يتطلب منه أن يحدث ذلك في الحال، ولما لم يكن له قدرة لضعفه وعجزه، سكت، وفوجئ، وأُسقط في يده، وجاء ما يصور ذلك بوضوح في قوله تعالى: فبهت، وذكر الموصول في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي كَفَرَ ﴾ وجعل الكفر صفة له ﴿ ٱلَّذِي كَفَرَ ﴾ للإشعار بعلة هذه النتيجة؛ وهي أنه كافر، حائد عن الحق، لذا جاء ختام هذا الحوار وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظالمين، وفي ذلك بيان أن جَحْد الحق، والكفر بالله من الظلم العظيم؛ لأنه صرفٌ لحق الله عزَّ وجلَّ إلى غيره، وهذا هو الظلم، لذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لُقْمَان: ١٣].

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وخمسة وثمانون

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

ستكون وقفتنا اليوم بمشيئة الله تعالى عن سياحةٍ تفكُّرية تأمُّلية، في آية عظيمة، تتحدث عن فئة عظيمة القدر، نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يرفع قدرهم، وأن يعلي من شأنهم، إنهم أهل الاحتساب، الذين قال الله عزَّ وجلَّ فيهم ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٤]، وقد جمعت هذه الآية العظيمة أموراً عدة، لعل من أهمها:

- حكم هذه الشعيرة.
- المخاطب والمأمور بها.
- مواصفات القائمين بها.
- وظائف ومهمات أهلها.
- خطوات إقامة هذه الشعيرة.
- الثناء على القائمين بها.
- علاقة الدعوة بهذه الشعيرة.

ولعل هذه الأمور التي أشرتُ إليها ستأتي من هذا التحليل الدلالي لألفاظ وتراكيب هذه الآية الكريمة، في محاولةٍ منَّا لبيان عظم مدلول هذه الآية، على مكانة هذه الشعيرة العظيمة،

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

وقد نذكر بعض هذه العناصر، وقد ندمج بعضها مع بعض، وسنبدأ من خلال هذه القضايا التي سأعرضها في معرض بيان ما تحتويه هذه الآية من دلالات، وإشارات.

أولاً: الملحوظ في هذه الآية، أنها جاءت بين آيتين تدلان على ضرورة الاتفاق ونبذ الافتراق، فالآية السابقة تدعو للاعتصام والأخوة، قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٣]، والآية التي تليها، تنهى عن مشابهة أهل الفرقة والخلاف، وهي قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٥] وهذا مؤشر واضح إلى أن من أعظم المؤثرات في إقامة هذه الشعيرة العظيمة هو اجتماع الكلمة، ونبذ الاختلاف، كما أن هذه الشعيرة هي من أعظم أسباب تمكين هذا الدين، وقطع بوادر التفرق وذهاب الريح، فكأن التأثير هنا متبادل، لكن لكل مؤثر وجهة معينة في التأثير والتأثُّر.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾، نلحظ فيها كيف جاء إيجاب هذه الشعيرة بهذا الأسلوب، بأسلوب المضارع المسبوق بلام الأمر، في قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن ﴾ بسكون اللام، وهذه اللام أفادت الأمر، وهو موجه من أعلى -وهو الله- إلى الأدنى -وهم العباد- وهذا يقتضي الوجوب وضرورة العمل به، إلى أن يأتي ما يصرفه عن هذا الوجوب أو يخصصه، والتعبير بفعل الكون ﴿ وَلْتَكُن ﴾ يوحي بالإيجاد لشيء لم يكن موجوداً لحظة الخطاب، إذ المعنى على كان التامة، ولتوجد منكم أمة يدعون، والفعل المضارع يوحي بالتجدد والاستمرار في هذا العمل، حتى لو حصل فيه انقطاع، بخلاف الأمر لو قيل مثلا: (كونوا أمة داعية إلى الخير).

ثالثاً: تحديد المخاطب بهذا الأمر، بقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾، للإشعار بمزية هذه الأمة وشرفها، حيث اختصها الله سبحانه وتعالى واختارها، فكانت الفئة المصطفاة

بهذه الشعيرة العظيمة، وذلك في قوله تعالى: منكم، أي: أنتم أيها المخاطبون، ويُفهم هذا المعنى من دلالة (من) الابتدائية، فكأن منطلق ومبدأ هذه الفئة هو أنتم أيها المؤمنون المخاطبون، وهذا في نظري أولى من القول بالتبعيض، لأن الابتداء هو معنى من الأصل، ولأن عدم لزوم الكل، وفرضية الكفاية ليس بالضرورة أن يفهم من قوله تعالى: منكم، بل يمكن أن تدل عليه كلمة ﴿أُمَّةٌ﴾، أي جماعة تُؤَمُّ وتُقصد، فليس هذا الأمر مطلوب من الجميع، على درجةٍ واحدةٍ، وفي وقتٍ واحدٍ -وإن كان توجيه الخطاب من المذكور هو لكل الأمة- ثم أسندت الدعوة إلى البعض، أي: إلى الأمة المختارة، وهذا فيه إشعارٌ بضرورة اهتمام المؤمنين جميعاً بهذه الشعيرة، وعدم التخلي عنها بحجة قيام جهات معينة بها، لأن التوجيه في أصله كان بالعموم، ثم خُصَّت الأمة المختارة على سبيل التكريم، أو على سبيل التحديد، كما يتضح من هذا -زيادة على ما ذكر- عِظَم شأن هذه الفئة المختارة لهذه المهمة المحتسبة لها، وعِظَم فضلها علينا أجمعين، إذ بسببها يمكن أن يُرفع الإثم عنَّا، إذاً وجب على الجميع مساندتهم والوقوف معهم، لا مضايقتهم وإضعاف شأنهم.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾، في ظني أن التعبير بـ ﴿أُمَّةٌ﴾ هنا، له دلالته الخاصة، فما كان القول (وليكن منكم فريق، أو جماعة، أو فئة، أو غير ذلك)، لأن الأمة تدل على الكثرة من جهة، والتنوع من جهة، وعلى كون أفرادها تُؤَمُّ وتقصد من جهةٍ ثانية، وهذه المعاني المستقاة من جملة أقوال المفسرين وأهل اللغة، تشير إلى أن هناك مواصفات معينة في الذين يتولَّون هذه المهمة، ويكونون معنيين بها عنايةً مباشرة، ومن ذلك مثلا: الكثرة، فلا يصلح أن يُكتفى في هذا المرفق العظيم بالعدد القليل، بل لا بد من العناية بهذا المرفق ليكون فيه العدد كافياً لإقامة هذه الشعيرة العظيمة، من كل الوجوه، سواء من الناحية العددية أم التأهيلية، أم الإدارية، أم الفنية، أم المادية.

وأما معنى التنوع فلعله يوحي بضرورة مشاركة الكل، ومن كل الأطياف والجهات في إقامة هذه الشعيرة، كما أنه قد يشير إلى التنوع في نوعية العاملين، فقد يكون بعضهم مباشراً لهذا العمل، وبعضهم مسانداً له، وبعضهم داعماً له، وهكذا، وهذا يعني ضرورة العناية بإيجاد الكوادر اللازمة لإقامة هذه الشعيرة من الفنيين والإداريين والمتخصصين، وهكذا.

وأما المعنى الثالث وهو كونها فئة تُؤَمُّ وتقصد، فقد يشير هذا إلى كونهم علماء، أو من طلبة علم، أو من العارفين بما يعملون، وهم الذين يحتاج الناس إليهم، ويقصدونهم، أو لكونهم من ذوي المكانة والجاه، أو هم ممن له يدٌ على الناس بمساعدتهم لهم وإحسانهم إليهم، والله أعلم في ذلك.

خامساً: كل ما سبق يوحي بضرورة إيجاد هذا المرفق الحيوي في الدولة المسلمة، وقد جاء في هذه الآية، تحديد المهمات التي يقوم بها هذا المرفق الحيوي، والخطوات التي يتبعها في تنفيذ هذه المهمات الموكلة به، كل ذلك جاء في إيجازٍ معجز في قوله تعالى: ﴿ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾، فلو تأملنا المهمات والوظائف المناطة بهذا المرفق، لوجدناها في هذه الآية بالطريقة الآتية، والترتيب الآتي: الدعوة إلى الخير، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد جاءت هذه المهمات بهذا الترتيب لتمثِّل أيضاً الخطوات التي ينبغي اتباعها للقائمين بهذه الشعيرة، وقد جاءت الأفعال كلها بهذه المهمات بصيغة المضارع، وجاءت أيضاً معدَّاة بحروف معينة، فقال سبحانه تعالى: يدعون إلى، يأمرون بـ: ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ﴾، مما يوحي بالتجدد والحركة، وأما تغير حروف الجر التي عدِّيت بها، وهي (إلى) و(الباء) و(عن)، فإن ذلك يدل على أن لكلٍّ منها مناسبة معينة، ودلالة خاصة، سيأتي بيانها -إن شاء الله- فيما سيأتي من تعليل وتحليل لهذه الآية العظيمة.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وستة وثمانون

﴿ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وبعد:

سيكون حديثنا مستمراً عن قول الحق تبارك وتعالى فيما يخص المحتسبين ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٠٤]، وكنا قد توقفنا في اللقاء الماضي عند المهمات والوظائف المناطة بهذا المرفق الحيوي، وهي الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد توقفنا عند خامساً في لقائنا الماضي.

والآن نستأنف هذه الوقفات، ووقفتنا هذه ستكون مع سادساً.

سادساً: وهي عند قوله تعالى: يدعون إلى الخير، نجد إذا تأملنا هذه الصفة الأولى ﴿ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾ لهذه الفئة المشرَّفة بهذه الشعيرة نجدهم يدعون إلى الخير، وهي التي أيضاً تمثل الخطوة الأولى في المهمات المناطة بهذه الفئة المختارة، وهذه الخطوة -وهي الدعوة إلى الخير- لو تأملناها لوجدنا أنها ترسِّخ هذا العمل الجليل، وهو الاحتساب لماذا؟

لأن الدعوة إلى الخير أمرٌ مقبولٌ عند الناس، بل هو محبَّبٌ إلى النفس، بل الكل يميل إلى المشاركة فيه، وقد قيل: إن حب المشاركة في الخير من غريزة البشر، لذا تجد الصبيَّ إذا رأى شيئاً يعجبه نادى من حوله ليراه معه، وفي تقديم هذه المهمة ﴿ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾ على غيرها ملمحٌ لطيفٌ يتعلق بنوعية الأسلوب الذي ينبغي اتباعه في التعامل مع الناس، لكسب قلوبهم، ألا وهو الإحسان إليهم بدعوتهم إلى الخير، ولا يخفى أن كلمة الخير لفظةٌ جميلة،

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

مأنوسةٌ عند كل الناس، توحي بالنفع والإحسان، والإنسان بطبعه ميَّالٌ إلى حبِّ من أحسن إليه، وتعدية الفعل بـ ﴿ إِلَى ﴾ الدالة على انتهاء الغاية دون اللام، بأن يقال مثلاً: يدعون للخير، للإشعار بأن مراد هذه الفئة الطيبة المحسنة هو الأخذ بأيدي الناس المحتاجين لذلك الخير، لإيصالهم إليه، فهم لا يكتفون بالدعوة لمجرد الخير، وإلا لقيل: يدعون للخير، بل همهم الوصول بالناس إليه، كما تشعر بذلك ﴿ إِلَى ﴾ الدالة على انتهاء الغاية، وهذا أوضح في دلالة النفع والإحسان، وهو معنىً لطيف يحسن بأهل الاحتساب الانتباه إليه.

سابعاً: في قوله تعالى: ﴿ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ بيانٌ للمهمة الثانية، وهي تمثل أيضاً الخطوة الثانية، وإنما ذكرتْ هنا بعد الدعوة إلى الخير لأنه لما كان الأمر (تأمرون) فيه ثقل الإلزام، سُبق بما يخففه، ويجعله مقبولاً، وهو بلسم الإحسان ﴿ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾، وهذا يدل على أن الذي ينبغي أن يعرف عن القائمين بهذه الشعيرة ليس هو الإلزام، والأمر، والمنع، والنهي فحسب، بل هم قبل ذلك يجب أن يُعرَفوا بالكلمة اللينة والنفع العام للناس.

ولذلك أرى في اجتماع هذه المهمات وبهذا الترتيب ما يوحي بضرورة اجتماع الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في جهازٍ واحد، لا كما هو موجود الآن؛ لأن نظرة الناس الآن للدعاة ليست كنظرتهم للمحتسبين، فالدعاة لو تأملنا نجدهم مقبولين محبوبين عند الناس، يجتمع لهم الناس، ويأنسون بهم، ويتقبلون أمرهم ونهيهم، والقائمين بهذه الشعيرة في الغالب يكثر ذمُّهم، وتنفر منهم النفوس، أو تحاك حولهم الشائعات والأكاذيب، وقد يكون هذا أمراً طبعياً؛ لأن النفوس ميالةٌ إلى كره من يلزمها أو يمنعها، وحبِّ من ينفعها ويحسن إليها، لكن يحسن ألا نهمل هذا الملمح وأن نتنبَّه إليه.

والذي أريد الوصول إليه هو ضرورة التفكير في الإفادة من هذا القبول للدعاة لتخفيف هذا الكره والنفرة الموجودة، خاصة مع هذا الترتيب الإلهي لمهمات هذه الفئة الخيِّرة، رفع الله قدرها، ولعل هذا يظهر بوضوح إذا اجتمعت الدعوة والاحتساب في شخصية رجلٍ واحد، معروف بعلمه، وصلاحه، وحبِّه لنفع الناس، ودعوته إليهم، فإن الاستجابة لذلك الإنسان ستكون عظيمةً جداً، بخلاف ما يحصل مع الفصل الذي نراه الآن من الدعوة والاحتساب.

وأرى أن تقدُّم الدعوة إلى الخير، على الأمر بالمعروف، يشعر بأن لغة الأمر يجب أن تكون مقبولةً لينة؛ لتتناسب مع السياق المبني على كسب القلوب، لا تنفيرها، وتعدية الفعل ﴿ يَأْمُرُونَ ﴾ بحرف الجر الباء، الدال على الإلصاق والمصاحبة في أصل معناه يأمرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، يشعر بأن الذي ينبغي أن يصاحب أمرهم هو المعروف، وهذا يتطلب المحافظة على نقاوة هذا المعروف وصفائه من أي شائبة، حتى لا يتحول الأمر إلى غير المعروف، ولفظ (المعروف) زيادة على معناه المفهوم من لفظه يشير إلى ما يعرفه الناس، كما أن المنكر يشير إلى ما أنكره الناس، وما لم يعرفوه.

وعلى هذا لو تأملنا أخطاء الناس، سواء أكان هذا في ترك الخير أم كان في فعل الشر؛ لوجدنا أنه لا يخرج عن إحدى حالتين: إما أن يكون صاحبه جاهلاً بهذا الخير، أو ذلك الشر، وهنا تأتي خطوة يدعون إلى الخير، فإذا عرف الناس ذلك، ولم يفعلوه، أو ارتكبوا المنكر، جاء أمرهم بما يعرفون، أو نهيهم عما ينكرون.

وهذا يشير بدوره إلى أن المعروف في أصل المجتمع المسلم هو الأمر السائد، وأن الخروج عليه يعتبر أمراً منكراً أي: غير مألوف، وإذا كانت الحالة بهذه المثابة، سَهُل على القائمين على هذه الشعيرة إقامة هذه الشعيرة، لأن الكل يساندهم في ذلك،

أما إذا اختلف الأمر فأصبح المعروف منكراً، والعكس، فأرى أن دلالة الآية تشير إلى ضرورة التعليم والدعوة إلى الخير، وهي الخطوة الأولى، حتى يظهر عرف المعروف، ونكران المنكر، ثم تليها خطوة الأمر والنهي، هذا في الجملة، وخروج بعض الحالات المقتضية لغير ذلك لا ينقض عموم القاعدة.

ثامناً: قوله تعالى: وينهون عن المنكر، هذه هي المهمة الثالثة، وهي تمثل الخطوة الثالثة، وتلاحظ هنا -أيها الأخ الكريم- كيف تأخر النهي عن المنكر؛ لأنه أشق على النفس وقد سبقته خطوتان مهمتان تسهِّلان قَبوله، وربما لا يبقى في المجتمع أو في الجهة المطلوب الاحتساب عليها شيء من ذلك بعد الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، وإن بقي كان النهي عنه مقبولاً ومسوغاً، بل قد يكون ضرورياً، وما يشعر بضرورة إزالة المنكر في هذه المرحلة: تعدية الفعل بحرف الجر ﴿ عَنِ ﴾، لأنه يدل على المجاوزة، فالمطلوب بعد هاتين الخطوتين السابقتين، هو الاستمرار في النهي، أي: نهي المصرِّين على المنكر، حتى يتركوه ويتجاوزوه.

تاسعاً: يقول الله عزَّ وجلَّ في ختام هذه الآية في الثناء على القائمين بهذه الشعيرة:

وَأُوْلَئك هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وفي التعقيب بهذه الجملة إشادة عظيمة بهذه الفئة المختارة، وذلك من وجوه عدة، وهي:

أولاً: مجيء (الواو) في أول الجملة على سبيل الاتصال، فلم تفصل الجملة فيقال: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ للدلالة على أن صفة الفلاح التي يسعون إليها، هي جزاء لذلك العمل الجديد.

ثانياً: الإشارة إليهم بالبعيد ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ مما يدل على علوِّ مرتبتهم، ورفعة منزلتهم، حتى لكأنهم في مرتفعٍ عالٍ يشار إليهم ويقال: أولئك، ولو كانوا قريبين، لقيل: هؤلاء، فنُزِّل علوُّهم المعنوي منزلةَ علوِّهم المادي، لذلك أشير إليهم بالبعيد، هذا إضافة لما في الإشارة من تحديد المشار إليه أدق تحديد، وفي هذا تميزٌ لهم، فجمعت هذه الآية بين الإشادة بهم، ورفع مكانتهم، وبين تمييزهم عن غيرهم، فلله درهم ما أعظم شأنهم.

ثالثاً: وجود ضمير الفصل ﴿ هُمُ ﴾ الدال على الخصر والقصر، إذ المعنى العام للجملة يفهم دون ذكره، (أولئك المفلحون)، وله نظائر في القرآن، كما في قوله تعالى: أولئك المقربون، لكن لما أريد تخصيصهم بهذا الفصل، وحصر هذه الصفة العظيمة عليهم، وهي: الفلاح، قيل: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، فكأنهم بهذا هم الكاملون الوحيدون في هذه الصفة، وكأنَّ فلاح غيرهم لا يعتدُّ به مع فلاحهم.

رابعاً: ذكر الفلاح أو صفة الفلاح ﴿ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، وتعريفها باللام، فلم يكن مثلاً: أولئك هم أهل الفلاح، فيكون التعريف بالإضافة، في ذلك من الإشادة بشأنهم وعِظَم منزلتهم، وما يجب عليهم من العمل ما لا يخفى، وذلك لأن الذي أوصلهم إلى هذه الصفة العظيمة؛ -وهي الفلاح الذي يعني: الفوز والنجاح- هو قيامهم بهذا العمل الجليل، وتعريف المفلحين بـ(اللام) للإشعار بما يعرفه كل أحد عن حقيقة الفلاح وأهله، ففلاحهم لن يخفى لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وسبعة وثمانون

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

سنقف بمشيئة الله تعالى مع آية الخيرية، لأهل الاحتساب من هذه الأمة، قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عِمْرَان: ١١٠]، سنقف مع جزء من هذه الآية لبيان ما فيها ما الدلالات.

أولاً: نلحظ في هذه الآية الكريمة كيف بُدِئَت بفعل الكون ﴿ كُنتُمْ ﴾، وقد جاء هنا بصيغة الماضي، ومادة الكون تدل على التمكن والعراقة في الشيء، والماضي يدل على قدم اتصافهم بما يذكر، مما يدل على جدارتهم وعلوِّ قدرهم فيه، وقيل إذاً: إن المراد هم أصحاب النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصة؛ لذا خاطبهم الله عزَّ وجلَّ وقال: كنتم، وما قال الله سبحانه وتعالى: أنتم خير أمة.

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو شاء الله عزَّ وجلَّ لقال: أنتم، فكنا كلنا، ولكن قال: كنتم، في خاصة أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن صنع مثل صنيعهم كانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ولعل الأرجح أنهم هذه الأمة بعمومها، وأنهم خير الأمم، ولكن إذا كان ذلك كذلك، فما سرُّ مجيء الفعل الماضي كنتم؟ خصوصا أن الماضي هنا قد يومئ ويُشعر أنهم كانوا خياراً ثم تغيروا بعد ذلك، فقد يشعر هذا بالذنب؟

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

جواب ذلك: أن فعل الكون هنا يدل على العراقة والتمكن، لا على التحول، فتكون (كان) تامة، بمعنى: وجد وخُلِقَ، أي وُجدتم خير أمة، أو خُلقتم خير أمة، وقيل: بل (كان) على بابها، والمراد كنتم، أي: في اللوح المحفوظ، والقولان الأولان أشبه بالمعنى.

ثانياً: ذكر ضمير المخاطبة ﴿ كُنتُمْ ﴾ للإشعار بتكريم المخاطبين، وذكر الخيرية خبر، وجعلها خبراً لكان، للدلالة على (الخيرية) هي الأمر الذي تمكَّن فيهم وهم عالقون فيه، والخير ضد الشر، فبقدر ما يكون الشر مذموماً يكون الخير محموداً، فبالتالي كان عمل هذه الفئة هو الخير الموصول إلى الخير، وهذه الأمة هي خير الأمم وإن كانت آخرها، لذلك قال النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(أنتم توفون سبعين أمة أنتم آخرها وأكرمها على الله)**[1].

وقال الحسن: نحن آخرها وأكرمها عند الله، وقد يطرأ سؤال هنا:

كيف تقيد خيرية هذه الأمة أولها وآخرها، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما من فروض الكفاية التي لا يقوم بها كل الناس؟

إجابة على ذلك يقال:

إن في ذلك إلماحاً إلى قيام الكل بهذه الشعيرة، كل بحسب طاقته، حتى يحصل على الخيرية العظيمة، والعجب والله من الذين يتركون هذه الشعيرة وأحياناً يحاربونها، أين هم من طلب هذه الخيرية العظيمة؟! إن كل واحد منا يجب أن يبحث عن هذه الخيرية في بيته، وفي حارته، وفي شارعه، ولن يعدم أي إنسان سبيلاً للقيام بذلك، ولو على سبيل التطوع وطلب الأجر من الله سبحانه وتعالى بحثاً عن هذه الخيرية، وإسهاماً في إيجادها في هذه الأمة.

(١) المعجم الكبير: ١٩/ ٤٢٦.

وهذا يدل أيضاً على أن قيام طوائف من المؤمنين بذلك موجب للخيرية لجميع الأمة، وهذا -والله- فضلٌ كبير من الله عز وجل، وأيضاً هو فضل كبير من هؤلاء على الأمة جمعاء، ولا بد أن يشاد به، وأن يشكر فضلهم في هذا المجال.

وهذا يدل أيضاً من جانبٍ آخر على أن هذه الشعيرة لن تنقطع ولن تزول؛ لأن الخيرية في هذه الأمة ثابتة على لسان نبيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والخيرية -كما رأينا- مرتبطة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فعلمنا من ذلك أن هذه الشعيرة لن تزول لوجود هذه الأمة.

ثالثاً: بناء الفعل ﴿ أُخْرِجَتْ ﴾ بصيغة (أفعل)، دون (فعل) خرجت، لبيان أنها لم تخرج بنفسها، بل الذي أخرجها هو الله سبحانه وتعالى، وإنما بني الفعل للمجهول ﴿ أُخْرِجَتْ ﴾ للفت النظر للفعل وهو الإخراج، لأن المخرج لها هو الله سبحانه وتعالى، وفي حذف الفاعل إظهار أن الفعل لا يكون إلا منه، وهذه منةٌ أخرى على هذه الأمة، والتعبير بمادة الإخراج هنا فيه إشادةٌ وعنايةٌ بهذه الأمة المطبِّقة لهذه الشعيرة، ففي الإخراج إبرازٌ لها وإظهار، وفي هذا تكريمٌ لها، وعنايةٌ بشأنها بين الأمم.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ في تعدية الفعل (باللام) دون (إلى) للإشعار بالخصوصية والقصد، لا مجرد الوصول والانتهاء، والتعميم في كلمة (الناس) لبيان أن كل البشرية بحاجة إلى هذه الشعيرة لتنعم بالسعادة، لذلك قيل في معناها: هم خير الناس للناس، قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كنتم خير الناس للناس، تأتون بهم في الأصفاد والسلاسل، حتى تدخلوهم الجنة)[1].

وفي التعميم في قوله تعالى: ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ زيادة على ما ذكرنا إشادة كبيرة بهذه الفئة، فلئن كان غيركم قد أُخرج لأي أحد، فأنتم بالذات خير من أُخرج للناس على الإطلاق، وهذه إشادة كبيرة، يحق لهذه الأمة أن تفخر بها.

(١) البخاري: ١٥/ ٧٤.

وبعد هذه المقدمة المشعرة بالتكريم، والمشوقة لمعرفة صفات أهل الخيرية، جاء التفصيل في قوله تعالى: ﴿ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾، وهو ما نذكره في (خامساً).

خامساً: نلحظ هنا في قوله تعالى: تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوف أن الفعل جاء بالمضارع، مع أن ما سبقه كان بالماضي كنتم، وذلك لأن هذه الشعيرة لا تعرف التوقف، بل هي دائمة متجددة، وهذا ما يدل عليه المضارع، لأن صيغة الاستقبال الموجودة فيه تدل على الاستمرار التجدُّدي في هذه الشعيرة، وهذا الاستمرار هو المطلوب في هذه الشعيرة وهو شرط الخيرية، وهذا الاستمرار التجددي هو شرط الخيرية في هذه الشعيرة، والبدء بالأمر بالمعروف قبل الإيمان بالله عزَّ وجلَّ له أسرار، والبدء بالأمر بالمعروف قبل النهي عن المنكر، لما في الأمر بالمعروف من القبول أكثر من النهي عن المنكر، لأن الأمر بالمعروف قد يصادف عند الناس أموراً يحبونها فيستجيبون له، أما النهي فإن فيه منعاً للناس عن ملاذهم وما يشتهون، وهذا أصعب على النفس بالتجربة.

سادساً: في قوله تعالى: ﴿ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ نجد أن الأوصاف الموجودة هنا ثلاثة: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، والبدء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل الإيمان لعل سره يعود أن غيرهم شَرَكهم في الإيمان بالله، والمطلوب هنا هو الوصف المميز لهم، وهو في هذا السياق هذه الشعيرة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، فالمقام هنا يقتضي تقديم ما به يتميزون، لأنه مسوقٌ للتَّنويه بفضيلة هذه الشعيرة، فذِكْر الإيمان دليلٌ على أن هذه الشعيرة المحمودة، لو حصلت من غير المؤمنين لم تكن سبباً لخيريتهم.

ولعل ما ذكرناه يكون كافياً في بيان منزلة هذه الشعيرة العظيمة.

أسأل الله عزَّ وجلَّ أن نكون من أهلها، والداعمين للقائمين بها، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه. وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وثمانية وثمانون
الضمان الإلهي من العذاب[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذه بشارة نسوقها من خلال هذه الآية العظيمة: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

ما أعجب نظم هذه الآية، وما أعظم ما تحمل من البشارة للمؤمنين المتقين، إنهما ضمانان من الله من عذاب الله المضمون هو أشد ما يخافه المؤمنون، وهو عذاب الله ونقمته، والضامن هو أعظم من يرجوه المؤمنون وهو الله جلت قدرته.

أيها المؤمن بربه، تعال معنا الآن في سياحة تأملية تفكيرية في ظلال هذه الآية لنكشف عن شيء من مدلولاتها، التي تدور حول الضمان المذكور سابقاً.

وقبل أن نتعمَّق في دقائق هذه الآية لا بد أن ندرك أن إقرار العذاب بعد هذه الآية في قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤] أن الضمان الوارد هو في حق من هذه صفته: الولاية والتقوى.

أما المشركون فليس لهم إلا الضمان الأول المرتبط بوجود النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أي: وما كان الله يعذبهم وأنت فيهم، وهو معذبهم إذا أنت فارقتهم.

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

ويمكننا تلمُّس تلك الدلالات من خلال هذه الوقفات:

أولاً: تأمل -رعاك الله- طريقة النفي ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ ﴾ في الموضعين، دون أن يقال مثلاً: ولن يعذبهم الله، وذلك لما في نفي ﴿ كَانَ ﴾ من الدلالة على عراقة النفي، وتأصُّله وتأكده فكأنه قيل: ما كان ليعذبهم في الماضي ولن يعذبهم فيما بقي أو ما يستقبل، وإذا أدركنا أن الآية مدارها على الضمان المراد منه طمأنة المؤمنين، عرفنا سر مجيء النفي بهذه الطريقة المشعرة بزيادة الأمان لأهل الإيمان.

ثانياً: ذكر لفظ الجلالة دون أسمائه الأخرى، وذلك لما في هذا الاسم الجليل من بث الشعور بقوة الضمان لما في لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ من المهابة والفخامة، وكثيراً ما ذُكر هذا الاسم الجليل في مواطن القوة والقدرة، ويدل على ذلك تكرر لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ مع الضمان الثاني، ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾.

ثالثاً: مجيء (لام) الجحود الدال ذكرها على أن الفعل المنفي لا يصدر عادة من اسمها وهو هنا لفظ الجلالة، إمعاناً في نفي ذلك الفعل وهو هنا العذاب، فكأنه بذلك (جُحد) هذا الفعل عن ذلك الفاعل مبالغة في التنزه عنه؛ لذلك سميت بلام الجحود.

رابعاً: كون المنفي عنهم هو عذاب الله، وهو أخوف ما يخاف المؤمن، فنفيه عنه هو من غاية سعادته وأُنسه...

خامساً: مجيء العذاب المنفي بالفعل المضارع (يعذبهم)، وذلك لما في الضمان الأول من دلالة الانقطاع؛ لأنه مؤقت بكون النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيهم، فناسب انقطاع هذا الضمان أن يكون الفعل المعبر به عنه مضارعاً.

سادساً: مجيء المصروف عنهم العذاب بالضمير المتصل ﴿ هُمْ ﴾ في المواضع كلها (ليعذبهم - فيهم - وهم) دون الظاهر بأن يقال: وما كان الله ليعذب المؤمنين وأنت فيهم، قد يكون فوق أنه هو الأصل في مثل هذه الحال لطيفة جميلة وهي: صون ذكرهم بعنوان الإيمان أو التقوى مع العذاب، فذلك أعظم في تكريمهم والإشادة بمكانتهم حتى إنهم لم يُذكروا مع العذاب بالصريح بل بالكناية، وهو الضمير الغائب، ليكون أبعد عن ربطهم بالعذاب.

سابعاً: تعريف النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بضمير المخاطب ﴿ أَنتَ ﴾ دون الاسم الظاهر بأن يقال: (والرسول فيهم، أو النَّبيِّ فيهم)، ودون الغائب (وهو فيهم)، لما في المخاطبة من التكريم؛ لأن السياق للثناء، بل هو من أعظم الثناء، كما أن في (ضمير المخاطب) من دلالة القرب ما لا يخفى، وفي ضمير الغائب من البعد ما لا يخفى.

ثامناً: مجيء الجار هنا (في) دون (مع) مثلاً المشعرة باختلاطه بهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما في (في) من دلالة الظرفية المشعرة بقوة إحاطتهم به، فكأنهم أصبحوا كالظرف الذي يحيط به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا أكثر تصويراً لارتباطه، والتفافهم حوله، واتباعهم له.

ولو قيل: (وأنت معهم) لربما أشعر ذلك بأن معيتهم مؤقتة، فقد يكون معهم زمناً ويتركهم آخر، ثم إن المعية لا تتحقق معهم كلهم، أما الظرفية فإنها مشعرة بوجوده الدائم فيهم وتأثيره البليغ، وارتباطهم الشديد، وإن لم يبلغه جمعهم كله.

تاسعاً: مع مجيء الجملة الحالية ﴿ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ لتكون قيداً للنفي، فالنفي مرتبط بوجود هذه الحال، وهذا والله هو التكريم، فلأجل وجوده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتفضل المولى سبحانه وتعالى بصرف العذاب عنهم، وهذا الضمان يشمل حتى الكفار إمعاناً في تقدير شخص النَّبيِّ الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه (ولأجل عين ألف عين تكرم).

عاشراً: إظهار لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ في مقام الإضمار لأنه تقدم ذكره، فالمقتضى أن يقال: وما كان معذبهم وهم يستغفرون، ولكن في إظهار الاسم الجليل تأكيد للضمان المذكور، وتربية للمهابة المفضية إلى طمأنة المؤمنين بالضمان الثاني، وأنه بقدر الضمان الأول، فالضامن واحد، وهو الله جلت قدرته.

الحادي عشر: تكرار النفي ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ ﴾ دون أن يقال: (وما كان ليعذبهم وأنت فيهم وهم يستغفرون) لبيان أن الضمانين مختلفان، وأن كل واحدٍ منهما كافٍ لصرف العذاب عنهم، ولا يشترط وجودهما مع بعضهما، فلله الحمد والمنة.

الثاني عشر: مجيء العذاب لمنفي في الضمان الثاني بالاسم ﴿ مُعَذِّبَهُمْ ﴾ بخلاف الأول بالفعل (يعذبهم) لما في الضمان الثاني من الاستمرار والدوام، وهذا ما يدل عليه الاسم دون الفعل المشعر بالانقطاع والحدوث، فحيثما دام الاستغفار كان الأمان.

الثالث عشر: مجيء الجملة الحالية ﴿ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾؛ لبيان أن نفي العذاب وصرفه عنهم مرهون بهذا القيد ﴿ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾، وفي هذا من شحذ الهمة للاهتمام بشأن الاستغفار ما لا يخفى، وهذه طريقة حبذا أن يتنبَّه لها المربُّون، وهي تقييد صرف ما يرهبه الإنسان وينفر منه بفعل ما تريد تربيته عليه، فهو بهذا يقوم بالمراد وهو يشعر في مقابل ذلك بالعطاء والنفع، فقد ربط نفي العذاب عنهم بالدوام المتجدد على الاستغفار، فتحقق بذلك حبهم للاستغفار، لأنه جلب نفعاً يدفع العذاب عنهم.

الرابع عشر: مجيء الاستغفار بالفعل المضارع دون الاسم (وهم مستغفرون)؛ لأن المناسب لشأن الاستغفار هو إنشاؤه وإحداثه وتجدده مع دوام في أصل الحالة، والاسم يشعر بوجود ذلك إما على وتيرة واحدة، أو مرة واحدة، وكل ذلك لا يتناسب مع شأن الاستغفار الذي أسبابه كثيرة ومتنوعة، وقد تختلف من إنسان لآخر بحسب حاله.

الخامس عشر: جعل الاستغفار هو الضمان المقابل لضمان وجود النَّبيِّ ﷺ وإدامة صرف العذاب بسببه، فيه رفع لمكانة الاستغفار، وتنويهٌ بها، فهل شعرت بهذا أيها المؤمن بربه، وهل شاركت أفراد الأمة في إيجاد هذا الضمان واستمراريته؟

أترك الإجابة لفكرك وتأمُّلك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وتسعة وثمانون

﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

سيكون حديثنا عن آية من آيات الجهاد في سبيل الله، هي قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التَّوْبَة: ٣٨ - ٣٩].

يذكر ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا اختلاف بين العلماء في أن هذه الآية نزلت عتاباً على من تخلَّف عن غزوة تبوك (غزوة العسرة)، إذ تخلف عنها قبائل ورجال من المؤمنين والمنافقين، وذلك بعد ما استنفر النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه إلى تبوك، في رجب سنة تسع من الهجرة، وكشف لهم عن الوجهة التي يريدها على غير عادته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزواته كلها، مما يعدُّ ركيزة من ركائز التخطيط الحربي، فإنما فعل ذلك صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبعد الشُّقة، وعظم المشقَّة، ولذلك سميت هذه الغزوة غزوة العسرة.

وهذه الآيات التي نتحدث عنها تصوِّر جزءاً من هذه المعركة، وخصوصاً ما يتعلق بحال النفسيات عند تلقِّي خبر القرار النبوي بالغزو، في مثل هذه الظروف الصعبة، وقد اجتمع في هذه الغزوة من الشدة وهول الأمر ما لم يجتمع في غيرها، فالأخبار تترامى إلى المدينة بحشود الروم الهائلة التي وصلت إلى أرض البلقاء من أرض الأردن،

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

وأعدادهم تزيد على أربعين ألفاً، والمنافقون يتربَّصون بالمؤمنين، ويتمنَّون قدوم العدو لنصرته، والحرُّ شديد والمسافة بعيدة، كل هذه العوامل أشغلت النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى قرر قراره الحاسم بالمواجهة، رغم كل هذه الظروف الصعبة.

لذا كان هذه لغزوة ميزة عن غيرها، فلم يوضح النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأحدٍ وجهته إلا فيها، حتى يكون الناس على جليَّة من أمرهم، كما أنها كشفت الصادقين من المنافقين، وعالجت بعض أمراض النفوس التي خالطتها من حبِّ الدنيا والراحة، كما أنها زرعت في قلوب المؤمنين طمأنينةً وعزة، وفي قلوب الأعداء خوفاً وذلة، لذا جاء تصوير القرآن لأحداثها مهتماً بأحوال الناس، وكيفية معالجتها على ما سنبينه إن شاء الله من خلال هذا التحليل لأحداث هذه القصة، من خلال الآية المذكورة.

أولاً: قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، هذا نداءٌ بعنوان الإيمان للمؤمنين، فهو سبحانه يذكُرهم بوصفهم المميَّز الذي ينبغي لمن اتصف به ألا يتخاذل عن نصرة هذا الدين العظيم، وبعد هذا النداء المحرِّك لأهم دوافع الإيمان نجد هذا السؤال الإنكاري ﴿ مَا لَكُمْ ﴾، والمعنى: أي شيءٍ ثابت لكم؟ والسؤال فيه من هزٍّ وتحريك المسؤول ما ليس بالخبر العادي، لأن السؤال يحتاج جواباً، وهو يسترعي الانتباه، ويوقظ الغافل، وهذا يدل على عظم الأمر وأهمية المسؤول عنه، حيث احتاج إلى كل هذا التنبيه، فأولاً النداء، وثانياً نعت المنادى بالوصف المميز له؛ وهو الإيمان، وثالثاً سؤالهم بـ ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ الإنكاري.

ثانياً: قوله تعالى: إذا قيل لكم، ﴿ إِذَا ﴾ ظرف أوضح الزمن الذي حصل فيه الإنكار على صنيعهم، وبني الفعل ﴿ قِيلَ ﴾ للمجهول؛ للإشعار بأن الأهمية منصرفة إلى الفعل؛ وهو الدعوة إلى النفير؛ بغض النظر عن القائل، وفي هذا إشارة إلى أن خطورة هذا التخلف أو هذا التثاقل ليس مرتبطاً بشخص النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو وجوده، بل هو حاصل مع كل قائدٍ مسلم يدعو إلى النفير.

كما أن عدم ذكر القائل وهو النَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فيه من التأنيب والإغلاظ والزجر والإشعار بعدم رضاه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن فعل المخاطبين ما لا يخفى، حتى لكأنهم لا يستحقون أن يُذكر اسمه الشريف معهم، وفي قوله تعالى: ﴿ لَكُمۡ ﴾ وتكرارها مرتين في السؤال وفي القول، تنبيه إلى توجيه القول إلى المخاطبين، مما يشعر بضرورة إنصاتهم له، واهتمامهم به.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، ولم يقل سبحانه: جاهدوا أو قاتلوا، بل قال ﴿ ٱنفِرُواْ ﴾: لأن النفر هو الخروج السريع من موضعٍ إلى آخر، لأمرٍ يحدث، كما أنه الانزعاج من شيء إلى شيء، والفزع من شيء وعن شيء، ونلمح من هذا أمرين مهمين، هما الانتقال والسرعة، وهما أمران مطلوبان، وخصوصاً في مثل حال غزوة تبوك، لذا كان المذموم فيها ما كان ضد الانتقال والسرعة؛ وهو التثاقل التراخي.

رابعاً: في قوله تعالى: في سبيل الله، ولم يقل: (إلى سبيل الله) أو (إلى الجهاد)، هذا الأسلوب هو السائد عن هذا الأمر في القرآن، ولا شك أن وراءه سرٌّ، وقوله جلت قدرته ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فيه إبراز لكون هذا النفير في وجهه الصحيح ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، والتعبير بـ ﴿ فِي ﴾ دون (إلى) مثلاً، للإشعار بأن هذا الجهد إنما هو في دائرة سبيل الله، لا يخرج عنه، بل هو مظروف به، لذا لابد أن يكون خالصاً لوجه الله.

ولو قيل: إلى سبيل الله، لأشعر ذلك أن سبيل الله أمرٌ يطلب النفير إليه لا من أجله، بل يطلب النفير إليه حتى يبلغ، وليس هذا هو المراد هنا.

وكلمة ﴿ سَبِيلِ ﴾ تدل على الطريق الذي ينبغي أن يُسلك في مثل هذا الحدث وإضافته إلى الله ﴿ سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ للإشعار بأن هناك سبلاً أخرى يمكن أن يسير في مضمارها هذا الفعل (النفير)، فهناك سبيل النفس، والهوى، والشيطان، والسمعة والحمية، وغير ذلك،

وفي هذا لفتة لخطورة موضوع الجهاد، وضرورة الاهتمام بإخلاص النية فيه، والابتعاد عن حظوظ النفس وشهواتها.

خامساً: قوله تعالى: ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ هذا تصويرٌ بليغ لحال المتراخين عن تلك الغزوة، حيث اختزلت هذه الكلمة حالهم كله في صورة جسدية ونفسية معبرة، وهذه الكلمة هي محل الإنكار؛ أي: ما لكم اثاقلتم، لذا كانت هي بؤرة المعنى، فهذه الكلمة ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ ﴾ صورت بثقلها في النطق الثقل عن الجهاد الناتج عن حب البقاء وكره مشقة السفر، وقد جاءت هذه الكلمة دالةً بتركيب حروفها على تلك المعاني، مصورةً لتلك الحال أدق تصوير، يقول البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (اثاقلتم أي: تثاقلتم تثاقلاً عظيماً، وفيه ما لم يذكروا له سبباً ظاهراً، بما أشار إليه الإدغام، أي في الكلمة، إخلاداً وميلاً إلى الأرض)[1].

إن الأذن لتسمع كلمة ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ ﴾ فيتصور الخيال حينها ذلك الجسم المثاقل، يرفعه الرافعون في جهدٍ، فيسقط من أيديهم في ثقل.

إن في هذه الكلمة ظنّاً على الأقل من الأثقال، ولو أنك قلت: تثاقلتم، لخف الجرس، ولضاع الأثر المنشود، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ المعبر عن هذه القضية.

سادساً: في ذكر حرف الجر ﴿ إِلَى ﴾ في قوله تعالى: إِلَى الْأَرْضِ دون غيرها من حروف الجر؛ لتصوير الميل والإخلاد، فهناك رغبة في الركون، فهو تثاقل يجر صاحبه ولا يتركه حتى يلتصق بالأرض، وحتى يسكن إليها، وفي ذكر الأرض دون أن يقال مثلاً: اثقالتم عن الغزو؛ للإشارة إلى أن الروابط الأرضية هي الجاذبة، بما فيها من حب الحياة والولد والمال والراحة.

(١) نظم الدرر للبقاعي: ٣/ ٤٥٣.

يقول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ كلام موجه بديع: لأن تباطؤهم عن الغزو، وتطلبهم العذر، كان أعظم بواعثه رغبتهم البقاء في حوائطهم وثمارهم، حتى جعل بعض المفسرين معنى ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾: ملتم إلى أرضكم وديياركم)[1].، ولأن الأرض تذكر دائماً في مقابل السماء؛ فالأرض في مثل هذه الحالة تكون رمزاً للسكون والإخلاد والتراخي، والسماء تكون رمزاً للعلوِّ والسمو والتطلُّع، ولا شك أن النفوس الكبيرة الحية يؤثر فيها مثل هذا الخطاب، إذ هي تعشق العزَّ والأنفة، وتتوق إلى العلوِّ والقمَّة، وتنفر من الدنوِّ والسُّفل عادة.

هذا ما تيسر بيانه في هذه الآية الكريمة، بل في هذا المقطع من آية كريمة، أسأل الله أن ينفعنا بما سمعنا، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ٢٨٥.

المجلس المئة وتسعون

﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعن، أما بعد:

وما زال حديثنا عن قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التَّوْبَة: ٣٨].

وكنا قد وصلنا إلى قوله تعالى: ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾، والآن سنتحدث عن ما بقي من هذه الآية العظيمة:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾، هذا استفهامٌ آخر يُقصد منه الإنكار والتوبيخ، مفاده: أن مثل هذا الفعل لا يليق بالمؤمنين الواثقين بوعد الله، الذين يقدِّمون الآخرة دوماً على الدنيا، ولأن ترك التعلُّق في الدنيا، وعدم الرِّضا بزخارفها من أهمِّ ما يميز أهل الإيمان، لذا خوطبوا على صورة استفهامٍ إنكاريٍّ توبيخيٍّ، مما يوحي بضدِّ هذا، فكأنه قيل: فمِثْلُكُم لا يرضى بذلك، ولا يُنتظَر مثلُه منكم، ولا شكَّ أن هذا أسلوبٌ قويٌّ في إثارة الدافع في نفسية الجندي المسلم؛ لأن في ذلك مخاطبةٌ له على مستوى القيم، التي يؤمن بها، ويدافع عنها، وهذا على خلاف ما يسعى إليه المحارِبون من غير المسلمين، لأنهم يسعون للحياة، لهذا يخافون الموت، ويحترزون منه أشدَّ الاحتراز، ولا يجدون حافزاً لجنودهم إلا المال، والمناصب، والشهوات، لذلك تجد المراقص عادةً تتقدم جنودهم ومعسكراتهم.

---

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

وذِكْرُ ﴿ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ هنا بهذا الوصف وهو ﴿ ٱلدُّنْيَا ﴾، هو وصفها الشائع في القرآن، بينما الآخرة تأتي مطلقة؛ للإشعار بتعلق الدونية بوصفها وصفاً سيئاً بالدنيا، أو لكون الدُّون وهو القرب؛ هو سِمَتها البارزة.

والتعبير بالرضا في قوله تعالى: ﴿ أَرَضِيتُم ﴾ يشعر بظهور ما يدل على ذلك منهم، لتشنيع الفعل في نفوسهم، وتهويل أمره عندهم، لكونهم بفعلهم هذا؛ وهو التباطؤ والتثاقل، قد اختاروا الحياة الفانية الدنيا، بل كأنهم رضوا بها، وكل هذا يبعث المؤمنين على النفرة من هذا الفعل، يقول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(واختير فعل (رضيتم) دون نحو آثرتم، أو فضَّلتم: مبالغةً في الإنكار، لأن فعل (رضي بكذا) يدلُّ على انشراح النفس، ومنه قول أبي بكر الصديق في حديث الغار: فشرب حتى رضيت)[1].

ثانياً: بالحياة الدنيا في قوله تعالى: أ ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ ﴾، ﴿ مِنَ ﴾ الداخلة على ﴿ ٱلْأَخِرَةِ ﴾ هنا تشعِر بالبدليَّة، أي: كيف ترضون بالدنيا بديلاً عن الآخرة؟ وبهذا يكون هذا الحرف ﴿ مِنَ ﴾ قد أشعر بأن الرضا المذكور عنهم كأنه انتزع من الآخرة، وصُرِفَ في الدنيا، وذلك أن ﴿ مِنَ ﴾ تدل في أصلها على ابتداء الغاية، وهذا يشير إلى أن منبع الرضا عند المؤمنين إنما هو في الآخرة؛ لا في الدنيا، فكأنه مستقرٌّ فيها، فالآخرة هي غاية ذلك الرضا، فكأن هذا الفعل المذموم التثاقل قد دلَّ على انتزاع الرضا من مبدئه ومستقره؛ وهو الآخرة، ومنحه للدنيا الفانية، وهذا فيه مزيد لومٍ وتقريعٍ.

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ٢٨٥.

ثالثاً: في قوله تعالى: ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾ هنا نفيٌ واقعٌ موقع التعليل للحكم السابق، وما احتوى عليه من اللَّوم والتقريع فكأنه قيل: ما سبق مذموم؛ لأنه من متاع الدنيا، ومتاعها إذا قيس بمتاع الآخرة قليل، والتعبير بكلمة ﴿ مَتَٰعُ ﴾، لأنه من المتعة، وهي اللَّذة، وهذا دليلٌ على أن الحياة فيها متعةٌ ولكنها قليلة.

ووصفه بـ ﴿ قَلِيلٞ ﴾ للتنبيه على رداءته وتفاهته، وقوله تعالى: ﴿ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ دون أن يقال: مع الآخرة، أو مقابل الآخرة، لما في معنى ﴿ فِي ﴾ من الظرفية، قيل: إنها هنا للمقايسة، والمقايسة إنما جاءت من معنى الظرفية في ﴿ فِي ﴾، والمعنى: أن أي متاع في الحياة الدنيا إذا أُقحم في خيرات الآخرة؛ كان قليلاً بالنسبة إلى كثرة خيرات الآخرة، فلزم أنه ما ظهرت قلَّته إلا عندما قيس بخيراتٍ عظيمة ونسب إليها؛ وهي في الآخرة.

والملحوظ أن الآخرة لم يذكر معها المتاع، فلم يقل سبحانه وتعالى: فما متاع الحياة الدنيا في متاع الآخرة؛ وذلك أن الآخرة كلها متاعٌ بالنسبة للمؤمنين، فلا تكليف فيها ولا تعب ولا نصب، وكفى بذلك حافزاً لكل مؤمن، وللمخاطبين الذين التهَوا عن النَّفير ببعض مُتَعِ الأرض.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمَا ﴾ [التَّوْبَة: ٣٩]، هذا وعيدٌ وتهديدٌ وتخويف، جاء عقِب اللَّوم والعتاب، ذلك أن اللوم ورد لأجل التثاقل، فلما أفضى هذا التثاقل إلى التخلُّف عن القتال، جاء التهديد والوعيد الصريح، وقد يكون هذا الأخير خاصاً بالمنافقين، وما تقدم خاصاً بالمؤمنين، والكلام في الآية يحتمل أن يكون وعيداً لمن فعل هذا الفعل بالعذاب الأليم، أي: في الآخرة.

ويحتمل أن يكون المقصود: أن عدم النفير يُسهِّل مهاجمة العدو لهم في ديارهم، فيصيبهم بذلك العذاب الدنيوي، وقد يأتي أقوامٌ فيأخذون أرضهم وأموالهم، فيكون هذا الحفز لأجل الاهتمام بطاعة القائد فيها أمرٌ من النفير، وعلى كلا المعنيين نجد سرعة ترتُّب العذاب -أياً كان- على عدم النفير في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وهذا يدل على أن النفير إذا لزم شرعاً، ثم حصل التقاعس عنه؛ ترتب عليه وجود العذاب الدنيوي أو الأخروي، ولا شكَّ أن المواجهة مع العزة؛ خير من الاستسلام مع الذِّلة، وأن الخسارة مع القعود؛ أكثر فداحةً من التضحية مع النَّفير.

وواضحٌ في هذه الآية قوة الحفز للخروج؛ لأن العدوَّ قويٌّ، والمسافة بعيدة، والجوَّ حارٌّ، وهناك عوامل كثيرة تدعو إلى الدعة والراحة والتثاقل، وقد تؤدي إلى القعود، لذا نجد هذه التوجيهات الحافزة، والتهديدات الرادعة ويُعَذِّبْكُم عَذَاباً أَلِيماً، والتوكيد هنا بالمفعول المطلق عَذَاباً، وتقييده بالصفة أليما للتخويف من القعود، فهو ليس مجرد عذاب؛ بل هو مؤلم أيضاً، ولا شك أن استحلال العدو للأرض والمال، هو من أشد الألم على الحرِّ الأبيِّ، كما أن عذاب الله في الآخرة لمن حصل منه ذلك رادعٌ مؤلمٌ.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التَّوْبَة: ٣٩]، دخول (السين) و(التاء) على الفعل لأجل التأكيد في حصول الاستبدال لمن رضي القعود، وترك النفير، والمراد: أن العدو يدخل أرضكم؛ فيكون مكانكم، وأن الله يغضب عليكم، ويأتي بأقوامٍ آخرين ينصرون دينه، ويقفون مع نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومجيء كلمة ﴿قَوْمًا﴾ نكرة لدلالة أن تعيين هؤلاء القوم ليس هو المهم، بل المهم هو وجود الاستبدال، وحلول غيرهم مكانهم، لذا جاءت كلمة غيركم) صريحة في هذا الشأن؛ لتأكيد معنى التغاير؛ مما يربي الخوف عند المخاطبين.

سادساً: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ [التَّوْبَة: ٣٩] أي: ولا تضروا الله عزَّ وجلَّ بقعودكم شيئاً، بل أنتم تضرون أنفسكم، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التَّوْبَة: ٣٩] نجد أن الآية ختمت بهذا المقطع المظهر لقدرة الله تعالى، المدلول عليه بلفظ الجلالة والله؛ لأن إظهاره يدل على مواطن القوة والعظمة؛ لما فيه من تربية المهابة في النفوس، ونجد في هذا النظم الكريم تقديم الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ على كلمة ﴿قَدِيرٌ﴾، مع أن المقتضى (قدير على كل شيء)، لكن في ذكر ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ بعد ذكر لفظ الجلالة تناسب في دلالة العظمة والقدرة، وما يترتب على ذلك من الإحاطة والعلم، فهذا التقديم قد أكَّد دلالة القدرة المراد إظهارها في هذا الموقف؛ حتى يعرف الإنسان قدره مع هذا الخالق العظيم سبحانه وتعالى.

وهكذا يتضح لنا أن هذا الجزء من الوصف القرآني لغزوة تبوك (العُسرة) قد صور حال الناس قبل الغزوة، ونوع المعالجة التي عولج بها الموقف، وقرار الحرب كان حاسماً ولا بد منه، ولو لم تكن الأمور مهيَّأة كما ينبغي، إلا أن تقوية العزائم والنهوض بها، واستثارة مكامن القوة في نفوس الجنود، والصرامة مع المخذِّلين قد يكون - أحياناً - أهم من العتاد المادي.

هذا ما تيسر بيانه في شأن هذه الآية العظيمة، نسأل الله للجميع التوفيق.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وواحد وتسعون
نصر الله[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

سنقف مع قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التَّوْبَة: ٤٠]، هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التَّوْبَة: ٣٩]، وقد يطرأ سؤالٌ هنا، ما علاقة هذه الآية بالآية السابقة؟

إن الآية السابقة تتحدث عن الثُّقل إلى الأرض، والرضا بالحياة الدنيا، والتأخُّر عن الجهاد عند الدعوة إلى النَّفرة إليه، فكأن سؤالا هنا يطرأ بعد قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ مفاده: كيف إذاً يحصل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النصر بلا نصير، ولا جيش؟

فجاء الجواب: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

وسنقف مع هذه الآية وقفات عدة بحسب ما ييسر الله عز وجل:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾، نجد هنا أن النصر نُفِيَ بصيغة الفعل المضارع ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ ﴾، وهو دالٌّ على الحال أو المستقبل، وإنما كان ذلك كذلك لشحذ الهمة لنصره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك الموقف، أو ما يجدُّ في المستقبل من مواقف، وعلى المؤمنين بناءً على ذلك أن ينصروا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل وقت، وفي كل مكان، بكل صور النصر الممكنة، ولو تقاعسوا عن ذلك فنصره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاصلٌ من ربه؛ لذا جاء بالماضي ﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ والماضي بدلالة المضي ودخول قد عليه يدل على مزيد تحقق، كما أن في ذكر لفظ الجلالة الله هنا دون غيره من الأسماء الحسنى ما لا يخفى من تربية المهابة في النفوس، وتقوية حكم النصر المذكور، وقد اختصرت هذه الجملة ﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ كلَّ صور النصر ومستوياته ومراتبه وأنواعه، كما اختصرت الحِكَم في مسيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المقبلة، فهو منصورٌ من خالق الكون، وهذا يعني أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيبلُغُ ما أراد الله له من النصر والتمكين، مهما تنوَّعت العوائق وعظمت.

ومن اللطائف الدالة على جلالة قدره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ربه أن الله سبحانه وتعالى قال في شأنه: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ ﴾ دون ذكر سابق لمرجع الضمير في قوله: ﴿ تَنصُرُوهُ ﴾ مع أنه معلوم أن المقصود به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولعل سرَّ هذا أن المقام يدل على ذلك، فليس غيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريًّا بمثل هذا النصر، وهو وحده عليه الصلاة والسلام الذي يصدق عليه هذا الوصف الدقيق من الإخراج مع قلة العدد والأعوان، لذا كانت الإشارة إليه في هذا الموقف بالذات مغنيةً عن كل ذكر، وكانت هذه الإيماءة أبلغ من كل تصريح، وهي من مزيد مدحه والثناء عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وذِكْر أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالصفة نفسها دون سابق ذكر لاسمه في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ [التَّوْبَة: ٤٠]، والمقصود بذلك أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيه رفعٌ لشأن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتمجيدٌ لمقام صحبته للمصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد عرَّفه الله عزَّ وجلَّ في هذا المقام الشريف بالصحبة لنبيه، وفي جمعه مع نبي الرحمة في الضمير في قوله: ﴿هُمَا﴾ مزيد تشريفٍ لا ينكر.

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ [التَّوْبَة: ٤٠]، نجد أن الظرف ﴿إِذْ﴾ يتعلق بالفعل قبله نصره، والمعنى: نصره الله عزَّ وجلَّ وقت إخراج الذين كفروا له، وهذا يشعر بعظم حفظ الله لأوليائه، ومعيَّته لهم وقت الشدائد والمحن، وإسناد الإخراج للذين كفروا؛ لأنهم هم المتسبِّبون في ذلك، حيث دبَّروا ذلك أكثر من مرة، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأَنفَال: ٣٠]، وهم مع هذا كانوا يخشون من خروجه، لذا دبَّروا مكيدةَ قتله، وقد أخزاهم الله وردَّ كيدهم، ولكن يبقى أنهم هم السبب في خروجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسبب كيدهم له، وتآمرهم عليه سراً وجهراً، ومضايقتهم له في الدعوة، وإيذاء أصحابه وتعذيبهم.

ثالثاً: تعريفهم بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ للإشعار بعراقتهم في الكفر، ولبيان ذمِّهم بهذا الوصف (الكفر)، حيث إنه وصْفُهم الذي به يعرفون، ولإيضاح شناعة جرمهم، إذ كيف يُخرجون من أرضهم نبياً مرسلاً من ربه يدعوهم إلى الخير؟!

وفي التعبير بالإخراج دليلٌ على أن تلك الطُّغمة[1]. الكافرة ضاقت به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبدعوته ذرعاً، وهذا هو شأن أعداء الحق لا يأنسون لصوته، ولا يرتاحون لمن يدعو إليه، والسبيل عندهم والحلُّ لديهم هو القتل، أو الإخراج، أو السجن؛ كما جاء في الأوصاف الثلاثة السابقة.

(١) أي: أوغاد الناس.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ هذا التعبير يراد منه أنه أحد الاثنين، مثل قولهم: ثالث ثلاثة، فلا يعني هذا أنهم أربعة، بل هو واحد من الثلاثة، ومثْل هذا التعبير لا تعتبر فيه الأولية، ولا الأولوية؛ لأن كلاً منهما ثانٍ للآخر، وفي ظني أن التعبير جاء على هذا النظم الكريم للإشعار بقلة العدد، لتظهر نصرة الله سبحانه وتعالى لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في أوضح صورها، إنهما اثنان فقط، فلا عُدَّة، ولا عدد، ولا قوة، ولا مَنَعة، ومع هذا كان النصر لهما؛ لأن الله معهما.

وإذا كان النصر قد حصل له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بهذه المثابة من قلة الناصر؛ فنصره بعد ذلك أظهر وأعظم، وفي هذا بشارةٌ له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ولأمته بالظهور والمنعة، وفي ذلك أيضاً درسٌ للأمة كلها بأن التعويل على القوى المادية، والأرقام العددية، وكثرة الأتباع، أو نوع السلاح؛ ليس من يقينيات المؤمنين بالله، المتوكلين عليه.

خامساً: ﴿ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ ﴾ التنصيص هنا على وقت القول في قوله تعالى: إِذْ هُمَا في الغار، وتحديد مكانه وهو الغار، وبيان أنهما جميعاً فيه في قوله: إذ هما، كل ذلك لتهيئة الجو لهذا القول الواثق من النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾، فرغم أن كل المقومات تدلُّ على الضعف والحاجة، بحكم المقاييس البشرية، فكلمة ﴿ هُمَا ﴾ تدل على القلة، والغار يدل على عدم النصرة، وعدم الملجأ، فهو ليس بيتاً ولا حصناً، ومع هذا كله يقول النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في هذه اللحظة، وفي هذا الخطاب يقول لصاحبه: ﴿ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾.

سادساً: نلحظ في هذا الخطاب الرقيق في قول النَّبيِّ ﷺ لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ما يدل على رحمة هذا النَّبيِّ الكريم برفيق دربه، وهو أبو بكر، وذكر الصحبة لأبي بكر هنا، وتعريفه بها، إبرازٌ لمنزلته ومكانته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبيان لأثره في نصرة هذا الدين في أول عهده، فالتعبير بالمضارع في قوله: يقول، مع أن القول قد سبق ومضى؛ للدلالة على التكرار المستفاد من بعض الروايات، ولاستحضار الصورة كاملة، ليشعر المخاطب والقارئ بما فيها من عظمةٍ وشأن.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة واثنان وتسعون

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

سبق أن تحدثنا عن بعض دلالات قول الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التَّوْبَة: ٤٠].

ووصلنا إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التَّوْبَة: ٤٠]، وهي اللَّفتة السادسة.

أما اللفتة السابعة في هذا المجال فهي ما يمكن أن نجدَه في الظرف الوارد في قوله تعالى: إذ يقول لصاحبه، فإنَّنا لو تأمَّلنا لوجدنا هذا الظرف ﴿إِذْ﴾ قد تكرَّر في هذه الآية في ثلاث مواضع، مبدَلاً بعضها من بعض، وبه تتجلَّى البلاغة، ومن خلاله يظهر تأييد الله عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ أوضح ظهور، فهو سبحانه وتعالى يذكِّرهم بوقت خروجه إذ أخرجه، وما تبعه من الظُّلم والعنت والمشقَّة، وبوقت لجوئه ﷺ مع صاحبه إلى الغار في الجبل إذْ هُمَا فِي الغار، لا يملكان شيئاً من أسباب القوة المادية، وبوقتِ تصبيره لصاحبه إذ يقول لصاحبه، فهو الذي يثبِّت صاحبه لا أنه يتثبَّت به، وقد كان المراد تذكير المخاطبين بهذه الأوقات والأحوال الثلاثة، بدليل تقدير فعل (اذكر) قبل الظرف ﴿إِذْ﴾ بياناً بتعريفهم بغناه عن نفرهم معه، وإظهاراً عن استغنائه عن كل أحدٍ بقدرة الله وعزته ومعيَّته.

---

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

ثامناً: قوله تعالى: ﴿ لَا تَحۡزَنۡ ﴾ ينهى فيه المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صاحبه أبا بكر عن الحزن الذي لمحه في محيَّاه، وعرفه من نبرة كلامه، وجزعه وخوفه على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أن يصيبه مكروهٌ، حتى قال: «**يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه**»، فيصبِّره النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيقين ويقول: «**يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟ لا تحزن إن الله معنا**».

والنهي عن الحزن دون الخوف؛ لأن الحزن هو تألُّم النفس مما وقع، والنهي عنه يستلزم النهي عن الخوف مما يتوقَّع، ويظهر لي أن الحزن في مثل هذه المواقع هو من أخطر المؤثرات على قوة الإنسان وعطائه، لذا نهاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك في مثل هذا الوقت وهذا الموقف، مع أن الموقف لو قيس بالمقاييس المادية لأوجب انهياراً؛ لا حزناً فقط.

تاسعاً: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾، ﴿ إِنَّ ﴾ هنا تفسيرية، أي: لأن الله معنا، وهذه المعيَّة المذكورة هنا هي أعلى من المعية العامة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النَّحل: ١٢٧ - ١٢٨]، والفرق بينهما أن المعيَّة في سورة النحل لجماعة المتقين المجتنبين لما يجب تركه، وللمحسنين لما يجب فعله، فهي معلَّلةٌ بوصفٍ مشتقٍّ هو مقتضى سنة الله في نصرة من هذا شأنه، أما ههنا فالمعيَّة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولصاحبه دون قيدٍ موجبٍ لتلك المعية، مثل ما جاء مع موسى عليه السلام وأخيه هارون ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦].

عاشراً: العجيب هنا أن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى أبا بكر عن الحزن دون الخوف، والله سبحانه وتعالى نهى موسى وأخاه عن الخوف دون الحزن، والسر في ذلك -والله أعلم- أنَّ ما حصل مع النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أمرٌ واقعٌ يعايشه هو وصاحبه، وهذا يوجب الحزن؛

لأن الحزن: تألُّم النفس من أمرٍ سابقٍ أو واقعٍ، لا من أمر متوقَّع، أما ما جاء في شأن موسى عليه السلام مع أخيه من تهديد فرعون وبطشه فهو أمرٌ متوقَّعٌ لا واقعٌ، وهذا يناسبه النهي عن الخوف؛ لأن الخوف: انفعال النفس من أمرٍ متوقَّعٍ.

الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾ [التَّوْبَة: ٤٠]، بالتأمُّل في هذا المقطع يظهر لنا أن الإنسان يحتاج -دائماً- إلى تأييدٍ معنويٍّ ومادِيٍّ حتى يتمَّ له التوازن المطلوب، فكانت السكينة هنا نصراً نفسانياً، والتأييد بالجنود نصراً مادياً، والسكينة هي اطمئنان النفس، والتأييد هو التقوية، وهذا يدل على مدى أهمية الجانب المعنوي في المعركة، وضرورة العناية به للجنود، فإن الجند المحبَطين الخائفين القلقين لا يمكن أن يردعوا عدواً، ولا أن يحافظوا على ما استُحفظوا عليه.

ومع أنه حصل خلاف بين المفسرين في معاد الضمير في قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِ ﴾، أهو للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم لأبي بكر؟ إلا أن الذي يظهر وتؤيده الأحداث أنه للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الآيات كلَّها مساقةً لهذا الغرض، ولا يطعن في حقِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن السكينة نزلت عليه؛ لأن هذا لا يلزم منه بالضرورة أنه خاف أو حزن، فقد عرف الدَّاني والقاصي شجاعته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإقدامه، وإن حصل منه خوفٌ أو حزنٌ فهو بشر، وذلك الحزن والخوف إما كان على أمَّته، وعلى هذا يكون قول النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر هو أثرٌ من آثار تلك السكينة التي أنزلها الله عليه، وتقدير الكلام: فقد نصره الله، فأنزل عليه السكينة، وأيده بجنود لم تروها، حينما أخرجه الذين كفروا، وحين كان في الغار، وحين قال لصاحبه: لا تحزن، فتكون كل هذه الظروف ﴿ إِذْ ﴾ متعلقة بنَصَرَ، وإنما جاء النظم الكريم على هذه الصورة من التقديم والتأخير للمبادأة بالدلالة على أن النَّصر حاصلٌ في أزمان وأحوال ما كان النصر ليحصل فيها عادة، ولكنه حصل له خصوصاً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تأييداً من الله، وهذا أظهر في بيان شرفه ومكانته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي التعبير عن حلول السكينة في قلبه بإنزالها عليه إشارةٌ أن مصدرها من علوٍّ، وأنها من العليِّ القدير الذي أمدَّه، وليست هي من القوى البشرية المادية الأرضية.

الثاني عشر: في قوله تعالى: ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التَّوْبَة: ٤٠]، تنكير كلمة (جنود) للتهويل والتكثير، والوصف في قوله: ﴿ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ إظهارٌ للقوة الخارقة غير المألوفة للمخاطبين، وإيماءٌ لهم بأن هناك من ينصره ومن يؤيِّده إذا تركتم نصره والنفير معه.

الثالث عشر: في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ﴾ [التَّوْبَة: ٤٠] التعبير بالجعل المشعر بالتحوُّل والصيرورة إلى أمرٍ آخرٍ يشير إلى أن شأن المشركين قبل الإسلام كان عالياً قوياً؛ لأنهم أصحاب عدد ورأي، فلما شاقُّوا الله ورسوله انقلب أمرهم، فكانت كلمتهم هي السفلى، سواء كان المراد بها كلمة الشرك، أم شأنهم وحالهم وحكمهم.

الرابع عشر: قوله تعالى: ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾ [التَّوْبَة: ٤٠] لم يذكر مع كلمة ﴿ ٱللَّهِ ﴾ الجعل، لأن العلو هو صفتها، وشأنها الذي لا تتحول عنه، فلم تكن يوماً على حال لتكون الآن على حالٍ آخر، لذا جاءت الكلمة مرفوعة؛ لأن الجملة مستأنفة، تجري مجرى المثل في ثبوتها وصيرورتها، وضمير الفصل ﴿ هِىَ ﴾ للدَّلالة على حصر العلوِّ في هذه الكلمة، دون كلمة (الكافرين).

فثبت بهذا أن العلو محصورٌ في دين الله، وأن المهانة والدُّونية لغيره، وفي هذا استنهاضٌ لهمم المسلمين، فمهما حصل لهم من ضعفٍ فيجب ألا يرضوا بالدونية والحقارة؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال لهم: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٣٩]؛ ولأن هذا الوصف، وهذا التوجيه؛ جاء في أحلك الظروف، وأصعبها، وأقلِّها في العتاد والعدد، فعزَّة المؤمن في دينه، لا في ماله وماديَّاته، ويا له من درسٍ ما أعمقه،

تلقاء المؤمنون وهم يغالبون النفس يوم دعا المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لغزوة العسرة (تبوك)، على بُعدٍ في المشقَّة، وصعوبةٍ في الطريق، وطيبٍ في المقام، إنه درسٌ أظهر الإيمان، وكشف عَوَار المنافقين الذين لا يثقون إلا بالماديَّات، ولا يناقشون إلا من خلالها، ولا يؤمنون إلا بها؛ لأنهم لا يؤمنون برب الكون، ولا يثقون بنصره، بل إنهم كخُشُبٍ مسنَّدة، لا نفع فيها.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وثلاثة وتسعون

﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

حديثنا اليوم بمشيئة الله تعالى سيكون عن آيةٍ عظيمةٍ تحدثت عن قصةٍ عظيمة في القرآن، وهي ما حصل مع يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز في قصة المراودة المشهورة، وسنقف مع آيةٍ واحدةٍ في هذا المجال، وهو قوله تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [يُوسُف: ٢٣].

نبدأ بعدة وقفات مع هذه الآية الكريمة، ومع هذا الحدث:

أولاً: قال الله تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا ﴾ بدأت الآية العظيمة بالفعل الماضي ورودته، وهو مشعرٌ بتحقُّق ذلك الحدث وهو المراودة، أو سبق وقوعه، ويبدو أن امرأة العزيز قد بذلت قصارى جهدها في التحايل لتحقيق مرادها السيئ، لأن المراودة هي الملاطفة والرفق في الطلب، وفي المراودة معنىً آخر وهو المنازعة؛ بأن يكون لكل منهما مقصد مختلف، وهذا مصوِّرٌ للواقع تماماً، فهو عليه السلام يريد العفاف، وهي تريد الفاحشة، وهذه الكلمة بصيغتها ورودته تبين حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف عليه السلام بألوانٍ من أنوثتها لونٍ بعد لونٍ ذاهبةً راجعةً؛ لأن الكلمة مأخوذة من رَوَدان الإبل في مشيتها؛ تذهب وتجيء في رفق، وهذا يصوِّر حيرة هذه المرأة واضطرابها في محاولتها أن تنفذ إلى غايتها.

---

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

ثانياً: جاء تعريف المرأة المعنيَّة بالقول هنا بالموصول، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ﴾ دون العَلَم (زَليخة) أو (زُليخة)، أو دون الإضافة (امرأة العزيز)؛ وذلك لبيان أن هذا الخطاب صادرٌ من سيدته، من صاحبة البيت ومالكته، فهو عندها في بيتها وليس العكس، وهذا يعني إضافةً إلى ما سبق من معنى المراودة: أن الخطاب سيكون لطيفاً رقيقاً، لأنها رغم منزلتها من السيادة التي توجب القوة والسلطة، إلا أنها أصبحت بسبب حبِّها له في منزلة التابع الذليل الذي يطمع في تحقيق طلبه بلطيف القول وجميل العبارة بدليل قولها في مهانة: هيت لك.

كما أن في العدول عن التصريح باسمها المحافظة على السِّتر ما أمكن، واستهجان ذكره في هذا الموضع.

وفي قوله تعالى: وغلّقت الأبواب بيانٌ آخر لجوِّ هذا الخطاب مما يوحي بالأمان والطمأنينة، فهو ليس إغلاقاً بل تغليقاً، فهي قامت به بنفسها بدليل إسناد التغليق إليها؛ إظهاراً للحياطة ونشراً للأمان، وقد قيل: إنَّ (غلَّق) للكثير، و(أغلق) تكون للكثير وللقليل، والصياغة كما نرى تقدِّم الضمان اللازم للموقف ليكون الخطاب هادئاً رقيقاً كما أرادت؛ لأن خطاب الخوف والتوجُّس لا يكون بهذه المثابة، ولم يقل سبحانه وتعالى: أغلقت؛ لما تشعِر به صيغة التشديد من اهتمامها الشديد بأمر التغليق؛ لذا فقد أسرعت في دورةٍ شديدةٍ وهي مهتاجة، تتخيل القفل الواحد أقفالاً عدةً، وتجري من بابٍ إلى باب وتضطرب يدها؛ كأنها تحاول سدَّ الأبواب لا إغلاقها فقط.

ثالثاً: قالت: ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ من خلال هذا البيان الذي أوردناه نعلم الآن الجوَّ الذي صدر فيه هذا الخطاب منها، إنه يتلخَّص في كلمتين هيت لك، وهو أول ما قالته ليوسف عليه السلام، وقد اختصرت بهما المراد، وأوضحت فيهما مقصودها بكل صراحة،

فالموقف وملابساته ومشاهداته يغني عن الخطاب والتفصيل فيه، فكأنَّ المقصود هو لفت النَّظر إلى أن الاعتماد لم يكن على الخطاب، بل هو على الملابسات المحيطة به، لذا جاء موجزاً مصرَّحاً بالمراد في صورةٍ فجَّةٍ تتعارض مع فضيلة العفاف، ورعاية العهد للزوج.

رابعاً: جاء جواب يوسف عليه السلام سريعاً حاملاً كل صور النظافة والعفَّة ورعاية العهد؛ فقال عليه السلام: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾، وكلمة ﴿ مَعَاذَ ﴾ مصدر أضيف إلى اسم الجلالة ﴿ ٱللَّهِ ﴾، ومعناه: أعوذ عوذاً بالله، أي: أعتصم به مما تحاولين، وهذا يدل على شدة الاختبار الذي وقع فيه يوسف عليه السلام، وسرعة ردِّه عليه السلام واستعانته بربِّه؛ منهجٌ يجب على المؤمن اتباعه عند وقوعه في امتحانات الفتن، وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ ﴾ في مجيء (إن) في بداية هذه الجملة تعليلٌ لما أفاده قوله تعالى: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ من الامتناع والاعتصام منها بالله المقتضي أن الله أمر بذلك الاعتصام، وضمير ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ يجوز أن يعود إلى اسم الجلالة ويكون ﴿ رَبِّيٓ ﴾ بمعنى: خالقي، ويجوز أن يعود إلى معلومٍ من المقام، وهو زوجها الذي لا يرضى بأن يمسَّها غيره، فهو معلومٌ بدلالة العرف، ويكون ﴿ رَبِّيٓ ﴾ هنا بمعنى: سيدي ومالكي، وأياً ما كان، فالكلام تعليلٌ لامتناعه وتعريضٌ بها في خيانة عهدها وزوجها.

وذِكر وصف (الرب) على الاحتمالين في قوله تعالى: ﴿ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ ﴾ لما يؤذِن به من وجوب طاعته وشكره على نعمة الإيجاد بالنسبة إلى الله، ونعمة التربية بالنسبة لمولاه العزيز، وهذا -كما نرى- يتنافى في سماء الأخلاق مع الخيانة، والعجيب أن الناس قد يرون أن خيانة مَن أحسن إليهم من البشر عظيمةٌ من العظائم، ويكثر اللُّوَّام فيها، بينما لا نجد مثل ذلك في خيانة العبد لعهد ربه بفعل معاصيه والاعتداء على حدوده.

خامساً: في ختم يوسف عليه السلام لكلامه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تعليلٌ ثانٍ لنفوره عليه السلام من هذه الفعلة الشنيعة، وفي ذِكره لصفة الظلم هنا خصوصاً دون غيرها للإيماء بأن ما حصل من تلك المرأة، وما تطلبه من يوسف عليه السلام هو نوع من الظلم؛ لأنه من وضع الأمر في غير موضعه، وهذا النوع من الظلم لا يُعيره الناس اهتماماً غالباً، ولهذا لا بدَّ من التنبُّه إلى أن الظلم أنواع، منها الشرك، ومنها: مثلما حصل في هذه القصة.

سادساً: بقي أن نشير إلى قضيةٍ مهمة، وهي أن هذه الفعلة الشنيعة التي تنازلت فيها امرأة العزيز عن مكانتها، وسيادتها، وعفَّتها، ووفائها لزوجها؛ قد جاءت بسبب الاختلاط المحرم، ولو أننا تأمَّلنا هذا الأمر في هذه القصة لوجدنا أمراً عجباً، فهذه المرأة كانت كبيرة السنِّ، يعني أنها تقدَّمت في السنِّ، وفات أوانُ وجود الولد بدليل أنها كانت تأمل الولد قبل مجيء يوسف عليه السلام، ولكن لم يحصل لها ذلك، وهذا يعني أنه قد فات أوان وجود الولد بالنسبة لها، ويوسف عليه السلام لما قدم عليها كان صغيراً، بدليل أنه كان يرتع ويلعب، ولا شكَّ أنه بقي عندها، وتربَّى في حجرها حتى شبَّ، فلما اكتمل في شبابه حصل ما حصل، وهي بلا شكٍّ كانت تناديه في هذه السن بلفظ البنوَّة، ومن المحتمل أنه كان يناديها بلفظ الأمومة؛ لأنه تربَّى في حُجْرها، ومع هذا كلِّه لم يقف هذا الأمر أمام قوة الشهوة لديها لما توافرت أسبابها وأهمُّها الخلوة، والجمال، والمال، فهل نعتبر نحن بمثل هذا؟، وندرك سرَّ منع الاختلاط المحرم في ديننا؟

إن هذا الكلام بمجمله الذي ورد في هذه الآية الكريمة لهو عبرةٌ عظيمةٌ فيما يخصُّ العفاف والتقوى، وفيما يخصُّ الاعتصام بالله واللجوء إليه عند المحن، كما فيه بيان لعظم خلق الوفاء عند أصحاب الشهامة والمروءة.

أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يعصمنا من الشهوة وسبلها وأسبابها، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه. وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وأربعة وتسعون
جرأةُ في الباطل[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

وقفتنا ستكون -بإذن الله عزَّ وجلَّ- مع قول الحق تبارك وتعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يُوسُف: ٢٥] هذا القول صادرٌ من امرأة العزيز لزوجها لـمَّا ألفياه لدى الباب، فخافت أن يتهمها بالفجور، هذا هو الجوُّ الذي قيل فيه هذا القول، ولنا معه هذه الوقفات:

أولاً: ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ ﴾ ﴿ مَا ﴾ هنا نافية، أي: ليس جزاؤه إلا السجن، ويجوز أن تكون استفهامية، بمعنى: أي شيء جزاؤه إلا السجن، كما تقول: من في الدار إلا زيد؟ وهل بين كون هذه الأداة ﴿ مَا ﴾ نافية، أو كونها استفهامية من فرق؟

الذي يظهر لي أن النفي يشعر بجزمها بنوع العقاب، فهي تحصره فيما ذكرتْ؛ وكأنها تريد ألا يتجاوز الزوج ذلك، وأما الاستفهام فإنها تريد به تنبيه الزوج على عظم الفاجعة، فتسأله ليكون في صفِّها، وعلى هذا يمكن أن نقول: إن الإعجاز هنا هو مجيء هذه الأداة ﴿ مَا ﴾ دالةً على الأمرين جميعاً، النفي والاستفهام، وتترك هي فهم المراد لزوجها، فكأنها تريد استثارة حفيظته على يوسف عليه السلام بالسؤال، وكذلك تضمن معايشته لها في المشكلة ولكنها لا تترك الجواب له، بل تجزم به وتحدده له تماماً كما يدل على ذلك القصر بـ ﴿ مَا ﴾ و﴿ إِلَّآ ﴾.

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

ثانياً: لعل ما ذكرناه يفسر هذه اللغة الجريئة التي نجدها من هذه المرأة، ولكن هل من سبب لهذه الجرأة، والمبادرة، وعدم التلعثم؟ وهل هذه الجرأة هي جزءٌ آخر من خطاب هذه المرأة ليضاف إلى ما ذكر من صراحتها في قولها: هيت لك؟ وما سيأتي بعد ذلك في السورة ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [يُوسُف: ٣٢].

إننا نتساءل على هذه الصورة لأن المعهود في خطاب النساء هو الحشمة والاختصار والإبهام والرمز، فهل هذا خاص بخطاب المؤمنات؟ أم أن البيئة المترفة لها دورها في ذلك؟ ربما يكون ذلك.

أما عن الجرأة التي بدت عليها امرأة العزيز لحظة المفاجأة، فهذا يدلُّ على اكتمال عقلها، وشدَّة مكرها وتقدُّمها في السن، فقد ابتدرته بالكلام إمعاناً في البهتان بحيث لم تتلعثم، تُخيِّل له أنها على الحق، وأفرغت كلامها في قالبٍ كليٍّ ليأخذ صيغة القانون، وليكون قاعدةً لا يُعرف المقصود منها، فلا يسع المخاطب إلا الإقرار بها أول الأمر، وكانت تريد بذلك ألا يشعر زوجُها بأنها تهوى غير سيِّدها، وفي الوقت ذاته أرادت أن تخيف يوسف عليه السلام من خلال كيدها بألا يمتنع منها مرة أخرى، وقد استطاعت من خلال هذه المعادلة الصعبة المتناقضة أن توجد خطاباً ملائماً للموقف.

والملحوظ في خطابها هذا أنه معتنى به؛ ليحقق الهدف الذي ذكرناه، ليحقق هدفها من جهةٍ في التبرئة لذاتها، ولتخويف يوسف عليه السلام من جهة أخرى، وما كان له أن يكون كذلك (أي: الخطاب) مع قلَّة كلماته واختصارها إلا أنه كان مُعَدَّاً إعداداً جيداً، وهذا يدل على أن جوابها كان حاضراً، إذ كانت تعيش في هذه المحنة أياماً ولياليَ، وكانت تفكِّر فيها وتقلبها على جميع وجوهها واحتمالاتها، فلما وقع الأمر وجدت الجواب الذي أعدَّته، وهكذا تتَّهم، وتحكُم، وتقترح،

ولا تدع لزوجها فرصةً للتفكير فيما ينبغي أن يواجِه به هذا الموقف، فها هو ذا الحلُّ حاضرٌ بين يديه لا يحتاج منه إلى تفكير، بل إلى إقرار فقط، وهنا تتبدَّى المرأة المكتملة فتجد الجواب حاضراً على السؤال الذي يهتف به هذا المنظر المريب، وهو سؤالٌ متوقعٌ في مثل هذا الموقف.

ثالثاً: نلحظ أن الجزاء المقترح منها قد جاء عاماً لم تصرح فيه بيوسف عليه السلام، بل قالت: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾، وهي بهذا قصدت العموم، وأنَّ كل من أراد بأهلك سوءً فحقُّه أن يسجن، أو عذابٌ أليم؛ لأن ذلك أبلغ فيما قصدته من تخويف يوسف عليه السلام، وأبعد عن تهمة العلاقة مع يوسف عليه السلام، وفي هذا الإبهام تهويلٌ لشأن الجزاء المذكور، حيث أخرجته هذه المرأة على شكل قانونٍ مطردٍ في حق كل أحد كائناً من كان، مع يوسف عليه السلام، أو مع غيره، كما أن في هذا التعميم الذي أداته الاسم الموصول العام (من) تركيزاً على الفعل لا على عين الفاعل، فكأنه يلحظ من هذا أنها لا تريد أن يصيب معشوقها مكروه مقصود يؤذيه هو بعينه، لذا أخفت اسمه عند لحظة المواجهة، كما أن في ذلك تخفيفاً من رد يوسف عليها، وهو أمرٌ متوقعٌ؛ إذ لو أشارت إليه، أو نسبت الأمر إليه صراحةً فلربما حصل في ردِّه أمرٌ آخرٌ، وبهذا يتَّضح أن هذا الخطاب قد أدى مطلبه على أبلغ وجه وأتمِّه.

رابعاً: في قولها: ﴿ أَرَادَ ﴾ بالفعل الماضي للتدليل على وقوع ذلك وتحقُّقه، هذا من جهة الصياغة، أما من جهة مدلول اللفظة ففيه إشارةٌ إلى أن الأمر لم يجاوز حدَّ الرغبة والإرادة، أي أنه لم يصل للفعل، وفي هذا تخفيفٌ من حدَّة غضب زوجها.

خامساً: قولها: ﴿ بِأَهْلِكَ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ ﴾ استعطافٌ له بإضافة الأهل إليه، فكان ذكر نفسها بعنوان أهلية العزيز إعظامٌ للخطب، وإغراءٌ له على تحقيق ما تتوخَّاه بحكم الغضب والحميَّة، ونحن نلمح في قولها: ﴿ بِأَهْلِكَ ﴾، بدلاً من قولها: (بي)، أنها أرادت أن تضيف نفسها إلى العزيز؛ فتثير عاطفته نحوها، على حين أنها تُغريه بهذا الذي اعتدى على العزيز في أهله.

سادساً: في اختيار الأهل دون الزوجة، أي لم تقل بزوجك؛ من دلالة الاستقرار والراحة ما لا يخفى، وكل هذا مقصود في الخطاب الذي تريد به نصرة زوجها لها، وأيضاً تريد ترويض خصمها، فهي هنا تعالج مجموعة مشاعر مختلفة، بين استغرابٍ، وسؤالٍ، ورهبةٍ، وعشقٍ وخوف، كل ذلك استطاعت استيعابه بخطابٍ شاملٍ يدل على قدرةٍ فائقة في ذلك.

سابعاً: في قولها: ﴿ سُوٓءًا ﴾ تعميمٌ آخر، إذ لم تحدِّد المقصود، لكنها حكمت عليه بذلك، وهي بهذا التعميم تجعل الحكم لكلامها هي؛ لأنها الأعرف بتفصيل تلك التعميمات التي أحاطت زوجها بها في هذا الخطاب.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وخمسة وتسعون
رد الباطل[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

ما زال حديثنا عن خطاب امرأة العزيز عندما واجهت يوسف عليه السلام، وعندما ألفيا سيِّدها لدى الباب ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يُوسُف: ٢٥]، وقد كانت لنا وقَفات مع ﴿ مَا ﴾ أهي نافيةٌ، أم استفهامية؟ وكانت لنا وقفات مع قوَّة هذا الخطاب وجزالته، وعدم تلعثم هذه المرأة في حديثها في تلك اللحظة المحرجة، وأيضاً تحدثنا عن لفظ الإرادة في قولها: ﴿ أَرَادَ ﴾، ودلالة كلمة (أهل)، ودلالة الإضافة إلى ضميره (أهلِك)، وتنكير كلمة ﴿ سُوٓءًا ﴾ وذكرها، وما يتعلق بذلك من التعميمات الكثيرة في كلامها، وقد وصلنا إلى المُلْمح السابع.

وهنا سنتحدث عن الملمح الثامن: وهو عما يتعلق باقتراح العلاج، وما يتعلق باقتراح التأديب المطلوب فيمن حصل منه هذا الأمر فقالت: ﴿ إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، هذا هو اختيارها، أن يُسجَن مَن حصل منه ذلك، أو يُعذَّب، والملحوظ في هذا الخطاب أنه جاء بعد استثناء، وهذا يعني أنها جعلت كلامها في محيط الاستثناء حتى تقترح ما تشاء، بعدما أشعرت زوجَها بعِظَم الفاجعة، ثم إننا نلحظ هنا أن السِّجن جاء بـ (أنْ) والفعل: ﴿ أَن يُسْجَنَ ﴾ بينما العذاب جاء صريحاً موصوفاً أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، ولم يكن (أن يعذب)، فما سرُّ ذلك يا ترى؟

---

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

جاءت مخالفة التعبير بين ﴿ أَن يُسْجَنَ ﴾ و﴿ عَذَابٌ ﴾ دون أن يقال: (إلا السجن أو عذاب)؛ لأن لفظ السجن يطلق على البيت الذي يوضع فيه المسجون، ويطلق على مصدر (سَجَن)، فقولها: أن يُسجن أوضح في تسلُّط معنى الفعل عليه، فحتى لا يتبادر إلى الذهن الموضعُ إذا قيل: السِّجن؛ ذُكر الفعل مسبوقاً بـ (أن) ليتحقق معنى الفعل، وليُبيِّن أن المراد الفعل ذاته، وما يترتب على هذا الفعل، الذي هو المصدر؛ من تعرضٍ لهذا المسجون لما يكون في السجن؛ لأنه الذي فيه النكاية، وهي أرادت تخويفه، لذا أخرجت الكلام على هذه الصورة من المخالفة، فإنها أرادت أن يتم عليه فعل السجن، لا أن يوضع في السجن فقط، كما أنها وصفت العذاب بالأليم، أي: الموجع؛ إتماماً لترهيبها له عليه السلام، ولإظهارها الحرص على شرفها وشرف زوجها، هذا وجهٌ.

وهناك وجهٌ آخر يرتبط بدلالة الفعل ودلالة الاسم، ففي الاسم ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إشعارٌ بالمواصلة والثبات، وهذا آلم، أي: أشدُّ إيلاماً؛ لذا لم تبدأ به، بينما بدأت أن يُسجن، وهو تعبيرٌ بالفعل يشعر بعدم الاستمرار، والمراد أن يسجن يوماً أو أقل، على سبيل التخفيف، فأما السجن الدائم فلا يعبَّر عنه بهذه العبارة، بل يقال: يجب أن يجعل من المسجونين، ألا ترى إلى فرعون كيف قال حين هدَّد موسى عليه السلام: ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٩]، فعبَّر بالاسم.

ومما يشعِر بحبِّها له أنها لم تعيِّن العقوبة، بل جعلت الأمر خياراً، واستعملت ﴿ أَوْ ﴾ دون (الواو) حتى لا تجمع عليه عقابين، وحتى تبقي مجالاً للاختيار، وهذا الاختيار يحتاج إلى وقت للبتِّ فيه، وقد أرادت ذلك، بينما نجدها بعد انتصارها في معركتها مع النساء تقول: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [يُوسُف: ٣٢] فأنت بـ (الواو)، وهذه لغة أخرى غير معهودة منها من قبل؛ لأنها الآن مشروكةٌ في حبِّ يوسف عليه السلام فتهديدها له هنا حقيقي.

تاسعاً: نلحظ أنها بدأت بالسجن أولاً، ثم ذكرت العذاب ثانياً، وإنما فعلت ذلك إبقاءً على محبوبها، ثم ترقَّت إلى العذاب الأليم، وقولها ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ يدلُّ على عظم موقع السجن من ذوي الأقدار والمروءات؛ حيث قرنته بالعذاب الأليم.

عاشراً: هذا الأمر الذي ذكرناه من التعميم في غير موقع، وهذا الهجوم بالاتهام واقتراح الحلول، وإيهام الأسماع؛ يناسب حال تلك المرأة المذنبة التي تخاف على نفسها من جهةٍ، وعلى معشوقها من جهةٍ أخرى، أما يوسف عليه السلام فقد جاء ردُّه يحمل نمطاً مختلفاً من الخطاب، فقال عليه السلام: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾ [يُوسُف: ٢٦] إنها كلماتٌ قليلة، ولكنها بينت المقصود، ودافع بها عن نفسه عليه السلام، وأجاب بها عليه السلام عن اتهام هذه المرأة، فقال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾ في كلماتٍ قليلة، ولو نظرنا في هذه الكلمات لوجدنا أنه بدأها عليه السلام بالضمير، فعرَّف هذه المرأة بقوله: هي، مع أن المقصود: المرأة الواقفة أمامه، و﴿هِيَ﴾ -كما هو معلوم- ضمير للغائبة المفردة، لكنه هنا عبَّر به عن الحاضر، فما سر ذلك؟

قد يكون سبب هذا الخروج عن المقتضى بألا يقول لها: أنت، أو هذه؛ هو انصرافه عنها، وعدم اكتراثه بوجودها؛ لأنها في نظره لا تستحق التقدير، ولا الذِّكر بعد ما فعلته من خيانة زوجها، ومحاولتها بيع عرضها، واتهامها لبريءٍ، فجعلها في حكم الغائبة وإن كانت موجودة.

أو قد يكون سبب ذلك ما جبل الله عليه الأنبياء -صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين- من حسن الأدب ولطف القول، فهي لما كنَّت عن نفسها بذلك فقالت: بأهلك) ولم تقل: (بي) بدلاً من ﴿بِأَهۡلِكَ﴾، كنَّى هو عليه السلام عنها بضمير الغيبة فقال: ﴿هِيَ﴾، ولم يخاطبها بـ (أنت راودتني)، ولا أشار إليها بـ (هذه راودتني)،

وكل هذا على سبيل الأدب في الألفاظ، والاستحياء في الخطاب؛ الذي يليق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فأبرز الضمير في صورة ضمير الغائب تأدُّباً مع العزيز وحياءً منه، مع أنه عليه السلام استطاع أن يبيِّن في هذه الكلمة على اختصارها الخطأ الذي حصل من هذه المرأة، ورد التهمة التي كانت عليه، فصرَّح بالسُّوء الذي أخفته هي في خطابها، وهكذا يختلف نمط الخطاب عندما يختلف هدفه، فهدفها هي جاء بخطاب معيَّن، وهدفه هو عليه السلام في ردِّ التهمة جاء بخطابٍ آخر، وواضحٌ من الخطابين أن خطابها اشتمل على الإبهام والتعميم، بينما خطابه هو عليه الصلاة والسلام جاء واضحاً بيِّناً؛ لأنه في ردِّ تهمة، وهكذا يجب أن يكون الإنسان يخفي بعض الأمور التي لا يتناسب ذكرها مثل ذكرها هي بضمير الغيبة ﴿ هِيَ ﴾، لكنه لا يُخفي ردَّ التهمة عن نفسه بل يقول: ﴿ رَٰوَدتُّنِي عَن نَّفۡسِي ﴾.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وستة وتسعون
من مجالس النساء[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

سنقف بإذن الله مع قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يُوسُف: ٣٠].

هذا خطابٌ جماعيٌّ لمجموعة نساء، لذا هو يجمع كل صفاتهن، خطابٌ جاء في جوِّ المكر والمكيدة، وما تمليه الغَيرة بين النساء، وحبُّ نقل الأخبار، والتعليقُ عليها، وسنقف مع هذا الكيد وقفات نبيِّنه من خلال مدلول هذه الكلمات والعبارات، وأيضاً التراكيب.

أولاً: في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ كلمة ﴿ نِسْوَةٌ ﴾ جمع تكسير للقلَّة، وهذا يدلُّ على قلة النساء اللاتي تحدَّثن بهذا الخبر، وقوله تعالى: ﴿ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ هذا القيد ربما يكون مشعراً باتساع الخبر، حتى إنه بدأ من أطرافها وانتهى إلى وسطها، أو أنه بدأ من وسطها وبدأ يَشيع في أطرافها، وقد يكون المراد قلَّةَ القائلات، وانحصاره في المدينة، حيث لم يبلغ أطرافها، وقد يكون المراد من القيد ﴿ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أن الوصف المقصود المؤلم لتلك المرأة، والكلام الذي تعمل له حساباً؛ وما كان يصدر من الحضريات القصريات أي: اللائي يسكن في القصور، أما البدويات فإن مثل امرأة العزيز لا تلتفت إلى كلامهن؛ لأنه لا يغيظها تلك الإغاظة، وربما تكون كل هذه المعاني مقصودة.

ثانياً: قولهنَّ أمرأت العزيز، من خلال استعراض أحداث هذه القصة نجد أن السِّياق القرآني يعرض لأول مرةٍ علاقةَ هذه المرأة بالعزيز، وأنها امرأة ذلك الرجل الذي اشترى يوسف،

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

وكان من مصر، ولو تأمَّلنا السياق القرآني الذي حدَّد هوية هذه المرأة لوجدناها عرِّفت من قبل بالإضافة إلى الضمير في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ ﴾ [يُوسُف: ٢١]، لكننا لم نعرف من هو ذلك الرجل؟ ثم جاء تعريفها مرةً ثانية بالموصول في قوله تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا ﴾ [يُوسُف: ٢٣]، وفي ذلك من دلالات اللَّوم لها، والتبرئة لساحة يوسف ما فيه، فهي سيِّدته، وهو خادمٌ لديها، والبيت لها، فحقُّها ألا تنظر إلى مثل خادمها، لكننا إلى الآن لم نعرف من تكون، وما هي منزلتها الاجتماعية؟

كل الذي عرفناه أنها صاحبة ثراء ولا مولود لها، لما تدلُّ عليه السياقات السابقة من ذلك، ثم يأتي التعريف الثالث لها بالإضافة إلى ضمير الغائب في (أهلك) مَا جَزَاء مَنْ أراد بِأَهْلِك، وهو تعريفٌ من نفسها لنفسها لسرٍّ يتعلق بمحاولتها صرف نصرة زوجها إليها، ثم يأتي بعد هذا التعريفُ الرابع، وقد حصل لها من مثيلاتها الكائدات، وهو قولهن لها: أمرات العزيز، والعزيز: هو كبير وزراء مصر، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾.

ومن جملة هذه الطرق المتنوعة في التعريف؛ فإننا نكتشف أموراً كثيرة علمنا من خلالها أن العزيز، وزوجه لا ينجبان، فليس لديهما ابنٌ يلتهيان به، وأنها مع مكانتها، ومكانة زوجها؛ هي التي طاردت يوسف عليه السلام وراودته عن نفسه، وأنها أيضاً صاحبة جمال؛ لأنَّ مَن في مثل مكانة العزيز يحرص على ذلك، فكان هذا الطريق في التعريف، -الذي هو إضافتها إلى العزيز- هو قاصمة الظهر له، إذ كشف عَوارها، وجَلَّ غامضها، فلم تجد بُدَّاً من الرد عليهنَّ، ومقارعة الحيلة بالحيلة، ويتمثل الكيد في هذا التعريف، أي: إضافتها إلى العزيز أمرأت العزيز) ؛ في إبراز زوجها، ومكانته، واسم وظيفتها الرفيعة، وقد قيل: أن العزيز هو الملك في كلام العرب، ولهذا قيل: إنهنَّ صرَّحن بإضافتها إلى العزيز مبالغة في التشنيع؛

لأن النفوس أقبل لسماع ذوي الأخطار وما يجري لهم، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الأمر: «إن هذا القول اشتمل على صورٍ من ألوان الكيد، فذكر منها قولهن امرأة العزيز، فلم يسمينها باسمها، بل ذكرنها بالوصف الذي ينادي بقبيح فعلها بكونها ذات بعل، فصدور الفاحشة من ذات الزوج أقبح من صدروها ممن لا زوج لها، الثاني: أن زوجها عزيز مصر، ورئيسها، وكبيرها»[1]. وذلك أقبح لوقوع الفاحشة من مثلها، وقد يكون في إضافتها إلى زوجها العزيز، وتعريفها بذلك زيادةً في إشاعة الخبر، وهو من مستلزمات عناية الناس بأخبار ذوي المكانة، وفي ذلك إبرازٌ لحرص هذا النوع من النساء على هذا النوع من الخطاب الفاضح الذي فيه عرض وإظهار للعورات وإلصاق للتُّهم، بينما نجد لوناً آخر من الخطاب يتعلق بهذه القصة قد ورد في أول هذه القصة، وفي إبراز هذا النوع من الخطاب عند هذا النوع من النساء.

ثالثاً: في قولهن (تراود فتاها) نجد هنا استحضاراً لصورة الحدث المهم حتى بألفاظه، نجد المراودة مع تحوُّل في المدلول، فأوَّل ما قصَّ الله الخبر قال سبحانه: ورودته بالماضي، وهنا في خطاب النسوة قال سبحانه: تراود بالمضارع، مع أن الحدث واحد، ومع أن الحادث قد سبق، ومنشأُ هذا التغيير في صيغة الفعل بين الخطابين هو مراد النسوة ذاتهن، فقد عبَّرن بـ (تراود) بالمضارع الدال على أنه صار سجيةً لها، تخادعه دائماً عن نفسها، كما تقول: زيد يعطي ويمنع، أي: هذا شأنه، ولم يقلن: راودت فتاها؛ لأن ذلك يدل على حصول المراودة مرة أخرى، أو أنها قد انقضت من هذا الأمر ولم تعد إليه مرة أخرى، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أتين بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالِّ على الاستمرار والوقوع حالاً ومستقبلاً، وأن هذا شأنها، ولم يقلن: راودت فتاها، وفرقٌ بين قولك: فلان أضاف ضيفاً، وفلان يقري الضيف، ويطعم الطعام، ويحمل الكَلَّ، فإنَّ هذا يدل على أن هذا هو شأنه وعادته)[2].

(١) انظر: إغاثة اللهفان: ٢/ ١١٥.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان: ٢/ ١١٦.

رابعاً: قولهن فتاها عرَّفن الفتى بإضافته إليها مع أن الذي اشتراه هو زوجها، وبالإمكان فصله عنها بذكر اسمه أو وصفه، فما سر هذه الإضافة؟

يجيب عن ذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بأن هذا من وجوه المكر في خطابهن، فهي العزيزة ومع ذلك تراود مملوكاً لا حراً، وهذا أبلغ في القُبح، كما أنه فتاها الذي في كنفها وفي بيتها، فحكمه حكم آل البيت)[1]، وهذا يزيد من اللَّوم والمؤاخذة لها.

خامساً: في قولهن عن نفسه، نجد أن حرف الجر المذكور هنا هو (عن)، وهو حرف جرٍّ يفيد المجاوزة، أي راودته مباعدةً له عن نفسه، أي: بأن يجعل نفسه لها، وهذا يعني أنهنَّ حكمن عليها بأنَّ مراودتها له قد بلغت مبلغاً جعلها تُقدِّم كل الحيل التي تمكِّنها من الظفر بهذا المطلوب، أي فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يُخرجه من يديه، يحتال أن يغلبه عليه، ويأخذه منه بأي سبيل وبأية طريقة.

سادساً: قولهن: قد شغفها حبا، (قد) هنا دخلت على فعل ماضي، وهي تدل على تحقق الوقوع حينئذٍ، وهذا يتناسب مع مرادهنَّ في تجريب امرأة العزيز، فعندما ذكرنَ المراودة واستمراريتها كما يدل عليه المضارع تراود، نبَّهن على علَّة ديمومة تلك المراودة، وهي كونه قد شغفها حبَّاً، والتعبير بـ شغفها حبا، دون غيره للإشعار بشدَّة تعلُّقها به، حتى كأن حبَّها ليوسف عليه السلام قد وصل إلى شغاف قلبها، فدخل تحته حتى غلب على قلبها، أي: إن حبَّه قد صار شغافاً لها، أي: حجاباً، وظرفاً محيطاً بها، وهذا المعنى واضحٌ في ذكر التمييز حبا، ولو أريد حصره في موضعٍ خاصٍّ من القلب لقيل: شغفها حبَّه، لكن لما كان الحبُّ مسيطراً على كيانها كله جاء توضيح الإجمال الوارد في الفعل (شغفها) بالتمييز (حبا)، وبالجملة فهذا كناية عن الحبِّ الشديد والعشق العظيم منها له.

(١) انظر: إغاثة اللهفان: ٢/ ١١٥.

سابعاً: قولهنَّ إنا لنرنها في ضَلَالٍ مبين، جاءت هذه الجملة خاتمةً لخطاب النسوة، وقد جمعن فيها ألواناً من التأكيدات، (إن)، واللام، والتعبير بالرؤية عن العلم، وبناء الفعل على المسند إليه (نا)، ووصف الضلال بأنه (مبين).

ونلحظ في هذه الخاتمة كيف نسبن الاستقباح إلى أنفسهنَّ إنا لنراها، فبنين الفعل على ضميرهن (إنا)، وهذا فيه من التوكيد بسبب تكرار الإسناد إلى الضمير ما لا يخفى، ومعلومٌ أن من شأنهنَّ مساعدة بعضهم بعضاً على الهوى، كما هو شأن الرجال، فلما وصل الأمر إلى استقباح هذه الطبقة؛ كان ذلك دليلاً على أنه من أقبح الأمور، وأنه لولا بلوغه هذه المنزلة من السُّوء والاشتهار ما كان منهن إنكارٌ لذلك؛ لأنَّ هذا الأمر هو المنتقد في تلك الأوصاف، لا الفعلة ذاتها.

وهكذا نجد أن النسوة قد جمعن لها في هذا الكلام واللَّوم بين العشق المفرط، والطلب المفرط، فلم تقتصد في حبِّها، ولا في طلبها، وبهذا تمَّ الحديث عن ألوان المكر الوارد في كلام هؤلاء النِّسوة.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وسبعة وتسعون

الحياة الطيبة[1] [2]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النَّحل: ٩٧].

هذا هو طريق الحياة السعيدة الهانئة القانعة المطمئنة التي هي مطلب الناس أجمعين، وقد أوجزتْ هذه الآية مقوِّمات هذه الحياة، ورسمت معالمها، في إيجازٍ معجز، مع وفاءٍ كامل بالمعنى.

وبالتأمُّل نجد هذه الآية قد جاءت بين آيتين أولاهما: تتحدث عن الدنيا وحقارتها، وأنها فانيةٌ زائلة، وأن ما عند الله خيرٌ وأبقى، قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النَّحل: ٩٦].

وتلتها آيةٌ تتحدث عن الشيطان، وتأثيره على الإنسان وصدِّه عن سبيل هداية القرآن، وتبيِّن الطريق للخلاص من شرِّه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النَّحل: ٩٨]، وكأن موانع الحياة الطيبة تكمن في حبِّ الدنيا ومغرياتها وشهواتها، واتباع الشيطان وشبهاته وتسويلاته، وبالسلامة من هذين المرضين تكون السعادة، والحياة الطيبة، التي جمعت هذه الآية أطرافها ورسمت للسَّالكين طريقها.

---

(١) أصل هذه الورقة كلمة ألقيت في جامع الراجحي بالرياض بعد مغرب يوم الثلاثاء ١٢/ ٤/ ١٤٢٨هـ، تعويضاً عن محاضرة لم يحضر ملقيها بعنوان (الحياة الطيبة).

(٢) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

وقد اشتملت هذه الآية على مقوِّمات الحياة الطيبة موجزةً في أمرين، هما:

العمل الصالح، الإيمان.

وقد جاء عرض هذه المقومات على النَّحو التالي:

﴿ مَنْ عَمِلَ ﴾، ﴿ مَنْ ﴾ اسم موصول مشترك، يُلمح فيه الشرط، ويدخل في حيِّزه الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والقليل والكثير، ولو قيل: (الذي) لاقتصر على الذَّكَر الواحد، أو قيل: (التي) لكان للمؤنثة الواحدة، أو قيل: (اللذين) لكان لجماعة الذكور، أو قبل: (للاتي) لكان لمجموع الإناث، وهكذا، فكان هذا الموصول ﴿ مَنْ ﴾ يشمل كل ذلك مع فضيلة الإيجاز، زيادة على ما فيه من خصوصية التساوي وعدم التمايز إلا بالعمل الصالح لا بالنَّوع، أو السن، أو العدد.

﴿ عَمِلَ ﴾ التعبير هنا بالفعل الماضي، دلالةً على سبق العمل لاستحقاق الحياة الطيبة، وهذا يعني أنه لا بد من العمل والصبر عليه والمداومة على فعله، حتى يحسن وصف صاحبه بأنه ﴿ عَمِلَ صَٰلِحًا ﴾، ولو قيل بالمضارع: (يعمل صالحاً)، لأفهم ذلك أن الموصوف به كان خالياً من العمل الصالح فيما مضى، وأنه سيبدأ من ساعته هذه، ويستمر.

﴿ صَٰلِحًا ﴾ وصفٌ لكلمة (عملاً) المحذوفة المدلول عليها بالفعل (عمل)، وفي حذف هذه الكلمة إيماءٌ إلى أن الاهتمام متوجِّهٌ إلى الصفة ﴿ صَٰلِحًا ﴾، أكثر من الموصوف (عملاً) لأن كل الناس يعملون، والعبرة ليست بالعمل، بل بكونه صالحاً، لأنه هو المثمر للحياة

الطيبة والمؤثر فيها.

وصلاح العمل وصفٌ له ممن شرعه سبحانه، فلا بد -إذاً- أن يكون مطابقاً لما أمر به الشرع من جهتين: الإخلاص، بأن يكون لله وحده، والمتابعة: بأن يكون على هدي رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، لأنه أفهم الخلق لمراد الله عزَّ وجلَّ، وبهذا يكون العمل صالحاً، وبالتالي يكون مقبولاً، ومن ثم يكون سبباً في سعادة الإنسان.

﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ ﴾ هذا تخصيصٌ للتعميم الوارد في ﴿ مَنۡ عَمِلَ ﴾ لدخوله في عموم الاسم الموصول، وذكر الخاصِّ بعد العامِّ يعني الاهتمام بذلك الخاص والعناية بشأنه، فكان في ذكر (الذكر والأنثى) اهتمامٌ بالنوع من حيث (الذكورة والأنوثة)، لأن الرجال قد يكونون أظهر حالاً من النساء في الأعمال الصالحة في الجملة، فالمرأة أحياناً لا تصوم ولا تصلي، وقد لا يكون مجال العمل الصالح أمامها متاحاً بالقدر الذي يكون للرجل، وخصوصاً في مثل: الجهاد والعلم والكسب، لهذا نصَّ هنا على النَّوع لبيان أن الأعمال المطلوبة منها كافيةٌ للحصول على الحياة الطيبة إذا قامت بها.

كما أن دخول ﴿ مَنۡ ﴾ الجارَّة كما في قوله: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ ﴾، فيه عنايةٌ بأبعاض هذين النوعين (الذكور والإناث) أي: أي أحدٍ منهم، وفيه أيضاً بيانُ أن مصدر ومبدأ العمل يكون منهما على حدٍّ سواء، فليس الأمر هنا منصرفاً إلى العدد وكثرته، ولا إلى جنس القائم به، بل إلى صلاح العمل، وقيام المكلَّف به على الوجه المطلوب منه، وفي هذا إيقاظٌ للمسئولية الفردية، وتنويهٌ بشأنها في إسعاد المجتمع كله، وإلماحٌ إلى أن سعادة الفرد هي لبنةٌ في سعادة الكل.

وقيل بل ﴿ مَنۡ ﴾ الموصولة غالباً ما يقصد بها ذكور، لأجل هذا تمَّ النص على الإناث هنا.

ومجيء (أو) دون الواو في قوله تعالى: ﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ بأن يقال: ﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ لبيان أنَّ حصول ذلك من أحدهما ليس مربوطاً بحصوله من الآخر، فقد تحصل المرأة على تلك الحياة، ولا يحصل عليها الرجل، أو العكس وهكذا، ولو قيل بالواو (من ذكر وأنثى) لربما أوهم ذلك ضرورة الاشتراك بينهما في فعل العمل الصالح، وقد يكون في هذا من إشعال المنافسة في كسب تلك الحياة ما يدفع إلى مزيدٍ من العمل الصالح والحرص على حسنه وقبوله.

وذكر الرجل والمرأة بعنوان الذكورة والأنوثة (ذكر، أنثى) دون أن يكون الكلام من رجل وامرأة؛ لأن الذكورة والأنوثة أظهر في تمييز هذين الجنسين من حيث الأصل، والأوصاف الأخرى تأتي للتمييز بينهما في مراحل لاحقة، كما أن هذين الوصفين يحققان التمييز المذكور المربِّي للمسؤولية الفردية من غير إشعارٍ بمدحٍ أو ذمٍّ، وهذا هو المراد هنا، والله أعلم.

﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ هذه جملةٌ حالية وقعت قيداً لما سبق، وهذه الجملة مكوَّنة من ضمير الغائب المنفصل: ﴿ هُوَ ﴾ العائد على ﴿ مَنْ عَمِلَ ﴾ باعتبار الجنس، أي جنس من يعمل ذلك، وهو مبتدأ و﴿ مُؤْمِنٌ ﴾ خبر، وهذا التركيب ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ فيه توكيدٌ بسبب تكرار الإسناد، فالإيمان فيه مسند إلى فاعله المعنوي مرتين، مرةً على أنه خبره، ومرةً على أنه فاعله؛ لأن اسم الفاعل يعمل عمل فعله، فهذا التركيب في قوة (مؤمناً مؤمناً)، وقد يقال لماذا جاءت الحال جملة ولم تكن (من ذكر أو أنثى مؤمنين)، أو (مؤمناً، ومؤمنة)؟

لو قيل ذلك، لأنصرف الحال إلى واحدٍ من الذكر أو الأنثى، والمراد أن ينصرف إلى ﴿ مَنْ عَمِلَ ﴾ لأنه الأعمُّ والأشمل، ولا يقوم بذلك إلا الجملة ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾، وإنما قيل ﴿ مُؤْمِنٌ ﴾ بالاسم دون (يؤمن) بالفعل؛ لبيان أن المطلوب أن يكون الإيمان صفةً ثابتةً فيه، مستقرةً في قلبه، لا أنه متغيرٌ متحول.

إلى هذا الحد انتهى ما يخصُّ مقوِّمات الحياة الطيبة، انتهى ما يخصُّ الشرط المفهوم من الموصول ﴿ مَنۡ ﴾، انتهى ما يخصُّ المطلوب من المخلوق وبقي الجزاء والجواب والعطاء الرباني:

﴿ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ ﴾ اشتملت هذه الكلمات الثلاث على الوعد العظيم بالحياة المبتغاة المطلوبة لكل عاقل، إنها الحياة الطيبة، وقد جاء تأكيد حصولها لمن قام بما تقدم (العمل الصالح والإيمان) بهذه المؤكدات:

الفاء المشعرة بترتُّب ما بعدها على ما قبلها.

اللام القسمية الدالَّة على التوكيد دون السين أو سوف للإشعار بسرعة الحصول.

التعبير بضمير الجمع (نحن) المضمَر في الفعل، دون ضمير الواحد (لأحيي).

الفعل المضارع المشعر بتجدُّد تلك الحياة الطيبة الآن، وفيما يُستقبَل من عمر ذلك الإنسان.

التعبير بمادة (الحياة) (لنحيينه) دون (لنعيشنه) أو (لنجعلته) أو ما شابه ذلك لما في مادة الحياة من دلالة الحركة والنَّماء والخير، فهي ضدُّ الموت المشعِر بالهمود والانقضاء والانقطاع، كما أن في ذكر مادة الحياة ما يدل على أن ما كان من العيش على غير هذا المنهج لا يعد (حياةً) وإن ظنَّه أهله كذلك، كما قال سبحانه أو مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَٰهُ، وكما قال سبحانه: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤].

وجود نون التوكيد الثقيلة في الفعل.

وجود التجانس الصوتي بين ﴿ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ﴾ مما يشعر بتطابق بين الفعل (نحيي) وهو ما يمارسه الإنسان، وبين الاسم ﴿ حَيَوٰةٗ ﴾ وهو جنس الحياة الطيبة المطلوبة المبتغاة.

تنكير كلمة ﴿ حَيَوٰةٗ ﴾ فيه دلالةٌ على الشُّيوع والشمول، فهي كلمةٌ تشمل كل صور الحياة السعيدة الهانئة.

التقييد بالوصف ﴿ طَيِّبَةٗ ﴾، يجعل الحياة الممدوحة والموعود بها هي ما كانت محصورة في هذه الصفة ﴿ طَيِّبَةٗ ﴾.

اختيار وصف الطيِّب خصوصاً، فهو يدلُّ على الزكاء وطيب الرائحة، ومنه (الطيِّب)، وعلى الخلوِّ من كل صور النَّكد والكدر، ومما يدل على عظم هذا الوصف مجيئه مع ما يشعر بالفضيلة والخير من ذلك:

الكلام والقول كقوله تعالى: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾ [فَاطِر: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾ [الحَج: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٢٤]، وكقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ ﴾ [الأَعْرَاف: ٥٨]، وقوله تعالى: بلدة طيبةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ.

والحلال، كقوله تعالى: حلالا طيبا.

وجنس الناس الممدوحين، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النُّور: ٢٦] وقد افتخرت عائشة بأشياء منها: أنها خُلقت طيبة ووُعدت مغفرة ورزقاً كريماً.

وإذا كان المؤمنون قد حصلوا على هذه الحياة الهانئة (الطيبة) وعاشوا لذائذها، كما قال بعضهم: إن في الدنيا جنَّةً من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وقال الآخر: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه -أي: من العيش الطيب- لجالدونا عليه بالسيوف،

وقال الثالث: إن كان أهل الجنة في مثل ما نحن فيه إنهم لفي عيشٍ طيب، وغير ذلك مما يدلُّ على هناءة عيشهم وطيب حياتهم، فإذا كانوا قد عاشوا ذلك حقيقة، فإن وصف الطيِّب المذكور يصاحبهم حتى عند موتهم، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النَّحل: ٣٢]، ويستمر معهم حتى يدخلوا الجنة، كما قال سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزُّمَر: ٧٣]..

إلى هذا الحدِّ انتهى ما يخصُّ الحياة الدنيا، وبقي ما يخص الحياة الأخرى، وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النَّحل: ٩٧]، وقد أكَّد حصولهم في الآخرة على أحسن الأجر بعدد من المؤكدات على النَّحو التالي:

لام التوكيد القسمية.

ضمير الجمع (نحن) المضمَر في الفعل، دون ضمير الواحد (ولأجزي).

نون التوكيد الثقيلة.

مجيء الفعل بصيغة المضارع ليتناسب مع الغيب المستقبل.

التعبير بمادة (الجزاء) المشعرة بفضيلة عملهم واستحقاقهم للجزاء والأجر.

النص على مفعول الجزاء، ﴿أَجْرَهُم﴾، مع ما في مادة الأجر من الإشادة بأعمال يستحقون بها الأجر؛ لأن الأجرة لا تكون إلا مقابل عمل يطلب، ولولا هذه المعاني لقيل مثلا: (ولنجزينهم خيراً) دون التفصيل المذكور.

التعبير بـ (أحسن) دون (الحسن)، بأن يقال: (بالحسن مما كانوا يعملون)، لما في ذلك من بيان عظيم فضل الله على عباده المؤمنين، فإذا كان عمل أحدهم حسناً مرة، وأحسن مرة فيعطي أجره على أساس الأحسن، لا الحسن تفضلاً من الله ومنَّة.

﴿ مَا ﴾ الدالة على الشيوع مع ما فيها من المدِّ المشعر بامتداد ذلك الشيوع وشموله ويؤيد ذلك ما في ﴿ مَا ﴾ من الإبهام المصوِّر لعظم ما يعطيهم ربهم.

وجود فعل الكون ﴿ كَانُواْ ﴾، مع أن الكلام يمكن أن يتم دونه بأن يقال: (بأحسن ما عملوا)، ولكن في ذكر هذا الفعل من الإشعار بعراقتهم في تلك الأعمال، وقِدَم شأنهم فيها ما لا يخفى.

التعبير بمادة العمل وبالفعل المضارع ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ يشعِر بعظيم شأن العمل، والاستمرار فيه، وأثر ذلك في مكانة العبد يوم القيامة، وعلوِّ درجته، أما دخول الجنة ابتداءً فلن يكون إلا بفضل الله ورحمته.

وبقي ملمحٌ وهو الاختلاف بين الفعلين ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ ﴾ و﴿ لَنَجْزِيَنَّهُمْ ﴾ من حيث الضمير، فالأول أُفرد فيه الضمير، والثاني جُمِعَ، ولعل سرَّ ذلك أن الحديث في الفعل الأول عن الحياة الدنيا، والمذكور هو الوعد بطيب تلك الحياة، ومبنى هذه الحياة حبُّ الذات والتملُّك والحيازة، فجاء ما يناسب حال الإنسان فيها من تخصيصه بتلك الحياة الطيبة، لأنها مطلب كل إنسانٍ حفزاً له على الطاعة.

إضافة إلى أن الناس لن يجتمعوا جميعهم في هذه الحياة في مكانٍ واحدٍ وزمان واحد، بل يموت بعضهم، ويولد آخرون وهكذا، فكان الاهتمام بالجنس لأنه هو الذي يمكن أن يجمعهم، لا بالعدد، وأيضاً لما كان الإحياء حياة طيبة أمراً واحداً لا يتفاوت فيه أحد، فكأنَّ أهله في ذلك فردٌ واحدٌ.

أما في الفعل الثاني ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ ﴾، فالحديث عن الجزاء المبني على العمل والتكليف، ولأن الأصل في الجزاء التفاوت بين الناس جيء بضمير الجمع المشعِر بالتغاير في أحوالهم يوم الفصل والقضاء، كما أن الآخرة ليست موضع تنافس لانقضاء وقت العمل، والناس فيها خلصت قلوبهم من شوائب حبِّ النفس والانفراد، لذا جاء الجمع في ضمير الفعل، زيادةً على ذلك أن الناس يوم القيامة يكونون مجتمعين جميعاً بخلاف الدنيا، فناسب هنا ما يظهر كثرتهم وهو الجمع، لا ما يتحدث عن جنسهم.

وأخيراً أستطيع القول بأن المتأمِّل لهذه الآية العظيمة يجد أنها بُدئت بمادة العمل ﴿ مَنْ عَمِلَ ﴾ وختمت بالمادة نفسها ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾، بُدئت بالماضي، وخُتمت بالمضارع؛ لبيان أن المقصود هو الحثُّ والحضُّ على العمل الصالح، وجعل هذا العمل الصالح المقيد بحالة الإيمان شرطاً في حصول ما تبتغيه كل النفوس البشرية، وهو الحياة الطيبة، ليكون ذلك أدعى إلى الإيمان والعمل الصالح، وهذا أسلوبٌ عظيمٌ في تحبيب الخير للناس، حيث تربط به محبوباتهم ومطلوبات أنفسهم، فمعنى الآية، من أراد السعادة والهناء فعليه بهذه المعادلة: العمل الصالح + الإيمان = الحياة الطيبة.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وثمانية وتسعون
الهمَّة في طلب العلم[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

هذه وقفاتٌ مع قصةٍ لها مدلولها وأبعادها في سماء التربية، وطلب العلم، ولعلَّنا نبقى معها لأهميتها في عدة لقاءات.

نبدأ هذه القصة؛ وهي ما دار في سورة الكهف بين موسى عليه السلام والعبد الصالح، نبدأها بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ [الكَهْف: ٦٠].

أولاً: يتضح من هذه البداية أن الآيات لم تشر إلى سبب القصَّة، ولا الدافع إليها، كما أنها لم تحدِّد تاريخها غير ما يدل عليه الظرف ﴿ وَإِذْ ﴾ من المضي، إلا أن هذه البداية توحي من أول الأمر بإظهار عزم موسى عليه السلام على المضيِّ لهدفٍ معين، وهو هنا بلوغ مجمع البحرين، وهو بلا شكٍّ ليس هو الهدف النهائي، ولا المقصود، بدليل أحداث القصة الآتية.

ثانياً: قوله: لفتاه، هنا إبرازٌ لحوار النَّبيِّ المعصوم موسى عليه السلام، ذي المكانة العظيمة عند ربه، فهو كليم الله، حواره مع فتاه، وفي هذا إشعارٌ بعناية موسى عليه السلام بالصحبة من جانب، وبالاستعانة على طلب العلم بمن يخدمه أو يعينه في رحلته من جانبٍ آخر، ومجرد التخاطب مع فتاه يدلُّ على فضيلة التواضع التي لا يتم التعلم دونها، وقد قيل: لا يتعلم متكبِّر، وقد قيل: بأن الفتى رافَق موسى عليه السلام ليتعلم منه،

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

وبهذا تشتمل القصة على حادثتين للتعليم؛ الفتى مع موسى عليه السلام، وموسى عليه السلام مع العبد الصالح، ومهما يكن من أمرٍ فحديث موسى عليه السلام مع فتاه عن همَّته، وإصراره وما يريد، يدلُّ على تواضعٍ كبيرٍ من موسى عليه السلام، ويدل على إشراكه لرفيقه في السفر وخادمه أو من يطلب العلم منه في همومه، واطلاعه له على أهدافه، حتى يتحمَّل معه المشقة، وحتى يكون أكثر عطاءً وتضحية.

ثالثاً: قوله لا أبرح، أي لا أزال سائراً، وهذا يشعر بعزم موسى عليه السلام على الاستمرار مهما كانت الصُّعوبات والعقبات، ويدعم ذلك ذكر الغائية حتى وتحديد الغاية بـمجمع البحرين، ووضع خيار آخر يدلُّ على همَّةٍ عظيمة لا تقف عند حدٍّ كما في قوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾، أي: ولو أن أسير حقباً من الزمان، والحقب: ثمانون سنة، وقال ابن عباس: الحقب هو الدهر[1]، ولا شك أن كلمة ﴿حُقُبًا﴾ تدل على زمنٍ ممتدٍّ بعيد، وتدل -أيضاً- على عزمٍ وحرصٍ كبيرين من موسى عليه السلام.

إن هذه البداية لتشعر بهمةٍ عالية، وتصميمٍ واضحٍ لبلوغ الهدف، وهكذا تتضح لنا من أول القصة الصفات المهمة لطالب العلم الذي يرغب في التميُّز والوصول إلى مستويات عالية من التحصيل والإتقان، يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعُدت أقطارهم، وذلك كان دأب السلف الصالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظِّ الراجح، وحصلوا على السعي الناجح، فرسخت لهم في العلوم أقدام، وصحَّ لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام)[2].

(١) تفسير ابن كثير: ٥/ ١٧٤.

(٢) تفسير القرطبي: ١١/ ١١.

رابعاً: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ [الكَهْف: ٦١]، نجد هنا تفصيلاً دقيقاً في القصة، فالله سبحانه وتعالى يجلي لنا هذه الجزئية من رحلة موسى عليه السلام لطلب المعرفة، فهو قد بلغ مراده ﴿ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ ﴾، وفي هذا ما يحفِّز من يسمع أو يقرأ هذه القصة بأن الجهد والتنظيم، وبذل الوسع؛ يوصل صاحبه إلى تحقيق الهدف، فها هو ذا موسى عليه السلام يحقق الهدف القريب، وهو الوصول إلى مجمع البحرين، وهذا يعني بالطبع أنه سافر، وكابد، وصبر؛ حتى قطع تلك المسافة ووصل إلى المكان المحدَّد، ثم هو يصمِّم ثانيةً للمضي في الطريق، لتحقيق مطلبه الأساس وهو التعلُّم.

خامساً: قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ﴾ [الكَهْف: ٦١]، من خلال النص النبوي للقصة يتَّضح لنا أن هناك علامة لا يعرفها إلا موسى عليه السلام، تدلُّه على وصوله إلى مكان العبد الصالح العالم الذي قصده ليتعلَّم منه، وتلك العلامة هي فقده للحوت المحمول معه في مِكْتَل، لذا نصَّت القصة على فقد هذا الحوت، وكيف أنه اتخذ سبيله في البحر سرباً، وهذه عجيبةٌ وغريبة، إذ كيف يقوم حوتٌ ميتٌ فيصير حياً ثم يدخل البحر، وهذا الدخول في غفلةٍ منهما، ولم يتذكر الغلام شأن هذا الحوت إلا بعد مغادرة المكان؛ رغم غرابة الحدث.

ولعل في وجود هذه العلامة العجيبة ما يهيئ لموسى عليه السلام عجائب وغرائب أكبر تنتظره في هذه الرحلة، فكأنَّ هذه الحادثة بما فيها من الغرابة تهيئه لما سيجده مستقبلاً، حتى إذا جاء موطن التعلُّم ووقته؛ تلقَّاه بيسر وسهولة وقَبول، ولعله يستفاد من هذا الملمح ضرورة التدرُّج والتهيئة -خصوصاً- في تعلُّم الجديد وغير المألوف.

سادساً: قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا ﴾ [الكهف: ٦٢]، هنا تبرز القصة حدثاً آخر، ألا وهو مجاوزة موسى عليه السلام وفتاه المكان المحدَّد، كما يدل عليه الفعل والتثنية جاوزا، ولكن الله سبحانه وتعالى بحكمته وتقديره جعل موسى عليه السلام يشعر بالجوع والنَّصَب؛ فطلب الغداء، وعلَّل ذلك بالنَّصب والتَّعب الذي لقيه في سفره ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ [الكهف: ٦٢].

وهنا نجد دليلاً واضحاً على حجم التعب والنصب الذي تجشَّمه موسى عليه السلام في سبيل العلم في هذه الرحلة، وقد ورد في وصف هذا النصب قوله ﷺ: «**فانطلقا يَمْشِيَانِ بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمِهُمَا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ** ﴿ قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾، **وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ**»[1].

وقد ذكر الله لموسى عليه السلام أسفاراً أخرى، إلى مدين، وإلى فرعون، وإلى ربه، ولم يرد معها ذكر للمشقة والنصب، بينما هنا في رحلة العلم ذكر التَّعب والنَّصب في إشارةٍ لطيفةٍ لضرورة بذل الوسع والطاقة في سبيل التعلُّم، ولقد اجتمع على موسى عليه السلام من المشاقِّ ما يصور شدَّة صبره وتحمُّله، ومن ذلك:

مشقة السفر للبحث.

نسيان الفتى للعلامة، مما تسبَّب في طول السفر وتجاوز المطلوب.

الرجوع على الأثر وما يرافقه من مللٍ وضجَر، وضيقٍ للصدر.

شدَّة الجوع، وما يصاحبه من تعبٍ ونصب، وما يؤثِّر منه على عقل الإنسان ونفسيته.

(١) البخاري (٣٤٠١).

وهذا الحجم من المشاق غالباً ما يؤثر على مسيرة التعلم عند كثير من المتعلمين، ولكن نحن الآن أمام نموذج عظيم في تخطي العقبات، والصبر على المشاق؛ في سبيل العلم، وهذا ما ينقص أكثر المتعلمين اليوم، فهم يتوقفون أو يضعفون لأدنى عقبة، وهذا ما تؤكده الدراسات بأن خبرات النجاح السَّهل الذي يأتي بدون تعبٍ ومشقة؛ تجعل المتعلم يتوقع دائماً نتائج سريعة، ويخشى الوقوع في الفشل، ويكون سريع الإحباط عند أي عقبة.

لذا فنحن نجد عبر تاريخنا الطويل أن العلماء المؤثرين في الأمة سلوكاً، وعلماً هم أولئك الذين قاسوا شدائد وصعوبات؛ وتحمَّلوا في سبيل العلم مشقةً كبيرة تمثَّلت في طول الأسفار والصبر على مشاقِّ الحياة وصعوباتها من الناحية المعيشية والبيئية، ونرى عكس ذلك في واقعنا المعاصر من ضعف المخرجات في الجانب المعرفي، والمهاري، والحياتي في التعليم المترف المدلَّل.

لذا فالأولى في نظري عدم المبالغة في ترفيه التعليم، بل لا بد من إعادة النظر في آثار ذلك على شخصيات المتعلمين، وإن كان ولا بدَّ من تسهيل المعلومة وتيسيرها، ولا بدَّ أيضاً من حماية المتعلمين من آثار هذا التسهيل، وإيجاد برامج تبني فيهم قيم الجدِّية، والقوة، والصَّبر، والتحمُّل، وتقدير قيمة العلم أخذاً بمبدأ ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مَرْيَم: ١٢].

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئة وتسعة وتسعون

صفات المربِّي ١-٢[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

ما زلنا مع قصة موسى عليه السلام مع الرجل الصَّالح، في قصة التعلُّم والتعليم، وقد وصلنا إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٣ - ٦٥]، ولنا مع ذلك وقفات:

أولاً: سبق قبل هذه الآية ذِكْر تجاوزهما للمكان، ثم ذُكر هنا رجوعهما إليه، وفي هذا دليلٌ على الإصرار على بلوغ الهدف، لأنه من المعلوم أن بعض الناس لو حصل له مثل ذلك لربما تنازل عن هدفه؛ وآثر الراحة، لكن كل هذه المشقة، والذهاب والإياب والنَّصَب، وتجاوز المكان، والعودة إليه دليلٌ على إصرارٍ عظيم، يصل بصاحبه -غالباً- إلى ما يريد.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾، نجد في هذا المقطع إظهاراً لحوار الفتى مع موسى عليه السلام، رداً على طلبه عليه السلام آتنا غداءنا، كما نلحظ في هذا الخطاب ذكراً للصخرة التي أويا إليها، وهذا يعني أن للصخرة شأناً؛ فهي مكان اللُّقيا المنتظَر، وهنا يذكر الفتى أنه نسي الحوت، وسها عنه، ولم يذكر شيئاً لموسى عليه السلام بسبب أن الشيطان أنساه ذلك، وهنا ذكرٌ للنِّسيان، وهو أمرٌ قد يحدث للمتعلِّم،

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

وذكرٌ للشيطان أيضاً، وهو قد يصرف الإنسان عن الخير، وفي هذا إشارةٌ إلى بعض المعوِّقات التي تعترض طريق المتعلِّم، والصعوبات -كما هو معلوم- جزءٌ من مكونات الموقف التعليمي، قد يتعرض لها أي متعلم، وعلى المتعلم أن يتكيَّف معها، إما بتغيير الموقف بكامله، وإما بتغيير طريقته وأسلوبه، المهم أن يصبر ويفكر حتى يتسنى له بلوغ الهدف المطلوب.

ثالثاً: قوله تعالى: قال ذلك ما كنا نبغ، القائل هنا هو موسى عليه السلام، وما زال الحوار دائراً بينه وبين فتاه، والملحوظ هنا أنه لم يتوجَّه بلوم الفتى على نسيانه، وهذا يعني أن النسيان عذرٌ شرعيٌّ لا يلام عليه الإنسان غالباً، إذا لم تظهر منه بوادر التفريط، كما نلحظ هنا أن موسى عليه السلام باشر بذكر حصوله على ما يريد، ثم أتبعه بخطوةٍ عملية؛ وهي الارتداد والرجوع، وفي هذا توجيهٌ بالمبادرة وعدم التأخير، عند حصول ما يقتضي ذلك، وهذا تناسب -تماماً- مع جديته عليه السلام، واهتمامه بالوصول للهدف الذي حدَّده، دون اكتراثٍ بالعقبات، أو انشغالٍ بالجزئيات، ونجد في خطاب الفتى مع موسى عليه السلام أنه ساقه بصورةٍ تشعر بالاعتذار، حيث نسب الخلل إلى الشيطان، بينما يظهر من خطاب موسى عليه السلام في القضية نفسها أنه حصل على ما يريد، ووقع ما كان ينبغي، فرغم ما كان فيه من تعبٍ وجوع قال: ذلك ما كنا نبغ، وفي هذا إلماحه إلى مضمون ما سيأتي وما سيمرُّ على موسى عليه السلام من أحداث، فحادثة فَقْد الحوت لها مدلولٌ عند الفتى ربما يقوده إلى الحزن وإلى الاعتذار، بينما هي عند موسى عليه السلام سببٌ للفرح والسعادة؛ لأنه وجد المكان الذي يبحث عنه، وفي هذا إشارة إلى أن الناس يختلفون في تفسير الأحداث، وفي طبيعة التعامل معها؛ حسب خلفياتهم العلمية والمعرفية عنها، وهذا هو ما حدث لموسى عليه السلام مع فتاه أولاً؛ وبعد ذلك مع العبد الصالح ثانياً، ومن هذا ندرك كيف تسهم طريقة تفكير الإنسان وإدراكه للأشياء والمواقف في توجيه سلوكه، وأحياناً في سعادته وشقائه، فهذا موسى عليه السلام يسعد بذلك الموقف الذي هو فَقْد الحوت؛ والفتى على خلاف ذلك.

رابعاً: في قوله تعالى: ﴿ نَبۡغِ ﴾ (ياء) محذوفة دون مسوِّغٍ نحويٍّ، فيكون هذا من باب التخفيف الذي تجيزه اللغة، وقد يكون في سقوط هذا الحرف وهو (الياء) من كلمة ﴿ نَبۡغِ ﴾ المبينة غاية السرور لموسى عليه السلام لحصوله على ما يريد، وقد يكون في سقوطها تصوير لسقوط بعض المتاع من المستعجل، أو المنتظر لشيءٍ ما إذا حصل له مراده، فإنه غالباً ما يغفل عن بعض متاعه لاشتغال نفسه بما هو أهم.

خامساً: قوله: ﴿ عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ فيه دلالةٌ على شدة عنايتهما باتباع الأثر للوصول إلى المكان، وهذا فيه بذلٌ لمجهودٍ جديد يُضاف إلى ما سبق؛ وهو ما يصور همةً لا تعرف الكلل ولا الملل.

سادساً: قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴾ [الكَهۡف: ٦٥]، نجد فيها (الفاء)، وهي ربما تدل على سرعة الوصول إلى الهدف، وهو العالم (العبد الصالح)، وما زلنا إلى هذه اللحظة في القصة نجد إبرازاً لدور رفيق الرحلة وهو الفتى كما في قوله تعالى: فَوَجَدا، وهذا يدل على أنه إلى لحظة عثور موسى عليه السلام على مراده؛ كان الفتى يرافقه، وهذا يشعر بأن الصحبة مهمةٌ في حياة الإنسان؛ لما لها من أثر -خصوصاً- إذا كان الصاحب أميناً موثوقاً به، ثم بعد هذه اللحظة، وبعد هذا المكان لا نجد ذكراً للفتى أبداً، فهل يعني هذا أنه سرَّحه، واستغنى عنه، فعاد إلى بلده؟

أم هل يعني ذلك أنه عليه السلام خاف على الفتى مما يراه ويسمعه؟

أم هل يعني ذلك أن ما بعد لُقيا العبد الصالح يعدُّ سرَّاً بينه وبين ربه، فلا يحسن أن يطَّلع عليه أحدٌ؟ قد يكون ذلك، أو قد يكون في ذلك إحاطةٌ وتعليم لنا بأن الصحبة قد تصلح حال السفر، أما عند الطلب فقد تكون سبباً للتأخُّر والانشغال، خصوصاً إذا اختلفت الاهتمامات.

سابعاً: قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ﴾ نجد هنا أن أول وصفٍ يقابلنا في هذا القسم من القصة الخاصِّ بلُقيا موسى عليه بالعبد الصالح؛ هو العبودية ﴿ عَبۡدٗا ﴾ والعبودية لله شرفٌ كبيرٌ يفخر به المؤمن، لأن كل أحدٍ إما أن يكون عبداً لله، وإما أن يكون عبداً لسواه، من مالٍ، أو منصب، أو صنم، أو غير ذلك، لذا كان من الشرف للإنسان أن يكون عبداً لله، وهي هنا مؤكدة؛ لذكرها أكثر من مرة عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا، والنص على كونه من عبادنا، ووجود (نا) الدالَّة على الفاعلين، مع أنه سبحانه وتعالى واحد؛ دليلٌ على التعظيم المقتضي لتشريف لمن ينتسب إلى عبوديته سبحانه، يقول الآلوسي: (والتنوين في ﴿ عَبۡدٗا ﴾ للتفخيم، والإضافة في ﴿ عِبَادِنَآ ﴾ للتشريف والاختصاص، أي: عبداً جليلَ الشأن، بمن اختصَّ بنا، وشرف بالإضافة إلينا)[1]. كما أن في إبراز هذه الصفة للعالم الذي قصده موسى عليه السلام؛ إشارةٌ إلى أن أولى الصفات للعالم هي التعبُّد الله، بمعنى أن يكون علمه في سبيل الله، وبمعنى آخر أن يقوده علمه إلى هذه الغاية العظيمة، وهي:

العبودية بمعناها الشامل، الذي يعني عمارة الأرض على مراد الله، وهذا يدلُّ أيضاً على أن التعلُّم له مقصدٌ وغاية، ويجب أن تكون هذه الغاية بانيةً نافعةً مصلحة، لا هادمةً، ولا ضارةً، ولا مضلَّة، وقد أشرنا من قبل لأهداف وغايات التربية.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) تفسير الآلوسي: ١١/ ٣١٦.

المجلس المئتان

صفات المربي ٢-٢[١]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

وما يزال الحديث موصولاً عن قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح؛ في قضية التعليم والتعلُّم، وكنا قد ذكرنا سابقاً عن الصفة الأولى في العالم؛ وهي العبودية، التي وردت في قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ [الكهف: ٦٥].

والآن سنتحدث عن الصفة الثانية وهي الواردة في قوله تعالى: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾، والصفة الثالثة ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥]، وعن هاتين الآيتين سنتحدث ونذكر ما فيهما من دلالات:

أولاً: في قوله تعالى: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ نجد هنا بياناً للصفة الثانية؛ وهي الرَّحمة، وهذا مؤهِّل آخر أعطاه الله عزَّ وجلَّ لهذا العبد الصَّالح، وحتى ولو كان المقصود بالرحمة هنا النبوة كما قال الجمهور، فإن الرحمة بمعناها المعروف باقيةٌ لأنها من صفات الرسل والنَّبيِّين وهم معلمو الناس، وهم الذين يدعونهم إلى الخير، وهم القدوة في التربية والتعليم، قال الله تعالى عن نبيه محمد ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٥٩]، مع أن بعض المفسرين قال: إنه ليس بنبيٍّ؛ بل إنه عبدٌ صالح آتاه الله رحمة وعلماً، ولو كان نبياً أو رسولاً لذكر عنه ذلك كما ذكر عن غيره، فعلمنا من هذا أن ذكر صفة الرحمة له مدلوله الذي له علاقته بالتعليم،

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

لذا كانت الرحمة من أهم صفات المعلم الناجح، ومما يكاد يتفق عليه جلُّ الدارسين هو موضوع الرحمة في المعلم ونعني بذلك عطفَ المربي، ولينَه، وشفقته على الناس، وإحساسه بمعاناتهم وحاجاتهم ومشكلاتهم، وتقديره لذلك عند التوجيه والتكليف، وعند التعامل والمحاسبة؛ بحيث ينظر إلى المتربي من خلال قدراته وطاقاته.

وفي قوله تعالى: ﴿ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا ﴾ [الكهف: ٦٥]، في ذكر الإيتاء هنا، الذي هو الإعطاء؛ بيانٌ لأمرٍ خاصٍّ يتعلق بالإيتاء خاصة، فإنه قد ورد في القرآن في شأن المعنويات أكثر من وروده في شأن الماديات، ولذلك ذكر مع الحكمة، والعلم، والرحمة، والملك، كما ورد هنا في قوله تعالى: ﴿ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا ﴾، وجاء التعبير هنا بالفعل المبني للمعلوم، دون (أوتي) بالفعل المجهول؛ مما يؤكد الاهتمام بالمؤتى، وكل موضعٍ ذُكر فيه وصف الكتاب (آتينا) كما يقول الأصفهاني: (فهو أبلغ من كل موضع ذكر فيه (أوتوا)، لأن (أوتوا) قد يقال إذا أوتيَ من لم يكن منه قبول، و(آتيناهم) يقال فيمن كان منه قبول)[1]. فهذا دليلٌ على مكانة العبد الصالح عند ربه، وعظم ما آتاه الله عزَّ وجلَّ من العلم.

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴾ [الكهف: ٦٥] بيانٌ للمؤهِّل الثالث، وللصفة الثالثة؛ وهي العلم، وهي بلا شكٍّ مؤهِّلٌ مهمٌّ لا بد أن يكون في العالم، وهي هنا علمٌ مميز خاص، لا يوجد مثله عند موسى عليه السلام، يدل على هذا قول العبد الصالح لموسى عليه السلام كما في الصحيح: «**قَالَ: يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ، عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لَا تَعْلَمُهُ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ**»[2].

(١) السيوطي في الإتقان: ١/ ٢٥٦.

(٢) البخاري: (٣٤٠١).

وهنا لا بد من عقد موازنة إضافةً إلى ما سبق عرضه بين هاتين الصفتين العظيمتين؛ صفة الرحمة، وصفة العلم، وبيان ذلك هو في النقطة الثالثة من هذا التحليل، ونقول في ذلك:

إن الرحمة قد منَّ الله بها على العبد الصالح بكلمة آتيناه، بينما العلم ذكره الله عزَّ وجلَّ بكلمة ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ ﴾، ووصف الرحمة بأنها من عندنا، بينما وصف العلم بأنه لدُنَا عِلْماً، كما نجد أن وصف الرحمة، وهو من عندنا قد تأخر عنها، وقال: ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾، بينما تقدم وصف العلم عليه في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾، فما سرُّ كل ذلك؟

كل هذه الفروق اللفظية لا بد من تفسيرها؛ لتعرف أسرار هذا التمايز بين العلم والرحمة، خصوصاً فيما يتعلق بعملية التعلُّم، إجابةً على ذلك يمكن أن نقول: تشترك صفتا الرحمة والعلم في أن أفعالهما ماضية (آتيناه) (عَلَّمْناهُ)، وهذا يدل على ترسُّخ هاتين الصفتين في هذا العالم؛ لأن الماضي يدل على ثبوت الصفة بخلاف المضارع لو قيل: تؤتيه، نعلمه، أما عن سر وجود (عند) مع الرحمة، و(لدن) مع العلم، فلأن عند -والله أعلم- وإن كانت تدل على القرب، لكن (لدن) أكثر دلالةً على القرب منها، فـ(لدن) أدلُّ على الخصوصية من (عند)، ويعبَّر بها عما ظهر، و(لدن) يعبر بها عما بطن، وقد ذُكر أنه يفهم من فحوى من لدنا، ومن تقديمه على (علما) اختصاص ذلك بالله سبحانه وتعالى، كأنه قيل: علماً يختصُّ بنا، ولا يعلم إلا بتوفيقنا، وفي اختيار، (وعَلَّمْتَهُ) على (آتيناه) من الإشارة إلى تعظيم أمر هذا العلم ما فيه، وعلى هذا فتكون الرحمة عطية عامة، وهبة ظاهرة، فإذا ارتبطت بالعلم كانت أفضل ما يكون في المعلم.

ولا بد أن تبرز هذه الرحمة على سلوكيات العبد، وتظهر في أعماله، بينما العلم يعدُّ هبةً خاصة؛ كما يشير إلى ذلك العلم الموجود عند العبد الصالح، وقد قدَّم الله سبحانه وتعالى إيتاء الرحمة على الاتصاف بالعلم، وهذا يدل -كما ذكرنا- على أن صفة الرحمة

من صفات المعلِّم المهمة، ويمكن الاسترشاد بذلك، أي: بذكر الرحمة أولاً على سبق التربية على التعليم، وأن يكون من مهمة المعلم التربية أولاً، ولن تصلح تربية دون خُلُق الرحمة، ولذا ذكر الله سبحانه وتعالى معها الإيتاء دون الإعطاء، ثم يأتي بعد ذلك الجانب المعرفي المتعلق بالعلم، وهذا واضحٌ في علاقة موسى عليه السلام، مع العبد الصالح فيما سيأتي من أحداث.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [الكَهْف: ٦٦]، نجد أن هذا هو أول خطاب يرد في القصة بعد لقيا موسى عليه السلام للعبد الصالح، وبعد ذكر تلك المؤهِّلات الثلاثة التي أشرنا أليها، ونجد أن أول كلمةٍ نطق بها موسى عليه السلام هي ﴿هَلۡ﴾، وهي: أداة السؤال الذي هو مفتاح المعرفة، وهذي تدل أيضاً على أن طالب العلم، وهو موسى عليه السلام؛ هو الراغب في التعلُّم، لا أنه مفروضٌ عليه، فهو يتلقَّاه بشغفٍ ورغبة.

و﴿هَلۡ﴾ هنا سؤالٌ لطيفٌ يحمل أدباً جماً يتناسب مع أخلاق النَّبيِّ الكريم موسى عليه السلام، فهو الآن في موطن الطلب، ولذا فهو لا يأمر، ولا يُعنِّف، فلم يقل: لم لا تعلمني؟ أو متى تعلمني؟ بل قال: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾، وفي هذا من الأدب صورٌ عديدة، منها: قوله: ﴿هَلۡ﴾، وهي استفهام ومقصود به العرض، وقوله: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾، وذكر الإتباع ليشعر معلمه بتقديره له، وحفظه لمكانته، فأنا أتبعك لأتعلَّم منك، ولعل في طلبه الإتباع استغناءً عن صحبة غلامه الذي لم يعدْ له ذكر، فهذه صحبةٌ جديدة مناسبةٌ للموقف الجديد، وهذا الإتباع يوفر لموسى عليه السلام القرب المادي من معلمه، وهو من وسائل الاتصال الفعَّال بين المعلم المتعلِّم، والسفر يوجد بيئة مناسبة لاستمرارية هذا القرب، وهذا الاتصال في مواقف متنوِّعة،

وقد أدرك المربُّون هذا الأمر؛ وما له من تأثيرٍ إيجابيٍّ على المتعلمين، ولعل في قول جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما يؤيد هذا، حيث يقول عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَا حَجَبَنِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلَا رَآنِي إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي)[1].

هذه العلاقة المستمرة بين العالم والمتعلم المتمثلة في قضية الإتباع واضحةٌ في كلمة ﴿ أَتَّبِعُكَ ﴾ التي ذكرها موسى عليه السلام في بيان تعلُّمه من العبد الصالح.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) البخاري (٦٠٨٩).

المجلس المئتان وواحد
أدب التعلُّم[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

ما زلنا مع قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، حيث وصلنا إلى قوله تعالى: قال لَهُ مُوسَى ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف: ٦٦]، وسنقف مع هذه الآية وما بعدها عدة وقفات:

أولاً: نلحظ هنا أن موسى عليه السلام عرض على العبد الصالح أن يتبعه بشرط أن يعلِّمه، وقد استدلَّ أهل العلم من هذا على أن تُعلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً على جواز التعاقد على تعليم القرآن والعلم، وفي هذا اهتمامٌ واضح بالتعلُّم والرغبة فيه، لدرجة أنه عليه السلام يجعله في صورة عقدٍ يجب الالتزام به من قبل الطرفين، وهذا أيضاً يدل على جدِّيةٍ ووضوح في الهدف المنشود، كما يدل على تبنِّي نظامٍ دقيق، وسياسةٍ محددة تكشف عن خلفية المتعلِّم والمعلم المعرفية والتربوية، فهناك معلِّمٌ ومتعلِّم وعقدٌ بينهما، وهناك تفصيلٌ لنوع العلم وتقييدٌ له بأن يكون رشداً، أي: يدعو إلى الخير وينفع.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٧]، هذا هو أول ردٍّ ذكر في القرآن على موسى عليه السلام من معلِّمه العبد الصالح، ونجد فيه أن العبد الصالح قد أكَّد عدم صبر موسى عليه السلام بأمور: (إنَّ)، و(لن)، ومجيء النكرة في ﴿ صَبْرًا ﴾ في سياق النفي ليعمَّ جميع أنواع الصبر.

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

وأيضاً نفي مجرد الاستطاعة؛ فمن باب أولى نفي الصبر ذاته.

وأيضا قوله: ﴿ مَعِيَ ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنه يجد من أعماله ما لا يجد مثله مع غيره، ومع أن المتوقَّع هو أن يرحِّب العبد الصالح بموسى عليه السلام ويشجعه، إلا أنَّ ما صدر عن العبد الصالح في قوله لموسى عليه السلام في أول لقاءٍ: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾، بخلاف ما يدعو إليه التربويون من التَّشجيع والتسهيل، وقد يكون تفسير هذا الرد أن العبد الصالح أراد بهذا أن يوقف موسى عليه السلام على طبيعة وحجم الأحداث التي ستواجهه في المستقبل، وقد يكون هذا ضرورياً أحياناً؛ خصوصاً إذا كان الطالب راغباً صاحب همَّة وعزيمة، والعلم الذي يطلبه له طبيعةٌ خاصة، إذ لا بد أن يكون من أول لحظةٍ مستعداً عارفاً بالشروط، يقول ابن عاشور: (وفي هذا أصلٌ من أصول التعليم؛ أن ينبِّه المعلم المتعلِّم بعوارض موضوعات العلوم الملقَّنة، لا سيما إذا كانت في معالجتها مشقة)[1].، فمثل هذا الرد قد يكون مثيراً جيداً، ودافعاً قوياً لدفع الهمة وتقوية العزم؛ لأن التعلُّم يكون أفضل من غيره من خلال الخبرة، والرغبة، والإرادة القوية، والهمة العالية في مناخ الحوار والمناقشة وطرح الأسئلة الاستقصائية، والبَدْء بالجانب الغامض أحياناً؛ حيث قال له: وكيف تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ يُحط به خبراً، وهذا فيه شحذٌ للهمة؛ وأنه سيتعلم أمراً لم يعرفه من قبل، وفي مثل هذه الحالة قد يكون التحدي مثمراً، ومما يؤيد أسلوب الإثارة هذه وشحذ الهمة؛ قول العبد الصالح معللاً حكمه السابق: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ [الكَهْف: ٦٨].

والإحاطة هي المعرفة الكاملة بالشيء بجميع أجزائه ودقائقه، والخبر: هو العلم، وفي هذا الاستفهام تعظيم الحجم ما هو مُقدِم عليه موسى عليه السلام؛ مما يجعله مستعداً؛ آخذاً أُهبته؛ حتى لا يفاجأ بالحوادث والغرائب.

(١) التحرير والتنوير: ٨/ ٤٠٨.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ [الكَهْف: ٦٩]، هذا هو ردُّ موسى عليه السلام على ما قال له العبد الصالح، وهو ينبئ عن ثقته بنفسه، ودخول (السين) في ﴿ سَتَجِدُنِيٓ ﴾ دليلٌ على استعداده لذلك في المستقبل، وقوله هذا أبلغ في ثبوت الصبر من نحو لو قيل: (سأصبر)، لأنه يدل على حصول صبر ظاهر لرفيقه ومتبوعه، كما أن ﴿ صَابِرًا ﴾ تعبيرٌ بالاسم الدال على الديمومة، ولو قيل: (سأصبر) لربما انقطع هذا الصبر في بعض المراحل؛ لكننا نجد أنه لم يقل: ستجدني -إن شاء الله- من الصابرين، كما قال ذلك إسماعيل عليه السلم لما ذكر له أبوه أنه يرى في المنام أنه يذبحه، لأن هذا الطريق لم يشركه فيه أحد، وقد قيل: قال موسى عليه السلام: ستجدني إن شاء الله صابراً وحده؛ فلم يصبر، وقال إسماعيل: ستجدني إن شاء الله من الصابرين مع الجماعة، فصبر، فإن الجماعة لها أثر ظاهر في التحمُّل والصبر.

رابعاً: قوله تعالى: إن شاء الله فيه ربطٌ لذلك الحكم بمشيئة الله تعالى، وهذا الربط بمشيئة الله تعالى دليلُ الإيمان، وتقدير الأسباب، وفي تأكيد ذلك بالتعليق على مشيئة الله عزَّ وجلَّ إيذانٌ بأنَّ الصبر والطاعة من المتعلم الذي له شيء من العلم؛ أعسر من صبر وطاعة المتعلم الساذج؛ لأنَّ خلوَّ ذهنه من العلم لا يخرجه من مشاهدة الغرائب، إذ ليس في ذهنه من المعارف ما يعارض قَبولها، فالمتعلِّم الذي له نصيبٌ من العلم، وجاء طالباً الكمال في علومه؛ إذا بدا له من علوم أستاذه ما يخالف ما تقرر في علمه؛ يبادر عادة بالاعتراض والمنازعة، وذلك قد يثير النَّفرة بينه وبين أستاذه، فَلِتجنُّب ذلك خشي العبد الصالح أن يلقى من موسى عليه السلام هذه المعاملة؛ فقال له من أول الأمر: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ [الكَهْف: ٦٨]، فأكَّد له موسى عليه السلام أنه سيصبر، وأنه سيطيع أمره إذا أمره، والتزام موسى عليه السلام ذلك مبنيٌّ على ثقته بعصمة متبوعه؛ لأن الله أخبره بأنه آتاه علماً.

خامساً: قوله تعالى: ﴿ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ [الكَهْف: ٦٩] نجد أنه ذكر هنا أمرين: الصبر، وعدم العصيان، وذلك أنه لما كان مقتضى هذا الصبر الكامل على ما حذَّر منه العبد الصالح، يقتضي الطاعة؛ قال إبلاغاً في الاتصاف بأكمل أحوال العلم صابراً ولا أعصى لك أمرا، وفيه دليلٌ على أن أهم ما يتَّسم به طالب العلم هو: الصبر والطاعة للمعلم، ونلحظ أنه في جانب الطاعة نفى المعصية فقال: ﴿ وَلَآ أَعْصِى ﴾، ولم يقرر الطاعة كحاله مع الصبر، فلم يقل: صابراً طائعاً، وذلك أنه أراد أن يطمئِنَ معلَّمه مما يخافه منه، وهو العصيان والمخالفة، أما الطاعة فهي أمرٌ معهودٌ من طالب للعلم مثله.

سادساً: قال: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكَهْف: ٧٠] قال العبد الصالح ذلك في حواره مع موسى عليه السلام على سبيل إتمام الشروط بين العالم والمتعلم؛ ليكون كلٌّ منهما على بينة، والالتزام بالنظام والشروط من التربية العملية التي يتلقَّاها ويتعلَّمها الطالب بالممارسة، وهذا ما تُغفله الممارسات التربوية في جلِّ مؤسساتنا اليوم، فهناك جهلٌ كبير بالأنظمة من قِبَل الطلاب، وليس هناك اهتمامٌ واضحٌ لغرس أهمية النظام في نفوس الطلاب، ولا عناية كافية بإحاطتهم بالأنظمة في المؤسسة التي يتعلمون فيها، ثم إلزامهم بها، ومحاسبتهم عليها.

ولما ذكر موسى عليه السلام الصبر وتعهد بالطاعة، شرط عليه العبد الصالح أنه إذا تبعه فينبغي له ألا يبادره بالسؤال عن أيِّ شيءٍ يراه أو يسمعه؛ حتى يبادر العبد الصالح ببيان ذلك حسب ما يراه مناسباً.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئتان واثنان
رحمة الأنبياء[1]

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

وصلنا سابقاً إلى الجانب العملي من هذه الرحلة العلمية العظيمة، ويتضح ذلك من خلال ما يأتي:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ [الكهف: ٧١]، هذه الكلمة ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ توحي بسرعة البدء بالجانب العملي التطبيقي من الاتفاق على عملية التعليم، كما تدل عليه (الفاء) المشعِرة بالتعقيب والترتيب، وكما أن كلمة (انطلقا) تدلُّ بحروفها على الحركة السريعة للبدء المطلوب، وهذا يربي في المتعلم من أول لحظةٍ الجدَّ وبذلَ الوسع، وتأتي كلمة حتى مباشرة بعد الانطلاق وهي تدل في الأصل على انتهاء الغاية، وقيل: بل ﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ ابتدائية أشعرت بسرعة الخرق بمجرد ركوب السفينة.

وفي قوله تعالى: ﴿ إِذَا رَكِبَا ﴾ تدل على أن توقيت الخرق كان أول ما ركبا في السفينة، وأن ركوب السفينة كان القصد منه خرقها، لأن الشيء المقصود يبادر به قاصده حال حلول وقته؛ لأنه يكون قد دبَّر أمره من قبل، وبُني نظم الكلام على تقديم الظرف ﴿ إِذَا ﴾ على عامله خرقها دون أن يقال: فخرق السفينة لما ركبها، أو حين ركبها؛ للتدليل على أن الخرق وقع بمجرد الركوب، إذ إن تقديم الظرف يشعر بالاهتمام فيدل على أن وقت الركوب كان مقصوداً لإيقاع الفعل فيه.

---

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

ويبدو أن في ذلك ما يثير تعجب ودهشة موسى عليه السلام، وقد يكون هذا مقصوداً من المعلم لتعليم وتدريب من يتعلم تحت يده، كما أن تعدية الفعل ﴿ رَكِبَا ﴾ بحرف الجر ﴿ فِي ﴾ مع أن المتبادر أن يقال: ركبا على السفينة للتدليل على أن ركوبهم كان داخل السفينة، فهم في جوفها، كما تشعر به دلالة ﴿ فِي ﴾ على الظرفية، وهم بذلك في مكانٍ يكون الخرق فيه مؤثراً؛ لأنهم في أسفل السفينة، ولو كان الخرق في أعلاها لما أثر فيها شيئاً.

كما أن لفظ (خَرَق) يُشعر بتعمُّد التخريب، وهذا يزيد في إثارة تعجب ودهشة موسى عليه السلام، وبهذا نعلم أن هناك أسباباً كثيرة تدعو موسى عليه السلام للاعتراض والدهشة والسؤال عن الفعل وهو (الخرق)؛ لأنه تخريب وإيذاء.

الوقت: لأنه حصل بمجرد ركوبهم، ولو كان لمصلحة لما أمكن العبد الصالح معرفة ذلك لقِصَر الوقت.

المكان: وهو أسفل السفينة كما تدل عليه الظرفية في ﴿ فِي ﴾.

ثانياً: نحن هنا أمام حدثٍ كبيرٍ عظيم بكل تداعياته، نسي معه موسى عليه السلام الاتفاق الذي كان بينه وبين العبد الصالح، فبادر إلى إنكار المنكر، فقال: ﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ [الكهف: ٧١] ونلحظ هنا أنه قال: ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾، ولم يقل: لتغرقنا؛ لأنه عليه السلام قد أهمَّه أمر الناس، وطغت عنده مصلحتهم على ما سبق الاتفاق عليه، فغلب على ذهنه هذا الحدث، وانشغل به عما سواه مما سبق الاتفاق عليه، والاستفهام هنا للإنكار، ومحل الإنكار هو العلة ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾.

وفهمنا من هذا أن السفينة فيها ركاب، وأن الخرق سيؤدي إلى غرقهم، وهذا في ظاهره فيه إهلاكٌ لأرواح الناس وممتلكاتهم، وهذا ما حمل النَّبيِّ الكريم عليه السلام على الاعتراض، وهنا لمحةٌ مهمةٌ وهي أن ما اتفقا عليه يعدُّ من قبيل الكلام النظري الذي قد يتغير بسبب الواقع وبالتطبيق العملي؛ فيكون له حينذاك وقعٌ آخر، فالتجربة العملية ذات طعمٍ مختلفٍ عن التصور المجرد، لذلك يعمد بعض المعلمين إلى طريقة تمثيل الأدوار ليعيش المتعلِّم الحدث كما هو أو أعلى أو أقل؛ ليتصور جزءاً منه كما هو عليه في الواقع، لهذا نجد في موسى عليه السلام أنه تعهد عليه السلام بالصبر مهما حدث، لكن عند الواقع تغير الأمر، يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا عزم منه، قبل أن يوجد الشيء الممتحن به، والعزم شيء، ووجود الصبر شيء آخر، فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر)[1].

ثالثاً: قوله: ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾، واضحٌ من خطاب موسى هذا أنه استنكاري؛ لهذا أكثر فيه من المؤكِّدات التي تعطي كلامه ثقلاً معيناً يكشف عن مدى استيائه من هذا الفعل، فهذه (اللام) في ﴿ لَقَدْ ﴾ للقسم، و(قد) داخلة على الماضي؛ وهي تفيد التحقيق، والتعبير بـ ﴿ جِئْتَ ﴾ دون (عملت) أو (أتيت)؛ لأن المجيء وإن كان بمعنى الإتيان إلا أنه يختلف عنه في أن الإتيان قد يقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول، وأما المجيء فيقال اعتباراً بالحصول، فهو أكثر دلالةً على القصد في وقوع الشيء كما قال سبحانه: ﴿ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [الفُرْقَان: ٤]، أي: قصدوا الكلام وتعدُّوه، وعلى هذا فيكون ذكر المجيء هنا لإيضاح أن موسى عليه السلام رأى من العبد الصالح ما يشعر بقصده لحصول هذا الفعل المنكر في نظره، وقوله تعالى: شيئاً، جاءت كلمة ﴿ شَيْـًٔا ﴾ هنا لتكون موصوفةً بالإمر، وهذا يزيد من تقطيع الأمر واستنكاره،

(١) تفسير السعدي: ١/ ٤٨١.

ثم قال: إمرا والأمر هو العظيم المفظَّع، وهو المنكر إذا كثر وكبر في نوعه، ونخرج من هذا الإنكار إلى شدة استفظاع موسى عليه السلام لما حدث أمامه، يقول ابن عاشور: (ولم يجعله نكراً كما في الآية بعدها؛ لأن العمل الذي عمله الخضر (العبد الصالح) ذريعةٌ للغرق، ولم يقع الغرق بالفعل)[1]. بخلاف ما بعده فالقتل فيه قد حصل.

رابعاً: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٢] هنا يجيب المعلم تلميذه المعترض عليه بصبرٍ ولطف، ويذكِّره بما كان بينهم من عهد وشرط، والبدء بالسؤال ﴿ أَلَمْ ﴾ لاستثارة انتباهه ليكون معه، لما في السؤال من التنبيه من جهة، والتقرير بالمراد أو نفيه من جهةٍ أخرى؛ لأنه سيجيب بنعم أو لا، والواضح من خطاب العبد الصالح في معاتبته وتذكيره لتلميذه أنه أعاد إليه العبارة التي قالها له في بداية اللقاء دون زيادةٍ أو نقصان: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾، وهذا يُنبئ عن دقةٍ ووضوح لدى هذا المعلم، فهو يقصد ما يقول لتلميذه، ويريد منه أن يعي ما يسمع تماماً كما هو، وأن يدرك ما يترتب عليه من تبعات، ورغم ما كان عليه موسى عليه السلام من الاستنكار والغضب والاعتراض؛ إلا أن هذا السؤال التقريري أصاب المحكَّ، وأعاده إلى ما ينبغي أن يكون عليه من الصبر والحلم، فنجده يعتذر مباشرةً ويقر بخطئه فيقول: ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ [الكهف: ٧٣]، وهذا دليلٌ على اعترافه بالخطأ، ولكنه يطلب عدم مؤاخذته بالنسيان، فهو قد بنى كلامه على الطلب بعدم المؤاخذة بالنِّسيان، ولم يبنه على الاعتذار بالنسيان، وهو بهذا يرى نفسه محقوقاً بالمؤاخذة واللَّوم، فكان كلامه بديع النسخ في الاعتذار، لأنه بقوله هذا يربط المؤاخذة بالنسيان، لا بما تعمَّد، ولا بما كان من خَلْقه وطبعه.

(١) التحرير والتنوير: ٨/ ٤١٠.

ثم هو يطلب أمراً آخر وهو ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾، والمعنى: إما أن يكون ولا ترهقني من أمري عسراً بسبب ما حصل من خطأي ونسياني، وإما لا تعاملني معاملةً تشقُّ عليَّ وتعسر، أي: لا تحمِّلني من أمري أي اتِّباعي إيَّاك عسراً، أي: صعوبة، والمقصود لا تعسِّر علي متابعتك، بل يسِّرها عليَّ بالإعفاء والمسامحة، وهذا ملمحٌ لطيفٌ أن الطالب يمكن أن يوضِّح لمعلمه بعض ما يعاني من صعوباتٍ في التعلم، أو ما يجد من صعوبات في طريقة معلمه، ليستفيد منه أكمل استفادة، وهذا من التواصل الجيد بين العالم والمتعلم.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئتان وثلاثة
أدب الإعذار[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

وما زلنا مع هذه القصة العظيمة، مع العبد الصالح ومع موسى عليه السلام في قضية التعلم، ووصلنا إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾ [الكَهْف: ٧٤]. ولنا مع ذلك وقفات:

أولاً: مجيء الفاء في قوله تعالى: ﴿ فَقَتَلَهُۥ ﴾ تشعر بالسرعة، فبناءً على ما تمَّ بينهما من اتفاقٍ انطلقا، وبمجرد أن وجدا غلاماً قتله، كما يدل على ذلك ﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ وقد سبق بيان ذلك، وهذه (الفاء) لم ترد في الحادثة السابقة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ [الكَهْف: ٧١]، جاءت كلمة ﴿ خَرَقَهَا ﴾ دون (فاء)، وهذا يدل على أن المبادرة المفهومة من تقديم الظرف ﴿ إِذَا ﴾ في قتل الغلام عند لقائه كانت أسرع من المبادرة بخرق السفينة حين ركوبها، وكلمة ﴿ لَقِيَا ﴾ تشعر بأن الغلام لم يتصرف بسوء مع العبد الصالح ولا مع غيره مما يراه ويشاهده موسى عليه السلام، بل بمجرد ما لقيا هذا الغلام قتله، وهذا ما يجعل هذه الحادثة أعجب من سابقتها، وقوله تعالى: غلاما دليل على أنه صغير لم يبلغ الحلم، بدليل قول موسى عليه السلام بعد ذلك ﴿ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ ﴾ [الكَهْف: ٧٤] أي: طاهرة من الذنوب، والتعبير بـ (قتله) يشعر بالقسوة والشدة وعدم الرحمة، فلم يقل: جرحه أو ضربه بل قتله، ولا شكَّ أن قتل الصغير فيه من الشناعة ما يفوق قتل غيره، كما أن القتل ذاته جريمةٌ كبرى عظمى، فكيف إذا حصل بلا مبرِّر، وقد ذُكر في صفة القتل أنه اقتلع رأسه بيده، وقيل: بل ذبحه بسكين، وقيل: بل رضه بالحجارة بعد ما لقيه يلعب مع أقرانه، فاجترَّه من بينهم وفعل به ما فعل.

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

ثانياً: لا شكَّ أن هذا المنظر وهذا الجرم يصعب السكوت عليه، وهو جريمةٌ حقيقية واقعة لا متوقَّعة كما هو حال السفينة، لذا بادر موسى عليه السلام بالإنكار على نمط طريقته الأولى مع زيادة في حجم الإنكار، فقال عليه السلام: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]، وهكذا نجد النمط واحداً، فأولاً ينكر عليه بصيغة استفهام إنكاري تعجبي ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾ فهو هنا لا يسأل؛ بل يستنكر ويتعجَّب، ثم بعد ذلك يحكم على فعله بما يراه، وقد حكم عليه هنا بأنه شيءٌ نُكُر، وتعبيره بـ نفسا دون غلام لاستثارة مكامن الشفقة في نفس العبد الصالح، فهي نفسٌ حقها أن تصان وتحفظ.

وقوله: ﴿زَكِيَّةًۢ﴾ تعظيماً لشأنها، فهي طاهرةٌ نقية؛ لأنه غلام دون الحلم، وهذا يعظِّم الجريمة.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، أي: بغير قصاص بنفس قتلت، فلزمها القتل قوداً بها.

ثالثاً: قوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ نلحظ هنا أن موسى عليه السلام علَّل إنكاره هذا الفعل جارياً فيه على طريقته من قبل مع تغيير يسير في بعض الكلم، وهذا يدل على أنه يعتمد في إنكاره وطريقة اعتراضه على منهج موحَّد، والفرق بين ما ذكر سابقاً في شأن السفينة وما ذكر هنا أنه وصف الفعل السابق وهو خرق السفينة بأنه شيءٌ إمر، وهنا وصف القتل بأنه شيءٌ نكر، والنكر: هو ما تنكره العقول وتستقبحه، وهو المنكر في الدين، وهو أعظم من الإمر؛ لأن هذا فساد حاصل والأول فساد متوقع، وعلى هذا تكون كلمة (نكر) أبلغ في تقبيح الشيء من الإمر، وقيل: بل الحوادث الثلاث الغريبة التي هي خرق السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار بلا أجرة؛ لم تذكر على سبيل الترتيب في الشناعة والفظاعة، بل ذكرت بحسب ترتيبها ووجودها في الواقع، ولو تأملنا في هذه الحوادث لوجدنا ما يأتي:

خرق السفينة فيه إفساد جماعي، للسفينة من ناحية، وربما للأرواح من ناحية أخرى.

وفي قتل الغلام إفساد فردي.

وفي بناء الجدار إصلاح لا إفساد.

فهل لهذا علاقة بالتعليم والتدُّرج فيه؟

الذي يظهر أن خرق السفينة هو الأهون؛ لأنه إفسادٌ متوقَّع لا واقع كما هو حال قتل الغلام، فهو واقعٌ لا متوقع، وهذا ما يتناسب مع التدرج في التعليم، خصوصاً أن الهدف هنا هو قياس قدرة موسى عليه السلام على التحمُّل والصبر، والالتزام بالشروط في مواقف يجهل تفسيرها، وزيادة اعتراض موسى عليه السلام هنا يؤيد أن قتل الغلام كان أشنع في نظره من خرق السفينة، واعتراض موسى عليه السلام هذه المرة لم يكن عن نسيان، بل كان مقصوداً، ومع هذا يخاطبه العبد الصالح بهدوء، وبالطريقة نفسها في المرة الأولى، وهذا يدلنا أيضاً على أن المعلم كان صاحب نهجٍ واضح محدَّد؛ يعرف ماذا يقول وماذا يشترط، وثبات المعلم أمام المتعلم والتزامه بما تم التعاقد عليه يولِّد لدى المتعلم الثقة الكافية بمعلمه، ويؤكد له أنه صاحب مبدأ يقصد ما يقول، ويلتزم به، وهذه ميزة وسِمَة يكتسبها المتعلِّم من خلال الممارسة العملية من معلمه لها، مما ينعكس على منهج كامل في حياة الإنسان كلها، وهذا يوجب على المعلمين مسؤوليةً كبرى في ضبط تصرفاتهم وأقوالهم ووعودهم.

رابعاً: في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكَهْف: ٧٥] نجد هنا تذكيراً من العبد الصالح لموسى عليه السلام بما سبق ذكره له، لكنه زاد له هنا كلمة ﴿ لَّكَ ﴾، وإنما زادها في كلامه ليتناسب تذكيره مع زيادة استنكار موسى عليه السلام،

واعتراضه عليه، كما أن فيها تخصيصاً للقول واللوم، فكأنه يقول: ألم أقل لك خصوصاً، وهذا فيه إلماحٌ إلى أنك خالفت الاتفاق أولاً، ثم ها أنت تخالفه ثانياً، والآن اعلم أن الكلام لك لا لغيرك، وواضح من نوعية الكلام هنا أن هذا المربي المعلم زاد في طريقة توجيهه لموسى عليه السلام بحسب ما رأى من خروجه على ما تمَّ الاتفاق عليه أكثر من مرة.

خامساً: قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦] نجد هنا الاعتذار من موسى عليه السلام، بل بادر إلى ذلك في طريقةٍ جديدة واشتراطٍ جديد؛ فهو لم يعتذر عليه السلام بالنسيان، بل بادر إلى اشتراطٍ جديد فقال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾.. وقد جاء في الحديث وصفاً لهذا الأمر قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كانت من موسى عليه السلام نسياناً، والثانية شرطاً، والثالثة عمداً**»، ونجد في هذا الاشتراط من موسى عليه السلام أدباً عظيماً، وإنصافاً وعدلاً، فقد جعل لمعلِّمه العذر في ترك مصاحبته في الثالثة تجنباً لإحراجه، وربما يكون في هذا اعتراف بحجم القدرات لدى موسى عليه السلام، فقد رأى أنه لا يتحمل شيئاً أعظم من هذا، وتقدير الإنسان لمكانته وقدراته أمرٌ مطلوب حتى يختار من العلوم ما يمتاز به ويبرز فيه.

وقوله: إن سألتك مع أنه ما كان يسأل من قبل بل ينكر ويعترض، وإن كان في صورة استفهام، ولعله إنما عدل إلى السؤال دون الاعتراض أو الإنكار، فلم يقل: إن أنكرت عليه، أو اعترضت؛ تأدُّباً مع معلمه، وليكون أقرب إلى قَبوله شرطه، إذ مجرد السؤال اليسير والاستفهام يوجب قطع العلاقة بينهما.

قوله: ﴿عَن شَيْءٍ﴾ بعدها هذه العبارة توحي بأن معلِّمه له الحق لو فارقه، وتوحي أيضاً بأنه سيعمل جهده ألا يسأل ولا يعترض.

وقوله: ﴿ فَلَا تُصَٰحِبۡنِي ﴾ ربما يبدو هذا الكلام غريباً؛ لأن المتوقَّع أن يقول: فلا أصاحبك؛ لأنه الذي طلب ذلك، بينما ﴿ تُصَٰحِبۡنِي ﴾ تشعر بأن العبد الصالح هو الحريص على الصحبة، ولعله إنما قال ذلك ليجعل القرار للمعلم، فهو الذي يقرر المصاحبة من عدمها، وهذا ما يتناسب مع الاتباع الذي طلبه في أول اللقاء، ولو قال: فلا أصاحبك، لكان هو الذي يحدد ذلك، والذي يليق بأدب العلم هو الأول، وقال بعضهم: (بل المراد بكلامه هو الجزم بالترك والمفارقة، لا الترخيص بالترك من عدمه).

قوله: قد بلغت ﴿ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴾ ﴿ قَدۡ ﴾ هنا دخلت على الفعل الماضي ﴿ بَلَغۡتَ ﴾، فدلت على التحقيق، أي بلغت الغاية التي تُعذَر بسببها في عدم مصاحبتي، حيث خالفت أمرك مرةً بعد مرة، كما أن في التعبير عن تمام العذر وتعيُّنه بالبلوغ ﴿ بَلَغۡتَ ﴾ ما يشعر بالوصول إلى الغاية، فشبه العذر في قطع الصحبة بما كان ينتهي إليه السائر ويبلغه، وفي هذا إشعارٌ بأن العبد الصالح قد مضى مع موسى عليه السلام، وسار معه إلى قَبول الأعذار إلى حدِّ النهاية، أي: وصلتَ من جهتي إلى عذر، وهذا أيضاً فيه أدبٌ عظيم مع معلِّمه، حيث قدَّم له العذر لو ترك تعليمه بسبب عدم التزامه بالشروط المتفق عليها.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئتان وأربعة
نفع الآخرين[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

وما زلنا مع قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام في قصة التعليم والتعلُّم، وقد وصلنا إلى قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف: ٧٧] ولنا مع هذا عدة وقفات:

أولاً: هذا الجزء يصور الحادثة الثالثة والأخيرة، وهي ما يخصُّ القرية وإقامة الجدار، وذِكْر كلمة ﴿أَهۡلَ﴾ فيه دلالةٌ أنهم تعاملوا مع الناس، وخالطوهم، وطلبوا الضيافة، وتنكيرُ كلمة ﴿قَرۡيَةٍ﴾ دليلٌ على عدم العناية بتعيين تلك القرية؛ لأنه لا يتعلق بذلك فائدة، وقد يكون في ذلك ازدراء لها بسبب بخل أهلها.

قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ﴾ فيه تصويرٌ لشدة ما بلغهما من الجوع الذي بسببه طلبا الطعام، ومن العادة ألا يطلب أهل المروءات الطعام، إلا في أشدِّ الحالات، أو لأن العبد الصالح علم ببخل أهل هذه القرية، فأراد اختيار صبر موسى عليه السلام بذلك، مع أن تثنية الضمير في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ﴾ تشعر بأن طلب الطعام حصل من كليهما، وهذا يعني بلوغ الجوع منهما كلَّ مبلغ، وهذا أول ذكرٍ للطعام بعدما عاد موسى عليه السلام مع غلامه دون أكلٍ في أول القصة، فهل يعني هذا أن الأحداث توالت بسرعة، وأنه إلى هذه الساعة لم يطعم، ولم يأكل، فكان عليه السلام شديد الحاجة إلى الطعام؟

قد يؤيد هذا اختبار العبد الصالح لموسى عليه بشأن بخل أهل هذه القرية بعد ذلك، أم أن هذا يعني أن الطعام لم يكن مهماً في الأحداث السابقة، فلم يذكر معها؟ الله أعلم في كل ذلك.

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَبَوْاْ ﴾، الإباء هو: شدة الامتناع، وهذا يعني شدة البخل، وقوله تعالى: ﴿ يُضَيِّفُوهُمَا ﴾، بدلاً من يطعموهما، لأن الضيافة أوسع من الطعام، فهي تشمل المبيت والطعام وحسن الاستقبال، ومع هذا فهما لم يطلبا من الضيافة إلا الطعام، لكن هؤلاء البخلاء أبوا ذلك كله.

ثانيا: قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ [الكهف: ٧٧] النظم الكريم يدل هنا على أنهما لما قوبلا بهذا البخل الشديد من أهل هذه القرية، والتنكُّر لهما، فلم يساعدهما أحد، ولم يضيِّفهما أحدٌ؛ وجدا -في هذه الأثناء وهما بهذه النفسية- جداراً قد أشرف على السقوط، حيث مال يريد الانقضاض؛ فأقامه العبد الصالح بأن هدمه ثم بناه، فالنظم الكريم يدل على أنهما في حالةٍ شديدةٍ للطعام والمساعدة، ولم يحصل هذا من أهل هذه القرية في هذه اللحظة التي تعرضا فيها لهذا الموقف، فلما وجدا هذا الجدار على هذه الشاكلة أقامه العبد الصالح بأن هدمه ثم بناه، وقيل: بل مسحه بيده ثم استقام، فكأن فعله كان خارقاً للعادة، وقيل: لو كان كذلك لما استحق الأجرة التي يطالب بها موسى عليه السلام لأنه لم يفعل ما يستحق عليها الأجرة من التعب والجهد، وقيل غير ذلك.

وكل هذا غير مهمٍّ لأنه طُوي ذكره في القرآن، المهم هو أنه أقام الجدار وأصلحه لأناسٍ لم يقدموا لهما عوناً، وهنا اعترض موسى عليه السلام، لكنه هذه المرة أخرج اعتراضه بطريقةٍ ألطف من ذي قبل، ولم يكن في صورة سؤال كالمعتاد، بل جاء في صورة اقتراح مع شيءٍ من اللوم ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الكهف: ٧٧]، ولو كان على الطريقة الأولى لقال: أتبني لهم جداراً بلا أجر؟ أو نحو ذلك، وكان الكليم موسى عليه السلام لما رأى الحرمان، ومساس الحاجة، والاشتغال بما لا يعني؛ لم يتمالك الصبر فاعترض، لأنه أراد مقابلة حرمانهم لحق الضيافة، بحرمانهم من إقامة الجدار في قريتهم إلا بمقابل؛ لأنهما كانا في أمسِّ الحاجة إلى الطعام، وهذا حقٌّ لهما يعذران في طلب مثله.

ثالثاً: ولعل موسى عليه السلام قد ساق اعتراضه بهذه الصورة التي هي إلى الاقتراح أقرب منها إلى الاعتراض؛ لعله أن يحظى بفرصةٍ أخرى بالمصاحبة، مع معرفة سبب ما فعل؛ لأن عبارته وإن لم تكن سؤالاً صريحاً إلا أن السؤال يفهم منها، لذا أعلن العبد الصالح الفراق؛ لأنه عدَّ قول موسى عليه السلام من قبيل السؤال.

والذي يظهر -والله أعلم- أن موسى عليه السلام استفاد من التوجيه في الحادثتين السابقين، فها هو في السابقة يغير أسلوبه ونبرة حديثه، وطريقة اعتراضه، وهكذا يكون المتعلِّم الجيد يستفيد من خطئه ويتعلم، ولكن العبد الصالح لما رأى ذلك منه عرف أنه تعلم المراد وحصل المقصود، ويتم ذلك ويكتمل بتفسير الأحداث له، وهذا ما أراد الله عزَّ وجلَّ أن يكون بين موسى عليه السلام والعبد الصالح، وقد تيقن موسى عليه السلام بأن هناك من هو أعلم منه، وبهذا حصل المقصود، وإلا فعلمُ الله واسع، وقد قال النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبَرَ، فَقَصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا**»(١).

رابعاً: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨] الظاهر من هذا القول أنه لم يكن بطلب من موسى عليه السلام، بل جاء بمبادرة من المعلم -العبد الصالح- وهكذا يكون المعلم المربي يوصِل لتلميذه وطالب العلم ما يراه نافعاً -حتى لو لم يطلبه- والملحوظ أنه بدأ معه بالصرامة المعهودة من أول لقاءيهما، إذ لما خالف الشرط قال: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، بناءً على الاتفاق الأخير، ثم أخبره أنه سيفسر له ما فعل، وذلك كما وعده من قبل ﴿أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠] وقوله هذا إشارةٌ فيها تحديدٌ للاعتراض الثالث الخاص بالقرية، ولم يقل: هذا فراق بيننا، بل قال: ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ إظهاراً للفراق الذي اختصَّ به كلٌّ منهما.

(١) البخاري (١٢/ ٨٨).

قوله: ﴿ سَأُنَبِّئُكَ ﴾ فيه تشويقٌ لمعرفة سر تلك الأحوال الغريبة، ولا شكَّ أن ذلك سيخفف على موسى ألم الفراق، لأنه سيرجع بعلمٍ عجيبٍ لم يعرفه من قبل.

قوله: بتأويل، أي بتفسير وبيان، وذِكْر التأويل يشعر بأن حقيقة الأمر في كل ذلك ليست هي على ما يتواءم ويظهر في الواقع.

خامساً: قوله: ﴿ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ سبق تكرير هذه العبارة ذاتها، وقد قالها من قبل عدة مرات، وإنما ذكَّره الآن بذلك دون أن يقول له مثلاً: بتأويل ما فعلت، أو ما رأيت؛ لإشعاره باللوم، وأن سبب الفراق هو تعجُّله وعدم صبره، وقد يكون الغرض من ذلك هو استثارة انتباهه بذكر ما كان سبباً في عدم صبره، فإن هذا هو ما أشغل نفسه عليه السلام.

سادساً: قوله: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ ﴾ [الكَهْف: ٧٩]، ﴿ أَمَّا ﴾ هنا للتفصيل والتعداد، وهي تشعر بأن ما بعدها سيذكر في صورة تعدادٍ وتفصيل، وقد بدأ بالسفينة جرياً على ترتيب الأحداث في الوقوع، وهذا أفضل في ثبوت المعلومة لدى الطالب، وتأخير التفسير إلى هذا الوقت، أي بعد كل هذه الأحداث؛ فيه إعطاء مساحةٍ للتفكير لدى المتعلم كي يعرف العلة والسبب.

سابعاً: في قوله: فكانت لمساكين، كل ما ذكره العبد الصالح عن السفينة من أنها لمساكين، وأنهم يعملون في البحر، وأنه يريد عيبها؛ كل ذلك يزيد من دهشة موسى عليه السلام، لأن كل هذه الأسباب تدعوه للحفاظ على السفينة لا عيبها، وهذا ما يجعل أسلوب التشويق الذي سار عليه من قبل ما زال مستمراً إلى هذه اللحظة.

ثامناً: قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف: ٧٩] هنا اتَّضح سبب عيبها، لذا قال: فأردت أن أعيبها، ولم يقل: فعبتها، تدليلاً على أن عيبه لها كان القصد وعن إرادة، لا لمجرد العيب، وإلا لقال: فعبتها.

وقوله هنا: ملك، نعته هنا بالملك للإشعار بالقوة التي ترغم هؤلاء المساكين على الخضوع له، والإعلام بأنه لكونه ملكاً لا يهتم بالسفن المعيبة، بل يبحث عما يليق بالـمُلك.

وقوله: ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾، عبر هنا بـ (الأخذ) للتدليل على الشدة والسَّطو.

قوله: ﴿ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾ أي صالحة، بدلالة أنه إذا عابها فإن الملك يتركها، فهو إذاً يأخذ السفينة الصالحة، وقوله: غصبا: أي بالقوة، وحذف الصفة من قوله (صالحة)، لبيان أن الاهتمام متوجه إلى ما يمكن أن يسمى سفينة، وهي عند مقام الملوك لا يمكن أن تسمى سفينة إلا إذا كانت صالحة مناسبة لمثل مقامه، لهذا ذكرت كلمة ﴿ سَفِينَةٍ ﴾ دون ذكر كلمة (صالحة).

وبهذا نعلم أن العبد الصالح أعْلم موسى عليه السلام أن النظر للأمر من جهةٍ واحدة قد لا يكون كافياً، وقد ينتج عنه سلوكٌ غير صحيح، فموسى عليه السلام نظر إلى الخرق إلى أنه إفساد، والعبد الصالح لأنه قد أحاط بذلك علماً من الله رأى أنه نجاة، وهما ضدان، والسبب في ذلك هو طريقة النظر، والخلفية المعرفية المتوافرة عن ذلك الموضوع، أو تلك القضية عند كل منهما.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئتان وخمسة
صلاح الأبوين[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

سنقف مع آخر هذه القصة العظيمة لموسى عليه السلام مع العبد الصالح في قضية التعلم، ووصلنا إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٨٠ - ٨٢] وستتحدث في ذلك من خلال هذه الوقفات:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ هذا بيانٌ وتفسيرٌ لحادثة قتل الغلام، لكننا -هنا- لا نجد ذكراً للقتل كما ذكر العيب مع السفينة، فقد قال: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف: ٧٩] أي: بالخرق، أما هنا لم يذكر القتل، ولكنه ذكر سببه، وربما يكون هذا لشناعة القتل فتحرَّج من تكرار لفظه، وهذا يشعر بأن جريمة القتل أشنع من عيب السفينة، وقد يكون في عدم تكرار لفظ القتل إشارة إلى عدم تكرار الألفاظ ذات المدلول السلبي أمام المتعلمين.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ هنا خروج بالخطاب إلى أطراف أخرى لم تكن موجودة أثناء الحادثة، فهو الآن يتحدث عن الأبوين (الأم والأب) في سبيل تعليل القتل، وفي هذا الشأن نتساءل ما علاقتهما بهذا؟ وهذا فيه تشويق للمتلقي ليصل إلى المعلومة بعد تشوُّفٍ وتشوُّقٍ، وهذا أثبت لها، وقد سبق مثل هذا من قبل عدة مرات.

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

وذِكْر صفة الإيمان في الأبوين، والتعبير بـ (كان) للتدليل على عراقتهما وقدمهما في الإيمان فهو ليس شيئاً حادثاً، والتعبير بالإيمان دون الإسلام، فلم يقل: (مسلمين)؛ لأن الإيمان درجة أخصُّ من الإسلام، وهذا يدلُّ على صلاح الأبوين جميعاً، وقوله تعالى: ﴿ أَبَوَاهُ ﴾ دون تفريق بأن يقال: وكان أبوه وأمه؛ للتدليل على أنهما في مرتبة الصلاح والإيمان سواء، وإنما غلب لفظ الأبوة على الأمومة على ما تقتضيه اللغة.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ جاء ذكر الخشية دون الخوف؛ لأن الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه.

وقوله تعالى: ﴿ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ أي يغشاهما بشدة وقهر، طغياناً أي: تجاوزاً للحدِّ، كفراً بالله، وقيل: إنما ذكر الطغيان أولاً لبيان أن تأثيره عليهم سيبدأ بالطغيان والتجبر وينتهي بالكفر.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾، التعبير بالإرادة دليل النفع وجلب الخير، وإنما جاء اللفظ -هنا- أردنا وخشينا بضمير الجمع دون الواحد كما سبق في السفينة ﴿ فَأَرَدتُّ ﴾ إما لأن تصرف العبد الصالح في السفينة بني على رعاية المصالح والمفاسد وتقديرها؛ فهو في محيط العقل وما يقتضيه المنطق، فليس شرطاً أن يتعلق بعلمٍ غيبي، وإما أن ما ذكره بشأن السفينة وهو عيبها؛ هو صفة نقصٍ وضرر، فلم ينسبها إلى الله تنزُّهاً ورعاية للأدب مع الله عزَّ وجلَّ، أما مع الغلام والأبوين فإن تصرفه يتعلق بأمرٍ مستقبلي من علم الغيب لذا قال: ﴿ فَأَرَدْنَآ - فَخَشِينَآ ﴾ على سبيل التعظيم لأنه علمٌ خصَّه الله به، وهو مثل قول خواص الملوك أمرنا بكذا وكذا، وإنما يعنون أمر الملك العظيم.

وفي قوله: ﴿ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ بشارة للوالدين بالعوض الحسن بدلاً من ذلك الغلام الذي سيملأ حياتها -لو عاش- جحيماً وكفراً.

وقوله: ﴿ خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً ﴾ أي: طهارة، وهو مناسبٌ لقول موسى في اعتراضه أقتلت نفسا زكية.

وقوله: ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ أي: أكثر عطفاً وبراً، وهذا ما يريده الوالدان من ولدهما، صلاحٌ وبرٌّ، وفي هذا إشارة إلى أنه يجب أن تتوجه وسائل تربية الوالدين لولدهما إلى هاتين الغايتين العظيمتين.

خامساً: قوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ وفي هذا استثارةٌ لمكامن الشفقة والعطف كما يشعِر بذلك لفظ (الغلام) و(اليتيم)، وهذا ما يدعو لمساعدتهما والوقوف معهما، حتى لو كانا ضمن أهل هذه القرية المقصودة كما يدل عليه قوله في المدينة، ويظهر من هذا أنه يسعى إلى تربية هدفٍ وجدانيٍّ يتعلق بالعطف والشفقة لهذا الصنف من الناس، وهم الأيتام، وإنما سمَّاها هنا (مدينة)، ومن قبل قرية لإظهار الاعتداد بها، ورفع شأنها عند ذكر اليتيمين فيها، فمع اليتيمين ذكر لفظ المدينة، ومع البخل ذكر لفظ القرية، وهذا من أعجب اللطائف في اختيار الكَلِم مع ما يتناسب معه.

وقوله: ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾: إنما ذكر ذلك ولم يكتف بذكر اليتم؛ لأن ذلك لا يفسر كل أسباب إقامة الجدار، فيكون في بيان أن تحته كَنْزٌ لهما ما يفسر جزءاً آخر من ذلك، فالكَنز تحت الجدار ولو سقط لظهر، وربما يؤخذ منهما، وربما يحصلان عليه قبل الأوان المطلوب فيكون وبالاً بدلاً من أن يكون عوناً لهما.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ قوله هذا يزيد من تفسير ما حدث، فذِكْر صلاح الأب هنا فيه دلالةٌ على أن لذلك علاقة بحفظ الله لأولاده وذريته، وفي هذا دعوةٌ لعناية الإنسان بإصلاح نفسه، وأن لذلك أثراً في جلب الخير لذريته من بعده.

سادساً: في قوله تعالى: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾، قوله تعالى: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾: هنا أسند الإرادة إلى الله، ومن قبل ﴿ فَأَرَدتُّ ﴾ ﴿ فَأَرَدْنَآ ﴾، وقد قال ابن عاشور في هذا الأمر: (وقد أسند الإرادة في قصة الجدار إلى الله تعالى دون القصتين السابقتين؛ لأن العمل فيهما كان من شأنه أن يسعى إليه كل من يقف على سره، لأن فيهما دفعاً لفسادٍ عن الناس؛ بخلاف قصة الجدار فتلك كرامة من الله لأبي العلامين)[1].

وإسناد الإرادة إلى الرب مع إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه السلام دون ضميرهما فلم يقل: فأراد ربهما؛ للتنبيه على تحتُّم كمال الانقياد والاستسلام لإرادة الله سبحانه، الذي هو ربك يا موسى، كأنه قال: إنها إرادة ربك يا موسى، وذكر الربوبية هنا لأن فيها من معاني التربية والعطاء والحياطة ما يتناسب مع حال اليتيم والحاجة.

قوله: ﴿ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ قيل: يبلغا الحُلُم، وقيل: كمال الرأي أو القوة، وهذا ملمحٌ في التربية؛ وهو تأخير تصرف الغلمان في المال؛ لأنه قد يكون سبباً في شقائهما لو حصلا عليه قبل كمال الرأي.

قوله: ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ فيه إلماحةٌ أخرى أن المطلوب أن يبحثا عن الكنز ويباشرا إخراجه حتى يشعرا بقيمته، لأن ما يأتي سهلاً يذهب سهلاً؛ لأن الاستخراج يوحي بالطلب والجهد بخلاف الإخراج.

قوله تعالى: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي: أراد سبحانه ذلك رحمةً منه بهما، وفي هذا إلماحة إلى أنه ينبغي رحمة الضعفاء ومساعدتهم، وتكرير وصف الربوبية هنا لمزيد من لفت النظر للعناية بشأن الأيتام والمحتاجين.

(١) التحرير والتنوير: ٨/ ٤١٩.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ أي: بل فعلته عن أمر ربي، وأضاف العبد الصالح ذلك إلى الله سبحانه وتعالى، وبهذا انكشف السر لموسى، وأضاف العبد الصالح ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ وفيه تعريضٌ وتذكيرٌ بسبب تفويت العلم عليه؛ وهو عدم صبره، وهنا ملمحٌ تربويٌّ أن المعلم رغم مخالفة تلميذه له إلا أنه لم يحجب عنه العلم والفائدة، كما أنه لم يتركه دون بيان بل فسَّر له ما لم يعرف حتى اقتنع، ولم يفارقه إلا بعد أن أكمل البيان على أفضل صورة.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئتان وستة
التأمُّل[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

حديثنا سيكون عن آية تدعو إلى التفكُّر والتأمُّل والتدبُّر في الكون المنظور، من خلال كلام الله عزَّ وجلَّ المسطور، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النُّور: ٤٣] سنقف مع قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النُّور: ٤٣]، حديثنا سيكون حول هذه الآية من نقاط عدة:

أولاً: أنها بدأت بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وفي هذا لفتٌ للنَّظر والتأمُّل الذي يصل بالإنسان إلى درجة الرؤية، والرؤية كما هو معلومٌ من أعظم وسائل يقينيَّات الإنسان؛ لأنه يرى ذلك بعينه، ولهذا لم تأت كلمة (ألم تعلم)، أو (ألم تنظر)، بل قال: ألم تر، والخطاب هنا لنبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ التعبير بالإزجاء هنا فيه بيان للطف معنى هذه الكلمة وتناسبه مع السحاب، فالإزجاء هو سوق الشيء برفقٍ من جهة، وهو سوق الشيء الثقيل ببطء من جهةٍ أخرى، وهو سوق الشيء بالسهولة من جهة ثالثة.

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

وهذه المعاني ورد بعضها في قول الطفيل الغنوي:

تُزْجي أغَنَّ كأنَّ إبْرَةَ رَوْقِهِ قَلَمٌ أصَابَ مِنَ الدَّواةِ مِدَادَهَا

فهو يصف غزالة وأمامها أغنٌّ، أي ابنها الصغير، تزجيه أي: تدفعه أمامها برفقٍ فقوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ﴾، نجد أن المعاني السابقة كلها فيه، فالسحاب ثقيلٌ من جهة، وهو سهلٌ وميسرٌ على الله عزَّ وجلَّ من جهةٍ أخرى، والله عزَّ وجلَّ يسوقه بلطفٍ وسهولة ورفق.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ﴾ هذا السحاب الذي يسوقه الله عزَّ وجلَّ بقدرته، بسهولةٍ وبقصد، هذا السحاب يتجمَّع ويتألَّف من هنا وهناك بقدرة الله سبحانه وتعالى.

وهذا ما تصوره بدقةٍ كلمة ﴿ يُؤَلِّفُ ﴾، وذلك يشعر بأن السحاب كان متفرقاً، وأنه في تلك الحالة لا ينزل منه المطر، وإنما ينزل منه مطر بعدما يصل إلى هذه المرحلة الواردة في قوله تعالى: ﴿ يُؤَلِّفُ ﴾..

رابعاً: في قوله تعالى: ثم يجعله ركاما نفهم من قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا ﴾ وجود أحوال ثلاثة للسحاب، هي الإزجاء والسَّوق والتجميع والتأليف، ثم بعد ذلك يجعله ركاماً، فالركام هو آخر هذه الأحوال، وهذا النوع ثابت علمياً في تقسيم السَّحاب؛ لأن السحاب أنواعٌ، ومن ضمن أنواعه السحاب التراكمي، ولا يخرج البرَد إلا من السحاب التراكمي بقدرة الله عزَّ وجلَّ، لذلك قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا ﴾، فرتَّب على كونه ركاماً أنه يخرج منه البَرَد، كما سيأتي ذكره إن شاء الله.

وفي قوله تعالى: ﴿ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا ﴾ دليلٌ على التصيير والتحويل من حالةٍ إلى حالة.

خامساً: قوله تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ الودْق هو: المطر الذي يخرج من خلال السحاب الكثيف، وهذه تسمية الله عزَّ وجلَّ له.

انظر إلى لطف اللَّفظ القرآني الودق، والمطر شيءٌ لطيف جميل، فيُعبَّر معه بالشيء اللطيف الجميل مثله، وهذا من روعة القرآن في اختيار هذه اللفظة في فترى الودق يخرج من خلاله، وقوله تعالى: ﴿ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ أي: من وسطه، ومن فتوقه التي فيه، وهذا يدل على أنه يوجد فتوق في هذا السحاب الركامي، وإن لم نره، لأنه ورد ذكره في القرآن العظيم.

سادساً: في قوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ وليس المقصود هنا السماء التي في الأعلى، بل إنما المقصود السحاب، لأن السحاب يعتبر الآن سماء، وكل ما علا وارتفع في لغة العرب يسمى سماء.

سابعاً: في قوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ هنا ذكرٌ للجبال والبَرَد، ونحن نعرف الجبال في الأرض، أما في السماء فهذا أمر عجيب تلفت الآية أنظارنا إليه، ولذلك جاءت ألم تر، كما أننا لا نرى من تلك الجبال المكوَّنة من السماء إلا قاعدتها، أما القمة فلا نراها، ولو رأيناها لعلمنا قدرة الله سبحانه وتعالى، ولدخل الخوف ورقابة الله في قلوبنا.

فلما سارت الطائرات، ومن الناس من جانب السَّحاب رأوا جبال سابحة في السماء، والعجيب أن الجبال السابحة في السماء أعظم من أكبر جبال الدنيا، فأكبر جبال الدنيا التي تعرفها هي الموجودة في الهميلايا، وأعلى نقطة فيها هي نقطة إيفرست، وهي تعلو ما يقارب تسعة آلاف متر فوق سطح البحر، فكم يتوقع المسلم ارتفاع هذه الجبال الركامية في السماء فوق رؤوسنا؟

قاعدة هذه الجبال قد تبعد عن الأرض ثلاثة آلاف متر فقط، بينما ارتفاعها يصل إلى عشرين كيلو متر في السماء، وهذا يعني أن أعلى قمة في العالم لا تساوي نصف هذا الجبل الركامي من الماء، وهذا دليل على عظم القدرة الإلهية التي حفظت هذه الأثقال السابحة في السماء، وهنا نلحظ المناسبة بين ذكر الطير، وصفة الصفِّ فيه خاصة، دون صفات أخرى قبل هذه الآية، لما بين الصورتين من إمساك أجرام في الهواء دون أسباب مادية واضحة يراها الناس، ولكن هذه هي قدرة الله عزَّ وجلَّ، وقد تكون هذه القدرة أعجب من القدرة الأولى، لأنه في الأولى كان حجم الطائر صغيراً، ويمسكه الله عزَّ وجلَّ أن يقع، أما الثانية فهو ثقيلٌ جداً بالماء المتجمِّد فيه.

فسبحان من يمسكها على ثقلها، ولكن هل تفكَّر الإنسان فيها؟ وهل عرف ضعفه وقدرة الله سبحانه وتعالى؟ حتى إنه لو نزل جبلٌ واحد من هذه الجبال الهائلة السابحة في السماء الواقعة فوق رؤوسنا، لأهلك الناس!

ولذلك قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ دون (ألم تعلم)، وفي هذا لفتٌ لأنظارنا لهذا الأمر العظيم، وفي قوله تعالى: ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾، دخول من هنا في الموقعين للتدليل على أن ذلك من بعضها، أي من بعض الجبال، وينزل فيها بعض البرد، ولو نزل كل البرد لربما هلك الناس.

ثم يقول الله عز وجل: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾، فهذا من فضل الله عزَّ وجلَّ ورحمته، فهو يخوِّف به عباده، وينفع به من يشاء من عباده، والأمر كله الله سبحانه وتعالى أولاً وآخراً.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئتان وسبعة
تلقي الشَّائعات[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

حديثنا سيكون بمشيئة الله تعالى هو قوله تعالى: عن شائعة الإفك: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النُّور: ١٥].

في هذه الآية العظيمة تصويرٌ عجيبٌ لدقائق شأن الشائعات، وكيفية تلقِّي الناس لها، وإذاعتهم لها بعد ذلك، ولعل هذا الأمر يتَّضح من خلال هذا التحليل لمضمون هذه الآية الكريمة.

أولاً: مجيء كلمة ﴿إِذْ﴾ في مطلع هذه الآية؛ يشعِر بلحظة تلقي الخبر، وأنها لحظةٌ حاسمة، يختلف الناس في التعامل مع الخبر بحسب هذه اللحظة، ولذلك جاء ذكر توقيت تلقي الإنسان للخبر في بداية هذه الآية الكريمة.

ثانياً: التعبير عن سماع الخبر بالتلقي، فقال سبحانه وتعالى: تلقونه، بدلاً من تسمعونه، مع أن جُلَّ الشائعات يكون تلقيها عن طريق السمع، وأداة ذلك هي الأذن كما لا يخفى، ولكن في ذكر التلقي هنا دلالةٌ لطيفةٌ؛ إذ فيه إيماءٌ إلى شوق المتلقِّي لما يتلقَّى، فكأن هناك أناساً متعطشين لمثل هذه الشائعات، يبحثون عنها، ويتلقَّفونها، فإذا حصل لهم ما يريدون تلقَّوها تلقي الأهل لغائبهم، ففي التعبير بالتلقي دلالةٌ على استعداد المتلقي وترحيبه بما سيأتي، وهذا ينبئ عن مرضٍ في بعض القلوب،

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

وخصوصاً ما كانت من الفئة الحاقدة على الدين وأهله، ولعلنا نلحظ هذا التلقي أحياناً في تلقف أخبار الأخيار، وتصيُّد أخطائهم، ونشرها وتكبيرها؛ على ما يرى الناس ويسمعون.

ثالثاً: صيغة ﴿ تَلَقَّوْنَهُۥ ﴾ مصوِّرةٌ للجهد المبذول من متلقي الخبر، فهو (تَفعُّل) مثل التصبُّر، فهو عن قصدٍ من جهة، وهو يُجْهِدُ من جهةٍ أخرى، وهذا من أعجب ما يكون في الإنسان؛ حيث إنه يصرف همَّته، ويشغل نفسه، ويبذل جهده في ملاحقة شؤون الناس وتلقُّف أخبارهم، وقد يكون في هذه الصيغة دلالةٌ على تنقُّل الأخبار بين الناس، بل بين هذه الفئة خصوصاً، وقد جاء عند ابن كثير في تفسير هذه الآية، أو هذه الكلمة خصوصاً أن قال: (يرويه بعضكم عن بعض)[1].

رابعاً: جاءت كلمة تلقونه محذوفة (التاء)، والأصل (تتلقونه)، وفي هذا تصويرٌ لسرعة التلقي؛ بسبب تلهف السامع لسماع الخبر والشائعة، وإذاعته لها.

خامساً: كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقرأ هذه الآية؛ كما في صحيح البخاري ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾، وتقول: هو من وَلَقِ اللسان، يعني: الكذب الذي يستمرُّ صاحبه عليه، وعند العودة إلى مرجع هذا الضمير (الهاء) في قوله تعالى: ﴿ تَلَقَّوْنَهُۥ ﴾ نجده يعود على حادثة الإفك، وعلى قول الإفك المذكور قبل هذه الآية بآيات، والإفك كما هو معلوم هو: الكذب والبهتان، وهذا يعني تلاقي المادة مع المعنى المراد إبرازه هنا.

سادساً: قوله تعالى: بألسنتكم، نلحظ فيه كيف كان تلقي الخبر باللسان، مع أن اللسان ليس هو الأداة لتلقي الأخبار، بل الأداة المعنية بذلك هي الأذن، ومع هذا لم يكن النظم الجليل: إذ تلقونه بآذانكم، بل بألسنتكم، لما في ذلك من تصوير اختلال موازين التلقي عند هذه الفئة الراغبة في الشَّر، ونشر الشائعات المغرضة بين الناس،

(١) تفسير ابن كثير: ٦/ ٢٨.

فكان في ذكر التلقي باللسان بيان أن هذا الخبر الذي تتلهفون له، وتتلقونه تلقي الغائب؛ لم يمرَّ من قنواته التي تضمن سلامته، أو سلامة التعامل معه؛ وهي: الأذن، ثم العقل، ثم بعد ذلك اللسان، بل إن الذي حصل هو تلقي من اللسان إلى اللسان، فما أدقُّ هذا التصوير لحال كثيرٍ من محبي نشر الشائعات.

سابعاً: مجيء هذه الكلمة مجموعة بألسنتكم، وكذلك قوله تعالى: ﴿ بِأَفْوَاهِكُم ﴾.

فيه ملمحٌ لكثرة الفاعلين لهذا الأمر، ولانتشار ذلك بين الناس، وإلا لقيل: إذ تلقونه باللسان، وتقولون بالفم، ويؤيد هذا إضافة ذلك إلى مخاطبين، ليكون ذلك أكثر حضوراً وواقعية.

ثامناً: في وقوع قوله تعالى: ﴿ وَتَقُولُونَ ﴾ مباشرة بعد قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ ﴾ دليلٌ على سرعة السعي في نشر الخبر، وعدم عرضه على محكِّ الدين والعقل، وفي التعبير بالمضارع، ﴿ وَتَقُولُونَ ﴾ دليلٌ على تجدد ذلك منهم في غير مرة.

تاسعاً: في مجيء مادة القول، وتقولون، دون تنشرون، أو تذيعون مثلاً؛ للدلالة على تفوُّههم بهذا الخبر المنقول، وإجرائهم ذلك الخبر السيئ على ألسنتهم، وهذه خطيئةٌ أخرى زيادة على خطيئة التلقي التي ذكرت سابقاً.

عاشراً: قوله تعالى: ﴿ بِأَفْوَاهِكُم ﴾ تأكيدٌ لحصول القول منهم، وذلك لأن ذكر القول يغني عن ذكر هذا القيد بأفواهكم؛ لأنه من البدهي أن القول سيكون بالفم، وفي النص على ذلك زيادة على التأكيد المذكور لطيفةٍ أخرى: وهي أن المذكور -هنا- هو الفم، لا اللسان، فعلمنا من ذلك أن التلقي كان باللسان؛ والإخراج كان بالفم، وهذا يعني أن وسيلة التلقي لم تكن هي الوسيلة المناسبة؛ ولا الصحيحة، وكذلك طريقة الإخراج، لم تكن هي الطريقة الصحيحة؛ ولا السليمة.

وقد دلَّ ذكر الفم في الإخراج على أن حجم الشائعة قد تضخم في نفس هذا المتلقي، حتى ما قدر اللِّسان الذي تلقاها على إخراجها؛ لأنه زاد فيها من مرويَّاته، أو تحليلاته، أو كذبه، أو زوره، حتى أصبح اللسان عاجزاً عن حملها، فكان لا بد أن يتآزر الفم بجميع مكوناته؛ بما فيها اللسان لحمل هذا العبء الثقيل ليخرجه مرةً أخرى.

ولك أن تتأمَّل -أيها المؤمن بربِّه- حجم هذه الشائعة التي هذا وصفها، وكم سيكون تأثيرها في الناس، وهذا الأمر من التلقي إلى الإخراج بهذا التصوير العجيب هو تجسيدٌ دقيق لواقع محبي الشَّر، ومتلقِّي السوء، وناقليه، فاحذر أن تكون منهم.

ولعلنا نكتفي بهذه اللَّمحات حول هذه القضية، لأترك الباقي لنظرك وتأمُّلك أيُّها المؤمن بربه، والله يحفظك ويرعاك.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئتان وثمانية

﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

حديثنا اليوم سيكون بمشيئة الله عن خُلُقٍ رفيع جاء واضحاً في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ [فُصِّلَت: ٣٤].

إنه خُلُقُ التجاوز، ومقابلة الإساءة بالإحسان في اختيارٍ واقتدار، ومن ذا الذي يسمو إلى هذه القِمم، ليحصل له شرف العمل بهدي هذا القرآن العظيم، في أمرٍ له مساسٌ كبير بعلاقاتنا، لذا قال سبحانه وتعالى بعد هذه الآية: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾ [فُصِّلَت: ٣٥]، وسنقف مع هذه الآية وقفات عدة، نستجدي بعض دلالاتها على هذا الخلق الراقي، الذي نتمنى أن يتخلَّق به الجميع، وذلك كما يأتي:

أولاً: نلحظ أن الآية بدأت بنفي الاستواء بين الحسنة والسيئة، وذلك لتقرير الاختلاف من أول الأمر بينهما، ومثل هذا الأسلوب غالباً ما يراد به تفضيل أحد المذكورين على مقابله، وهذا وإن كان معلوماً للناس؛ إلا أنه حسنٌ هنا، ليكون كالتوطئة والتمهيد للأمر بما سيأتي، مما لم تألفه النفوس من مقابلة السيئة والحسنة.

ثانياً: ذكر الحسنة والسيئة بالمصدر (حسنة) (سيئة) دون فاعلهما بأن يقال: المحسن والمسيء، وذلك لصرف الذهن إلى أن العناية هنا هي بنوع الخلق، أكثر من العناية بفاعله، إضافة إلى ما في دلالة المصدر من المبالغة العظيمة في تأويل شأن هاتين الصفتين،

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

حتى لكأنَّ كل فريقٍ مما يتصف بهما قد بلغ الغاية في جنس وصفه بالإحسان، أو بالإساءة، كقولنا: (فلان) عدلٌ بالمصدر، ونحن نريد فلانٌ عادلٌ.

ثالثاً: تكرار نفي التساوي بتكرار لا، مع أنها قد حذفت في غير هذا الموضع، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ [فَاطِر: ١٩]، وذلك لتأكيد التخالف بين الصفتين الذي أشرنا إليه سابقاً، وذلك بنفي كلٍّ منهما على حدة، كما أن تكرار (لا) قد أومأ إلى كلامٍ محذوف تقديره: ولا تستوي الحسنة والسيئة، ولا السيئة والحسنة، ولعلك تلحظ -أيها المؤمن بربه- كيف وفَّى النظم القرآني بهذا المعنى بأقصر عبارة وأبلغها وألطفها، فكان هذا الحذف هو البلاغة، فسبحان من هذا كلامه.

رابعاً: نلحظ من خلال كل ما سبق كيف تهيأت النفوس لتلقي هذا التوجيه الرباني العظيم، للاتصاف بهذا الخلق الرفيع، الذي ربما لم تألفه النفوس، فكأنه قيل: إذا كانت الحسنة في القمَّة، والسيئة في السَّفح، فلا تقارب بينهما، وإذا كانت الحسنة ممدوحةً كل هذا المدح، والسيئة مذمومة كل هذا الذَّم، فعليك -أيها المؤمن بربه- أن تختار العلوَّ والقمَّة، والممدوح لا المذموم، لذا جاء بعدها مباشرة أدفع بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وما أجمل هذا الأسلوب في غرس القيم، والدعوة إلى الفضائل، وما أكثر قبوله، وما أحسن تفاعل النفس معه، فهل يستفيد المربُّون من هذا الأسلوب؟

خامساً: قوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.. وإن كان المخاطب بها هو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أنه خلقٌ رفيع مطلوب من كل أفراد أمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنه يعدُّ من أعلى الكمالات البشرية، قال الله في وصف المؤمنين ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ [القَصَص: ٥٤]، وقد يكون في توجيه الخطاب إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أنه تربيةٌ للأمة كلها تسهيلٌ للتخلق بهذا الخلق الذي قد يصعب على النفوس، إذ إنه يتعارض مع طبيعة الانتقام وأخذ الحق عند الإنسان، فإذا حصل هذا الخلق من خير الخَلْق سهل على الأتباع فعله.

سادساً: نجد في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡفَعۡ ﴾ بفعل الأمر، من مادة (دفع)؛ ما يشعر بثقل هذا الأمر على النفوس، لأن المدفوع عادةً ما يكون ثقيلاً، وأصل مادة الدفع هي لتنحية الشيء، فكأنَّ المحسن ينحِّي السيئة ويزيلها عن طريقه أولاً، ومن نفس صاحبها ثانياً، بفعل الحسنة، وتقديمها إليه، وهذا الأمر شاقٌّ صعبٌ على النفوس، لذا ناسبه فعل الدفع.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذا الخلق: (وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقِّها عليها، ولا يوفَّق له إلا من عظم حظه من الله)[1].

سابعاً: قوله تعالى: ﴿ بِٱلَّتِي ﴾ فيه لطيفةٌ جميلة تتعلق بحرف الجر الباء، ولحروف الجر عموماً شأنٌ عظيم في كتاب الله، وأسرارٌ دقيقة لا بد من التنبُّه لها، ولعلنا نبين ذلك من خلال الحديث عن هذه (الباء).

إن الباء في أصل معناها تدل على المصاحبة والإلصاق، ولذلك عدِّي الفعل بها هنا، دون أن يقال مثلاً: ادفع التي هي أحسن، أي: أعطها، أو ادفع السيئة، بدون حرف جر، لما في الباء من الإشعار بأن الدفع لا بد أن يكون المصاحب له هو التي هي أحسن، فليس المطلوب أي دفع، بل المطلوب هو أن يكون بالتي هي أحسن، حتى كأنه لو خلا من هذا الأمر المذكور، أو صحبه شيءٌ آخر غيره، لم يؤدِّ هذا الدفع النتيجة المرجوَّة، ويؤيد هذا أن المدفوع به أمرٌ خاصٌّ محدَّد، كما يدل عليه التفضيل أحسنُ، والموصول على ما سيظهر بيانه إن شاء الله.

ولو كان المراد هو مجرد الدفع لقيل: ادفع السيئة، أي بأي دافعٍ كان، ومن ذلك مثلا الإعراض، أو الانصراف من الموقف، أو غير ذلك، لكن ما ههنا أعلى من ذلك وأجل، وهو مقابلة الإساءة بالإحسان.

(١) بدائع الفوائد: ٢/ ٤٦٨.

ثامناً: قوله تعالى: ﴿ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾.. نلحظ فيه كيف جاء التعبير عن الحسنة في الموصول (التي)، دون الوصف المباشر ﴿ ٱلۡحَسَنَةُ ﴾، بأن يقال: ادفع بالحسنة، وذلك لما في الموصول من دلالة أصالة الحسن المذكور، حتى لكأنَّ المدفوع به أمرٌ معروفٌ حُسنه للناس، إضافة لما في الموصول من إمكانية إجراء أوصافٍ مادحةٍ من خلال صلته، على أبلغ وجه وأتمّه، فأنت تلحظ أن قوله تعالى: ﴿ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ أعظم بياناً للمطلوب المرغوب من لو قيل: الحسنة، أو الأحسن، أو الحسنى.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئتان وتسعة

﴿ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

في قوله تعالى: ﴿ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [فُصِّلَت: ٣٤] تذكيرٌ بما سبق بالتفريق بين الحسنة والسيئة، وهذا هو الوجه التاسع إتماماً لما سبق، ونجد في ذلك أيضاً دعوةً إلى أن المطلوب هو الدفع بالحسنة، ولكنها صيغت هنا بالموصول والضمير هي، وأفعل التفضيل ﴿ أَحۡسَنُ ﴾ فقيل: ﴿ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ ترغيباً في دفع السيئة بها، وترقية للمتَّصف بهذا الخلق الجليل إلى سماء الفضائل والكمالات، ولا يدرك ذلك إلا من عايشه، فمن ذا الذي يصبر عن الانتقام للنفس؟ ثم من يجازي من أساء إليه بحسنة؟ ثم من يعتلي القمة في ذلك كله، فيتجاوز هذه الأمور كلَّها؛ فيجازي الإنسان الذي أساء إليه بالتي هي أحسن؟

إن الإنسان أحياناً وهو يستعرض مثل هذه المعاني الجليلة في كلام ربنا جلَّت قدرته ثم ينظر إلى الواقع؛ فقد يبدو في أول الأمر أنه يتحدث عن أحلامِ وَسْنان، أو خيالات شاعر، لكنها في حقيقة هذا الدين مبادئ حقيقية طبَّقها المأمور بها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنحن نعلم أنه آذاه قومه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وضربوه، وقاتلوه حتى أدمَوه، فجعل يسلت الدَّم عن وجهه في ذلك المقام العصيب ويقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[2].

تأمل معي -أيها المؤمن بربه- هي كلمات أربع قالها النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد جمعت مقامات الإحسان الأربع، في مقابل الإساءة العظمى له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قومه، تلك المقامات العظمى هي:

---

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

(٢) ابن حبان: (٩٧٣).

أولاً: العفو.

ثانياً: الاستغفار لهم.

ثالثاً: الاعتذار عنهم بأنهم لا يعلمون.

رابعاً: الاستعطاف بإضافتهم إليه، فقد قال: (قومي).

فَمَنْ ذا الذي يُطيق مثل هذا الخلق العظيم إلا العظماء؟ ومن الذي شحذ الهمة للسير على منوالهم، وفعل ما فعلوه؟

عاشراً: في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى﴾ نجد ما يدل على سرعة التأثير والتأثُّر، والتغيير والتغيُّر، بسبب هذا الخلق الكريم، وهذا واضح في (الفاء) فإذا، أما الفاء فهي للتفريع من جهة، والتعقيب من جهةٍ أخرى، فاتَّضح من ذلك أن هذا الأثر العظيم قد تفرَّع وتسبَّب عن الخلق العظيم السابق، وأنه قد حصل عقبه مباشرة، وهذا ما تؤيده فإذا الدالة على سرعة ظهور ذلك الدفع المذكور، لأنها تدل على المفاجأة، وذكر هذا الأثر، وعلى هذا الوجه من السرعة، عقب الأمر بفعل أمرٍ شاقٍّ على النفس وهو الدفع بالتي هي أحسن؛ لتسهيل التخلُّق بهذا الخلق النَّبيِّل، فهذا فوق ما ذكرناه سابقاً من التهيئة بذكر الفرق العظيم بين الحسنة والسيئة، وتوجيه الأمر بهذا الخلق الشاقِّ لشخصه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذاته، حتى يتبعه الناس في ذلك، لأنه القدوة، فوق ذلك كله هو سببٌ لحصول الصداقة والولاية، وهذا أمرٌ تميل إليه النفوس وتحبُّه، فيكون عاقبة هذا العمل، وبهذه السرعة حافزاً للصبر على قصر النفس عليه، وهذا أيضاً ملمحٌ مهم في قضية غرس القيم، وإقناع الناس بجدواها.

الحادي عشر: في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾ تعريفٌ بالموصول للعدو، وفي هذا العدول عن ذكر كلمة العدو، حيث لم يكن: فإذا العدو وليٌّ حميم، إلى الموصول كما في النظم الكريم ﴿ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾ لإجراء أوصافٍ كاشفةٍ لهذا العدو، ومن ذلك ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾، فهذه الجملة ليست في تصوير حجم العداوة مثل كلمة (العدو) المجردة، وأيضاً ذِكْر الموصول فيه ملمحٌ آخر؛ وهو أن يتحقق ورود كلمة عداوة منكرة بعده لتشمل كل صور العداوة المتوقعة، وهذا التركيب من أعلى صور البلاغة، لأنه يجمع أحوال العداوات، ويبين أن الإحسان ناجحٌ في اقتلاع العداوة من المحسَن إليه للمحسِن إذا تناسب حجم الإحسان مع حجم تلك العداوة.

الثاني عشر: في ذكر الظرف وتكرره في قوله جلَّت قدرته: ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ﴾ ما يشعر بحجم الهوَّة بين الاثنين التي لا يتوقع ردمها غالباً، إلا أن هذا السلوك الرفيع كفيلٌ بذلك، وذلك أنك لو تأمَّلت لوجدت أن الفارق والفاصل بين هذين المتخاصمين هو كلمة عداوة بينك وبينه، فالعادة في مثل هذه الحالة ألا يحصل توافق البتة، وفي الارتقاء بتصوير العداوة إلى هذا الحدِّ إقناعٌ بأثر الخُلُق في المسيء مهما بلغت إساءته.

الثالث عشر: في تنكير كلمة عداوة دلالة على شمول هذا الحلِّ العجيب لكل صور العداوات وأنواعها، مهما اختلفت مستوياتها، ضعفاً وقوة، وَمَن جرَّب ذلك عرف، لذلك كان في هذا التنكير دليلاً على عدم الاعتذار بشدة العداوة أو نوعيتها، فكل ذلك مشمولٌ بدلالة النكرة.

الرابع عشر: في التشبيه في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ دلالةٌ على نوع التغير الذي حصل، وقوة الأثر لذلك الخلق العظيم، فإنه لم يؤثِّر في تحجيم العداوة أو حجبها فحسب، بل أحلَّ محلَّها صداقة، وقَلَبها إلى حميميةٍ وولاية، كما تشير إلى ذلك أداة التشبيه كأنه المشعرة بشدة الشبه بين من كان عدواً؛ وأصبح الآن ولياً حميماً.

والتشبيه أقدر الأساليب لنقل صورةٍ مقنعةٍ للمتلقي لهذا التوجيه الشاق على النفس، فالإنسان يعرف معنى الوليِّ الحميم، ويشعر براحته معه، ونفعه له، فكان في تشبيه من كان عدواً به حفزٌ عظيم لسلوك هذا السبيل العظيم الموصل إلى تلك النتيجة المرغوبة عند الناس، ويزيد ذلك تحفيزاً ذكر هاتين الصفتين (الولاية) و(الحميمية)، اللتين تصوِّران عِظَم التحول في شخص ذلك الإنسان، حيث جمع بين النصرة والصداقة، وبين النفع والمحبة، وهما ما كان يفقدهما تماماً لما كان عدواً، بل كان يبارز بضدِّهما.

وقد يكون المراد هنا من ذكر هاتين الصفتين شمول ذلك لمن كان عدواً من الأقرباء والأرحام، أو من كان عدواً بعيداً منهم، فهو إما أن يكون من الأقربين، وإما أن يكون من الأبعدين، وفي ذلك بيانٌ لتأثير هذا الخلق العظيم في كل من كان عدواً، سواء كان من القرابة أو كان بعيداً عن الإنسان، فهل فكَّر أحدنا -أيها الكرام- في مثل هذا الخلق العظيم وتأثيره على سلوك الناس؟ وهل يمكن لنا أن نفكر مجدداً بأننا نستطيع رأب الصَّدع بين الناس، وإعادة العلاقات إلى مجاريها من قبل أنفسنا -نحن- بالتخلُّق بهذا الخلق الرفيع مع من أساء إلينا؟

أترك الإجابة لذهنك وفكرك أيها المؤمن بربه!

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس المئتان وعشرة
شررُ نار جهنم[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذه وقفات تدبُّرية مع آيةٍ قرآنيةٍ حول مشهد من مشاهد يوم القيامة، وتحديداً فيما يخصُّ الشرر المتطاير من نار جهنم، أعاذنا الله وإياكم منها، وذلك من خلال التأمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ [المُرْسَلَات: ٣٢ - ٣٣] جمعت هذه الكلمات ما يروِّع القلوب، ويخيف الأفئدة من خلال وصف شرر نار جهنم على النحو التالي:

أولاً: الضمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا﴾ عائدٌ إلى النار المدلول عليها بقوله تعالى: قبل هذه الآية: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المُرْسَلَات: ٣٠ - ٣١]، نلحظ هنا كيف سبق ذكر الظل المشعر بمعنى مضاد للنار، لكنه وُصِف بأنه غير ظليل، وغير مغنٍ من اللَّهب، وفي هذا إبطالٌ لخاصية الظل؛ فتلهَّفت النفوس لمعرفة ما الذي سيقبلون عليه، أو ما الذي غيَّر حالة الظل إلى الصورة الموصوفة إنها ترمى بشرر كالقصر؟! كما يقال لمن يساق للقتل: (إنه السيف)! وفي هذا من زيادة التَّرويع والتهويل ما لا يخفى، إضافة إلى ما في من التعليل الكافي للغرابة في تحول الظل عن حالته المعهودة إلى ما ذكر في الآية.

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي.

ثانياً: نجد هذا الخبر المفزع قد بُدئ بـ (إن) وذلك لتأكيده، والاهتمام بمضمونه، خصوصاً أنه وقع بعد ذكر ما يأملون نفعه وهو الظل، فكان نقل المتلقي إلى معنى مضادٍّ فوق ما فيه من الدهشة الصادمة له، يحتاج إلى تأكيدٍ وتثبيت كما جاء في النظم الكريم.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ تَرْمِي ﴾، نجد فيها ذكراً لمادة (الرمي) المصوِّرة لشدة استعار النار، فإنه من المعلوم أنه كلما زاد لهيبُ النار واشتعالها، تطاير شررها، كما أن مادة الرمي ذاتها توحي بالشدة والهول لما يلمح فيها من خاصية القصد.

رابعاً: في مجيء الفعل ﴿ تَرْمِي ﴾ بالمضارع دليلٌ على تجدُّد هذا الرمي واستمراريته كما يصور هذا الفعل الحركة الدائمة التي ترسم ذلك المشهد المخيف المهيب للهب تلك النار، فهي لا تتوقف عن ذلك الرمي.

خامساً: قوله تعالى: ﴿ بِشَرَرٍ ﴾ فيه بيانٌ لنوع الرمي، والملحوظ هو تعدية فعل ﴿ تَرْمِي ﴾ بالباء، مع أنه يتعدى دونها فيقال: ترمي شررا، ولكن في ذكر الباء إشعارٌ بمصاحبة الشرر للرمي، حتى لكأنه هو أداة الرمي، وذلك كقولك: رميت بالقوس، فهو الأداة بخلاف قولك: رميت القوس، وهذا يؤيد ملمحُ القصد في الرمي، وهذا ما يزيد الأمر هولاً وتخويفاً.

سادساً: في ذكر (الشرر) خصوصاً هنا مع أنه أدنى أجزاء النار تهويل لشأنها، فالشرر هو الأجزاء الدقيقة التي تتطاير من النار عند التهابها، فإذا كان بالأوصاف المذكورة فكيف يكون إذاً عظم وهول تلك النار التي هذا شررها.

سابعاً: في التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿ كَٱلْقَصْرِ ﴾، بيانٌ لحجم ذلك الشرر، وهنا تباينٌ عجيب، فالشرر لفظٌ يوحي بالتناهي في الصغر، والقَصْر لفظٌ موحٍ بالتناهي في الضخامة والكبر، فكيف شبِّه هذا بهذا؟

عند التأمُّل نجد الأداة الواردة في التشبيه هي (الكاف) وهي تشعر بالتشابه من بعض الوجوه، وهذا حقٌّ، وهو يتناسب مع التباين المذكور بين الطرفين، وحتى تُنقل الصورة كاملة لذلك الشرر المعهود فيه الصغر، جاء التشبيه المتعدد لنقل كلِّ أجزاء الصورة من حيث تعاظم حجم الشرر إلى الحدِّ المذكور.

ثامناً: في التشبيه بالقصر مراعاةٌ لجانب الضخامة والحجم، وذلك أن القصر لفظ يدل على البناء العظيم، أو هو الغليظ من الحطب أو هو أعناق الإبل، ولكن السياق يشير إلى إرادة تعظيم حجم الشرر المعروف في أصله بالصغر، وهذا يتناسب مع دلالة القصر على البناء العظيم، مع تباين عظمٍ في شأن القصر الدالِّ ذكره على الراحة والنعيم مع الشرر الموحي ذكره بالنار والعذاب.

تاسعاً: في التشبيه الثاني لاستكمال الصورة قال ﴿ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ وهنا جاءت الأداة (كأن) لبيان شدة الشبه بين المشبَّه والمشبَّه به، وذلك لأن المراد هنا هو اللون بعد بيان الحجم سابقاً؛ لأن الجمالة هي الإبل، وهي مما يعرفه أهل الوبر (البادية)، وبهذا تكون الصورة قد اكتملت في الحجم واللون، والحركة، والحجم بالتشبيه بالقَصْر، واللون بالجمالة الصفر، والحركة بها توحي به كلمة ﴿ تَرْمِى ﴾.

عاشراً: في تقييد الجمالة باللون ﴿ صُفْرٌ ﴾ تحديدٌ لوجه التشبيه وهو اللون، وفي النص على اللون الأصفر للشرارة دليلٌ على اشتعالها، لأنها في غالب أمرها تنطفئ فتكون سوداء رمادية، فذِكر اللون يدلُّ على اشتعالها، وهذا أبلغ في التهويل والتخويف، وقد يراد من ذكر الجمالة الحجم أيضاً، فيكون في ذلك مخاطبةٌ لأهل المدر بالقصر، ولأهل الوبر بالجمالة، هذا في شأن الحجم، وأما اللون فمدلول عليه باللون ﴿ صُفْرٌ ﴾.

وقد يكون في ذكر الجمالة، وفي قراءة ﴿ جِمَٰلَتٌ ﴾، ما يشعر بالتفرُّق والكثرة والحركة أيضاً، وفي ذكر القصر وما يوحي عِظَم الحجم فيه من دلالة الثقل مما يزيد الأمر تهويلاً وإخافةً؛ لما جمعه هذا الشرر من أوصاف الضخامة والثقل، والانتشار، والاشتعال والكثرة، نسأل الله الرحمة والعافية.. والسلام.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المحتويات

مقدمة ٥

المجلسُ الأوَّلُ: أفلا نتدبَّر القرآن! ٨

المجلسُ الثَّاني: القرآن من دلائل صدقِ النُّبوة ١٤

المجلسُ الثَّالثُ: من أسرارِ الاستعاذةِ ١٨

المجلس الرّابع: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٢٤

المجلس الخامس: عظمة الله في ضوء اسمه العليم ٢٩

المجلس السّادس: منهج السَّلف في تلقِّي القرآن وتدبُّره ٣٤

المجلسُ السَّابع: كيف نقرأُ سور القرآن؟ ٤٠

المجلس الثامن: بين فواتح الآيات وخواتمها ٤٤

المجلس التاسع: الطَّلاق الرَّاقي ٤٧

المجلس العاشر: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ ٥١

المجلس الحادي عشر: واستنارت حياتهم بالقرآن ٥٧

المجلس الثاني عشر: كيف نقرأ ونستمع لسّورة النساء؟ ٦١

المجلس الثالث عشر: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ٦٥

المجلس الرّابع عشر: من أسرار قراءة بعض السّور يوم الجمعة ٦٩

المجلس الخامس عشر: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ ٧٦

المجلس السّادس عشر: دلالة الاقتران وأثرها في التَّدبُّر ٧٩

المجلس السّابع عشر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ ٨٢

المجلس الثامن عشر: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ ٨٧

المجلس التَّاسع عشر: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ٩٢

المجلس العشرون: بصائر تدبُّريَّة من سورة القدر ١٠٠

المجلس الحادي والعشرون: مناجاة نبي ١٠٥

المجلس الثاني والعشرون: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ ١٠٩

المجلس الثالث والعشرون: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ ١١٤

المجلس الرّابع والعشرون: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ١١٧

المجلس الخامس والعشرون: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ ١٢٢

المجلس السّادس والعشرون: الحياء كما تصوِّره قصة موسى والمرأتين ١٢٧

المجلس السّابع والعشرون: ﴿هَٰرُونَ أَخِى﴾ ١٣٣

المجلس الثامن والعشرون: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ ١٣٧

المجلس التَّاسع والعشرون: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ١٤٢

المجلس الثلاثون: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ ١٤٧

المجلس الحادي والثلاثون: الفاتحة تجتثُّ شجرة التشبه ١٥٠

المجلس الثاني والثلاثون: من هدايات قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ﴾..... ١٥٣

المجلس الثالث والثلاثون: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾..... ١٥٦

المجلس الرابع والثلاثون: من أسرار قوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ ﴾..١٥٨

المجلس الخامس والثلاثون: من أسرار آية الكرسي ١٦٠

المجلس السادس والثلاثون: من هدايات خواتيم سورة البقرة ١٦٣

المجلس السابع والثلاثون: من هدايات قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ ... ١٦٦

المجلس الثامن والثلاثون: من فوائد قصة آدم وإبليس ١٦٩

المجلس التاسع والثلاثون: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾..... ١٧٢

المجلس الأربعون: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ ١٧٥

المجلس الحادي والأربعون: من فضائل الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ضوء قوله تعالى: ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ ﴾ ١٧٨

المجلس الثاني والأربعون: الواعظ العظيم في أول سورة هود ١٨١

المجلس الثالث والأربعون: من أسرار قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾..... ١٨٣

المجلس الرابع والأربعون: تلطَّف ولا تُدْهِن ١٨٦

المجلس الخامس والأربعون: من صور التضرع النبوي: (دعاء زكريا بالولد) ... ١٨٩

المجلس السادس والأربعون: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾..... ١٩٢

المجلس السابع والأربعون: أكل الحلال في ضوء قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ ... ١٩٤

المجلس الثامن والأربعون: تلقي الشَّائعات في ضوء قصَّة الإفك..... ١٩٧

المجلس التاسع والأربعون: الحوار في القرآن الكريم ٢٠٠

المجلس الخمسون: ﴿ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾..... ٢٠٣

المجلس الحادي والخمسون: من أسرار قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ ﴾.... ٢٠٧

المجلس الثاني والخمسون: وقفات مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ٢١١

المجلس الثالث والخمسون: من أسرار قوله تعالى: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾..... ٢١٤

المجلس الرابع والخمسون: ﴿ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ ٢١٧

المجلس الخامس والخمسون: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾ ٢٢١

المجلس السادس والخمسون: ﴿ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴾..... ٢٢٤

المجلس السابع والخمسون: شكر النعم في سورتي (الضحى) و(الشرح) ٢٢٧

المجلس الثامن والخمسون: أركان تربية القرآن ٢٣٠

المجلس التاسع والخمسون: من هدايات قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ ٢٣٣

المجلس الستون: موعظة من سورة التكاثر ٢٣٦

المجلس الحادي والستون: آية الكمال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ٢٣٩

المجلس الثاني والستون: علوم سورة البقرة..... ٢٤٢

المجلس الثالث والستون: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ ..٢٤٥

المجلس الرابع والستون: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ ٢٤٨

المجلس الخامس والستون: من فقه الأمثال القرآنية ٢٥١

المجلس السادس والستون: ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾..... ٢٥٤

المجلس السابع والستون: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ٢٥٧

المجلس الثامن والستون: ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ﴾..... ٢٦٠

المجلس التاسع والستون: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ ٢٦٣

المجلس السبعون: جنات وظلال لأهل الإيمان ٢٦٦

المجلس الحادي والسبعون: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾..... ٢٦٩

المجلس الثاني والسبعون: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ ٢٧٢

المجلس الثالث والسبعون: ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ﴾..... ٢٧٥

المجلس الرابع والسبعون: ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾ ٢٧٨

المجلس الخامس والسبعون: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ ﴾ ٢٨١

المجلس السادس والسبعون: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ ٢٨٤

المجلس السابع والسبعون: المبادرات في القرآن الكريم ٢٨٧

المجلس الثامن والسبعون: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ ٢٩٠

المجلس التاسع والسبعون: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾..... ٢٩٢

المجلس الثمانون: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ ﴾..... ٢٩٥

المجلس الحادي والثمانون: ﴿ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴾ ٢٩٨

المجلس الثاني والثمانون: ﴿ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾ ٣٠١

المجلس الثالث والثمانون: من ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ إلى ﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ ﴾ إلى ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾..٣٠٤

المجلس الرابع والثمانون: من فوائد قصّة داود وسليمان عليهما السلام في سورة ص ٣٠٧

المجلس الخامس والثمانون: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ﴾ ٣١٠

المجلس السادس والثمانون: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ ﴾ ٣١٣

المجلس السابع والثمانون: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴾..... ٣١٦

المجلس الثامن والثمانون: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ ٣١٩

المجلس التاسع والثمانون: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴾ ٣٢٢

المجلس التسعون: ﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾ ٣٢٥

المجلس الحادي والتسعون: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ٣٢٨

المجلس الثاني والتسعون: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ ٣٣٠

المجلس الثالث والتسعون: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ ٣٣٢

المجلس الرابع والتسعون: ي﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ ٣٣٤

المجلس الخامس والتسعون: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ٣٣٦

المجلس السادس والتسعون:﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾..... ٣٣٨

المجلس السابع والتسعون: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ ٣٤٠

المجلس الثامن والتسعون: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ ٣٤٢

المجلس التاسع والتسعون: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ ٣٤٤

المجلس المئة: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ ٣٤٦

المجلس المئة وواحد: ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ ٣٤٨

المجلس المئة واثنان: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ ٣٥٠

المجلس المئة وثلاثة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ ٣٥٢

المجلس المئة وأربعة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ ٣٥٤

المجلس المئة وخمسة: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ٣٥٦

المجلس المئة وستة: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ ٣٥٨

المجلس المئة وسبعة: ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ ٣٦٠
المجلس المئة وثمانية: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ٣٦٢
المجلس المئة وتسعة: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ٣٦٤
المجلس المئة وعشرة: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ ٣٦٦
المجلس المئة وأحد عشر: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ ٣٦٨
المجلس المئة واثنا عشر: ﴿ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ ٣٧٠
المجلس المئة وثلاثة عشر: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ ٣٧٢
المجلس المئة وأربعة عشر: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ ٣٧٤
المجلس المئة وخمسة عشر: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ ٣٧٦
المجلس المئة وستة عشر: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ٣٧٨
المجلس المئة وسبعة عشر: ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ ٣٨٠
المجلس المئة وثمانية عشر: ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ ٣٨٢
المجلس المئة وتسعة عشر: ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ٣٨٤
المجلس المئة وعشرون: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ٣٨٦
المجلس المئة وواحد وعشرون: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ ٣٨٨
المجلس المئة واثنان وعشرون: ﴿ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ ٣٩٠

المجلس المئة وثلاثة وعشرون: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ٣٩٢

المجلس المئة وأربعة وعشرون: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ ﴾ ٣٩٤

المجلس المئة وخمسة وعشرون: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾ ٣٩٦

المجلس المئة وستة وعشرون: ﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ ٣٩٨

المجلس المئة وسبعة وعشرون: ﴿ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾ ٤٠٠

المجلس المئة وثمانية وعشرون: ﴿ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا ﴾ ٤٠٢

المجلس المئة وتسعة وعشرون: ﴿ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ ٤٠٤

المجلس المئة وثلاثون: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ ٤٠٥

المجلس المئة وواحد وثلاثون: ﴿ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ ٤٠٧

المجلس المئة واثنان وثلاثون: ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا ﴾ ٤٠٩

المجلس المئة وثلاثة وثلاثون: ﴿ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا ﴾ ٤١١

المجلس المئة وأربعة وثلاثون: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ ٤١٣

المجلس المئة وخمسة وثلاثون: ﴿ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ٤١٥

المجلس المئة وستة وثلاثون: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ ﴾ ٤١٧

المجلس المئة وسبعة وثلاثون: ﴿ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ ﴾ ٤١٩

المجلس المئة وثمانية وثلاثون: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ ٤٢١

المجلس المئة وتسعة وثلاثون: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾..... ٤٢٣

المجلس المئة وأربعون: ﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾ ٤٢٥

المجلس المئة وواحد وأربعون: ﴿ ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ ﴾ ٤٢٧

المجلس المئة واثنان وأربعون: ﴿ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ ٤٢٩

المجلس المئة وثلاثة وأربعون: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ ﴾..... ٤٣١

المجلس المئة وأربعة وأربعون: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم ﴾ ٤٣٣

المجلس المئة وخمسة وأربعون: ﴿ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾ ٤٣٥

المجلس المئة وستة وأربعون: ﴿ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴾ ٤٣٧

المجلس المئة وسبعة وأربعون: ﴿ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ٤٣٩

المجلس المئة وثمانية وأربعون: ﴿ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ٤٤١

المجلس المئة وتسعة وأربعون: ﴿ قُرۡءَانًا عَجَبٗا ﴾ ٤٤٣

المجلس المئة وخمسون: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ ٤٤٥

المجلس المئة وواحد وخمسون: حق التلاوة: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ ٤٤٧

المجلس المئة واثنان وخمسون: نعم المكافأة: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ ٤٤٩

المجلس المئة وثلاثة وخمسون: وعيدٌ ووعد: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ .. ٤٥١

المجلس المئة وأربعة وخمسون: محراب: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ٤٥٣

المجلس المئة وخمسة وخمسون: شتَّان ما بين إرادةٍ وإرادة: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ ٤٥٥

المجلس المئة وستة وخمسون: الفتنة الكبرى: ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ ٤٥٧

المجلس المئة وسبعة وخمسون: لا يستويان: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ ٤٥٩

المجلس المئة وثمانية وخمسون: إيَّاك وبُنيَّات الطريق: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ ٤٦١

المجلس المئة وتسعة وخمسون: حصن المتقين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ ﴾ ٤٦٣

المجلس المئة وستون: عاقبة الشِّقاق والتَّنازع: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ ٤٦٥

المجلس المئة وواحد وستون: الفرحة الحقيقيَّة: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ ٤٦٧

المجلس المئة واثنان وستون: سنة دوام الأمم: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ ٤٦٩

المجلس المئة وثلاثة وستون: الكلمة الطيبة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ ٤٧١

المجلس المئة وأربعة وستون: طوبي للمحسنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ ٤٧٣

المجلس المئة وخمسة وستون: عفَّة اللِّسان: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ... ٤٧٥

المجلس المئة وستة وستون: تفخيم شأن: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ ... ٤٧٧

المجلس المئة وسبعة وستون: فلنعظِّم ما عظَّم الله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ ٤٧٩

المجلس المئة وثمانية وستون: السَّعادة في اتِّباع السُّنة: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ ٤٨١

المجلس المئة وتسعة وستون: طلب المعالي: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ٤٨٣

المجلس المئة وسبعون: الصَّلاة ميزانٌ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ ... ٤٨٥

المجلس المئة وواحد وسبعون: الإمامة في الدين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ .. ٤٨٧

المجلس المئة واثنان وسبعون: الأمَّة المرحومة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ ٤٨٩

المجلس المئة وثلاثة وسبعون: أهل الغلبة والتَّمكين: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ ... ٤٩١

المجلس المئة وأربعة وسبعون: الله خيرٌ حافظاً: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ ... ٤٩٣

المجلس المئة وخمسة وسبعون: أجدى الأصحاب: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ ٤٩٥

المجلس المئة وستة وسبعون: عماد التدبُّر: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ ﴾ ... ٤٩٧

المجلس المئة وسبعة وسبعون: فهل من متَّعظٍ معتبرٍ؟ ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ٤٩٩

المجلس المئة وثمانية وسبعون: مفتاح الفرج: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾ ٥٠١

المجلس المئة وتسعة وسبعون: كان خُلُقه القرآن: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾... ٥٠٣

المجلس المئة وثمانون: أشنعُ الجرأة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ .. ٥٠٥

المجلس المئة وواحد وثمانون: تيسير الصوم..... ٥٠٧

المجلس المئة واثنان وثمانون: تكامل الزوجين..... ٥١١

المجلس المئة وثلاثة وثمانون: الإنفاق..... ٥١٥

المجلس المئة وأربعة وثمانون: المحاجَّة ٥٢٢

المجلس المئة وخمسة وثمانون: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ ﴾ ٥٢٧

المجلس المئة وستة وثمانون: ﴿ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾ ٥٣١

المجلس المئة وسبعة وثمانون: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ ﴾ ٥٣٦

المجلس المئة وثمانية وثمانون: الضمان الإلهي من العذاب..... ٥٤٠

المجلس المئة وتسعة وثمانون: ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ ٥٤٥

المجلس المئة وتسعون: ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ٥٥٠

المجلس المئة وواحد وتسعون: نصر الله..... ٥٥٥

المجلس المئة واثنان وتسعون: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ ٥٦٠

المجلس المئة وثلاثة وتسعون: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾..... ٥٦٥

المجلس المئة وأربعة وتسعون: جرأةٌ في الباطل..... ٥٦٩

المجلس المئة وخمسة وتسعون: رد الباطل ٥٧٣

المجلس المئة وستة وتسعون: من مجالس النساء ٥٧٧

المجلس المئة وسبعة وتسعون: الحياة الطيبة ٥٨٢

المجلس المئة وثمانية وتسعون: الهمَّة في طلب العلم..... ٥٩١

المجلس المئة وتسعة وتسعون: صفات المربِّي ١-٢ ..... ٥٩٦

المجلس المئتان: صفات المربي ٢-٢..... ٦٠٠

المجلس المئتان وواحد: أدب التعلُّم ٦٠٥

المجلس المئتان واثنان: رحمة الأنبياء ٦٠٩

المجلس المئتان وثلاثة: أدب الإعذار ٦١٤

المجلس المئتان وأربعة: نفع الآخرين ٦١٩

المجلس المئتان وخمسة: صلاح الأبوين ٦٢٤

المجلس المئتان وستة: التأمُّل ٦٢٩

المجلس المئتان وسبعة: تلقي الشَّائعات ٦٣٣

المجلس المئتان وثمانية: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ ٦٣٧

المجلس المئتان وتسعة: ﴿ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ ٦٤١

المجلس المئتان وعشرة: شررُ نار جهنم ٦٤٥

فهرس المحتويات ٦٤٩

نبذة عن الكتاب

مجالس قرآنية متنوعة المضامين، بتنوع مواضيع القرآن الكريم، تُقدَّم بأسلوب علمي يعظّم مكانة القرآن في النفوس.

تركّز هذه المجالس على ما يمسّ عموم المسلمين في واقعهم المعاصر، سواء في مناسباتهم الشرعية، أو فيما يواجهونه من قضايا اجتماعية واقتصادية، وتسعى إلى معالجتها في ضوء هداية القرآن الكريم.

تهدف هذه المجالس إلى إفادة جميع فئات المجتمع، وتحفيزهم على تدبر كتاب الله، والعمل به، والقيام بحقوقه كما ينبغي.

مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة
isbn: 978-625-5521-69-9
9 786255 521699

22762 Doha,Qatar
+974 44181826
tadabborq@gmail.com